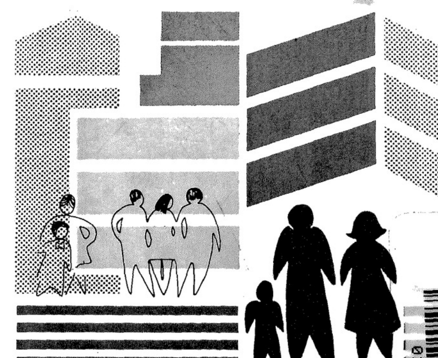
الدكتور مهنا حداد
قسم الاجتماع - جامعة اليرموك

مداخل إلى العلوم الاجتماعية





دار
مجدلاوي
للنشر والتوزيع

مداخل إلى

العلوم الاجتماعية

الدكتور مهنا حداد

قسم الاجتماع - جامعة اليرموك

دار

مجدلاوي

للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مهنا حداد

مداخل إلى العلوم الاجتماعية / مهنا حداد
- عمان: دار مجدلاوي، ١٩٩١.
٤٠٧ ص.
ر. أ (٤٨٥/٩/١٩٩١).
١. الاجتماع - علم أ. العنوان:

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار
مجدلاوي
للنشر والتوزيع
ص. ب.: ١٨١٩
هاتف: ٦٥٨٢١٨ - فاكس: ٦٢١٠٥٩
تلكس: ٢١١٤٥ ماربوت
عمان - الأردن

الإهـداء

إلى من عملوا معي في البحث

وتحمّلوا مزاجي الصعب

الآنسة نهاد شنيقات وزميلاتها

مع خالص احترامي
مهنّا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

هناك بعض الكتابات التي جاءت حصيلة رغبة الكاتب في كتابتها لسبب ما أو لأسباب عديدة ومختلفة ، وكثيراً ما تكون مثل هذه الكتابات شيقة . وهناك بعض الكتابات يشعر القارىء لها أن كاتبها لم يدعمها تمام الدعم وربما لا تعبر عن آراءه وشخصيته. هناك من يقول أن الكتابات العلمية والتدريسية حيادية ويجب أن تكون كذلك. ولكن مهما كانت المثاليات فلن يصل إليها الإنسان وخاصة في العلوم الاجتماعية أو الدراسات الإنسانية والاجتماعية، لأن شخصية الباحث موجودة ويشعر القارىء أنها توجه ما هو ما مكتوب باتجاه معين نجد منطلقه في ذات الكاتب. لو كانت نظرية الحيادية والموضوعية نظرية صادقة لأصبحت العلوم الإنسانية علوماً دون إنسانية وسوف تشبه إلى حد بعيد العلوم الطبيعية وهذا صحيح بناء على حقيقة بسيطة وهي أن هذه العلوم ليست نتاج أبحاث مخبرية تتكون من حقائق ثابتة تظهر كل منها في كل مرة لقاء التجربة المخبرية لها تحت الظروف الواحدة، حتى الموضوع المطروح في الدراسات الاجتماعية هو نتيجة اختيار بناء على أولويات وضعها الباحث نفسه وبحث له عن مبررات أو أجهد نفسه في البحث عنها. هذه الذاتية في اختيار الموضوع في حد ذاتها نقيض صارخ لما يدعى بالحيادية أو الموضوعية.

لم تك المادة المقدمة هنا حصيلة اختيار الكاتب الذاتي لكتابتها وجمعها وترجمة بعض مقولاتها، فقد كان عليه أن يدّرس المادة ولم يجد في اللغة العربية ما يفي بالغرض لتسهيل الدراسة على الطلاب. كذلك فإن طبيعة تكوين شعب المساق

ما بين حديثي العهد على الجامعة (طلاب الفصل الأول) والمتقدمين في الدراسة الجامعية (طلاب الفصول بين الفصل الثاني وفصل التخرج) قد لعبت دورها في تكوين مادة هذا الكتاب، المعضلة الحقيقية هي لماذا يدرس مثل هذا المساق لطلاب دائرة التربية الابتدائية أو التربية في حين أن جميع المداخل إلى الدراسات الاجتماعية مطروحة كل منها على إنفراد في كلية الآداب؟ هناك مساق مدخل إلى علم النفس، وعلم النفس الاجتماعي وعلم الإنسان الحضاري، وعلم الاجتماع، والسكان، والسياسة والتاريخ والاقتصاد، والثقافة الإسلامية. قد يكون مثل هذا المساق جيداً ومفيداً للصف الثالث الثانوي أو التوجيهي كما يدعي تمهيداً لهم في التعرف على العلوم الاجتماعية والإنسانية التي يمكن دراستها في الجامعات، أو أنه قد يكون كثير الفائدة للكليات المتوسطة، والمدارس الشاملة وغيرها. إلا أن هذا المساق موجود في الجامعة والمكتبة العربية فقيرة إلى كتاب جامع كهذا الكتاب وأرجو أن أكون قد وفقت في سد هذا العجز.

الإنسان والدراسات الاجتماعية:

تدور جميع الدراسات الاجتماعية والإنسانية حول الإنسان وتبحث في هذا الإنسان فهو حسب العلوم المختلفة إنسان تاريخي (Homo Historicus) وإنسان سياسي (Homo Politicus) وإنسان اجتماعي (Homo Sociologicus) وإنسان اقتصادي (Homo Economicus)، وإنسان حضاري وديني و... الخ. وإذا ما دلت هذه الأوصاف فإنها تدل على جوانب الإنسان المتعددة بحيث أن الإنسان يجمع هذه الأشياء في نفس الوقت. فالإنسان إنسان فقط في المجتمع الإنساني أي في رفقة الإنسان وهو اجتماعي بطبعه، وهذه الصفة الاجتماعية له لا تنفي عنه صفة الفردية، فهو نفس مفردة تعيش مع الآخرين وليس إلى جانبهم، وهذه النفس الإنسانية تريد أن تحقق ذاتها مع ومن خلال الإنسان. فالإنسان الفرد عضو في جماعات تتنوع وتتمايز مع فئته العمرية وجماعته السكنية (ابن، ابنة وأخ وأخت، أب، أم، زوج، زوجة، موظف وموظفة عضو وعضوة في ناد، وفي المدرسة

والجامعة وجماعة السكن، وطفل، ومراهق وبالغ وشيخ) (أو المفردات المؤنثة مقابل ذلك)، وكل جماعة تؤثر عليه وقد توجهه في اتجاه ما وتتأثر به بطريقة ما وإلى درجة ما، منها يتعلم وإياها يعلم، ومعها يفرح ويحزن ويصلي ويقوم بكثير من الواجبات. العلاقات بين الفرد وأفراد هذه الجماعات ندعوها علاقات اجتماعية بمعنى أن أحد أفراد الجماعة أو المجموعة كلها قد تقوم بفعل يثير فيه ردة فعل أو عكس ذلك.

لا يعيش الإنسان الفرد في ومع هذه الجماعات دون تنظيم يضع له حقوقاً ويرتب عليه واجبات. فكل جماعة تعرف نوعاً من التنظيم وتنظم نفسها بحيث أن الفرد فيها يفي بهذه الحقوق والواجبات وتراقب هي ذلك. مثل هذا التنظيم يعرف نوعاً من القيادة، أنّا كانت، الأب قائد والأم قائدة والأخ الأكبر، ومدير المدرسة، وشيخ القبيلة ورئيس الوزراء، والملك وجميع هذه أدوار أو سلوكات يتوقعها أفراد الجماعة. هذه القيادة تنظم علاقات أفراد الجماعة ببعضهم بعضاً وتراقب كل فرد بأنه يقوم بواجباته وتعطيه كذلك حقوقه التي رسمها التنظيم وتطبق على الأفراد القوانين، كما تقوم هذه القيادة بتمثيل المجموعة أمام مجموعات أخرى، وتفرض على الإنسان الفرد أن ينتمي إليها كما تراقب هذا الإنتماء وتقدم للفرد التسهيلات اللازمة كي يبرز هويته كعضو فيها. العلاقات في مثل هذا التنظيم ليست كعلاقة الفرد مع جاره، شخصية، وإنما هي علاقات رسمية لها حدود لا يتجاوزها الفرد وتعرف نوعاً من التدرج في السلطة التي يوزعها التنظيم حسب نمط معين. مثل هذه العلاقات المنظمة والخاضعة للرقابة من خلال تطبيق الجزاءات المصاغة ندعوها علاقات سياسية سواء كان هذا التنظيم من خلال قانون مكتوب أو من خلال العرف والعادة أو غيرها.

العلاقات الاجتماعية والسياسية السابق ذكرها تدور حول شيء أساسي في حياة كل إنسان من أفراد لجماعة أو الجماعات التي تعيش في بقعة جغرافية محددة يتمثل في إشباع الإنسان لحاجاته الأولية (الحصول على الغذاء، والمشرب، والملبس والمسكن والحنان)، والثانوية أيضاً ليكون قادراً على البقاء

في الحياة. يشبع الإنسان هذه الحاجات من خلال نظام علاقات معينة أشرنا إليها بمفهوم الحقوق والواجبات والتي تتمحور حوله وتنبع من هذه الحاجات. فمقابل كل حق هناك واجب ودون شيء مقابل تطلع الشمس وتغيب. هذه الحقوق والواجبات يستوفيها الإنسان من خلال القيام بأحد الأمرين: إما شيئاً مادياً أو خدمة. فواجب الأب تجاه العائلة مثلاً أن يقدم لأفرادها القوت والحماية والحنان ومقابل ذلك تعترف له بالسلطة والاحترام والعناية عند الهرم. وحق الابن أن يحصل على سبل إشباع حاجاته الأولية يقدمها له أبواه ومقابل ذلك يقدم هذا الابن مباشرة خدمات أولية حسب ما يطلب منه (الطاعة والاحترام وبعض الخدمات) وعندما يكبر يعتني هو بوالديه (الحياة تبادل سلع أو خدمات). ولكي يستطيع كل فرد إشباع هذه الحاجات لا بد من توزيع الموارد المتاحة وخلق السبل لاستثمار هذه الموارد (الانتاج) ولكي يقوم الإنسان باستغلال هذه الموارد واستثمارها عليه أن يخلق الوسائل الضرورية التي يستخدمها في الانتاج. هذه العملية المكونة من الموارد واستخدام الوسائل والانتاج وتوزيع الانتاج ندعوها الاقتصاد. وندعو العلاقات المتمحورة حولها العلاقات الاقتصادية وتتم جميعها ضمن نطاق معين من القواعد والقوانين ندعوها النظام الاقتصادي.

قد لا يعي الإنسان الفرد في الجماعة أو المجتمع كيف تعمل جميع هذه الأنظمة في المجتمع وأغلبية الأفراد لا تعي ذلك لأن جميع هذه العلاقات تحدث من خلال مجموعة من القيم والمعايير أضفى عليها المجتمع هالة من القدسية قلما يخضعها الإنسان للتساؤل الحر. وكثيراً ما تحدث هذه العلاقات من خلال عمل جمعي يبدو هدفه وكأنه خارج هذا العمل الجمعي وأن هذا العمل الجمعي موجه إلى قوة خارجة عنه. وكل شيء نقوم به يعرف نوعاً من الطقوس. إذا جاء أحد لزيارتك تقوم مرحباً وتكرمه بكلمات جميلة وتقدم له الطعام أو الشراب أو كليهما وتودعه بطريقة معينة. ويصمت الفرد في المحاضرة إذا تكلم المعلم، ويقدم الفرد هدية لصديقه الذي ينجح في الامتحانات ويحصل على شهادة، واحترام

الوالدين واجب نـريد جميعـاً أن نقوم بـه من أجل ذاتـه ومن أجل هـدف خارجـه (طاعة الله)، وهناك قيم كثيرة تكمن مثـاليتها في أنهـا خارج المجتمـع علماً بـأن الإنسان الفرد يتعلمها من المجتمع لكنه يتعلمها وكأنها أمر يتعلق بقوة روحية عليا يخضـع لها وتسيطر عليه ومن أجـل إرضائهـا يشارك في عمليـات جماعيـة مثـل الصلاة وغيرها. وتتكون في الجماعة أو المجتمع مؤسسات تقـوم بناء عليهـا مثل مكانة الإمام أو الكاهن، الجامع، أو الكنيسة، وغيرها وتقوم حـولها عـلاقات من نوع خاص ندعوها العلاقات الدينية، وقناعات ذاتية خاصة نـدعوهـا المعتقدات. وهذه جميعاً ندرجها تحت اسم الديانة، والدراسات التي تعني بهذا الإنسـان في علاقاته الدينية ندعوها الدراسات الدينية.

الجمـاعات الإنسـانية ذات العـلاقـات الاجتمـاعيـة والسيـاسيـة المستمـرة والمتمحورة حول نـظام اقتصادي ومجمـوعة من المعتقـدات في منطقـة جغرافيـة معينة في فترة زمنية ما نتاج لتطور تاريخي معين يرجـع إلى وقت بعيد أو قـريب، ولم توجد المؤسسات القائمة في هذا المجتمع مرة واحـدة بل تـطورت تدريجيـاً حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. فلكل جماعة ولكل أمة ماض خاص بها طورت خلاله نظمها ومعتقـداتها وقيمهـا ومؤسساتهـا الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسيـة والـدينية، ويمكن اعتبـار هذه المجتمعـات امتداداً طبيعيـاً وتاريخيـاً لمكـونـاتهـا السالفة، الدراسة التاريخية تعتني بهـذا الجانب للمجتمـع والإنسان. وإذا كـانت الدراسات التاريخية في المـاضي قد اقتصرت على سرد أحـداث القادة والعـظماء فقد أصبحت الدراسات الحديثة أكثر اتساعاً وأخـذت تهتم بتحليل بنيـة المجتمع وتعيـر اهتمامـاً للناس «مـا يدعى بـالتاريـخ الاجتماعي» ثم أصبحت تهتم بنـاحية أخرى وهي دراسة المـاضي لفهم الحاضر ومحاولة التنبوء بالمستقبل.

جميع ما يوجد في المجتمع نتاج للإنسان سواء كان هذا علاقات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو وسائل انتاج أو انتاج وكـذلك طـريقة الانتـاج، أو كانت هذه معتقدات وقيم وفن وقانون ومعايير وغيـرها نحصـرها جميعـاً في إطار واحـد

ندعوه حضـارة. والحضارة والإنسـان في علاقـة انتاجيـة متبادلـة، فالإنسـان نتاج للحضارة والحضارة نتاج للإنسان. الإنسان يـرث الحضارة جـزئياً ويضيف نتـاجه عليها ويورثها للأجيال اللاحقة، وهو نفسه نتاج للحضارة التي ينشأ فيهـا حيث أن سلوكاته جميعاً مكتسبة من الجماعة التي ينشأ بينها وهي هـذه العناصـر المكتسبة التي تضفي على الفـرد نوعيتـه الفريـدة وشخصيته الفـريدة. هـذه الحضـارة هي الثابت المنتقل خلال التاريخ من جيل إلى جيل يتغير ويكتمل ويتجدد.

الـدراسات الحضـارية (الأنثـروبولـوجيـا) تهتم بهـذا الـوجـه الكلي الـذي يحتضن المجتمـع والمجتمع يحتضنـه. والحقيقة هي أن هـذا الإطار الحضـاري يحتوي على الإنسان وما ينتجه.

في هـذه الحضارة يعيش الإنسـان في جماعـات في حين يحتفظ بفـرديتـه ويكـون له شخصيـة فإمـا أن يتكيف بـالمجتمـع أو لا يتكيف. وللتكيف أشكـال ولعدم التكيف أشكال ودوافعها وعواملها مختلفة فتكون أما بيولوجية أو نفسية أو أية اقترانات أخـرى. ندعـو تلك الدراسـات التي تهتم بالفـرد وتكيفه وعـدم تكيفه، والظواهر النفسية التي يمر بها في حياته، العلوم النفسيـة، أو علم النفس.

وسواء الفرد في الجماعة أو الجمـاعة فهي تعيش في محيط طبيعي تتكيف به وتستغل موارده، وتصنع هـذا المحيط الذي يؤثـر على اختيارهـا لطرق الحيـاة ويتأثر بها. في هذا المحيط نجد كثيراً من التقلبات تؤثر على الفرد مثل طبوغرافية الأرض والمنـاخ وتقلبات الفصـول والتي تؤثـر على نـوع الانتـاج الـذي يستعمله المجتمع وعلى طريقة الانتاج ومـا ينتج. هـذه الجوانب للحيـاة الإنسانيـة تشكل مدار اهتمام الدراسات الجغرافية والبيئية.

يولد الإنسان في هذه البيئـة الطبيعيـة التي يوجـد فيها المجتمـع والحضارة ويكتسب سلوكـه من هذه الحضـارة والمجتمع ليكـون قادراً على الحيـاة في هذه البيئة. ويتعلم الإنسان حسب نمط معين ابتدعته الحضارة لتنشيء الإنسان الـذي ترغـب في تكوينـه ووضعت أسسـاً مختلفـة بنت عليها هـذه العملية التعليميـة كما وضعت أهدافاً لهذا التعليم والتنشئة بحيث أصبـح التعليم نظامـاً يخدم المجتمـع

أياً كان بحيث أصبح هذا النظام وسيلة لتطور المجتمع ونشر الوعي بين أفراده. هذا الجانب الاكتسابي أو التعليمي للإنسان في المجتمع أصبح مجال دراسة التربية والتعليم.

هذه الدراسات المختلفة التي تتمحور حول الإنسان لها منهجياتها الخاصة التي تتشابه مع منهجية العلوم الطبيعية وتختلف عنها أيضاً. كذلك فإن هذه المنهجيات وطرق البحث المستعملة في الدراسات المختلفة تتنوع لتلائم أهداف البحث المختلفة. وقد تعرضنا إلى هذه المنهجيات والطرق في الفصل الأول من هذا الكتاب. وقد وضعنا ترتيب الكتاب بحيث أن انتقل تتابع الفصول من أصل الإنسان إلى الحضارة وتغيرها، وانتهي بالفصل الأخير الذي يتحدث عن الفلسفة أي أننا وضعنا الفصول بنوع خاص من الترتيب الذي تصورت أنه أوفى بفكرة معينة حول علاقة هذه الدراسات ببعضها بعضاً لتكون ذلك الكل المدعو الدراسات الاجتماعية. لقد قام بعض الزملاء بكتابة فصول كاملة، د. محمد الخوالدة (المدخل إلى التربية) ود. رجا بهلول (المدخل إلى الفلسفة)، وساعد آخرون بكتابة فصلين آخرين، د. أمين مهنا ود. عبد الله الطرزي.

تكرم علينا الدكتور أحمد ظاهر بإعطاء الفقرة رقم (١١) من الفصل العاشر حول الدولة الإسلامية وربما أكون قد تجنيت عليه في ذلك، لأني فصلت هذا الجزء عن جزء أكبر في الأنظمة السياسية ولكن «للضرورة أحكام»، فله مني جزيل الشكر كذلك فقد اقتبست الفقرتين (٧ و٨) من الفصل الثاني عشر من الأستاذ الدكتور لطفي عبد الوهاب في دوسية تدريسية «مدخل إلى التاريخ» فجزاه الله كل خير على هذا العون. والحقيقة أن أفكار الدكتور لطفي هذه من خيرة ما قرأت.

وعلى الله التوفيق

د. مهنا يوسف حداد

الفصل الأول

مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية

العلوم الاجتماعية مناهجها وطرقها

علينا أن نضع النظريات في أسهل صيغة
ممكنة وليس في صيغة معقدة

ألبرت اينشتاين

الدراسة العلمية للجماعات المنظمة تطور حديث، غير أن مجموعة كبيرة من المعلومات قد تراكمت بعد جمعها حول الحياة الاجتماعية للإنسان وبناء عليها صاغ العلماء عدداً كبيراً من النظريات حول طبيعة المجتمعات الإنسانية وقيامها بوظائفها. هذه النظريات مجملة ندعوها: **العلوم الاجتماعية**.

١ ـ الحقول الرئيسية للمعرفة:

المعرفة الإنسانية ككل:

١ ـ معرفة حول الإنسان نفسه بما في ذلك حضارته ونتاجه.

٢ ـ معرفة حول محيطه الطبيعي.

وقد تغيرت الحضارة الإنسانية وتراكمت تدريجياً منذ العصور الأولى للوجود الإنساني أي منذ الوقت الذي أصبح فيه الإنسان يعي طبيعته الإنسانية المميزة. وحتى وقت ليس ببعيد بقيت هذه المعرفة غير علمية في المعنى الحديث. فالمعرفة العلمية هي:

- المعرفة التي جمعت بطريقة مرتبة وتم تصنيفها وتوصيلها بالحقل الذي تنتمي إليه ووجد لها تفسيراً أو تفسيرات ما.

ففي القديم كان الإنسان يحصل على معرفة دون وعي منه وسابق تصميم بجمع هذه المعرفة تماماً كما نتعلم نحن الآن لغتنا الأم أو عناصر الحضارة التي ننتمي إليها، لأن الإنسان كان يقبل العالم كما هو. وإذا ما طرأت ظاهرة وكان الإنسان بحاجة إلى تفسير لها فإنه يخترع تفسيراً مبهماً غير طبيعي وغالباً ما يكون هذا التفسير روحياً وغير مادي، فبعض الشعوب البدائية كانت تعتقد أن لكل شيء روحاً أو أن كل شيء كالشجرة والصخرة والجدول يحتوي على روح توجه سلوكها.

أما في وقتنا الحاضر فإننا دائماً في بحث عن معرفة علمية، وقد قسمنا مجموعة المعرفة الإنسانية إلى عدد من الحقول أو المجالات أو الاختصاصات وكل علم يمثل مجموعة مرتبة من المعرفة ويدرس هذه المعلومات من خلال إحدى الحقول والمجالات.

ويمكن تصنيف المعرفة الإنسانية المرتبة على العموم إلى ثلاثة حقول:

١ - العلوم الاجتماعية.
٢ - العلوم الطبيعية.
٣ - الإنسانيات.

يقسم كل من هذه الحقول إلى عدد من العلوم المتخصصة أو الأنظمة المعرفية.

فالعلوم الاجتماعية هي حقل المعرفة الإنسانية الذي يهتم بحياة الإنسان الجماعية أو حياة الإنسان في الجماعة.

وتهتم العلوم الطبيعية بالمحيط الطبيعي للإنسان أو بيئته الطبيعية وتشمل على علوم مثل الفيزياء والكيمياء التي تهتم بقوانين المادة والحركة والحيز والكتلة والطاقة، وتحتوي أيضاً على العلوم الإحيائية التي تهتم بالكائنات الحية.

أما الإنسانيات فلها علاقة قوية بالعلوم الاجتماعية من خلال الاشتراك معها في أنها تهتم بالإنسان وحضارته. وعلى كل حال فالعلوم الاجتماعية هي أكثر العلوم اهتماماً بالعناصر الحضارية الأساسية التي تحدد الأنماط العامة للسلوك الإنساني فيما تهتم الإنسانيات بالجوانب الخاصة للحضارة الإنسانية. فهي تهتم مبدئياً بمحاولات الإنسان في التعبير عن قيمه الروحية والجمالية من خلال الأدب والموسيقى والفن وبمحاولته اكتشاف معنى الحياة من خلال الدين والفلسفة.

نعطي هنا نبذة عن كل هذه العلوم لنعود إليها بالتفصيل فيما بعد.

يصطدم الكتّاب اليوم بمشكلة رئيسية. تحتوي اللغة على كلمات مبهمة يمكن أن تفسر بأنها تميز ضد المرأة. فنحن نستعمل كلمة «إنسان» لنصف جميع أفراد الإنسان وكذلك لنصف مجموعة خاصة من الكائنات البشرية. كذلك فنحن نستعمل بدلاً من كلمة «إنسان» الضمير الغائب «هو» عندما نشير إلى كل الناس.

يمكننا تفادي هذا التمييز من خلال كتابة «هو» أو «هي» بدلاً من «هو» أو «رجال» أو «نساء» أو «بشر» بدلاً من «إنسان». غير أن استعمالاتنا أصبحت شائعة بحيث يصعب تغيير ذلك.

إذا وجدت نفسك تعارض الاستعمال العام كونه يميز ضد المرأة فجرب كم يأخذ منك حل اللغز الآتي: في حادث سيارات كان والد وولده في أحدها وقتل الأب. وعندما أحضر الابن إلى المستشفى قال الطبيب المناوب: «لا أستطيع علاجه فهو ابني» كيف يمكن ذلك؟

إذا لم تبدو لك هذه أحجية تجيب عليها فلا تهتم كثيراً للصياغة. وإذا كانت كذلك فكل مرة تجد كلمة إنسان فكر بالإنسان «رجل وامرأة» وليس مذكراً حتى لا يصبح الاستعمال أحجية بعد.

٢ ـ العلوم الاجتماعية:

ربما كانت العلوم الاجتماعية أهم العلوم للإنسان. ولكي نفهم المجتمع

علينا أن لا نتعلم فقط ما هي الشروط والأحوال التي تحـدد حياتنـا ولكن أيضاً أن نتعرف علـى الإمكانات المفتوحـة أمامنا لتحسين ما دعـاه بعض الكتاب «الأحـوال الإنسـانية». وربمـا كانت زيـادة معرفتنـا حـول المجتمـع الإنسـاني على المـدى الطويل أهم بكثيـر من أن نتعلم المزيـد حول الـرياضيـات والفيزيـاء والكيمياء أو الهندسة لأننا إن لم نك قادرين على تطويـر المجتمعات التي يعيش فيهـا الإنسان لكي يكون قادراً على الحياة سعيداً ويعيش قنوعاً في حياة ذي معنى فلا فائدة من أن نتعلم كيف نصمم السيـارات ونبني البنـايـات الشـامخـة أو كيف نسـافـر إلى الفضـاء أو أن نصمم حاسـوبات أجـود. وقد لخص لنـا ألبرت اينشتـاين هذا في الجملة التالية:

«السياسة أصعب من الفيزياء وقد يفني المجتمع نتيجـة لسياسـة رديئة قبـل أن يفنى نتيجة لعلم فيزياء رديء».

وبما أن جميع مراحل الحضارة الإنسانيـة تعتمد على ومتـداخلة في بعضها بعضاً فعلينا أن نتعرف على جميع جوانب المجتمع الرئيسية إذا ما أردنا أن نصـل إلى فهم حقيقي للحضارة الإنسانية. وإذا ما ركـزنا على بعض الجـوانب وأهملنا جوانب أخرى فمن المتأكد أننا سوف نصـل إلى صورة نـاقصة ومشـوهة. ولسـوء الحظ فإن العلوم الاجتماعية في وقتنا الحـاضر واسعـة ومتشعبة بحيث أصبـح من الصعب على الطالب أن يأمـل في السيطرة عليهـا جميعاً. وعلى الـرغم من ذلك فمن المهم أن يبدأ الإنسان مبكـراً في تحصيل مفهـوم ناجـح للمجتمع الحـديث ككل. ولكي يتأكد الطالب من بعض إدراكه للمجتمع فعليه أن يركز اهتمامه على إحدى أو بعض المراحل العديـدة والمختلفة من الحيـاة الإنسانيـة. ولهذا السبب تطورت العلوم الاجتماعية المتخصصة بحيث أن كـلاً منها أختص بجـانب محدد للسلوك الإنساني. وعلى الرغم من مساويء هذه التجزئة إلا أن لهـا فائـدة كبرى من حيث توزيع العمل الذي جعل هذه التجـزئة ضـرورياً، ولـولا ذلك لكـان من الصعب الاستمرار في توسيع معرفتنا عن المجتمع وعن القوانين أو الأنظمـة التي تتحكم به.

دعنا نلقي نظرة خاطفة على كل من الأجزاء الرئيسية للعلوم الاجتماعية.

أ ـ التاريخ :

التاريخ هو دراسة تطور المجتمعات الإنسانية في الماضي وبخاصة الحقب الزمنية التي ظهرت فيها المعلومات المدونة التي أصبح الحصول عليها ممكناً. والتاريخ من العلوم الاجتماعية بمعنى أنه يمثل محاولة مرتبة ومنتظمة لتعلم الحوادث الماضية وإثباتها، كي يربط بينها ويصلها بحوادث الحاضر ومن خلال ذلك لاكتشاف تأثيرها على تشكيل حضارتنا.

ولكي نفهم أية حالة اجتماعية علينا أن نعرف كيف نشأت. ولا نستطيع أن نفهم الحاضر إذا لم نفهم الماضي. وعلى كل حال فإن التاريخ غير قادر على إعطاء تفسير كامل للطريقة التي تطور فيها الحاضر من الماضي، كما أنه لا يقدر على التنبؤ عن المستقبل بكل تأكيد. فلا توجد أنظمة أو قوانين ثابتة للتطور التاريخي مما يجعل مثل هذا التنبؤ ممكناً.

وكثيراً ما نقول أن التاريخ يعيد نفسه. وكل ما نعنيه بذلك هو أن لأحداث معينة بعض المميزات التي تشبه مميزات أحداث الماضي. وقد سبق للعالم (Frank Knight) أن عرف التاريخ بأنه «الجوانب غير المتكررة للتجربة الإنسانية». التاريخ الذي يعيد نفسه ليس تاريخاً. فليس من التاريخ بشيء أن تطلع الشمس كل صباح لأن طلوعها يحدث بانتظام وحسب نمط يمكن قياسه بكل دقة.

وعلى الرغم من أن التاريخ لا يساعدنا على التنبؤ بالمستقبل إلا أنه يساعدنا على اكتشاف بعض الجوانب في تطور المجتمعات الإنسانية. فإحدى الجوانب أو الظواهر التي عملت خلال القرنين الماضيين هي انتشار الصناعة. وبما أن هذه الظاهرة قد استمرت طيلة هذه المدة فإننا نقدر أن نقول أن هذا الانتشار سوف يطول بعض الوقت ويستمر. وعلى كل حال علينا أن نتذكر دائماً أن بعض جوانب المجتمع قد تتغير بسرعة عجيبة.

ب ـ الجغرافيا:

الجغرافيا هي دراسة البيئة الطبيعية للإنسان وكيف تؤثر هذه البيئة على تطور هذا الإنسان سواء اجتماعياً أو حضارياً. وقد اهتمت الجغرافيا أصلاً بالخرائط وصنعها ولكنها تطورت لتحتوي على عدد كبير من المسائل، وأصبح الجغرافيون يهتمون بالأنماط الحيزية وعلاقاتها بالسكان وبالنشاط الاقتصادي والوحدات السياسية. فعلماء الجغرافيا لا يحاولون فقط رسم خرائط التقسيمات الجغرافية والسياسية بل يحاولون أن يفسروها كذلك. فالتطور السياسي والاقتصادي في أمريكا يختلف عن مثيله في أوروبا وأفريقيا ويعود السبب في ذلك إلى حد بعيد لأنها تنفصل عن أوروبا وأفريقيا من خلال المحيط الأطلسي. وعلماء الجغرافيا يفسرون ليس فقط لماذا هذا الاختلاف بل أيضاً سبب هذا الانفصال والتطورات المختلفة.

ويقول لنا هنتنجتون الجغرافي الأمريكي بأن مقدرة الشعوب على العمل الجسمي والتطور الفكري يحددها المناخ إلى درجة بعيدة. فالأجواء الباردة ترغم الإنسان أن يقدم جهداً أكبر للعمل لكي يبقى على قيد الحياة ويفسر لنا ذلك لماذا حدث التطور أكثر ما يكون في النصف الشمالي من الكرة الأرضية (وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت حضارات في المناخات الحارة. وحتى دون التكنولوجيا الحديثة فقد بقي سكان المناطق الباردة على قيد الحياة). طابع آخر من الجغرافيا هو مراقبة التقسيمات الحضارية والسياسية في بلد ما واكتشاف الكيفية التي أثرت بها التغيرات الماضية عليها وكيف أنها سوف تتأثر بالتغيرات المستقبلية.

ولأن مجال الجغرافيا واسع جداً فقد أنقسم إلى عدة تخصصات. وما على الإنسان إلا أن يعتبر كيف تؤثر عوامل المناخ، والمكان، والحصول على ماء والنقل على حياتنا ليدرك الأهمية القصوى للجغرافيا.

جـ ـ الاقتصاد:

الاقتصاد هو دراسة الطريقة التي أو الطرق التي يستعملها الإنسان للحصول على قوته، وإذا ما أضفنا تعريفاً دقيقاً لعلم الاقتصاد فهو دراسة التنظيم

الاجتماعي الذي يستخدمه الإنسان ليشبع حاجاته بالسلع والخدمات ونستعمل هنا مفاهيم السلع والخدمات لتشير إلى الأشياء التي نحصل عليها مقابل النقود في العالم الحديث.

وكما نعرف فإن للإنسان حاجات كثيرة إلا أنه لا يشبعها جميعاً. فلا الأشياء التي نحتاجها ولا الموارد الطبيعية التي نصنعها منها متوفرة بشكل وبكميات كافية لتشبع رغباتنا. والنتيجة هي أن علينا أن نقتصد. وعملية الاقتصاد مشكلة مهمة جداً فالاقتصاد هو عمل ما في وسعنا لاستخدام الموارد القليلة لإشباع أكثر ما يكون من حاجاتنا اللامتناهية. وتظهر أهمية الاقتصاد كأحد العلوم الاجتماعية في الحقيقة بأن إشباع الحاجات أهم مشكلة تواجهها الإنسانية. فأغلبية الشعوب الإنسانية تقضي وقتها في السعي للحصول على قوتها اليومي.

د ـ العلوم السياسية:

تهتم العلوم السياسية بما يدعى حكومة. وتحتوي كلمة حكومة في معناها الواسع جميع الترتيبات الاجتماعية للحفاظ على السلام والنظام في مجتمع ما وللضغط على الأفراد ليلتزموا بالأنماط الاجتماعية والقيام بالعمل الجماعي من أجل المصلحة العامة مثل تكوين وتنظيم الجيش وإنشاء الطرق أو للحفاظ على المصادر الطبيعية. وتتركز السلطة السياسية في المجتمع الحديث في مؤسسة تدعى الدولة أو بعض الأحيان «الدولة الوطنية»، والدولة هي المرحلة الخاصة التي يختارها علماء السياسة لغرض البحث.

والاهتمامات الرئيسية لعلماء السياسة هي التالية:

١ ـ السياسة أو الصراع حول القوة بين الذين يبحثون عن السيطرة على الدولة.

٢ ـ القوانين والطرق التي توجد وتفسر من خلالها.

٣ ـ الادارة أو المنظمة التي توجد من أجل تطبيق القوانين وتنفيذ السياسات العامة.

٤ ـ النظريات السياسية حول طبيعة ووظائف الدولة.

٥ ـ العلاقات الدولية أو الطرق التي تستعملها الحكومات المستقلة في التعامل مع بعضها بعضاً في الجمعية العالمية للأمم.

٣ ـ العلوم الإنسانية:

تدعى الأنثروبولوجيا والاجتماع وعلم النفس العلوم الإنسانية بسبب علاقاتها الوثيقة ببعضها بعضاً وتدرج تحت هذا الاسم «العلوم الإنسانية» أو العلوم السلوكية وسوف نتعرض هنا لكل منها باختصار.

أ ـ الأنثروبولوجيا: تدعى الأنثروبولوجيا بعض الأحيان علم الإنسان وهي أوسع العلوم الاجتماعية وتهتم بالآتي:

١ ـ تجميع الجوانب لسلوك الإنسان في الجماعة ومقارنة السلوك الإنساني بسلوك الفقريات القريبة من الإنسان، القردة والسعادين.

٢ ـ ببقايا الإنسان التي تكتشف مع الحفريات الأثرية للبرهان على التطور الإنساني والتطور الإحيائي.

٣ ـ تأثير البيئة الطبيعية على الخصائص الطبيعية للإنسان: الاختلافات في الأجناس، وراثة السمات الفيزيائية، والوراثات السكانية وندعو العلم الذي يهتم بهذه الجوانب علم الإنسان الفيزيائي.

ولذلك نقدر على تقسيم الأنثروبولوجيا إلى حقلين: الأنثروبولوجيا الحضارية، والأنثروبولوجيا الفيزيائية أو الإحيائية، وهما على علاقة وثيقة ببعضهما بعضاً لأنهما تحاولان وضع العلاقة بين الخصائص البيولوجية والخصائص الاجتماعية المكتسبة.

وقد اهتمت الأنثروبولوجيا الحضارية وحتى وقت ليس ببعيد بالحضارات القبلية البدائية نسبياً ولكنها بدأت الآن تعير اهتمامها إلى الأنماط الحضارية

الحديثة. وهنا تبدو أيضاً العلاقة واضحة لأننا من خلال مقارنة مجتمعاتنا الحالية مع المجتمعات القديمة نستطيع أن نزيد فهمنا لمجتمعاتنا الحالية. وتساعدنا دراسة المجتمعات الأخرى بأن ننظر إلى مجتمعاتنا بعين أكثر تجرداً وأن نعي خصائصها الذاتية وأن ننظر إلى مشاكلنا نظرة مستقبلية.

ب ـ علم الاجتماع:

ليس من السهل تعريف حقل علم الاجتماع. وكما وضعتها أحد الكتب فإن علم الاجتماع يطمح في أوسع محاولاته لأن يهيمن على العلوم الاجتماعية ككل. وعلى كل حال فإن علم الاجتماع يبدو حقلاً واسعاً وأقل تحديداً من العلوم الاقتصادية أو السياسية. ويتفادى علم الاجتماع التركيز على العلاقات الاقتصادية أو السياسية. وهناك درجة من التكامل بين علم الاجتماع وعلم الإنسان غير أن علماء الاجتماع يؤكدون على العلاقات الاجتماعية في الوقت الحاضر أكثر مما يفعل الأنثروبولوجيون. فهم يدرسون المؤسسات الاجتماعية ويحاولون اكتشاف العوامل التي تحدد التنظيم الاجتماعي والسلوك. وأكثر ما يهتم به علم الاجتماع هو دراسة التفاعل الاجتماعي:

١ ـ بين الأفراد.
٢ ـ بين الفرد والجماعات.
٣ ـ بين الجماعات مع بعضها بعضاً.

ومن بين مواضيعهم تطور الشخصية، الطبقات الاجتماعية، العلاقات بين الأجناس البشرية أو بين الفئات العمرية المختلفة، تنظيم المجتمعات المحلية، الزواج والعائلة، الجريمة، وبنية ووظيفة الأصناف المختلفة للجماعات الاجتماعية الصغيرة.

جـ ـ علم النفس وعلم النفس الاجتماعي:

يهتم علم النفس بشكل رئيسي في نفسية الفرد وشخصيته، وبما أن الإنسان كائن اجتماعي وتتعلق ردود فعله بالمحيط الذي يعيش فيه والذي يشكل

شخصيته فعلم النفس من العلوم الاجتماعية، وهو علم النفس الذي يربط الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع. وعلم النفس الاجتماعي هو نقطة الإلتقاء بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس. وهو دراسة التطور الاجتماعي للفرد والتفاعل بين الفرد والجماعة. ويركز علم النفس الاجتماعي على السلوك الفردي كما يؤثر على ويتأثر بسلوك الآخرين.

وكما ترون، هناك متنوعات كثيرة من حقول التخصص وسوف يحتاج الفرد جميع وقته ليفهم هذه الأفرع جميعاً. سوف نركز هنا على المسائل المحورية وعلى العلاقات بين العلوم الاجتماعية لنوفر للطالب الفهم الأولي كي يتابع فهم هذه العلوم من خلال التخصص أو جهوده الفردية في حياته.

٤ ـ المنهج العلمي وتطبيقه:

تراكمت المعرفة في الحاضر بشكل غير معقول إذا ما قورن هذا التراكم في الحاضر مع التراكم في الماضي. وربما كان أهم سبب هو تطور العلم الحديث والمنهج العلمي في البحث عن الحقيقة.

أ ـ الأحوال الملائمة للبحث العلمي:

قبل أن نبدأ بترتيب الخطوات الأساسية في المعرفة علينا أن نلاحظ أن جمع المعلومات ممكن فقط في مجتمع تطورت فيه مواقف معينة ودرجة من التسامح والتحمل. ولكي ينجح البحث العلمي فإنه يتطلب من الباحث ليس الذكاء فقط إنما أيضاً مواقف نفسية معينة. أحد هذه المواقف النفسية هي **الفضولية** التي تدعو الإنسان لوضع سؤالين «ماذا وكيف؟». وثانيها هو **الشك** في التفاسير السابقة. فإذا ما قبلنا التفسيرات الماضية حول لماذا وكيف فإننا سوف نكتفي إذا لم نطرح أسئلة، وإذا ما أظهرت التفسيرات الماضية فعاليتها بعد مراجعتها فإن فضوليتنا تبقى مشبعة. ولكن التفسيرات الماضية تبدو غير مقبولة في بعض الأحيان وهنا تظهر مشكلة الموضوعية التي تدخل إلى الصورة. والباحث الموضوعي يختار للحقيقة دون تحيز وسوف يعمل جاهداً كي لا يسمح لأحكامه

المسبقة أو إداناته العاطفية أو لرغباته بأن تلون الحقائق التي يراقبها أو أن تؤثر على تفسيراته لهذه الحقائق. وعندما تجتمع هذه المواقف الثلاث الفضولية والشك والموضوعية يمكن عندها للبحث الاجتماعي أن يحدث.

والعقبات لتطور المنهج البحث العلمي في المجتمعات القبلية البدائية كبيرة جداً. فهذه المجتمعات تحكمها العادات والتقاليد أكثر من المجتمعات الحديثة. والناس في المجتمعات القديمة يجدون أن الطريقة التي تستخدم لفعل الأشياء هي الطريقة الصحيحة وأي تكريس يشذ عن ما هو متبع في هذه المجتمعات يعتبر خطراً ويجب أن يلقى عقاباً قاسياً.

وعلى الرغم من أننا لا نقدر أن نصف أوروبا في العصور الوسطى بأنها كانت في مرحلة ما قبل الكتابة إلا أن احترام التقليد والسلطات القديمة والتعاليم الدينية كان قوياً بحيث كان من الصعب على الروح العلمية أن تنمو. وكان على الحركة العلمية أن تنتظر حتى الحروب الصليبية. والغريب هو أن الحركة العلمية قد بدأت بالتدهور السريع في الشرق العربي بعد الحروب الصليبية وهي الفترة التي تدعوها في أوروبا بعصر النهضة. فقد أدت رحلات الاكتشاف وحركة الإصلاح والتطور التاريخي إلى إضعاف قبضة التقليد. وحتى في بداية القرن السابع عشر فقد حكمت الكنيسة على جاليلو عالم الفلك بالسجن لأنه خالف الكنيسة الرأي وقال أن الأرض تدور حول الشمس. ولا غرابة في ذلك إذا ما عرفنا أن جون سكوبس معلم المدرسة في تنسي قد قدم للمحاكمة لأنه كان يدرس نظرية التطور للطلاب في بداية القرن العشرين (١٩٢٥).

ب ـ طبيعة المنهج العلمي:

يرتكز العلم الحديث على الفرضية بأن هذا العالم عالم منظم ويحكمه قانون السبب والأثر. وأي مجموعة من نفس الأحوال تعطي دائماً نفس النتيجة. وإذا ما بدت بعض الأحوال وكأنها متشابهة وأعطت نتائج مختلفة فإنها غير متشابهة لأنه لا بد أن تكون هذه الاختلافات قد أهملت وعلى الأبحاث التي تتلو أن تكتشف هذا الاختلاف.

ولكي نوضح طبيعة المنهج العلمي توضيحاً جلياً دعنا نضع الخطوات الرئيسية للبحث العلمي بالترتيب. وقد يكون هذا الترتيب مفيداً إلا أنه إرادياً إلى درجة ما لأن هذه الخطوات لا تتبع بعضها بعضاً بهذه الفترات الزمنية الجامدة كما يوهم الترتيب. وسوف يجد الباحث نفسه في بعض الأحيان مكرهاً على أن يعود من خطوة متأخرة إلى خطوة سالفة في بحثه لكي يجد معلومات إضافية أو لكي يصلح خطأ. أما لنوفي بالغرض الحاضر فدعنا نفترض أن الخطوات السبع التالية متطلبة لتطوير وتأسيس نظرية علمية جديدة:

١ ـ الملاحظة، تتعلق جميع المعرفة العلمية بالبيئة الطبيعية أو الاجتماعية، وتبدأ جميع المعرفة بتجميع الحقائق الثابتة من خلال الملاحظة الدقيقة. وعلى كل حال فلا داعي أن تكون الحقائق التي تشكل بداية البحث العلمي قد جمعت بالترتيب أو لهدف مستقبلي معين.

٢ ـ صياغة مشكلة للبحث، تبدأ فضولية الباحث في السؤال عن الأسباب التي أدت إلى الظواهر التي اكتشفها في العالم حوله. وربما يلاحظ أن بعض الحقائق التي كان قد جمعها قد ترتبط بطريقة خاصة لا يمكن لها أن تكون بكليتها عن طريق الصدفة. وتصبح مشكلته اكتشاف نمط العلاقة بين هذه الحقائق وأسباب هذا النمط.

٣ ـ جمع وتصنيف حقائق إضافية.

٤ ـ تعميم. سوف يحاول الباحث الذي جمع وصنف كمية كبيرة من المعلومات التي تتعلق بمشكلته أن يكتشف علاقات متشابهة بين هذه المعلومات، وهي علاقات يحاول أن يصوغها على شكل قوانين علمية. فعلى سبيل المثال دعنا نفترض أنه قام بتجربة على عدد مختلف من الغازات من خلال تطبيق الضغط المتزايد بينما حافظ على درجة حرارة ثابتة. فإذا ما تقلص حجم الغاز إلى النصف كلما ضاعف الضغط فسوف يكون قادراً أن يصوغ ذلك على شكل قانون علمي بأن حجم الغاز يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط.

وهذا هو المبدأ المعروف بقانون «بويل».

٥ ـ صياغة فرضية. الخطوة الخامسة هي البحث عن نظرية لتفسر القانون الذي اكتشفه الباحث. النظرية المؤقتة تدعى فرضية.

٦ ـ تجريب الفرضيات. الخطوة السادسة هي تجريب الفرضية من خلال البحث عن معلومات جديدة ـ سواء عن طريق التجربة أو غيرها ـ تلائم الغرض. فإذا ما ظهر أن الفرضية تصلح في جميع الحالات المحتملة التي كانت متوقعة التطبيق عليها، عندها تصبح نظرية علمية.

٧ ـ إعادة الاختبار وإعادة صياغة النظرية.

علينا أن لا نخرج من نقطة الانطلاق بأن اختبار الفرضية ينهي العملية العلمية. النظرية، أي نظرية ليست حقيقة وسوف لا تفي بجميع الظروف المحتملة. وهكذا تكون النظرية باستمرار موضع اختبارات وصياغات جديدة. والنتيجة هو التقدم العلمي والمنافسة المستمرة بين النظريات المتنوعة.

لا يقدم العلم تفسيرات نهائية حول الكون وظواهره. فالوقت والحيز والمادة والطاقة والوجود نفسه كلها أسرار وتبقى طبيعتها الأصلية بعيدة عن الإدراك الإنساني. غير أن النظرية العلمية تعتبر تفسيراً لقانون علمي إلى درجة معينة.

تستخدم الطريقة العلمية التي قدمناها هنا بأبسط حالاتها في عرض وحل مشاكل معينة في العلوم الطبيعية ولهذا السبب استعملنا هذا المثال من الفيزياء. وعلى كل حال فإن البحث العلمي ليس بهذه البساطة وقلما يكون بهذه البساطة التي يمكن استخلاصها من وصف المنهج العلمي. ولكل حقل من المعرفة مشاكله الخاصة وعلى الباحث أن يكيف طريقته ووسائل بحثه بخصائص الحالة التي يتعامل معها. منهج البحث ذو الأهمية الكبرى في حقول مختلفة هو تكوين التجارب المقننة الممكنة الضبط والقيام بها على الرغم من قلة استعمالها في الحقول الأخرى.

جـ ـ المنهج التجريبي وتحديداته أو محدداته:

المنهج التجريبي هو طريقة للفصل بين العوامل السببية. وتتألف من إعادة التجربة مرتين على الأقل علماً بأنها تعاد أكثر من ذلك على العموم مع اختلاف واحد بين التجربتين. فإذا ما كانت النتائج مختلفة فإن السبب في الاختلاف يكون في مدخلات التجربة. ففي الكيمياء والفيزياء والإحياء تلعب التجارب المضبوطة دوراً مهماً في اكتشاف الحقائق واختبار الفرضيات. وفي حقل هذه العلوم يمكن للباحث أن يخلق حالات يضبط فيها كل العوامل اللازمة التي تؤثر على مشكلة البحث. بعدها يغير أحد هذه العوامل وينتظر ماذا تكون النتيجة. فإذا ما طرأت نتائج مغايرة عندها يعرف أن هذه التغيرات في النتائج قد تأتت من خلال العامل الذي بدله لأن ما تبقى بقي ثابتاً. غير أن هناك حدوداً لاستعمالات المنهج التجريبي وحتى في هذه العلوم مثل الكيمياء والفيزياء. ففي العلوم الطبيعية الأخرى مثل الفلك وعلمي طبقات الأرض والجو فقد يندر استعمالها إذا لم يك غير ممكن لسبب بسيط وهو أن الباحث لا يقدر على ضبط الحالات المهمة لحل مشاكله.

أما في العلوم الاجتماعية فإن الاستفادة من المنهج التجريبي قليل جداً عدا في بعض الحالات التي تتعلق بالجماعات الصغيرة ويعود هذا إلى نفس السبب في أن الباحث لا يستطيع ضبط الحالات التي يبحث فيها عن أجوبة للمشاكل التي يبحثها. فعلى سبيل المثال هناك كثيرون يعتقدون أن الضرائب المرتفعة تجلب الرفاهية. وإذا ما أردنا اختبار ذلك فقد تكون إحدى الطرق أن ترفع الحكومة الضرائب على جميع الحاجات التي تدخل الأردن وتبقى جميع العوامل التي تتعلق بالنشاط التجاري وتؤثر عليه في حالة ثبات. فإذا ما لاحظ الباحث ارتفاعاً في الرفاهية يكون قد وجد ما يدعوه إلى دعم فرضيته السابقة.

وعلى الرغم من أن هذه الطريقة تبدو بسيطة لإثبات الفرضية المعنية إلا أن إثبات مثل هذه الفرضية ليس بالسهل. فلن يوجد باحث ـ مثل اختصاصي الاقتصاد ـ يكون قادراً على ضبط سياسة الأسعار في دولة ما. وحتى لو كان مثل

هذا الباحث قادراً على ذلك فخلال الوقت المعني سوف تحدث تغيرات كثيرة في البلد تؤثر على الوضع الاقتصادي مثل الإضرابات، أو تأسيس صناعات جديدة أو حتى أن تقوم حرب. ومثل هذه العوامل أو أحدها سوف يؤثر دون شك على الرفاهية الوطنية في الدولة أكثر من ارتفاع أسعار الضرائب الجمركية.

معظم المشاكل المهمة التي يهتم بها عالم الاجتماع أو مختصي العلوم الاجتماعية تتعلق بمجموعات كبيرة من الناس، وغالباً ما تكون مجتمعات كلية، ومن الواضح أن منهج التجربة المضبوطة لن يساعد في حل مثل هذه المشاكل. وعندما يكون مختص العلوم الاجتماعية قادراً على حل مشكلة تتعلق بجماعة صغيرة فإنه لن يكون قادراً على استعمال التجربة إلا في نطاق حدود ضيقة إذا ما أبدى الناس اهتمامهم وأظهروا تعاونهم معه.

عندما يتكلم الناس عن التجارب الاجتماعية فإنهم يعنون اختبار سياسات اجتماعية جديدة ولا يعنون التجربة المنضبطة تحت إشراف الباحثين العلميين. فيمكننا على سبيل المثال اعتبار سياسة التنمية الزراعية في الأردن تجربة وهي إلى حد بعيد كذلك. المشكلة هي أنه لا توجد رقابة ولا نعرف إذا ما كانت هذه السياسة أو غيرها من العوامل هي التي أثرت على الاقتصاد الوطني في الأردن. إضافة إلى ذلك فإن التغير الاجتماعي يحدث ببطيء ويأخذ في كثير من الأحيان بين ١٠ و ٢٠ سنة. والنتيجة هي ظهور اختلافات في الآراء حول ماذا سبب ماذا.

وبما أنه من الصعب القيام بتجارب في المجتمع فقد أصر بعضهم على أن العلوم الاجتماعية ليست علوماً. وعدا ما يخص الامتياز الذي يتعلق بالمفهوم فإنه ليس من المهم أن ندعو دراسة المجتمع علماً أو لا ندعوها كذلك، العملية تتعلق بالتعريف. فإذا ما عنينا بالعلم العلوم الطبيعية فقط، تكون الدراسات الاجتماعية خارجة عن مفهوم العلم، أو إذا ما عنينا بالعلوم العلوم الدقيقة فقط فإن العلوم الاجتماعية تكون مستثنية. ولكن إذا ما استعملنا كلمة علوم إلى الحد

الذي يحتوي جميع المحاولات المرتبة لتوسيع المعرفة الإنسانية من خلال تطبيق المنهج العلمي، عندها تكون العلوم الاجتماعية دون شك في قائمة العلوم. المهم حقيقة هو أن مختصي العلوم الاجتماعية قد اكتشفوا علاقات عديدة مهمة كافية لاعتمادها إضافات حقيقية تساعدنا على فهم السلوك الإنساني وأن تخدمنا كدليل للتعامل مع المشاكل الاجتماعية.

وقد ظهر نقاش حاد في الأونة الأخيرة حول المنهجية الصحيحة التي يجب أن تستخدم في العلوم الاجتماعية. وقد قدم لنا الفيلسوف توماس كوهن المختص في فلسفة العلوم مفهوم الهرم أو النمط (Paradigm) وعرفه كنظرية علمية ومركز لجميع المعتقدات التي تدور حوله. وقد ناقش أن التقدم العلمي مرتهن بإنتقال هذا النمط من حالة إلى حالة لأن علماء الاجتماع قد قاوموا التغير لزمن طويل وبقوا على اعتناقهم النظرية القديمة حتى عندما ظهرت براهين ضد هذه النظرية أو حين وجدت نظرية جديدة تنطبق على جميع المعلومات.

ولكن البراهين على صحة النظرية الجديدة تظهر بكثافة وسرعة كبيرتين يؤديان إلى اعتناق هؤلاء للنظرية الجديدة. ويحدث هذا التغير مثل تكوين نقطة الماء على باب الحنفية فهي تكبر وتكبر حتى تشكل نقطة لكي تسقط. والمثال الجيد هو نظرية أينشتاين النسبية في الفيزياء التي هزء منها الناس في فترة ما ثم اعتنقها العلماء فيما بعد لأنها أثبتت وجودها من خلال تلائمها مع كثير من الظواهر الطبيعية.

وقد ناقش علماء الاجتماع نظرية النمط التي تقدم بها كوهن وإذا ما كانت تلائم العلوم الاجتماعية. فإذا ما كانت كذلك فإنها تضفي شرعية كبرى للنظريات المتنافسة. غير أن المشكلة بقيت دون حل علماً بأن تفهمنا لأهمية النظريات تقدم وتطور. وقد وسع (Lakatos)، فيلسوف العلوم المشهور حجج كوهن وأضاف طابعاً جديداً إلى إدراكنا للمعرفة العلمية الاجتماعية. فقد ناقش لاكاتوس أن هناك نظريات كثيرة في العلوم الاجتماعية توسعت كل منها من خلال

ما دعاه برامج البحث المتنافسة. ففي الاقتصاد مثلاً هنالك اقتصاديون يهتمون بالسيولة النقدية ويذهبون إلى أن النقد أهم عامل في الاقتصاد. ويركز هؤلاء في أبحاثهم على السؤال كيف أن النقد وتزويده يؤثر على الاقتصاد. وهنالك آخرون من أتباع النظرية غير النقدية التي تقدم بها جون كينيس يرون غير ذلك. وكل من هذه الأنماط الاقتصادية أصبح نظرية قائمة بذاتها وأقيمت بناء على كل منها برامج بحث أو بحوث تنافس حولها مختصو النظريتين.

وقد كانت نظرية لاكوتس حول أنماط البحوث قوية جداً بحيث أنها شرحت لنا السؤال حول التناقضات في العلوم الاجتماعية. ويذهب لاكاتوس إلى أنه لا توجد نظرية دائمة الصدق بل أن بعض النظريات أقل خطأ من غيرها. سوف ننهج في المحاضرات القادمة منهج لاكاتوس في إبراز المتناقضات والهدف من ذلك هو تبيان أهمية المتناقضات في تطور معرفتنا.

د ـ منهجية العلوم الاجتماعية:

الخطوات الأساسية في المنهجية العلمية متساوية الأهمية في كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. وعلى عالم الاجتماع كما على عالم الفيزياء أن يكون دقيق الملاحظة وأن يصنف ويحلل حقائقه أو معلوماته، وأن يقوم بتعميمات وأن يحاول أن يطور ويختبر فرضيات ليفسر تعميماته ومشكلة عالم الاجتماع أكثر تعقيداً من مشكلة عالم الفيزياء. فالحقائق التي يجمعها عالم الاجتماع حول الحضارات المختلفة تحتوي على مشابهات ولكن كل حقيقة منها فريدة من نوعها في جانب ما. ويصعب تصنيف وتفسير أو شرح مثل هذه الحقائق. إضافة إلى ذلك فإن التعميمات التي يقوم بها عالم الاجتماع أقل صدقاً من تلك التي يقوم بها عالم الطبيعة.

تنتج المشاكل التي تواجه اكتشاف القوانين الدقيقة التي تسيطر على الحياة الاجتماعية عن أحول متعددة:

أولاً: الأشياء المهمة في حياتنا مثل، إشباع الحاجات، الرفاهية، التقدم

الاجتماعي، الديموقراطية، وكل ما يريد الفرد لا يمكن قياسها.

ثانياً: المجتمع معقد إلى درجة عالية فلذلك يكون من الصعب أو المستحيل أن نجد الأسباب المتعددة التي تؤدي إلى الظواهر ثم تقييمها على الرغم من أننا في كثير من الأحيان قادرون على اكتشاف العوامل الرئيسية التي تؤدي إلى هذه الظواهر.

ثالثاً: هناك العامل الإنساني في كل حالة اجتماعية، وكثيراً ما تعتمد مجريات الأمور على ردود فعل بعض الأفراد القادة وغالباً لا نستطيع التنبؤ عن سلوك الإنسان بكل تأكيد عدا في بعض الحالات الروتينية.

وحتى إذا ما نجح عالم الاجتماع في اكتشاف تكررات أو قوانين للسلوك الإنساني وبناء بعض الفرضيات فإنه لن يكون قادراً على استخدام التجربة المنضبطة لاختبار هذه الفرضيات وعليه في كثير من الأحيان أن يستعيض عنها بالملاحظة الدقيقة والاختزالات المبنية على عملية نفسية. فالعالم يختار عاملاً واحداً من حالة معينة ليرى ما هي الآثار التي تنتج عنه إذا كان منفرداً، ولكي يقوم بذلك فإن الباحث يعتبر جميع العوامل الأخرى ثابتة أو غير فعالة. وهو يسأل السؤال على سبيل المثال: إذا ما بقيت العوامل التي تؤثر على الاقتصاد ثابتة فما هو الأثر الاقتصادي لرفع مستوى الضرائب على الحاجات المستوردة؟

ويستطيع عالم الاجتماع الذي يعرف الحالة جيداً أن يحسب أثر عامل مسبب معين حساباً دقيقاً من خلال الافتراض بأن العوامل الأخرى تبقى متساوية. وعلى كل حال فلكي يصل إلى نتائج صحيحة من خلال هذا المنهج عليه أن يكون كفوءاً ودقيقاً. وحتى عند ذلك فالأخطار جسيمة وما يحتاجه العالم في العلوم الاجتماعية أكثر من العلوم الطبيعية هي الكفاءة، لأن نظريات الفيزياء ممكنة البرهان والاختبار أما في العلوم الاجتماعية فهي غير ممكنة. والنتيجة الحتمية هي أن عالم الاجتماع قد يقع في الإبهام أكثر من عالم الطبيعة وأنه سوف يستمر في خطأ ما دون وعي ويمكنه أن يغطي ذلك بكفائته.

ومشكلة باحث الاجتماع الكبيرة هي قضية الموضوعية. وبما أن عالم الاجتماع يعمل من خلال الأفراد البشرية ويكون جزءاً منها فيكون من الصعب عليه أن يبتعد عما يرغب فيه وما لا يرغب فيه وعن تعاطفه واضطراباته وبأسه، ونتيجة لذلك فإنه قد يقع في فخ الدفاع عن آماله ومعتقداته وأحكامه المسبقة بدلاً من أن يحاول اكتشاف الحقيقة. وعلينا أن نحترس من هؤلاء الذين يطرحون أنفسهم كعلماء اجتماع ليجعلوا الدعاية والقيادة المتسلطة تحل محل الموضوعية والكفاءة.

هـ ـ الطريقة التاريخية:

بما أن التطور الحضاري، كما في الحضارة العربية، يحتوي على خصائص مميزة فمن الصعب على المختص في العلوم الاجتماعية أن يفهم هذه الخصائص إن لم يعد ويرجع إلى التطور التاريخي لهذه الحضارة، ولذلك فإن باحث علم الاجتماع يعتمد كثيراً على المدونات التاريخية. ولن يكون الفرد قادراً على إدراك حالة تاريخية ما على أحسن وجه لأن المعرفة التاريخية محددة ولأن الأسباب التي أدت إلى هذه الحالة تصبح أكثر تعقيداً وتأكيداً كلما حاولنا أن نتغلغل في عمقها التاريخي. وعلى كل حال فإن الباحث يقدر على ربط الأحداث التاريخية بالحالات الحاضرة من خلال إبراز التطورات الرئيسية التي تبدو وقد لعبت دوراً مهماً في انتاجهما. ولاقتفاء أثر التطورات التاريخية فإن عالم التاريخ يستعمل نفس الطرق التي يستعملها غيره من علماء المجتمع مثل تجميع شهادات الميلاد والزواج وتصنيف المعلومات.

هناك طريقتان في البحث التاريخي. **الأولى**، تدعى بحث العمق (Dyachronic Research) وهي الطريقة التي يستعملها الباحث للغوص في أعماق التاريخ ويستعين في ذلك بعلم الآثار واللغات القديمة وغيرها. وتدعى الطريقة **الثانية** (Synchronic Research) وهي تتبع التاريخ لفترة معينة يحددها الباحث نفسه وقد تتراوح هذه من سنة إلى بضع عشرات السنين.

وقد لوحظ أن التاريخ لا يمثل نفسه قط. وعلى كل حال فالماضي والحاضر يظهران تشابهات كثيرة بحيث أن معرفة الماضي تعطينا فكرة عما هو الحاضر أو عن الحالات في الحاضر وكذلك تساعدنا في بعض الأحيان على معرفة المستقبل حتى ولو جزئياً.

و ـ طريقة دراسة الحالة

لقد تعرض الكتاب حول ميثودولوجيا البحث الاجتماعي (ميثودولوجيا ـ علم أساليب البحث) إلى طريقة الحالة ومميزاتها وتنوعاتها والأغراض التي تخدمها، وإلى فوائدها وحدودها. وسوف نتعرض هنا إلى طبيعتها الأساسية.

تشتمل **دراسة الحالة** على فحص موسع وتحليل لموضوع ما أو لحالة ما نراها مشكلة. وقد تشمل هذه الدراسة دراسة شخص واحد مثل دراسة الحالة التي يقوم بها عالم النفس لمريضه، أو حقل دراسي ما مثل القرية أو المدينة مثل دراسة عالم الاجتماع حول التغير الاجتماعي في المدينة، أو دراسة حتى بلد كامل مثل الأردن عما يفعل عالم الاجتماع، الإنسان أو الاقتصاد، أو أن تكون هذه دراسة مقارنة لحالة ما.

وقد يكون هدف الدراسة اكتشاف الطرق التي يمكن من خلالها إيجاد تغير مرغوب فيه في حالة معينة مثل إيجاد الطرق الفعالة للنهوض بمناطق متخلفة. ولكن في كثير من الأحيان يكون هدف دراسة الحالة تسليط الضوء على حالات عديدة متشابهة توجد في المجتمع. ويأمل الباحث من ذلك بأن يقود تفهم حالة ما أو عدة حالات إلى تسليط الضوء على حالات أخرى مشابهة وبذلك يساعد على مجابهة المشاكل الموجودة فيها. ومن الطبيعي أن تمثل الحالة التي يختارها الباحث (أو الحالات) مجموعة الحالات التي كان الباحث ينوي أن يهتم بها. هذه المتطلبات الأخيرة قد تضع حدوداً لاستعمالات طريقة دراسة الحالة. ولنفرض أن أحدنا يريد أن يقوم بدراسة حالة للبناء الطبقي في المجتمع الأردني ككل. فأسهل طريقة للقيام بذلك هو اختيار بعض المدن المعزولة أو البعيدة

على أن تكـون صغيرة الحجم ومـوزعة في منـاطق مختلفة من المملكـة. غير أن السؤال هو هل سـوف تعطينـا هذه المـدن صورة واقعيـة عن الحالـة في المملكة ككل؟ وهذا مشكوك فيه لأن معظم السكان في الوقت الحاضـر يعيشون في مـدن كبيـرة مثل عمـان والزرقـاء وأربد حيث البنـاء الطبقي أكثـر تعقيداً منـه في المدن الصغيرة مثل الحصن ومادبا ودير أبي سعيد. ولذلك فسـوف تكون هـذه الدراسـة في مثل هذه المناطق من الصعوبة مـا يبرر عـدم القيام بهـا وبخاصـة أنها سـوف تكون مكلفة وغير عملية.

ز ـ طرق المقارنة والمقارنة عبر الحضارات:

* المقارنة نوعان:

أولاً: مقارنة بسيطة وهي مقارنة ظاهـرة مع ظـاهرة أخـرى، أو مجتمع مـع مجتمع مثل المقارنة بين المجتمع الأردني والمجتمع السوداني، أو مقارنـة الدين الإسلامي مع الـدين المسيحي كما هـو في القرآن والإنجيـل، أو مقارنـة طقوس الـزواج في الأردن وفي العراق أو مقـارنة الحكـومة في الأردن مـع الحكـومـة في تنزانيا (أفريقيا).

النوع الثاني: هو المقارنة عبر الحضارات، وكأن نأخذ ظاهرة تربية الأطفال ونقارن الطرق المتعددة التي تتبعها المجتمعات الكثيرة في تربية أولادهـا. ندعـو الأولى مقـارنة (Comparative) ونـدعو الثـانية المقـارنة عبـر الحضارات (Cross - Cultural).

استعمل الكثيرون من العلماء المنهج المقـارن في محاولـة كي يصلوا إلى فهم أعمق لـطبيعة المجتمعـات الإنسانيـة. وقامـوا في القـديم بمقـارنـة حضـارة بأخرى آملين أن يجدوا مراحل تطورية في تطور المؤسسات أو الأنظمـة الإنسانيـة أو أنماط للتطور أو التقـدم الاجتماعي على شكـل قوانين عـامة وعـالمية. فمثـلاً كانت هنالك الفكرة بأن التاريخ قد عرف مراحل محددة في تـطور أنظمـة الحكم أو الحكـومة وظنـوا أنهـم يقدرون على اكتشـاف هـذه الأنمـاط من خـلال دراسـة

المجتمعات التي تختلف في مستوى التطور. أما الآن فقد تخلى معظم العلماء عن مثل هذه الدراسات.

وعلى الرغم من ذلك فإن المقارنة بين المجتمعات ما زالت تقوم بدور هام في الدراسات الحضارية أو في علم الإنسان الحضاري من خلال ما ندعوه **المقارنة عبر الحضارات**. وتتكون هذه من دراسات موسعة للأنماط الحضارية في عدد من المجتمعات ليتسنى لهؤلاء العلماء مقارنة الطرق التي تستعملها هذه الشعوب في إشباع عدد من الحاجات. مثال على هؤلاء العلماء هو العالم جورج ب. ميردوك وتلاميذه وزملاءه الذين نشطوا في تطوير مثل هذه الدراسات ونجدها الآن في المكتبات وهي دراسات تشمل المئات من الشعوب البدائية. وتبين هذه الدراسات تشابهات عجيبة بين الأنماط الحضارية لشعوب تسكن بعيدة عن بعضها آلاف الكيلومترات ولا يبدو أن هذه الشعوب قد اتصلت ببعضها لا مباشرة ولا عن طريق غير مباشر. وتواجه طريقة المقارن مشاكل كثيرة. فمن الصعب في بعض الأحيان أن نقرر إذا ما كان علينا أن نعتبر مجتمعين أو أكثر مجتمعات مستقلة أو أن نهتم بها كمجتمع واحد. مشكلة أخرى تكمن في التعاريف. فإذا ما قارنا نظام الأسرة في مجتمعات مختلفة فعلينا قبل ذلك أن نعرف مفهوم العائلة تعريفاً واسعاً ليكون قادراً على الإشارة إلى هذا النظام في المجتمعات المختلفة وكذلك فيجب أن يكون هذا التعريف دقيقاً ليجعل من المقارنة شيئاً ناجحاً. ولا يتفق علماء الاجتماع دائماً على السؤال: ما هي العائلة؟ كذلك فإذا ما قمنا ببحث مقارن حول البطالة في المجتمعات الصناعية فعلينا أن نتفق حول ما نعنيه بمفهوم البطالة. فعلى سبيل المثال كانت البطالة في المكسيك حسب الأسس الأمريكية (الولايات المتحدة ٣٠٪ إلا أن المكسيكيين اعتبروا هذا الرقم دون معنى لأن عادات العمل المكسيكية وحضارة المكسيك مختلفتان عن قرينتيهما في الولايات المتحدة. وقد اعتبر العلماء الأمريكيون دون عمل أولئك الأفراد الذين يعملون في البيت ولا يحصلون على مرتب في سوق العمل. ولذلك فبينما كان لهؤلاء عمل خارج سوق العمل فقد اعتبروا عاطلين عن العمل.

جـ ـ استعمال الإحصاءات:

على الرغم من أن الإحصاء لا يعتبر طريقة دراسة أو منهج في دراسة المجتمع ومشاكله إلا أن علماء الاجتماع كثيراً ما يحتاجونه لأنه يزودهم بنوع معين من المعلومات التي يحتاجونها عندما يحاولون فهم كثير من العلاقات والعمليات الاجتماعية. فلا تساعدنا الإحصاءات مثلاً في قياس قيم اجتماعية أساسية مثل المواطنة الصالحة، السعادة، أو الرفاه الاجتماعي. لكن الإحصاءات مفيدة في قياس العديد من العوامل التي تبنى عليها الحياة الاجتماعية مثل حجم السكان في مجتمع ما أو عدد العائلات التي يأتي دخلها تحت مستوى الدخل العام في مثل هذا البلد والذي نعتبره الحد الأدنى لحياة صحية. كذلك تساعدنا العلاقات الإحصائية في فهم المشاكل الاجتماعية، فإذا ما وجدنا مثلاً أن نسبة عدد الأطفال القادمين من عائلات حصل فيها الطلاق في بيوت الأحداث أكثر من نسبة عددهم في المجتمع ككل فإننا قد نكون قادرين على وضع الفرضية بأن الطلاق عامل مهم في إنحراف الأطفال. غير أن علينا أن نفسر الإحصاءات بكل حذر لأنه يسهل علينا أن نستنتج منها نتائجاً لا تقدر هذه الإحصاءات على تبريرها. وكثيراً ما نكون أيضاً قادرين على التلاعب بهذه الإحصاءات بحيث تظهر ما نريد نحن أن تظهره.

وقد شاع استعمال الإحصاءات في الأونة الأخيرة لقياس نتائج النشاط الاجتماعي ولاكتشاف خصائصه مثل إحصاءات الدخل والانتاج القومي كما تقدمه لنا دائرة أو دوائر الإحصاءات العامة والغرف التجارية، والتي تسخدم في اختبار النظريات الاقتصادية، كما دخلت الإحصاءات إلى الدراسات الاجتماعية الأخرى بشكل موسع.

وقد سهل عملية استعمال الطرق الإحصائية أيضاً تطور الكمبيوتر الذي يمكنه تفعيل الإحصاءات بسرعة فائقة وتقديمها للباحث الاجتماعي. ومع ظهور الحاسوب المصغر، أصبحت هذه العملية أكثر سهولة. ويستطيع الآن الكثيرون

إقتناء الحاسوب الذي يقدم لهم المعلومات الدقيقة بشكل إحصاءات وفي دقائق قليلة.

وللحصول على بعض الأنواع من الإحصاءات يقوم علماء الاجتماع أو مختصو العلوم الاجتماعية باستعمال طريقة المسح (Survey) فالباحث الاجتماعي قد يرسل مساعديه لاستجواب الأفراد في المجتمع حول دخولهم مثلاً ومعتقداتهم ومشاكل أخرى، أو ليسألوا الناس عن المرشح الذي يريدون أن ينتخبوه. فإذا كانت المجموعة التي يريد الباحث أن يستجوبها كبيرة، فإنه يكتفي بإنتقاء بعض الأفراد الممثلين لهذه المجموعة، ويدعو هؤلاء الممثلين عينة (Sample) كما في قياس الرأي العام.

ط ـ المنهج المتعدد العلوم:

أصبحت المجتمعات الصناعية ومشاكلها كبيرة جداً وأكثر تعقيداً. وبما أنه لا يوجد شخص واحد قادر على الإلمام بجميع العلوم الاجتماعية (أو حتى أحد هذه العلوم كلياً) فقد أخذ التوكيد على المنهج المتعدد العلوم يزداد كل يوم. يعني هذا أن مجموعة متنوعة من مختصي العلوم الاجتماعية في اختصاصات مختلفة يعملون معاً لدراسة مشكلة معينة لا يقدر أحدهم على فهم جوانبها المتعددة. وفي دراسة بعض المشاكل يستلزم الأمر دعوة مختصين من العلوم الطبيعية في دراستها.

في نهاية هذا النقاش حول مناهج العلوم الاجتماعية يجدر بنا أن نلاحظ بأنه: على الرغم من أن بعض العلاقات الاجتماعية ممكنة التقليص إلى قوانين ثابتة وغير متغيرة إلا أن الأفراد البشرية في مجموعات كبيرة حيثما وجدت تظهر تشابهاً كبيراً في السلوك في ظروف متشابهة. ولذلك نجد ما يبرر اعتقادنا بأننا نقدر أن نعمق إدراكنا لطبيعة تطورات المجتمعات الإنسانية من خلال المعرفة المرتبة والبحث ونأمل أن يقود هذا الفهم إلى تسامح أكبر وإلى تعاون بين الجماعات المختلفة وبين الأمم.

٥ ـ العلوم الاجتماعية والضبط الاجتماعي:

هناك الكثيرون ممن يفكرون بأن العلوم الاجتماعية متأخرة جداً إذا ما قيست بالعلوم الطبيعية وهم لا يشيرون فقط إلى أن العلوم الاجتماعية تفتقد القوانين الثابتة بل أيضاً إلى الحقيقة بأن العلوم الاجتماعية لم تك قادرة على القضاء على شرورنا الاجتماعية الكبيرة بما في ذلك الأحوال الكثيرة من التمييز العنصري، والجريمة والفقر والحرب. ويذهبون إلى أن علماء الاجتماع لم يكونوا قادرين على تحقيق ما كان متوقعاً منهم. وعلى كل حال فإن مثل هؤلاء الناقدين لا يعون الطبيعة الحقيقية للعلوم الاجتماعية ومشاكلها الخاصة وحدودها الأساسية. هم ينسون مثلاً أن حل مشكلة ما لا يتطلب المعرفة فقط بل أيضاً المقدرة للتأثير على الناس. وحتى لو عرف عالم الاجتماع الخطوات التي يجب أن يتبعها لتحقيق التحسين الاجتماعي، فقلما يكون في المركز الاجتماعي ليضبط الفعل الاجتماعي. وحتى الحاكم المتسلط يجد أن لسلطته حدود إذا ما أراد أن يغير المجتمع.

وفي عصرنا الحديث تعمل ثلاثة عناصر على تكوين المشاكل التي نواجهها:

١ ـ الانفجار السكاني.
٢ ـ سرعة التطور التكنولوجي.
٣ ـ الاتصال المباشر.

يخلق جزء كبير من الناس في الوقت الحاضر مشاكلاً يصعب إذلالها. ويزيد من هذه المشاكل طموح الناس ورغبتهم في الحصول على مكيفات الحياة وكمالياتها التي يقدمها لهم التطور التكنولوجي والسرعة التي تنتشر فيها الاختراعات التكنولوجية من خلال الراديو والتلفزيون والسينما.

ويصبح الناس في العالم المتحضر معقدين وتنمو عندهم عقدة النقص. بنفس الوقت يتعرف الذين يعيشون في العالم المتحضر بسرعة على مآسي وفقر

المجموعات السكانية في البلدان النامية وكذلك على مآسي وفقر بعض الجماعات في مجتمعاتهم الخاصة ويأخذون بالشعور بالذنب ورعبة الضمير. وهذا كله تحد لعالم الاجتماع لأن الأمل الوحيد لحل المشاكل الاجتماعية هو الدراسة والبحث المؤهل وتوصيل نتائج البحث بطريقة فعالة إلى المجتمعات وبخاصة إلى الأفراد الذين يملكون السيطرة على التأثير على الرأي العام والسياسات العامة.

كما يستعمله علماء الاجتماع، فإن مفهوم الضبط الاجتماعي يحتوي على معنى غير شخصي. فهو يشير إلى العمليات الاجتماعية التي تدفع الأفراد والجماعات لتتكيف مع بعضها بعضاً وتتصرف بطرق مقبولة على الصعيد الاجتماعي. ولكن إذا ما أردنا أن يشير هذا المفهوم إلى المحاولات الواعية لتحسين المجتمع فإننا سوف نثير المشكلة: من الذي سوف يقرر ما يدعي تحسين المجتمع ومن الذي يراقب ذلك؟ فإذا كان على كل فرد مراقبة كل فرد آخر فإن النتيجة سوف تصبح حتفية ويسود عدم النظام. ومن ناحية أخرى فإنه من الخطأ وضع مسؤولية الضبط الاجتماعي في أيدي مجموعة صفوية تريد تخليد نفسها أو في يد حاكم متعسف لأنه ضد الأسس الأولية لمفهوم الحرية والديموقراطية كما نعرفها. وعلى الرغم من أن نتائج الانتخابات لا ترضي كل واحد غير أن البدائل عن هذه الديموقراطية أقل جاذبية.

فإذا كان على الديموقراطية أن تكون ناجحة وتستمر فعلى جميع الناس بما فيهم الجماعات الأقلية أن ترى فيها مصلحتها. وعليهم أيضاً أن يعرفوا أقل ما فيه درجة من التسامح ورغبة في معاملة جميع الناس بالعدل والمساواة. وحتى حيث تعمل الديموقراطية سوف يبقى الاختلاف في الرأي وفي الأحزاب السياسية إلا أن النية الصالحة تبقى ويقوم الناس بتنازلات ويصلون إلى اتفاقيات ويحترمونها وسوف يقوم الفعل الاجتماعي بناء على التعاون والاتفاق المتبادل.

وأهم مشكلة أمام الديموقراطية هي كيف نكسب الأكثرية للوصول إلى اتفاق أساسي حول السياسات الرئيسية التي يجب أن تتبع لنخلق مجتمعاً

صالحاً. ويستطيع علماء الاجتماع أن يساعدوا في هذا الأمر حيث يقدرون على تلقين وتعليم الناس كي يفهموا المسائل المختلفة والمشاكل التي تواجه الديموقراطية والخطوات التي يمكن اتباعها للوصول إلى حلول.

وإذا ما قدرنا أن نعبر عن الأهداف الاجتماعية بمفاهيم عامة وكافية فإن الاتفاق ليس صعباً لأن معظم الناس يريدون أن نرى الفردوس على الأرض يميزه السلام والمواقف الحسنة تجاه الإنسان بما في ذلك الحرية والعدالة والأمن والصحة والسعادة للجميع. ولكن عندما تريد مجموعة ما أن تجعل الأمر متعلقاً بها ومعتمد عليها فإن الصراعات سوف تبدأ والمعضلات سوف تزيد يوماً عن يوم. وحتى علماء المجتمع فإنهم غير متفقين على ماذا سوف تكون أهدافنا الاجتماعية ولا على السبل التي سوف نتبعها للوصول إلى هذه الأهداف.

على أية حال فإن وظيفة العلوم الاجتماعية والذين يمارسوها ليست تحديد الأهداف الاجتماعية بل هي اكتشاف كيف نصل إلى هذه الأهداف الاجتماعية. ولا يمثل تحديد هذه الأهداف ـ القيم الاجتماعية ـ مشكلة عالمية بل تتعلق بما نرغب به وما لا نرغب به أنفسنا، بمفاهيمنا الجمالية، ومستوياتنا الأخلاقية، ومعتقداتنا الفلسفية والدينية. وسوف نتعرض إلى القيم الاجتماعية في الفصل القادم.

٥ ـ أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل الأول:

١ ـ ما هو الجواب للأحجية في الصفحة الأولى؟

٢ ـ ما هي المعرفة العلمية؟ وكيف تختلف عن المعرفة التي نحصل عليها دون وعي؟

٣ ـ ميز بين حقول المعرفة الإنسانية الثلاث. وما محور كل منها؟

٤ ـ سمي العلوم الاجتماعية الرئيسية وعرف الحقل الذي يهتم به كل منها؟

٥ ـ لماذا كان من الصعب القيام بالبحث العلمي في المجتمعات البدائية أو في العصور الوسطى؟

٦ ـ سمي الخطوات الستة للمنهج العلمي كما هي في الفصل؟ ما هي الخطوة السابعة؟ وهل تتبع هذه الخطوات بعضها بعضاً؟ اشرح.

٧ ـ ما هي الافتراضات الأولية التي بنيت عليها الطريقة العلمية؟

٨ ـ ما هي الطريقة التجريبية؟

٩ ـ لماذا يصعب صياغة القوانين الدقيقة في العلوم الاجتماعية؟

١٠ ـ هل هنالك من فوائد للتنافس بين برامج البحث العلمي؟

١١ ـ بأي معنى تكون العلوم الاجتماعية علمية؟

١٢ ـ لماذا يكون من الصعب دراسة الحالات الاجتماعية من خلال طريقة التجربة؟

١٣ ـ اشرح الطرق التي تختلف فيها مشاكل العلوم الاجتماعية عن مشاكل العلوم الطبيعية؟

١٤ ـ ما هي فوائد المنهج متعدد العلوم على دراسة الكثير من المشاكل الاجتماعية؟

١٥ ـ اشرح طبيعة مشكلة الضبط الاجتماعي وعلاقة العلوم الاجتماعية وعلماء الاجتماع بها؟

بعض المفاهيم المستعملة في الفصل الأول:

علوم اجتماعية	Social Sciences
معرفة علمية	Scientific Knowledge
علوم طبيعية	Natural Sciences
علوم إحيائية	Biological Sciences
الإنسانيات	Humanities
تاريخ	History
جغرافيا	Geography
اقتصاد	Economy
علوم سياسية	Political Sciences
علم الحضارة الإنسانية	Cultural Anthropology
علم الإنسان الإحيائي	Physical Anthropology
علم النفس	Psychology
المنهج العلمي	Scientific Method
القانون العلمي	Scientific Law
الفرضية	Hypothesis
الطريقة التجريبية	Experimental Method
النمط النظري	Paradigm
برنامج البحث	Research Program
الطريقة التاريخية	Historical Method

طريقة الحالة	Case Study Method
المنهج المقارن	Comparative Method
منهج المقارنة عبر الحضارات	Cross - Cultural Method
الإحصاء	Statistics
المسح	Survey
المنهج المتعدد الجوانب	Interdisciplinary Approach
الضبط الاجتماعي	Social Control

قائمة المراجع :

١ ـ اتكن، هـ. ج، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية : ترجمة محمود زايد.(بيروت : دار الطليعة ١٩٦٣.

٢ ـ لطفي، عبد الحميد، علم الاجتماع. (القاهرة: دار المعارف ١٩٧٨).

3 - Barnoun Victor Anthropology: **A General Introduction. Homewood:** (Dorsey Press 1979).

4 - Brewer, M. B. and B. Collins (eds), **Scientific Inquiry and the Social Sciences.** (San Fransisco: A Jossey - Bass 1981).

5 - Cole, Stephen, **The Sociological Method.** (Boston MA : Houghton Mif - Flin 1980 3 rd ed).

6 - Kuhn, Thomas, S. **The Structure Of Scientific Revolution** (Chicago : University ty of Chicago Press 1970, 2 nd ed).

الفصل الثاني

المدخل الى الانثروبولوجيا الفيزيقية

مدخل الى الأنثروبولوجيا الفيزيقية

يـوجد المجتمـع لفائـدة أفراده وليس الأفـراد
لفائدة المجتمع

(هربرت سبنسر)

مقدمة :

كان أسلافنا غير البعيدين يعتقدون أن الكرة الأرضية التي نعيش عليهـا هي الجزء الرئيسي من الكون وأن جميع الأجرام السماويـة تكونت حـولها. أمـا اليوم فنحن نعرف أنها أصغر أجزاء هذا الكون المكون من الحيز والمـادة. أما بـالنسبة للناس فإن هذا الجزء هو أهم جزء لأن اهتمام الإنسان الأول بنفسه ثم بالكـوكب الـذي يعيش عليه، بـأصله ثم بالهـدف الذي يسيـر إليه وبعـلاقاتـه مع غيـره من البشر. وحتى حين يؤمن بأن له حياة في دنيا غير هذه مثل السماء فإنـه يرغب في أن تكون حياته على الأرض أكثر سعادة وأكبر معنى وأوسع إشباعاً.

والإنسان كائن اجتماعي في أول الأمر. وغالباً ما يقضي معظم حياته بـرفقة الآخـرين وعضواً في جمـاعات منـظمة ومتنـوعـة. ففي بعض الحـالات كمـا في العائلة تكون هذه الرفقة ثابتـة ومتلازمـة. وفي بعضها كمـا هي الحال مـع جميع مواطني بلدته أو مـدينته فعـلاقاتـه رسمية وعلى فتـرات. وعلى سبيل المثـال فإن معظم الأفراد من المملكة الأردنية الهاشمية لم يتقابلوا قط. وعلى الرغم من ذلك

فهم أعضاء في نفس المجتمع لأنهم مرتبطون معاً إلى درجة ما عن طريق اللغة المشتركة والمصالح المشتركة وطرق الحياة، والولاءات المشتركة والاعتماد على حكومة وطنية مشتركة تحميهم وتقدم لهم الرفاهية العامة. وتعتمد مقدرة الناس لقضاء حياة سعيدة وإشباع حاجاتهم إلى درجة بعيدة على طبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه.

كما قلنا في الفصل الأول فإن علم حضارة الإنسان (الأنثروبولوجيا) هو أوسع علم في العلوم الاجتماعية ولذلك فمن اللائق أن نبدأ بمواضيع تعلمناها من علم الإنسان الفيزيائي والحضاري. ولكن قبل أن نفعل ذلك دعنا نتعرف على الخصائص الفريدة للنوع الإنساني وكيف تطورت.

١ ـ الخصائص الفريدة للإنسان:

الإنسان فريد ما بين المخلوقات بطرق عديدة. ومن بين هذه الخصائص المهمة يمتاز الإنسان بثلاث ميزات إلى درجة عالية بينما هذه الخصائص بين الحيوانات غير الإنسان إما بدائية أو غير موجودة.

الأولى: هي أن الإنسان قادر على التفكير والجدل. هناك بعض التجارب التي أثبتت أن بعض الحيوانات تفكر إلى درجة ما. فالشمبانزي على سبيل المثال قادر على حل بعض المعضلات التي تتعلق بالحصول على الطعام الذي لا يقدر أن يصل إليه مباشرة. لكن الإنسان قادر على التفكير وحل المشاكل المعقدة بحيث نقدر على القول أن تفكير الإنسان يختلف في النوعية.

الثانية: هي أن الإنسان قادر على الاتصال مع الآخرين عن طريق اللغة، وأن مقدرته على التفكير تعتمد إلى درجة بعيدة على مقدرته على استعمال اللغة. اللغة نسق للرموز الصوتية الإرادية تقترن بطريقة خاصة لتكون صالحة لنقل المعلومات والأفكار. والرموز (الكلمات) وطرق الاقتران (القواعد) تختلف من لغة إلى أخرى، ولكن لكل مجموعة إنسانية لغة يتم عن طريقها الاتصال بينهم. الحيوانات لا تملك لغة ولا تقدر على الحديث بمعنى الكلمات لكنها تستعمل

أصـواتاً تتصـل من خلالهـا مع بعضهـا بعضاً والاختـلافات بين هـذه وبين اللغـة اختلافاً نوعياً وليس كمياً. وقد شبه عالم اللغـويات المشهـور (Noam Chomsky) الفرق بين اللغة والأصوات التي تستعملها الحيوانات بالفرق بين القفز والطيـران. وأن نقول أن الحيوانات لها وسيلة اتصال كأن نقـول أن الإنسان يـطير كـالطائـر، ولكن ليس بنفس المهـارة فقط لأن الإنسان يقـدر أن ينطلق إلى الهـواء من خلال القفـزة.

وبسبب الاتصال بين الناس من خلال اللغة فإن معرفة شخص ما تنتقل إلى الآخر. وبنفس الطريقة فإن مجموعة المعرفة التي تملكها جماعة معينة تنتقل إلى الأحفاد من جيل لجيل، وتتزايد تدريجياً عندما يساهم كل من الأفراد بدوره فيها. وقـد زادت مقدرة الإنسـان على تراكيم المعـرفة بعـد أن اخترع الإنسـان الكتابـة وبعدها عندما ظهرت الطباعة.

ومع مرور الزمن أصبحت الكتابـة والطبـاعة طـرقاً معتمـدة في جمع ونقـل المعرفة أكثر من الكلمة الشفوية.

المقـدرة **الثالثـة**: التي تميز الإنسـان عن الحيوان هي استعمـالـه لـلآلـة. وتعتمد مقدرة الإنسان على اختراع واستعمال الآلة بمهارة لامتلاكه على يد قابضة تستطيع أن تتحكم بمسك الأشياء بين الإبهام والأصابع. هذه الأيـدي هي حقيقة أقدامه الأمامية ولكن لأنه تعلم أن يقف على رجليه خلال عملية التـطور أصبح لا حاجة له بأن يستخدمها في المشي. ونتيجة لذلك فقد أصبحتا على الدوام حرتين لاستخدامات أخرى. وتعتمد مقدرة الإنسان في استعمال الآلة على مقـدرته على التفكير والاختراع وسلطته على نقـل معرفة الأدوات واستعمالاتها من جيل لآخر.

بسبب مقدرة الإنسان على التفكير ونقل المعرفة من خلال اللغة واستعمـال الآلات فإن الإنسان يسيطر على محيطه الطبيعي إلى درجة أبعـد مما يستـطيع أي مخلوق آخر. وقد استطاع أن يسيطر ويسحق معـظم المخلوقات التي حـاولت أن تقف في طريقه على الرغم من أنه مثلاً لم يك قادراً على القضاء على الحشرات

أو الحيوانات المؤذية مثل الفئران والجرذان. ومن خلال محاولات الإنسان للسيطرة على بيئته لمصلحته الخاصة فإنه قد عمل على إيذائها، لكنه استطاع أن يوسع رقعته السكنية إلى جميع مناطق الكرة الأرضية.

٢ ـ أصل الإنسان:

لا يقدر أحد أن يقول في أي بقعة وجد الإنسان في البدء. ويعتقد العلماء المحدثون أن عمليات التطور قد أنتجت سلفنا الأول في فترة من فترات الماضي السحيق وكان مخلوقاً يشارك الإنسان الحديث في صفاته الطبيعية الأولية. وعلى الرغم من أن مكتشفات الحفريات في شرق أفريقيا قد أفصحت عن وجود الإنسان منذ ثلاثة ملايين سنة إلا أن التاريخ الدقيق لوجود الإنسان غير معروف. ويعتقد أن هذه المكتشفات التي تشبه النوع الإنساني قد تطورت على فترات زمنية مكونة من مئات الألوف من السنين من أنواع أخرى في عملية تدعى التطور.

٣ ـ داروين ونظرية الإرتقاء:

تشير كلمة الإرتقاء في معناها الواسع إلى أي عملية تغير تقدمية. وهكذا يمكن الحديث عن تطور الرواية والفن والدين. ولكن عندما تستعمل هذه الكلمة خالية من التخصيص فإن كلمة إرتقاء تشير إلى الإرتقاء العضوي أو النظرية بأن جميع أشكال الحياة المعقدة الحاضرة قد نشأت عن أشكال أكثر بساطة وجدت قبل زمن طويل. وقد أوجد نظرية التطور عالم الإحياء الإنجليزي شارلز داروين والذي قضى معظم حياته ليجد برهاناً يدعم نظريته.

قام داروين بإمكاناته كعالم طبيعة برحلة لمدة خمس سنوات مع إرسالية مسح بين ١٨٣١ ـ ١٨٣٦ على القارب التجاري (Beagle). وتمكن في هذه الرحلة من دراسة مجموعة كبيرة من حياة النباتات والحيوانات. وعجب من المشابهات والاختلافات التي وجدها وللخطوات التي وجدها في تطور الحياة من الأشكال البسيطة إلى الأشكال المعقدة. ويبدو أنه بنى نظريته بادىء ذي بدء

ليشرح هذه العلاقات. وقد كان عمله الأول والرئيسي الذي قدم فيه نظريته وأفكاره هو أصل الأنواع (١٨٥٩) وفي عمل لاحق «نشوء الإنسان»، شرح لنا تطور الإنسان أو الجنس الإنساني.

وعلى الرغم من أن داروين يتحمل مسؤولية قبول العلماء لنظرية التطور إلا أنه لم يك الأول لينادي بنظرية التطور أو الأول ليعجب بالتشابه الفيزيائي العجيب بين الإنسان وبعض الحيوانات. ففي القرن الرابع قبل الميلاد اعتقد أرسطو بالتطور التدريجي للكائنات من أشكال حية بسيطة أو أكثر بساطة، وقبل أربعين سنة من وجود داروين نشر عالم الحيوان الفرنسي شيفاليه دي لامارك نظرية التطور وقبل مائة سنة من داروين قال عالم الطبيعة السويدي، كارولس لينيوس بأوجه الشبه بين الإنسان والقردة والسعادين وأن هذه لا يمكن إهمالها في تصنيف الحيوانات إلى أنواع. ونتيجة لذلك فقد صنف الإنسان والقردة الكبار والسعادين في مستوى واحد سماه الفقريات.

يذهب داروين إلى أن التنوعات في النوع الحي الواحد متواجدة ومتواجدة في كل من هذه الأنواع أيضاً. وتلك التنوعات التي تقدر على الإيفاء والتلائم مع شروط الحياة يتسنى لها أن تبقى وتنتقل صفاتها إلى الأجيال المستقبلية من خلال الوراثة. ولذلك فالإتجاه الذي تأخذه عملية التطور يحدده بقاء الأصلح أو الأقوى أو الاختيار الطبيعي.

ما زالت مشكلة العملية الدقيقة التي يمر بها التطور غير محلولة. وعلى كل حال فهناك اتفاق على أن علم الوراثة والذي يدرس عملية الإنتقال البيولوجي لخصائص الأنواع والأفراد إلى الابناء يلعب دوراً هاماً. وقد قام بالعمل الأول في الوراثة جورج مندل في نهاية القرن التاسع عشر. فقد اكتشف أن النباتات والحيوانات تملك جينات والتي عرفها كوحدات خاصة في الخلية والتي تحافظ على سماتها الأصلية من جيل لجيل. ولأن هذه الجينات تحافظ على سماتها الأصلية فهي تحدد صفات الأجيال المستقبلية. ولذلك فدراسة التطور تتصل اتصالاً وثيقاً بدراسة الوراثة الطبيعية.

غير أن نظرية الجينات ولو أنها تفسر لنا لماذا نحن كذلك لا تفسر لنا كيف يتغير النوع الإنساني. هذه العملية التغيرية تحدث من خلال ما يدعى (Mutation) التحول حيث أن الناتج أو المولود «المتحول» (Mutant) يملك سمات تختلف عن سمات الآباء.

ونحن لا نعرف لماذا وكيف تحدث هذه التحولات ولكننا نعرف أنه إذا بقي الناتج أو المولود على قيد الحياة فإن خصائصه سوف تنتقل إلى الأجيال اللاحقة، وهذه التحولات كلية ويبدو أنها صدف أو فشل جزئي في العملية يقدر النوع من خلاله أن يتكاثر. ونعرف أيضاً أن التحولات تزداد بواسطة التعرض إلى بعض الكيماويات أو إلى بعض الاشعاعات. ومعظم هذه التحولات ذو خطر حتفي على المواليد، غير أن بعضها الآخر مفيد لأنه حيادي وربما هي هذه التحولات الأخيرة التي تجعل عملية التطور ممكنة. ومع الزمن والفترات الزمنية الطويلة يمكن للتطور أن يسبب تغيرات كبيرة في خصائص الأنواع النباتية أو الحيوانية وفي هذه العملية تصبح البنية والوظيفة الإحيائية للأنواع أكثر تعقيداً.

ليس من الصعب أن نسوق أمثلة على تغيرات في الأنواع كنتيجة للتحولات الجينية أو لعملية الاختيار الطبيعي. لقد قامت في بريطانيا دراسات عديدة على نوع من العث يتعلق على جذوع الأشجار وهو غذاء شهي للعصافير. ويبدو أن هذا العث كان فاتح اللون حتى منتصف القرن التاسع عشر كما أظهرت دراسات الإحيائيين وبما أن لحاء الشجر كان فاتحاً أيضاً لذلك كان العث يجد فيه حماية كي لا تراه العصافير. أما بعد الثورة الصناعية فقد أدى دخان المصانع إلى تقتيم ألوان قشرة ساق وجذوع الشجرة وأصبحت قاتمة مما جعل العث الغامق اللون يحمي نفسه ضد العصافير كي لا تراه وأصبح العث ذو اللون الفاتح فريسة للعصافير، كذلك فقد كان بمقدور العث القاتم اللون أن يتكاثر وعمل الاختيار الطبيعي فعله في إحلال العث القاتم اللون محل العث الفاتح اللون.

وليس عث الأشجار سوى مثالاً بسيطاً نسبياً لعملية الاختيار الطبيعي. فمن

المعروف أن لون العث ينتج عن جين للون الغامق أو زوج من الجينـات المتنحية للون الفاتح. أما في الحيوانات التي تتكاثر عن طريق الجنس فـإن الجينات التي تؤثـر على بعض الخصائص في الأولاد تنتقـل عن طريق مـا يـدعى (آلليـلات)، واحد من كل من الآباء. وفي بعض الأحيان يكون أحد هذه الـ (آللاليلات) سائد والآخـر متنحي. فإذا مـا اتحدت آلليـلات مسيطرة مـع بعضها بعضـاً أو إذا كـان أحدها قد ازدوج مع (الليـل) متنحي فإن الـ (الـلآيل) المسيـطر هو الـذي يحدد الخصائص المتأثـرة. ولكن إذا ما ازدوج اثنـان من (اللآليـلات) المتنحية فـإنهما يشتركان في تحديد الخصائص المتأثرة. وهكذا حدث في العث فإن الأفراد التي نتجت عن تـزاوج اثنين من (آلليلات) المتنحيـة التي تحدد اللون الغـامق سـوف تصبح غامقة. كذلك هي الحالـة مع الأفـراد التي تأخـذ جيناً للون الغـامق وجيناً للون الفاتح، بينما التي تأخـذ اثنين من اللآليـلات المتنحية للون الفـاتح تصبـح فاتحة اللون.

بعض الخصـائص الإنسـانيـة تنتـج عن جين مفـرد مسيـطر في زوج من الآليـلات أو من جينين متنحيين. لون العينين مثـال على ذلك. في هـذه الحالـة تمثل جينات العيون العسلية جينات مسيطرة وجينات العيون الزرق متنحية، وعلى الإنسان أن يحصل على جينين متنحيين حتى يحصل على عينين زرقاوين. وبينما يكون صاحب العيون العسلية قـد حصل إمـا على جينين للعيون العسليـة أو على جين واحـد يكون على الإنسـان ذي العينين الزرقـاوين أن يكون قـد حصل على جينين منتجين للعيون الزرق. ولذلك فللطفـل فقط ٢٥ ٪ حظ أن يكون ذا عينين زرقاوين وهناك بعض الخصائص الطبيعيـة للإنسـان يشترك في تكـوينها أكثـر من جينين في عملية معقدة مثل لون جلد الإنسان.

يبدو أن الإنسان الأول أو جدودنا من أشباه الإنسان قد تطوروا في المنـاطق الإستوائية حيث البقـاء دون ألبسة ممكنـاً. ولا يستبعد أنهم كـانوا أصحـاب بشرة سوداء لأن الجلد ذا اللون الفاتـح لا يعطي حمـاية ضـد أشعة الشمس الحـارقة. غير أن الجماعات الإنسانية تبدو وقد هاجرت رويداً رويداً إلى المناطق الشمـالية

ولكن كان عليهم قبل أن يصلوها أن يتعلموا كيف يلبسون ليحموا أنفسهم ضد البرد القارص. وفي أقصى هذه المناطق الشمالية كانت الشمس ضعيفة وخاصة في فصول الشتاء الطويلة حيث كانت الشمس تختفي وراء السحب المتكاثفة أو خلف الضباب الذي كان يتكون على مدى فصل الشتاء. وهنالك أصبح الجلد ذا اللون الأسود ليس فقط عديم الفائدة بل ضاراً في كثير من الأحيان لأن أشعة الشمس تساعد جسم الإنسان على إنتاج فيتامين د عندما تتخلله وهذا الفيتامين عنصر أساسي في التغذية. ومن خلال الفترة الزمنية الطويلة التي عاشتها الجماعات الإنسانية في هذه المناطق الباردة طوروا جلداً فاتحاً بواسطة التحولات الجينية (Gene Mutations) وعملية الاختيار الطبيعي.

والاختيار الطبيعي ليس مسؤولاً عن جميع التغيرات التطورية. فقد تحدث مثل هذه التغيرات في جماعات صغيرة نتيجة للتحولات الجينية التي لا تؤذي ولكنها لا تخلق خصائصاً تسهم في البقاء. ولكن بعض الخصائص التي تطورها هذه الجماعات الصغيرة ترفع من إحتمالية البقاء وبهذه الطريقة تتكاثر هذه الجماعات عدداً وتنتشر في مناطق واسعة. وقد يفسر لنا الاختيار الطبيعي لون الجلد الأسود في أفريقيا، ولون الجلد الفاتح في مناطق أخرى إنما لن يكون قادراً على تفسير خصائص عرقية أخرى مثل الاختلاف في أشكال العيون في المجتمعات الشرقية والغربية.

وقد وسع علماء الوراثة معرفتنا عن الوراثة في السنوات الأخيرة، وبينما كان العلماء يفكرون بالجينات أساساً للتركيبة الإنسانية فقد اكتشف العلماء المحدثون أجزاء تركيبية أصغر منها وهو حامض يدعى (DNA) وقد يكون العلماء عرفوه في الماضي إلا أن العالمان جيمس وواتسون وفرانسيس كريك اكتشفوا البنية الثنائية اللولبية لهذا الحامض وأنها تشبه السلم اللولبي. واكتشفوا أن كل درجة في هذا اللولب تخدم كعلامة أو رمز وتحدد كيف أن الحوامض الأمينية مرتبطة ببعضها بعضاً على شكل بروتينات صنعت منها كل الكائنات الحية.

وكـانوا بـذلـك وكـأنهم اكتشفـوا صبغـة الحيـاة (وليس كيف وجـدت الحيـاة في الأصل).

وفي عام ١٩٧٠ فصل الأستاذ بيرج الجين إلى قسمين وبدلاً من أن يراقبها فقد غير هذا التصميم وفتح بذلك عالماً جديداً. فـإذا ما قـدر العلماء على تغيير تصميم الجين فسوف يكونون قادرين على التحكم بالحياة ويخلقون نوعـاً جديـداً من أشكال الحياة ويعيدون تركيبة الأشكال القديمة، وبذلك أصبحت الاحتمالات لا نهائية. وكردة فعل جـاءت العلاقـات بين العلوم والحقول الأخـرى التي سوف نتعـرض لهـا حتى السـوق المـالي الأمـريكي لم يسلم منهـا فقـد ارتفعت أسهم الشركات التي كانت تتعاطى بالعلم مثل شركة الصناعات الـوراثية (Genothec)، وأراد كل واحد أن يشارك في الحملة. وعززت التوقعات حول كسر الجينـات في المستقبل لأنها قدمت طرقاً لانتاج الأدوية التي قد تشفي السكري والنزف الدموي وفقر الدم وحتى السرطان. وتنبأوا بأن هذا التقدم قد يقود إلى انتاج أنواعاً جديدة من الغـذاء وإعادة نمـو الأطراف المبتـورة، وهذه الـلائحـة طـويلة. وكـان تغيـراً تكنولوجيـاً كادت أبعـاده تذهب أكثـر من أبعاد اختـراع العجلة، وماتـور الاحتراق والحـاسـوب. وكمـا هي الحـال في جميـع التغيـرات التكنـولـوجيـة فـإن هـذه الاكتشافات تجلب معهـا تعقيدات جـديدة. هـل سوف تسمـح هذه الاكتشـافات للعلمـاء في السيطرة على الإنسـان؟ وأن تخلق جرثـومة تفني العـالم؟ مثل هـذه الأسئلة تبقى دون أجوبة ويبدو حتى أن السنوات التسعين لن تعطي جوابـاً عليها. وسوف يعطي التفكيـر بهذه الأمـور الإنسان نـوعاً من الشعـور حول كيف أن مثـل هـذه الاكتشافـات الصغيرة تؤثـر على النسق الاجتماعي الـذي نعيش فيـه تـأثيـراً عميقاً.

وإذا ما انتظرت حدوث جميع هذه العجائب فلا تقطع نفسك لأن التوقعات عموماً تذهب إلى أبعد مـا يمكن أن يحققه الإنسـان. فقد أصـاغ جيمس واتسون العـالم الذي اكتشف بنيـة الـ (Genes) المشكلة على النحـو التـالي: «لن أكـون قادراً على شراء أسهـم من شركة تعني بكسـر الجينات حتى لجـدتي». فكل نسق

اجتماعي يعرف قصوراً ذاتياً وسوف تحتاج هذه الاكتشافات ما بين خمسة وعشرين إلى خمسين عاماً لتجد طريقها إلى النسق الاجتماعي. وخلال هذه المدة سوف تظهر اكتشافات تغير وجه هذه الاكتشافات الحاضرة. وكما أن الإنسان قد تطور فكذلك أنساقنا الاجتماعية سوف تستمر في التطور.

لا تشكل دراسة الوراثة الحقل الوحيد الذي يعني شيئاً للتطور كي نحصل على تجربة التقدم، فدراسة التطور كانت وما زالت في تقدم مستمر وقد اتسعت على بعض الجبهات. وقد ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن السلوك الإنساني يرتقي تماماً كما ترتقي علوم التشريح وكيمياء الجسم ليزيد من احتماليات بقاء الأنواع. فالسلوك الذي لا يقود إلى زيادة احتماليات البقاء قد يقود إلى الدمار.

في كتاب خرج عام ١٩٧٥ تحت عنوان «البيولوجيا الاجتماعية: السيرورة الجديدة» طور عالم الحشرات في جامعة هارفارد أدوار ولسون نظريته في علم البيولوجيا الاجتماعية ووسعها في كتاب نشره عام ١٩٧٨ تحت عنوان «حول الطبيعة الإنسانية» وفي عام ١٩٨٢ نشر كتابه «الجينات، العقل والحضارة». والحجج التي تدعم البيولوجيا الاجتماعية كثيرة ومعقدة ونقدم هنا مثلاً على مناقشة الإحيائيين الاجتماعيين: يولد الناس وفيهم خوف كامن من الغرباء، وهذا الخوف نمط وراثي ضروري، وهو شكل من التعليم المجهز يمكن ملاحظته في الأطفال الذين لم يصلوا السنة الأولى من العمر. ولو لم يملك الأطفال على مثل هذا الخوف لكانوا عرضة للهجوم وأقل قابلية للبقاء. وعلى مدى الأجيال يكثر الأفراد الذين يملكون هذا النمط وسوف يكون لهم احتمالية البقاء أكثر من الأفراد الذين لا يظهرون ملكية هذا النمط ومع الزمن فسوف يكمن هذا النمط في النوع.

تبدو مثل هذه المناقشة بسيطة وأن آثارها بسيطة أيضاً ولكن إذا ما وضعنا مكان كلمة غرباء كلمة أخرى مثل «أفراد من جنس آخر» فإن المناقشة تصبح ملاءى بالمشاكل والصراعات وبخاصة إذا ما قارناها بآراء مجتمعاتنا حول مفهوم

«العدالة». فيمكن للناس أن يبرروا جميع سلوكاتهم بأنها متأصلة في جيناتهم. وكذلك فقد أثارت نظرية الإحياء الاجتماعية الرأي (وهو هجوم عليها في نفس الوقت) بأنها تبرر العنصرية. وإجابة على ذلك فقد ناقش علماء الإحياء الاجتماعي بأن نظريتهم لا تعني أن الجينات توجه السلوك بل أن العوامل الوراثية تلعب دوراً. فيذهب ولسون: «هناك آلية يمكن ملاحظتها باستمرار خلال التطور حول الدائرة: وراثة، تغير، تغير حضاري، تغير وراثي... الخ». والمشاكل المثارة متضاربة إلى حد بعيد وهي بقايا لفكرة الإرادة الحرة في تعارضها مع التحديدية التي ناقشها الفلاسفة المسيحيون: هل نعمل ما نعمل لأن ما نعمل مبرمج مسبقاً أو أننا نقوم بهذه الأعمال اختياراً؟ ويبدو أن هذا النقاش سوف يستمر فترة زمنية طويلة.

كذلك فقد هوجمت نظرية التطور من جهة أخرى. لقد ذهب داروين إلى أن التطور عملية تدريجية للاختيار الطبيعي وبقاء الأصلح كظاهرة يمكن الأخذ بها. أما في الوقت الحاضر فقد ذهب التطوريون مثل عالمي الاحاثة (Paleontologists) باتريشيا كيلي وستيفن جولد بأن التغيرات تحدث فجأة من خلال ما يدعى العمليات التطورية الكبرى (Macro) أكثر من حدوثها ببطء في العملية التطورية الدقيقة (Micro). وهكذا فإن نوعاً ما سوف يبقى على ما هو آلاف السنين وفجأة يحدث شيء ما يفنيها ويحل نوع آخر محلها (ربما نتاج كسر الجينات).

ويركز هذا النقاش على البراهين المستخلصة من المستحثات التي يكتشفها علماء الآثار في حفرياتهم. فقد وجد علماء الآثار مستحثات بينت التغيرات المتنوعة التي طرأت على الأنواع مثل الإنسان. وعلى كل حال فقد كانت هنالك حلقات مفقودة تأمل العلماء أن يملاءوها في وقت لاحق ولكنها بقيت فارغة. وهنا تدخل النظرية الجديدة أكثر من أن نتوقع التغيرات كعملية مستمرة. أما نظرية جولد التي يدعوها التوازن المتقاطع فإنها ترى التطور كعملية توقف / واستمرار للتغيرات المفاجئة ثم تأتي فترات طويلة دون تغير.

يمكننا رؤية الفرق بين التوازن المتقاطع والتطور المستمر في الشكل (٢ ـ ١) فالخطوط العمودية تمثل الرأي التقليدي، بينما الرأي الجديد(التوازن المتقاطع) تمثله الخطوط الأفقية مع قفزات فجائية إلى الأعلى أو مراحل تمتد إلى مليون سنة أو أكثر. وقد قدم لنا مثالاً على ذلك بيتر وليامسون، عالم الآثار من هارفرد في بقايا الحلزون في بحيرة تركانا في كينيا. فقد اكتشف أن تغيرين قد طرءا على مدى مليوني سنة حدثت فيهما تغيرات تطورية بينما لم يحدث أي تغير بين هذين التغيرين. وهكذا يكون التطور كما في رأي جولد ثورات تفصلها فترات زمنية هادئة. وقد جذبت نظرية التوازن المتقطع الاهتمام لأنها أيدت المقدرة في شرح أجزاء من الظاهرة عجزت عنه النظرية التقليدية. ومثال على نظريته هو اندثار نوع الدينوساور قبل ملايين السنين. ولو كانت عملية التطور عملية بطيئة لكان هذا النوع قد اندثر ببطء.



شكل ٢ ـ ١:
تصور الفنانين لمركب DNA الجزيء

٤ ـ تطور الإنسان :

لا يشكل الكثير مما يحدث في النظرية العلمية المجردة أخباراً جديدة بعض المجلات مثل (National Geographic) أو (Scientific American). وعلى كل حال فإن الكثير من الآراء المتضاربة حول التطور قد قامت بناء على الفكرة التي كونها بعض الناس بأن هذه النظرية تغالط نظرية الخلق كما جاءت في الكتاب المقدس (اليهودي المسيحي والإسلامي) وبقيت هذه الآراء المتضاربة منذ شارلز داروين حتى وقتنا الحاضر وبخاصة بين التقليديين الذين يؤمنون بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس.

وللتعرف على مدى هذه التناقضات يكفي أن نرجع إلى بعض المحاكمات التي اهتمت بالموضوع. ففي عام ١٩٢٥ في ولاية تنسي قدم معلم الإحياء جون سكوبس للمحاكمة بتهمة التعدي على قانون شرعتّه الدولة يقضي بمنع تعليم نظرية التطور في المدارس العامة. ولم يعاد النظر في هذا القانون ولا في القوانين المماثلة في الولايات المجاورة حتى نهاية الستينات. وقد تحركت نظرية التطور في الأونة الأخيرة الآن ضد هجومات قام بها بعض مدعي العلم بالقول بنظرية الخلق. فقد أثروا على بعض فقرات القوانين في عدد من الولايات تطلبت تعليم المعارضات الدينية ضد التطور بينما كانت هذه تدرس في صفوف المدارس العامة من خلال النصوص التعليمية.

لم تقدم أي من المؤسسات العلمية دعمها العلمي لنظرية الخلق. وفي الحقيقة قامت جميع السلطات العلمية المعترف بها برفض الهجوم على الحرية الأكاديمية، والطريقة العلمية التقليدية وعلى مبدأ الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة. وفي عام ١٩٨٢ قامت محكمة فيديرالية باتخاذ قرار اعتنقت فيه الرأي العلمي وقضت بشجب قانون في أركنساس أقر تدريس نظرية الخلق العلمية في المدارس العامة بناء على الرأي أن نظرية الخلق ليست علماً بل ديناً بما أنها ترتكز على قاعدة روحية غير موضوعية وبذلك تتعدى على ذلك الجزء الذي ينص على الحريات الدينية في الدستور الأمريكي.

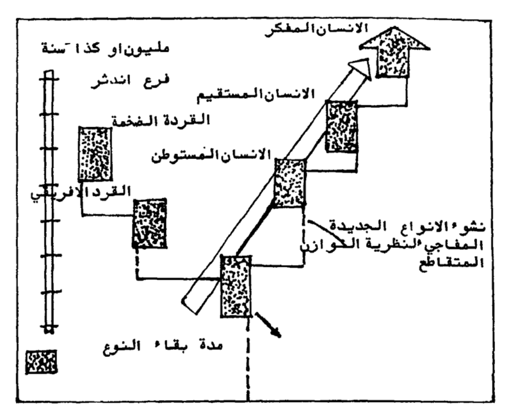
وقد استعملت هذه المناقشات حول نظرية الخلق العلمية نظرية جولد الجديدة التي تقول بالتغيرات التطورية المفاجئة بدلاً من البطيئة كبرهان علمي لدعم قضية الخلق وركيزة للقائلين بها. إلا أن جولد نفسه شرح في المحكمة أنه يتحدى التطور وأن نظريته لا تشجب نظرية التطور وأن التطور حاصل.

وليس من السهل هنا تقرير ما يجب أن يدرّس في المدارس العامة وأن هذه النقطة ليست موضع نقاش هنا. وعلى كل حال فإننا نؤكد أن جميع النقد الذي وجهه العلماء لنظرية التطور بين الفينة والأخرى كان نقداً لتفاصيل خاصة في النظرية وأن العلماء ذا المسؤولية العلمية لم يذكروها. والجملة «نظرية الخلق العلمية» متناقضة في ذاتها لأنها تنطلق من الاعتقاد بأن الحياة بدأت فجأة نتيجة لعمل مفاجيء قامت به القدرة الإلهية وأنها لم تتغير بشكل ملحوظ. وهذه الفكرة في الأساس صياغة دينية للأصول الطبيعية. العلم يدرس العلة والمعلول وهكذا يبحث عن استمرارية. لا يعني هذا أنه لا دور للدين في العلم. وفوق كل شيء فإن الوجود أو الكون يجب أن يجد تفسيراً ولا توجد نظرية تفسر لنا كيف أن شيئاً ما قد يخلق من اللاشيء.

٥ ـ أسلاف الإنسان الحديث:

اهتمت إحدى المكتشفات الأثرية بتطور الإنسان. وعلى الرغم من صلة الإنسان الوثيقة بالفقريات الأخرى إلا أننا لا نعرف كيف تطور الإنسان أو نشأ على وجه الدقة. وإذا ما سمحنا لأنفسنا بتبسيط الأشياء فإن الشكل ٢ ـ ٢ يقدم لنا آراء علماء الإنسان حول إنحدار السعدان والقرد والإنسان من النوع السلف المشترك من الفقريات.

يعتقد الأنثروبولوجيون عامة أن الفقريات كانت تعيش في الأشجار وأنها طورت خلال هذه الفترة أطرافاً قوية جداً وأصابع قابضة في كل من اليدين والرجلين للتعلق على الأغصان. ومعظم الفقريات مثل الجيبون والأورانج أوتانج ما زالت تعيش في الأشجار عد الغوريلا التي نزلت من الأشجار إلى الأرض مثل



شكل ٢ ـ ٢: نظرية إرتقاء جديدة تمثل الإرتقاء في النظرية التقليدية في الخطوط المائلة إلى أعلى. أما في النظرية الجديدة فإنه يتمثل في الخطوط المتوازية بقفزاته المفاجئة إلى الأعلى أو توقفات كل مليون أو كذا سنة.

الإنسان. وينام الشمبنزي في عش على الشجرة ولكنه يقضي معظم أوقات النهار على الأرض. ويبدو أن السبب في هذا التحول كان الازدياد في حجم هذه الكائنات. فالغوريلا يزن مثلاً ما بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ كغم وهو ثقيل جداً للحياة على الأشجار. وكذلك هو الشمبنزي لا يستطيع التمرجح على الأغصان عدا إذا ما اختار هذه الأغصان بكل حذر. والقردة الكبيرة مثل الإنسان تسير على قدمين ولكنها لم تصل إلى درجة انتصاب جسم الإنسان وعادة ما تسير هذه الحيوانات على الأربعة.

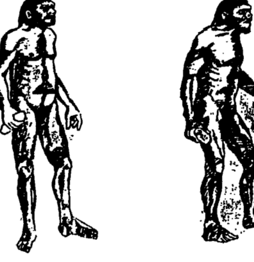
وربما كان أهم اختلاف فيزيائي بين الإنسان والقردة هو حجم وتعقيد الدماغ. نجد في أنواع الحيوانات المختلفة علاقة بين الذكاء وحجم الدماغ

وبخـاصة وزن الـدماغ بـالنسبة إلى وزن الجسم ولكن أهم مـا يكـون هـو تنظيم الدماغ. الفائدة الرئيسية للحجم الكبير هي أن هذا الجسم يـوجد حيـزاً للخلايـا الإضافية ولآليـات أكثر تعقيـداً. وعلى العموم فـإن الشمبنزي أصغـر من الإنسان ولكن بعضها يزن بين ٦٠ ـ ٧٠ كغم. ويزن مخ أصغر إنسان ثـلاثة أضعـاف مخ الشمبنـزي الـذي يملك على نفس وزن هـذا الإنسـان كمـا أن نصف الـدمـاغ الخـارجي للإنسـان أو ذلك الجـزء المختص بالـذاكرة والفكـرة قد يحتـوي على عشرة أضعاف الخلايا الموجودة في هذا الجزء عند الشمبنزي. ولا توجد شكوك في العصـر الحاضـر بأن هـذا الدمـاغ الإنساني المعقـد أساس جـوهري لمقـدرة الإنسـان في تحصيل الـذاكرة وتخـزين المعلومـات، واستعمـال الـرمـوز وللقيام بالأفكار المجردة.

على أن الإنسان قد سار منتصباً على قدميه حتى قبل أن يطور حجماً دماغياً عادياً. وعلى الرغم من أن علماء آخرين اكتشفوا بقـايا أعـادوها إلى وقت سحيق تتعدى أربعة ملايين سنة إلّا أن المعلومـات عن أصل الإنسـان بقيت غير كـافية. وكمـا يذكـرنا أحـد العلماء فـإن الأرض ليست متحفـاً مـرتبـاً. على العكس فهي متحف فقير جداً. وقد استطاعت بعض هذه المستحثات للحيوانات الكبيرة البقاء بسبب أو نتيجة لاقتران نادر بين الأحوال الطبيعية على مدى طويل من الزمن يـربو على المليوني سنة. وكما قال لويس ليكي مرة:

«لن نكـون قـادرين على أن نشيـر إلى مخلوق معين ونقـول: (هنـا بـدأ الإنسان)».







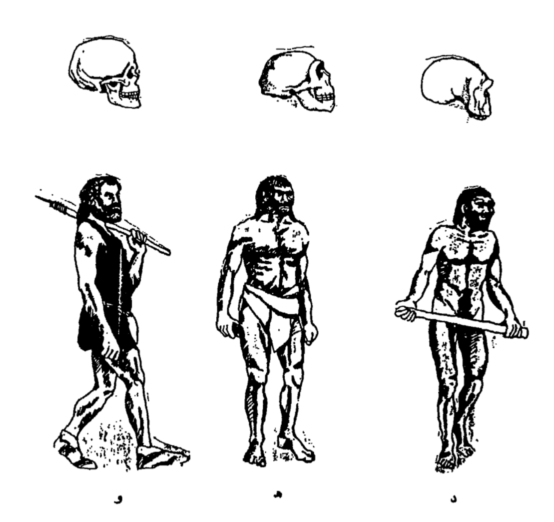


الشكل ٢ ـ ٣:

الإنسان الأول (أ) قردة أفريقيا الإنسانية (قبل ٢٠٠٠٠٠٠ سنة): الإنسان القرد فقد اعتبر أول نوع إنساني كأصل للإنسان. على الرغم من صغر حجم جمجمته فقد كان يسير مستقيم القامة ويستعمل أدوات لا شكل لها مثل العصي والحجارة والعظام.

(ب) قردة استراليا الإنسانية الضخمة (قبل ١٠٠٠٠٠٠ سنة): أدى إرتقاء آخر دام مليون ونصف سنة إلى حجم أكبر من هذه المخلوقات الإنسانية، جمجمة أوسع وربما أيضاً قدرة أكبر على استعمال المخ. وتفترض الأسنان الضخمة لهذا المخلوق أنه كان خضري كما يفترض وجود بعض الآلات المتطورة في مساكنه أنه كان أول من استعمل الآلات التي شكلها حسب الحاجة.

(جـ) الإنسان المنتصب (قبل ٦٠٠٠٠٠ سنة): كان لإنسان بكين جسم يقارب جسم الإنسان الحديث وكان منتصباً أكثر من أسلافه وحجم مخه أكبر من حجم مخ سلفه ويبدو أنه عاش في جماعات واستعمل النار.



(د) أول إنســـان مفكــر **(Homo Sapiens)** (قبل ٢٠٠ ٠٠٠ سنة): كان هذا المفكـر هو الإنسان الذي تفرع عنه الإنسان الحـديث، فقد طور حجم مخ أكبـر بكثير من أسـلافه سمـح له أن يكـون النـوع المسيـطر على الأرض بين الأنواع الحية.

(هـ) نيـانـدرتهـال الأول (قبـل ٧٠ ٠٠٠ سنة): يظهر هذا الإنســان تطوراً في حجم مخــه أدى بــه إلى خلق أدوات متقـدمـة وأسلحــة وحضـارة مبـدئيـة. وكــان أول إنســان يلبس المـلابس صنعهـا من جلود الحيوانات.

(و) إنســان كـرومـاجنـوم (قبـل ٣٥ ٠٠٠ سنة): ويبدو أن ملابسه وأدواته ومساكنه وأسلحته كانت متفوقة على مـا قبلها. كمـا ظهـر أن الرسوم التي تـركهـا على جـدران المغـاور وأن حليـه ومجـوهـراتــه كـانت مدهشة الجمال والتعبير، وقد ثبت أن هذا الإنسان طور الفكر الديني وتكلم اللغات.

٦ ـ أصل المجتمع:

الآن وبعد أن رأينا كيف تطور الإنسان علينا أن نعرف كيف تطور المجتمع. فالإنسان أولاً وقبل كل شيء كائن اجتماعي ولذلك فلا نقدر على فهم طبيعته دون ربطها بمحيطه الاجتماعي وفهمه. وهذا هو السبب الذي من أجله توجد العلوم الاجتماعية وليس فقط علم الإنسان الحضاري.

٧ ـ الطبيعة الإنسانية وعملية التنشئة الاجتماعية:

لكي نقدّر ما هو الكائن البشري إذا ما فشل في الحصول على طبيعته الإنسانية من خلال تعامله مع الآخرين دعنا ننظر إلى ما يحدث للكائن البشري الذي ينمو في معزل عن أبناء البشر. الحالات التي احتجز فيها أطفال عن تعاملهم مع الآخرين منذ الولادة وقدّم لهم الطعام والشراب من خلال فتحة أو شباك خاص قليلة جداً. مثل هؤلاء الأطفال لم يطوروا طبيعة إنسانية وكان سلوكهم أشبه ما يكون بسلوك الحيوان. فلم يظهروا علامات ذكاء ولا مهارات وانتقصوا حتى العادات الأولية كالنظافة، ولم يكن لهم آمال ولا طموحات ولا وعي، فهم لم يكونوا قادرين حتى على الحديث. ولا يصبح الطفل إنساناً إلا إذا تربى بين أفراد الإنسان وكان على صلة بهم وتفاعل معهم.

طباع وشخصية كل كائن بشري انعكاس للمجتمع الذي يعيش فيه ولو أن هذا الانعكاس ليس كلياً. ضمن محيطه الاجتماعي يحصل الإنسان على معرفته ومهاراته وعاداته وفعالياته ودينه وأخلاقه. والعملية التي تسبب ذلك أو تعمل على تحصيل الإنسان لهذه المزايا وتشكل شخصية الفرد بحيث يكون قادراً على التكيف ويصبح عضواً في المجتمع ندعوها «تنشئة اجتماعية». ففي الأردن تفكر أغلبية الناس ويشعروا كأردنيين لأنهم عاشوا معظم سني حياتهم بين الأردنيين وفي المحيط الاجتماعي الأردني. ولو أننا عشنا بين مجموعة من سكان الأسكيمو منذ الولادة وفي تلك العزلة القطبية حيث لا يوجد اتصال مع العالم الخارجي، فإننا لن نكون قادرين على فهم المجتمع الأردني ولا المشاركة في طريقة حياة

الأردنيين لأننا عندها كنا سوف نتعلم كيف نشعر ونفكر ونتصرف مثل الأسكيمو.

. لا يعني هـذا أن جميع الأردنيين أو جميـع أفراد الأسكيمـو يتشـابهـون في الشخصية. هناك اختلافات مهمة بين العائلات التي نشأنا فيها وكذلك اختـلافات في جوانب عديدة من محيطنا الاجتماعي. وفوق كل ذلك، فلو أن علينا أن نكون مخلوقات بشرية ونرث مقدرات إنسانية لنطور الـطبيعة الإنسـانية إلا أنـه لن يكون لأي شخصين منـا ردة فعل على نفس المحيط الاجتمـاعي بنفس الـطريقـة، لأن الاختلافات البيولوجيـة التي نرثهـا تؤثر على ذكـاء وطباع الفـرد وبذلـك فهي تؤثر على تفكيره وسلوكه. ففي كل مرة ترتبط الوراثتان الاجتماعية والبيولوجية ارتبـاطاً وثيقاً بحيث يصعب علينا أن نتأكد من التأثير النسبي لكل منهما. وعلى كـل حال فالمحيط الاجتماعي يحدد نمط الحياة العام لكل منا، وغالبـاً ما نتعلم كـل شيء نعتقـد به أو نعـرفه من مـلاحظة الآخـرين والاستماع إليهم أو من قـراءة مـا كتب الآخرون أو من التفكير بما كتبوه.

٨ ـ الحضارة وطبيعة المجتمع :

على الرغم من أن المجتمع هو الذي يصوغ شخصية كل فرد إلى حد بعيد فمن الـواضح أنّـه لا وجود للمجتمـع خارج الأفـراد الذين يتكـون منهم. يتكـون المجتمع من ناس وتتشكل وتتغير خصائص كل مجتمع تدريجياً عبر الأجيـال من خلال الاختراعات التي يقدمها أفراد المجتمع. وتأثير أي فرد في المجتمع ضئيل ولكن الإسهامات التي يقوم بها أفراد كثرة على فترات طويلة من الـزمن قد تكـون عظيمة جداً.

٩ ـ المجتمع والتنظيم الاجتماعي:

لا داعي أو ليس من الضرورة أن تكون مجموعة من الناس مجتمعاً. فذلك العدد من الناس الذي يجتمع صدفة ومؤقتاً ندعوه حشد أو مجمـوعة غيـر منظمـة ولكنهـا ليست مجتمعاً على الـرغم من أن أعضاء هـذه المجموعـة موجـودون في نفس الحيز أو المكان في تلك اللحظة وتجمعهم مصلحة مـا. وعلى المجموعـة

أن ترتبط من خلال علاقات ثابتة كي تكوّن مجتمعاً، أي يجب أن تكون منظمة.

وعلى الرغم من أن أساس أي مجتمع هو مجموعة من الأفراد، فإن المجتمع لا يتكون إلا إذا كانت هنالك استمرارية في وجود هذه الجماعة من الأفراد على فترة من الزمن. فجمهرة الأفراد التي تجتمع من أجل لعبة كرة القدم لا تكون مجتمعاً لأن أفرادها يتبعثرون بعد اللعبة مباشرة. وهم لا يستمرون مع بعضهم مدة طويلة كافية لأن ينظموا أنفسهم في مجتمع. ولكن لو حجز هؤلاء مع بعضهم لمدة عام في جزيرة معزولة فإنهم سوف يجدون أنفسهم مرغمين على تنظيم أنفسهم، وسوف يطورون مصالحاً وأفكاراً مشتركة وسوف يجدون تقنية للحياة والعمل معاً.

١٠ ـ الحضارة ودورها في المجتمعات الإنسانية:

المجتمع هو مجموعة منظمة من الناس تتبع طريقة حياة معينة. وحضارة مجتمع ما هي طريقة الحياة التي يتبعها الناس في ذلك المجتمع. وبكلمات أبسط كما وضعها العالم ميلفيل هرسكوفيتس: «يتكون المجتمع من ناس والطريقة التي يتصرفون حسبها هي حضارتهم». وتشمل حضارة كل شيء من أصل إنساني في حياة أفراد المجتمع. هذا يعني كل شيء يتعلموه من خلال علاقاتهم المباشرة وغير المباشرة مع الآخرين. وهي تشمل الطرق الاعتيادية في السلوك اليومي، والمعتقدات الدينية، والمستويات الأخلاقية، وطريقة تنظيم حياة العائلة، والطرق المستعملة للحصول على الطعام والحماية، واللغة والحكومة وأشكال التعبير الفني.

تتطور الحضارة فقط من خلال اشتراك أفراد الإنسان في الحياة، ولذلك فالحضارة تفترض مسبقاً أن يكون هنالك مجتمعاً. وفي نفس الوقت فإن الحضارة هي التي تجعل المجتمع الإنساني ممكناً. ولا تستطيع جماعة أن تقوم بمهام الجماعة المنظمة إلا إذا طورّ أفرادها إلى درجة ما حضارة مشتركة، لأن الحضارة المشتركة هي التي تجعل من الممكن أن يعرف الأفراد ما يقدرون على أن

يتوقعوه من بعضهم بعضاً وأن يعرفوا كيف يتصرفون ليفوا بمتطلبات الجماعة. والمجتمع موجود لأن الطبيعة حبت الإنسان بطرق لا نعرفها أو نفهمها كلياً والمقدرة على خلق الحضارة ونقلها إلى الأجيال المتتابعة. وهكذا فإن الحضارة تخلق المجتمعات وأن المجتمعات تعتمد على الحضارة.

١١ ـ الحالة الفريدة للحضارة:

لا يخلق الحضارة الحقيقية إلا الإنسان. صحيح أن الحشرات الاجتماعية قد طورت مجتمعات معقدة إلى حد بعيد ولكن هذه المجتمعات ترتكز على الحدس المحض أو نمط سلوكي وراثي بحت. وتعيش حيوانات كثيرة في مجموعات اجتماعية لها قيادة وتنظيم أولي لكن الحيوانات لا تقدر على نقل لأفكار المجردة إلى بعضها بعضاً ولا تستطيع أن تورث التجربة والمعرفة من جيل إلى جيل وتضيف إليها المزيد من التجربة والمعرفة كمّاً وتعقيداً. وقد يكون هناك بعض الاقتراحات الطفيفة حول الحضارة بين الحيوانات. صحيح هو أن بعض أنواع الحيوان تظهر بعض مزايا الحضارة. فالشمبنزي مثلاً يقدر على حل بعض المشاكل البسيطة ويستطيع الواحد منها أن يتعلم من ملاحظة الآخرين من رفاقه. وبعض الحيوانات تتعلم من حيوانات تنتمي إلى غير نوعها. فبعض الطيور مثلاً قادرة على تغيير نمط أصواتها في الغناء من خلال تقليد أصوات مسجلة لعصافير أخرى شريطة أن تتعود على سماعها منذ الولادة لمدة طويلة. وعندما تتعلم هذه الألحان الجديدة فإن العصافير الأكبر سناً سوف تؤثر على الأجيال الأصغر سناً بحيث يحدث نوع من التقليد الحضاري، ويستمر. وعلى كل حال فمثل هذه العملية التعليمية تقليدية وصلاتها بعملية نقل الأفكار وأنماط السلوك المعقدة التي يعرفها الإنسان قليلة جداً.

١٢ ـ دور اللغة:

لقد تعلمنا أن مقدرة الإنسان على استعمال اللغة هي أحد العوامل الأساسية التي تفرد الإنسان عن باقي الكائنات الحية. وتشرح لنا هذه المقدرة

أكثر مما تستطيعه أي من الخصائص الإنسانية الأخرى تطور انتقال الحضارة، فاستعمال اللغة عند الإنسان جوهري لتطوير الارتباطات المجردة أيضاً وليس فقط في عملية نقل الأفكار. وقد وضع علماء النفس المحدثون السؤال حول ما إذا كانت عمليات التفكير الإنساني محتملة لو لم يملك رموزاً تحل محل المفاهيم المجردة.

ويعي الأفراد الذين يتقنون لغتين مثلاً أنهم قادرون على استخدام سلسلة من الأفكار في كل من اللغتين ولكنهم لا يقدرون على ذلك دون لغة. وعلى أية حال فإن اللغة لوحدها لا تفسر الحضارة لأن هناك عناصر حضارية أخرى مثل استعمال الأدوات البسيطة وبناء الأكواخ أو المساكن البدائية الأخرى يمكن أن تورث من جيل إلى جيل دون مساعدة اللغة.

١٣ ـ القاعدة العضوية لمقدرة الإنسان على صنع الحضارة:

لقد لاحظنا سابقاً أن الأساس العضوي والفيزيائي لمقدرة الإنسان على انتاج الحضارة غير معروف وأن الدماغ الإنساني قد لا يختلف عن دماغ الشمبنزي أو الغوريلا إلا بالحجم وربما بالتعقيد أيضاً. ويبدو أن سر مقدرة الإنسان في استعمال الآلات واختراعها وحل المشاكل الصعبة ونقل الأفكار عن طريق الحديث يكمن في مكان ما من هذا الدماغ الإنساني. فللشمبنزي مثلاً أعضاء صوتية تشبه الأعضاء الصوتية عند الإنسان ولكنه لن يحاول حتى تقليد الإنسان في الحديث. ونستطيع أن نفترض أن الإنسان أخذ تدريجياً بتحصيل المقدرة على تطوير وتعلم وبث العناصر الحضارية واللغة بعد أن تطورت بعض أجزاء الدماغ تطوراً كافياً في عملية الإرتقاء، ولدينا بعض الأدلة التي تساند هذا الافتراض: فإذا ما أصيبت بعض أجزاء الدماغ بضرر فإن المقدرة على الحديث تبطل.

السبب الذي من أجله ينظم الإنسان نفسه في مجتمع هو أن عليه أن يشبع حاجات أولية معينة. وأفضل طريقة لإشباعها هي من خلال مجموعة من الأفراد

الـذين يختصون ببعض النشـاطات المعينـة بحيث أن الفـوائـد تعـود على جميع الأفراد. وقد تختلف الطرق التي تقوم بها الحضارات العـديدة بـإشباع الحـاجات اختلافاً كبيراً. وعلى الرغم من ذلك فإن الأنماط السلوكية التي تطورها جمـاعات بعيدة عن بعضها بعضاً تحتوي على أوجه شبه عديدة. ولا تعـود هذه التشـابهات إلى الطبيعة البشرية المشتركة عند أبناء البشرية فقط بل أيضاً إلى عناصر مشتـركة في البيئات الطبيعية التي يعيش فيها الناس في مناطق مختلفة من العالم. وبغض النـظر عما إذا كـانت طرق إشبـاع الحاجـات متشابهـة. فبعض الحاجـات الأولية موجودة في جميع المجتمعات ويمكن تصنيفها كالتالي:

١ ـ تربية الأطفال والعنايـة بهم. وتشبع هـذه الحاجـة في كل مجتمـع عن طريق جماعة العائلة المنظمـة. وبجانب ذلـك نجد في كـل مجتمع مؤسسـة تعتني بالأيتام.

٢ ـ حاجة كل فرد أن يكون له موضع معترف به أو مركز (اجتمـاعي) في مجتمعه كي يشعر بالطمأنينة ويتصرف من خلال طرق تفي بتوقعات المجتمع منه.

٣ ـ حاجات ورغبات أولية مثل الطعام والمسكن واللباس.

٤ ـ تنظيم وحماية الملكية.

٥ ـ الفعـل الجماعي للمحـافظة على النـظام وخدمـة المصلحة العـامة. وعنـدما تصبح هذه الأفعال منظمة وتأخذ شكل الرسميات فإنها تدعى حكومة.

٦ ـ الحاجة إلى تفسيرات للإنسـان والعالم ومعنى الحيـاة. وكثيراً مـا تكون هـذه التفسيرات في مدار ما فوق الطبيعة: السحر والأساطير والدين.

٧ ـ الحـاجة إلى التعبيـر الجمالي من خـلال وسائـل كـالشعـر والغنـاء والأدوات الموسيقية والرقص والرسم والحفر والهندسة.

٨ ـ الحـاجة إلى الاتصـال. فلكـل جمـاعـة اجتمـاعيـة لغـة لا يمكن أن تـوجـد الحضارة دونها.

٩ ـ الحاجة إلى إمكانية الدفاع والعدوان. هنالك بعض الشعوب الأمية البدائية التي لا تعرف الأفعال الحربية، لكن معظم الحضارات تحتوي على أنماط سلوكية حربية.

١٤ ـ الجماعات الأولية والثانوية:

أنواع الجماعات التي ينتجها الإنسان ليشبع حاجاته. وبعض هذه الجماعات الاجتماعية كبيرة وبعضها صغيرة جداً. فالمجتمع الأردني يتكون من جميع الناس الذين يسكنون في الأردن وعددهم الآن يربو على ثلاثة ملايين نسمة، أما المجتمعات البدائية فلا تتعدى بضع المئات من الأعضاء وبعضها لا يزيد على عشر عائلات. ولكن كل جماعة كبيرة يمكن أن تكون مجتمعاً تحتوي على جماعات صغرى متنوعة.

عندما تعيش مجموعة من الأفراد معاً كما في العائلة وأبناء الحارة أو الجماعات الريفية الصغيرة فإنها تكون ما يدعوه عالم الاجتماع «الجماعة الأولية». والجماعات الأولية هي تلك التي تمتاز بالعلاقات الشخصية العاطفية والتي ندعوها «وجهاً لوجه» بين أعضائها. ففي الجماعة الأولية يعرف كل فرد ويكون الضبط الاجتماعي فيها على المستوى الشخصي. وفي هذه الجماعة يتوجه الفرد في سلوكه نحو ما يتوقعه منه أفرادها لأسباب عديدة: **الأول**: هو أن معظم أفراد هذه الجماعة يشتركون جوهرياً بنفس المعتقدات والمواقف. **ثانياً**: أن سلوك كل فرد معروف عند جميع الأفراد الآخرين. **ثالثاً**: لأن الأفراد يعرفون هؤلاء الذين يختلطون بهم كل يوم شخصياً فهم يقدرون آرائهم الحسنة ويخافون معارضتهم وإشاعاتهم وأن تنبذهم الجماعة. أما في الجماعات الكبيرة فإن الحالة تختلف تماماً. وهنا نجد ما يدعوه علماء الاجتماع «الجماعة الثانوية». مثال جيد على ذلك هم سكان المراكز الحضرية حيث معظم أعضاء الجماعة الثانوية لا يعرفون بعضهم بعضاً ولا يتقابلون وجهاً لوجه قط أو ما ندر ومعظم علاقات الواحد بالآخر علاقات غير مباشرة. وتحدث هذه العلاقات غير المباشرة عن

طـريق إحدى المنـظمات أو من خـلال وسائـل الاتصـال مثـل الصحف اليـوميـة والراديو والتلفـزيون. وربمـا تبدو العـلاقة بين الصحفي الـذي يقوم بـالمقابـلات وقاريء الأخبار على شاشة التلفزيون علاقة أوليـة إلا أنها ليست كـذلك بـالمعنى الذي نفهمه ونستخدمه في العلوم الاجتماعية. وربما كان الصحفي يعرف قاريء الأخبار إلا أن قاريء الأخبار قد لا يعرفه قط ولا سمع حتى باسمـه. فهي علاقـة غيـر متبادلـة ولا تعرف مـا يدعى «بـالتغذيـة العكسية». وقـد تكون هـذه العلاقـة المباشرة بين الأفراد في الجماعة الثانوية رسمية لأن هذه العلاقات في غالب الأمر علاقات بين غرباء. فقلما يعرف الفرد موظف الـدكان أو سـائق الباص أو الأفـراد الذين يتناولون الطعام في المطعم.

ويميل الضبط الاجتماعي في الجماعة الثانوية إلى الرسمية، والاختلافـات الحضارية بين الناس أكبر، ذلك أن هناك فـروقاً كبيـرة بين الطبقـات الاجتماعيـة وتنوعات عريضة من الجماعات الفرعية تنتمي إلى فئات عرقيـة ووطنية مختلفـة. وهنالك سبب آخـر وهو أن تجمعـات الناس تحـدث بناء على المهنـة والمصلحة الخاصة، وعدا فيما يخص أعضاء بعض الجماعات الفرعيـة الصغيرة فـإن الأفراد قلما يعرفون بعضهم بعضاً على المستوى الشخصي ولذلك فإن الإشاعات والآراء العامة أقـل تأثيـراً على الناس كي يكفـوا عن السلوك الشاذ. وخـلافاً للجمـاعات الأولية فإن الضبط الاجتماعي في الجماعات الثانوية يجب أن يحـدث عن طريق المؤسسـات الرسميـة مثل الشـرطة والمحكمـة. وفي معظم الأحيـان تكون هـذه الـرقابـة الاجتماعيـة أقل تـأثيراً من الضبط الاجتمـاعي الشخصي الذي تمـارسـه الجماعات الأولية.

١٥ ـ الاختلافات في الحضارات:

لا يحتـوي المجتمع على جمـاعات عـديدة فقط إنمـا هنالـك أيضاً طـرق عديدة ومختلفة تتطور المجتمعات من خلالها. فعلى سبيل المثال، ينمو الأطفال في مجتمعنـا في عائـلات تتكون من رجـل متزوج من امـرأة واحـدة. أمـا بعض

المجتمعات فتعرف عائلات مكونة من رجل واحد وعدة زوجات لكل منها عدد من الأولاد. كذلك ففي المجتمعات البدائية يصنع الإنسان طعامه ولباسه بمساعدة آلات وأدوات يدوية بسيطة. أما في المجتمعات المتحضرة فتقوم بصنع هذه الأشياء ماكينات تعمل على نسق معقد من الطاقة. وفي بعض الجماعات الهندية لا تستعمل الألبسة إلا قليلاً كما في شعب الكمايورا من الهنود الحمر. كذلك فالشعوب البدائية تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً، إلا أنها إن لم تتصل بالشعوب المتحضرة فجميعها تبقى كما هي دون تغير. وعلى عكس ذلك فالمجتمعات الصناعية عرضة للتغير السريع. ونرى في هذه المجتمعات أن الحاجات الإنسانية تتضاعف باستمرار وكذلك أيضاً المنتجات التي يجب أن تشبع هذه الحاجات، وإذا ما ذهبنا من حضارة إلى أخرى فإن العلاقات العائلية والنشاطات الاقتصادية والحكومة والدين والفن تأخذ جميعها أشكالاً مختلفة.

١٦ ـ التفاعل بين الإنسان والمجتمع:

على الرغم من أننا جميعاً نتاجاً لبيئتنا الحضارية إلى حد بعيد إلا أنه لا يوجد فينا شخصان مرا بنفس التجربة الشخصية. وأكثر من ذلك فإنه لن يوجد شخصان قد ورثا نفس التركيبات الطبيعية والعصبية من الناحية الإحيائية. وهذه الاختلافات الموروثة سوف تقود إلى ردود فعل مختلفة على العديد من العناصر في المحيط الحضاري.

وهكذا فإن دراسة النوع الإنساني دراسة معقدة تتحرك من صفات الأفراد الفريدة من نوعها إلى الجوانب العامة للمجتمع لتعود ثانية إلى الجوانب الفريدة عند الأفراد. ولذلك فمن الضروري أن تشمل سلسلة طويلة من المواضيع يختص بعضها بالمجتمعات بينما يبقى بعضها الآخر مواضيع عامة.

أسئلة للمراجعة ونقاش الفصل الثاني :

١ ـ لماذا نقول أن الإنسان كائن اجتماعي؟

٢ ـ ما هي الإمكانيات الثلاث التي أعطت الإنسان امتيازات على باقي المخلوقات؟

٣ ـ لماذا وضع الإنسان والقردة والسعادين في فصيلة الفقريات؟

٤ ـ اشرح نظرية داروين في التطور؟

٥ ـ كيف صحح علماء الوراثة المحدثين نظرية داروين؟

٦ ـ هل يمكن للعلماء خلق الحياة؟ اشرح.

٧ ـ كيف يفسر علم الإحياء الاجتماعي تطور السلوك الإنساني؟

٨ ـ ما هي نظرية التوازن المتقطع ولماذا أهميتها؟

٩ ـ ما هي عملية التنشئة الاجتماعية وكيف تؤثر علينا؟

١٠ ـ اشرح العلاقة بين الحضارة والمجتمع؟

١١ ـ اشرح لماذا يلعب الحدس دوراً غير هام في السلوك الإنساني؟

١٢ ـ هل يملك الحيوان لغة؟

١٣ ـ سمي تسع حاجات للمجتمع؟

١٤ ـ ما الفرق بين الجماعات الأولية والجماعات الثانوية؟

١٥ ـ لماذا تأتي أهمية الضبط الاجتماعي الرسمية في الجماعات الثانوية أكثر منها في الجماعات الأولية؟

المفاهيم المستعملة في الفصل الثاني

ـ تطور	Evolution
ـ فقريات	Primates
ـ اختيار طبيعي	Natural Selection
ـ وراثة	Genetics
ـ جينات	Genes
ـ الآليلات	Alleles
ـ الجين السائد	Dominant Genes
ـ الجين المتنحي	Recessiu Genes
ـ DNA	
ـ شطر الجين	Gene Division
ـ علم الإحياء الاجتماعي	Sociobiology
ـ التوازن المتقطع	Punctuated Equilibrim
ـ نظرية الخلق العلمية	Creationism
ـ الإنسان المفكر	Homo Sapiens
ـ النوع الإنساني	Hominoids
ـ إنسان نياندرتهال	Neanderthal
ـ الفرد الجنوبي الأفريقي	Australopithecus
ـ التنشئة الاجتماعية	Socialisation
ـ المجتمع	Society

ـ الجمهرة (التجمع أو الحشد)	Collectivity
ـ الحضارة	Culture
ـ الحدس	Instinct
ـ الجماعة الأولية	Primary Groups
ـ الجماعة الثانوية	Secondary Groups
ـ تكيف حضاري	Enculturation

References:

1 - Barnouw, Victor. **Anthropology: A General Introduction.** (Homewood, Dorsey Press 1979).

2 - Braidwood, Robert, J. **Prehistoric Men.** (8 th ed, Glenview: Scott Foresman 1975).

3 - Lobovitz, Stanford and Robert Hagedorn. **Introduction to Social Research.** (3 rd ed. New York: Mc Graw - Hill, 1981).

4 - Pelto, Pertti J. & Gretel H. Pelto, **Anthropological Research: The Structure Of Inguiry.** (2 nd ed. Cambridge, England: Cambridge University Press, 1978).

5 - Pilbeam, David R. **The Ascent of Man: In Introduc tion to Human Evolution.** (New-York: MacMillan, 1972).

6 - Pleiffer, John E. **The Emergence of Man.** (3 rd ed. New - York: Harper and Row 1978).

7 - Price - Williams, D. R., (ed). **Cross - Cultural Studies, Baltimore.** (MD: Penguin Books 1970).

الفصل الثالث

المدخل الى الانثروبولوجيا الحضارية
او علم حضارة الانسان

الأنثروبولوجيا الحضارية
أو علم حضارة الانسان

الحضارة هي مجموع جميع أشكال الفن والحب والفكر التي ساعدت الإنسان خلال العصور أن يكون أقل عبودية.

أندري مالرو

١ ـ مقدمة:

نشأ علم الإنسان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة لنشاطات كثيرة في غرب أوروبا وأمريكا حيث أخذ الإنسان الغربي المتطور يتصل بالشعوب غير المتطورة تكنولوجياً في مجالات عدة. وأهم هذه المجالات منذ القدم هي:

أ ـ الاستعمار والتبشير:

لقد كان الاستعمار نتيجة لتطور الصناعة في غرب أوروبا وحاجة المجتمعات الأوروبية إلى المواد الخام في أول الأمر. لكن الاستعمار بدأ قبل ذلك بكثير وبخاصة بعد اكتشاف الأمريكتين على يد الرحالة كولومبس في نهاية القرن الخامس عشر حيث وجد الأوروبيون متنفساً لهم في عالم جديد واتصلوا بسكان الأمريكيتين الشمالية والجنوبية، ولكي يجلبوا السكان إلى هذه المنطقة راجت تجارة العبيد وأخذ الأوروبيون يجوبون القارة الأفريقية وسواحلها بحثاً عن

هؤلاء يسوقونهم إلى دنيا جديدة كي يعمروها. ولقد كان الإنسان الغربي ينظر إلى هذه الشعوب في القارات وإلى العبيد نظرة استعلاء وتكبر. ولكن ذلك أثار عندهم السؤال: لماذا تطور الإنسان الأوروبي (الأبيض) إلى هذه الدرجة وبقي غير الأبيض في هذا التأخير؟

بدأ الإنسان الأوروبي (المسيحي) يحاول الإجابة على هذه الأسئلة من منطلق ديني أخضع الكتاب المقدس وبخاصة العهد القديم ليستقي منه نظريات تجيب على هذه الأسئلة ووجد ذلك في قصة نوح وأولاده وأخذ يقسم العالم بناء على هذه النظرية. وبعد أن تطورت العلوم الطبيعية أخذ الإنسان الأوروبي المفكر يحاول الإجابة على هذه الأسئلة بناء على نظريات أخرى استقاها من علم الإحياء والعلوم الطبيعية الأخرى مثل التشريح والفيزيولوجيا وغيرها بحيث ظهرت مع نظرية داروين نظرية عضوية عنصرية تقول بتفوق الرجل الأبيض حضارياً نتيجة لتفوقه في التطور العضوي. وبقيت هذه النظريات تسير جنباً إلى جنب مع النظرية الدينية اليهودية المسيحية. وما أن قارب القرن التاسع عشر على الإنتهاء حتى كانت جميع مناطق العالم تحت نفوذ الاستعمار وأخذت الحضارات تتصادم عدا ما يخص بعض البلاد مثل الصين واليابان لم يقدر الإنسان الأوروبي على إخضاعها.

ب ـ التبشير:

بدأ التبشير مبكراً في القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين تحت قيادة البابوية في روما ووصل هذا التبشير الكاثوليكي أوجهه بعد اكتشاف الأمريكتين. وبعد ثورة الإصلاح التي قام بها لوثر في القرن السادس عشر ونشوء الطوائف البروتستنطية في القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذ مبشروها يجوبون العالم ويعيشون بين الشعوب يتعلمون لغاتهم ويمكثون بينهم ردحاً طويلاً من الزمن ويصفون هذه الشعوب وحياتهم. ولقد أصبحت هذه الكتابات المادة الأولى لتطور علم وصف الشعوب ـ الأثنوغرافيا، بحيث تراكمت هذه. وعندما استفحل الاستعمار أخذت الحاجة تزداد إلى مثل هذا الوصف. أما المبشرون فكان

شغلهم الشاغل كيف يوصلون الرسالة المسيحية إلى هذه الشعوب.

جـ ـ حاجة الادارة الاستعمارية:

لكي تدير الشعوب المستعمرة الشعوب الخاضعة لها كانت بحاجة إلى فهم الناس في البلاد المستعمرة وحثت الدارسين على محاولة فهم هذه الشعوب ووضع النظريات اللازمة لإدارة هذه الشعوب بما يتفق وحضاراتها ولذلك نجد أن هؤلاء الدارسون أخذوا يصفون هذه الشعوب بدقة أكثر ويقدمون هذه الأوصاف إلى حكوماتهم ومؤسساتهم العلمية وظهر المنظرون في الدول الغربية لتحليل هذه المادة وتفسير الأسئلة المطروحة. وبذلك ظهرت مدارس مختلفة ومن خلال هذه ظهر عندنا ما يدعو بالأنثروبولوجيا الحضارية أو دراسة الحضارات المختلفة.

الأنثروبولوجيا إذاً علم ظهر في الغرب لدراسة الشعوب غير الأوروبية.

٢ ـ معنى الأنثروبولوجيا:

أنثروبولوجيا كلمة يونانية لها شقان: أنثروبوس وتعني إنسان ولوجياً وتعني علم وبذلك تكون الترجمة الحرفية لهذه الكلمة «علم الإنسان». لكن هذا العلم يتكون أيضاً من شقين يتصلان مع بعضهما بعضاً من خلال تركيزهما على الإنسان وعلاقة تطور الإنسان البيولوجي بتطور المجتمع وحضارة الإنسان. الأول هو الأنثروبولوجيا الفيزيقية وتهتم بدراسة الإنسان بيولوجياً من حيث تطوره ككائن حي من أنواع كائنات حية أخرى متتابعة في الزمن، وبدراسة الوراثة، والأجناس الإنسانية وسماتها، وقياسات أعضاء جسم الإنسان المختلفة. ويستعين هذا العلم بالعلوم الطبيعية في أبحاثه مثل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وعلم المستحثات والفيزيولوجيا، والتشريح وغيرها. وهذا العلم ينتمي إلى العلوم الطبيعية. أما الشق الثاني من هذا العلم فيهتم بالمجتمع الإنساني والحضارة الإنسانية بمختلف أشكالهما وهو ينتمي إلى العلوم الاجتماعية ويستعين في أبحاثه بنتائج العلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم النفس والنفس الاجتماعي والتاريخ والبيئة والجغرافيا وغيرها. ومن هنا فإن هذا العلم يهتم بحضارة الإنسان.

٣ ـ تخصصات علم حضارة الإنسان :

يهتم هذا العلم بكل ما يحيط بالإنسان وحضارته ويهتم بهذا الإنسان ضمن الحضارة التي ينتمي إليها. وبما أن الإنسان في هذه الحضارة متعدد الجوانب فقد تطورت في هذا العلم الاختصاصات التالية :

١ ـ الأنثروبولوجيا الحضارية باعتبار الحضارة طريقة حياة الإنسان.

٢ ـ الأنثروبولوجيا الاقتصادية وتهتم بسلوك الإنسان في تعامله الاقتصادي مع أخيه الإنسان في نفس الحضارة والأنساق السلوكية التي أوجدها المجتمع ليتفاعل مع غيره من خلالها.

٣ ـ الأنثروبولوجيا الاجتماعية وهي ذلك الفرع من الأنثروبولوجيا الذي يهتم بالجماعات المختلفة وتكوينها وبنياتها المختلفة والعلاقات الاجتماعية والإنسانية التي تتكون فيها، وفي التنظيم الاجتماعي ككل.

٤ ـ الأنثروبولوجيا السياسية وتتمحور حول علاقات السلطة والصراع بين الأفراد والجماعات وكذلك بين القيادة والاتباع وجميع السلوكات المتعلقة بذلك.

٥ ـ الأنثروبولوجيا اللغوية وتهتم بالعلاقة بين اللغة والحضارة وكيف أن اللغة هي الوسيلة التي تعبر عن الحضارة وقيمها ومثلها وكيف أن الحضارة تصوغ نفسها في قوالب لغوية.

٦ ـ الأنثروبولوجيا النفسية وهو ذلك التخصص الذي يبحث في الفرد كونه جزء من الحضارة وكيف يتأثر بها ويؤثر عليها وأنواع الاعتباد والشذوذ الموجودة في الحضارة الواحدة.

ولكن الدراسات الأنثروبولوجيا تغطي أكثر من هذه الحقول الستة ومدارها أوسع بكثير بحيث أصبحت الدراسات الأنثروبولوجية تغطي حتى المجتمعات الغربية بعد تراجع الاستعمار وتطور المجتمعات في العالم.

٤ ـ تعريف الحضارة : (Culture)

كما لاحظنا في الفصل السابق فإن الإنسان لم يمنح مجموعة معقدة من الحدس مع الولادة، وعليه أن يتعلم جميع سلوكه من الآخرين وهذا السلوك الذي يتعلمه الإنسان من مجموعة معينة من الناس يشكل جزءاً من حضارة تلك الجماعة. ولا تحتوي الحضارة على أنماط سلوكية فقط إنما تحتوي أيضاً المواقف والمعتقدات التي تبرر السلوك. وتخلق الحضارة كما سبق وقلنا الكائن الإنساني كما تخلق المجتمعات الإنسانية. ومع التراكم البطيء على مدى الأجيال تصبح الحضارة في نفس الوقت نتاجاً للمجتمعات الإنسانية وللأفراد الذين يكونون هذه المجتمعات.

هناك طرق عديدة لتعريف الحضارة. وقد جمع لنا الدكتور صموئيل بوتوستو متنوعة من هذه التعاريف كما يلي:

الحضارة: = هي مجموعة الأنماط السلوكية التي يكتسبها الإنسان أو التي نجدها في مجتمع يمكن تحديده.

= البيئة العامة التي يخلقها الإنسان.

= الجزء المكتسب من السلوك الإنساني.

= ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل المقدرات التي يحصل عليها الإنسان كعضو في المجتمع.

= تفاعل الكائنات البشرية من خلال الرموز التي يشترك أفراد الجماعة في معرفة إشاراتها أو معانيها.

= أداة أو آلية التفاعل الرمزي.

= عملية توصيل المعاني الإنسانية.

= طرق معرفية مذهلة.

= المواصفات النفسية التي تعطي الإنسان بنية سلوكه البشري.

= آراء حول العالم الذي يعني شيئاً.
= وصمة للسلوك الإنساني.
= طريقة حياة الإنسان.

وباختصار فالحضارة آلية تؤثر في جميع جوانب المجتمع بما في ذلك المعايير (الأخلاق العامة والخاصة والقوانين) والمؤسسات والمفاهيم التي تبررها، مع ما في المجتمع من تقنية ونتاج مادي وقيم. دعنا ننظر إلى كل من ذلك منفرداً.

٥ ـ العادات الشعبية والأخلاق والقوانين:

العادات الشعبية (Folkways) هي العادات البسيطة اليومية لجماعة تمثل طرق السلوك العادية. وهذه العادات تتغير ببطء وبعضها قليل التغير وثابت. ففي مجتمعنا مثلاً اعتدنا أن نأكل بأيدينا وأن ننام على فرشة على الأرض بدلاً من أن نأكل بالشوكة والسكين كما في الغرب أو على أسرة وتعودنا أيضاً أن نصافح بعضنا بعضاً في الشارع. كل هذه عادات شعبية، وهذه عادات موجودة لا نعطي لها معان أخلاقية كثيرة، ونعتبر من لا يتقيد بها شاذاً ولكن لن نعاقبه أو نعزله في السجن، وسوف نعجب للمرأة التي تقص شعرها كما يفعل الرجال ولكننا سوف نقبل منها ذلك.

الأخلاق عادات شعبية على العموم ولكن من خلال الممارسة العامة لها أصبحت النتائج المترتبة على السطو عليها أكثر جدية. وتشمل الأخلاق جميع العادات التي يجب أن يتقيد بها أفراد المجتمع كي يتسنى للحضارة أن تستمر، وتعتبر الذين يمرقون عليها أكثر من شواذ ونعرّف طباعهم أنها عجيبة، وبينما لا داعي أن يقود المرُوق على بعض الأخلاق إلى السجن، فقد يخطر ببال فرد من الأفراد أن يتعرى في مكان عمله ولا داعي لأن يعاقب على ذلك بالسجن ولكنه سفو ينال عقابه من مجموعة الناس الذين يعمل معهم مثل أن يطرد من العمل، بينما الذي يذهب إلى حفلة ولا يرتدي لباسه الرسمي فسوف يعتبره الآخرون

مارق على عادة شعبية.

وبينما علينا أن نفهم الأخلاق، فالقوانين أكثر دقة وغالباً ما تكون مدونة ومصنفة ومطبّقة كأداة لرقابة الطاعة العامة. والسطو على القوانين قد يقود إلى عقاب قاس أو يكون لها نتائج وخيمة على المتهم. فإذا ما أوقفتك شرطة المرور لأنك مسرع في قيادة سيارتك فسوف تدفع غرامة مالية صغيرة، ولكن القتل عن سابق إصرار سوف يؤدي إلى عقاب الاعدام. وتتنوع العقابات على المروق على القوانين ما بين حضارة وأخرى.

٦ ـ المؤسسات الاجتماعية: (Social Institutions)

المؤسسة الاجتماعية هي نمط معقد من السلوك تشترك باتباعه جماعة من الأفراد لتحقيق هدف جماعي. وتنتظم المؤسسات حول حاجة أو مصلحة محورية. فعلى سبيل المثال، تزود الحكومة المجتمع بالنظام والتنسيق بين الأفراد. ومكان الصلاة موجود يساعد الناس في التعبير عن معتقداتهم الدينية من خلال الاشتراك مع الآخرين في عبادة الله بطرق معتادة. وتزود المدرسة الصغار بالتعليم الرسمي بينما تساعد العائلة وهي أهم المؤسسات الاجتماعية الأولية في إشباع حاجات الحياة العائلية اليومية مثل المسكن والطعام والرفق والمحبة.

ويمكننا تحليل بنية المؤسسات الاجتماعية إلى أربعة عناصر تتصل ببعضها اتصالاً وثيقاً كما فعل وليم جراهام سومنر وهذه هي:

١ ـ الأفراد: كان سومنر يعني بالأفراد أعضاء الجماعة المؤهلين والذين تم اختيارهم كي يقوموا بخدمات معينة، مثال على ذلك: المعلمون في المؤسسات التربوية والموظفون في الشركات التجارية.

٢ ـ التجهيزات تعني تلك الممتلكات المادية وغير المادية لهذه الجماعة والتي تساعد على تحقيق أهداف المؤسسة. ولو أخذنا المسجد كمثل لهذه المؤسسة لكانت هذه التجهيزات البنائية نفسها، وكتب القرآن والحديث

الموجودة فيها والسجاد وغيرها، أما الممتلكات غير المادية فتشمل تاريخ الديانة الإسلامية والمعتقدات الأساسية في الإسلام.

٣ ـ تنظيم المؤسسة، ويتكون من العلاقات الخاصة والمتنوعة بين أعضائها والطرق التي يستخدمون من خلالها أجهزتهم وينظمونها. ويتطلب التنظيم تركيزاً للسلطة حيث بعض الأفراد يتولون مراكز السلطة وآخرون مراكز التنفيذ وهذه المكانات التي يشغلها الأفراد تؤثر على علاقاتهم مع بعضهم بعضاً داخل الجماعة.

٤ ـ الطقوس: تتكون طقوس المؤسسة من العادات والقواعد التي تحدد سلوك الأعضاء عندما يقوموا بالأدوار المناطة إليهم.

٧ ـ المركز والدور (الاجتماعي): (Status & Role)

تعمل المؤسسات على تسهيل حياة الأفراد من خلال منحهم قنوات يستخدمونها في نشاطاتهم الاجتماعية. فمنذ الولادة يعتمد الفرد على المؤسسات مثل العائلة، والمؤسسة الدينية والدولة. وعندما يكبر يعتمد في تعريف ذاته على مؤسسات مثل المدرسة والمنظمات المهنية أو التجارية والنوادي والأحزاب السياسية وغيرها. وبما أنه يشترك ويقوم بدور في المؤسسات المختلفة خلال حياته فإن الجزء الأكبر من سلوك الإنسان محدد قبل أن يتعلمه. وتكون حقوق وواجبات الإنسان في كل مؤسسة واضحة التعريف، إلا أنها تتغير بإنتقال الإنسان من مركز إلى آخر أو من مكانة اجتماعية إلى أخرى. فمثلاً تقوم العائلة بدعم وحماية الإنسان في الطفولة، لكن عندما يصل سن البلوغ فإن هذه العائلة تتوقع منه أن يعيل نفسه ويحمي مصالح الآخرين. وبنفس الطريقة تقدم الدولة للطفل الحماية والتعليم ولكنها تتوقع منه أن يخدم في الجيش عندما يكبر بالسن، وكإنسان بالغ يصبح على هذا الإنسان تحمل المسؤولية والقيام بواجبات عديدة مثل دفع الضرائب، والاقتراع ويساعد في تكوين وتنفيذ السياسات العامة للدولة. وبهذه الطريقة يشغل الفرد في كل مرحلة من مراحل حياته أدواراً عديدة

ومختلفة. يعني هذا أنه ينظم سلوكه حسب خطوط معينة حسبما يتوقع الآخرون منه لأنه يعطي مركزاً في كل من المؤسسات المتنوعة التي يشترك فيها.

٨ ـ الانتاج المادي للحضارة: (Cultural Artifacts)

الحضارة كمفهوم ليست مادية ولم تك كذلك لأنها توجد في فكر وشخصيات الناس. وهي ما تعلموه من محيطهم الاجتماعي من اتجاهات وعقائد ومعرفة وطرق سلوكية. وعلى كل حال فمن المهم في كل حضارة هي معرفة كيفية انتاج واستعمال المنتجات المادية بما في ذلك الغذاء واللباس والمسكن والأدوات والماكينات وأعمال الفن. مثل هذه المنتجات ندعوها منتجات حضارية أو صناعات. على أية حال فإن هذه المنتجات أكثر من تعبير عن الحضارة التي تنتجها، وتصبح أساسية في بقاء هذه الحضارة وقيامها بوظيفتها لأن أفراد المجتمع دونها لن يستطيعوا القيام بنشاطاتهم الضرورية. وهذه حقيقة مدهشة وبخاصة في المجتمع الصناعي الحديث. فلو لم تستطع هذه المجتمعات الحديثة استعمال سلك الحديد والسيارة وأنسقة الهاتف ومولدات الطاقة والمصانع بآلياتها لشلت حركتها.

٩ ـ اللغة (Language)

اللغة ظاهرة جوهرية في مجتمعات وحضارات الإنسان. وكما يعرضها (بنجامين لي وورف) فإن كل لغة تحتوي على رؤية للعالم. ولذلك فالجماعات التي تتكلم لغة واحدة تتفاهم في وتيرة حضارية واحدة، والافتراضات والملاحظات الحضارية لمجتمع ما محصورة في لغة ذلك المجتمع. وعلى سبيل المثال فإن الاتصال بين الشعوب المتعددة اللغات يبرز الاختلافات الحضارية بينها.

١٠ ـ التطور الحضاري (Cultural Evolution)

نشأت الحضارات كما تعرف من خلال عملية تغير تقدمي طويلة، وتدعى

هذه العملية بعض الأحيان «تطور الحضارة». وأية حضارة حديثة ليست إلا نتاجاً لأصالة ومبادرة عدد كبير من الأفراد في الماضي على الرغم من أن مساهمة أي شخص فيها كانت من الصغر بحيث لم يك من الممكن إبرازها أو تحديدها. وفي بعض الأحيان كان دخول نمط حضاري أو أنماط حضارية يؤدي إلى إندثار أو تطوير الأنماط الحضارية القديمة ولكن في أغلب الأحيان كانت العناصر الحضارية الجديدة تضاف إلى العناصر القديمة وهكذا أصبحت الحضارات على مر العصور تزداد في التعقيد. فعلى سبيل المثال، طرأ في الأردن تغير كبير على دور المرأة، ففي المجتمع التقليدي كانت المرأة تلتزم في البيت. ومع دخول التعليم أخذت المرأة تخرج من البيت لتبحث عن عمل في سوق العمل وأخذ المجتمع يقبل ذلك منها. ومع تغير هذه الأدوار ازدادت إمكانيات المرأة. وقد أضاف اختيار المرأة هذا واتساع مجالاتها تعقيدات مخيفة إلى مجتمعنا. ولم يؤثر هذا الدور النسائي المتغير على سوق العمل فقط بل أيضاً على المثاليات التقليدية حول التعارف والزواج والجنس وتحديد النسل.

١١ ـ القيم الاجتماعية والضبط الاجتماعي:

(Social Values & Social Control):

القيم الاجتماعية هي الأشياء التي يعتبرها المجتمع مرغوباً بها لأنه يعتقد أنها تسهم في تحقيق حياة جيدة ورفاهية عامة. ففي محيطنا الحضاري نجد أن الأمانة والشجاعة والعدل واحترام القانون تعتبر قيماً اجتماعية رفيعة يريد الجميع ممارستها. وهكذا أيضاً هو النجاح المالي والصحة والتعليم ولو على مستوى مختلف. ويبدو أن رغبات الأفراد تعكس القيم التي يؤكد عليها المجتمع الذي ينتمون إليه. ويقال عن مجتمعنا أيضاً إنه مادي. وربما أن هذه الوصمة ليست كلية الصحة، لكنها تحتوي على عنصر من الحقيقة، ففي الأردن الحديث يعجبنا الفرد الذي يحقق نجاحاً مادياً كبيراً ونعطي أهمية كبرى لرفع مستوى المعيشة والقضاء على الفقر. وبما أننا نركز على مستوى الرفاه الاقتصادي فقد جعل

الكثيرون كسب أكثر ما يمكن من النقود هدفهم الأول في الحياة. ولا شك في أن آخرين ينظرون إلى النقود كوسيلة للحصول على أهداف يعتبرونها أكثر أهمية. وهذه الأهداف الأكثر أهمية متنوعة مثل تعليم الأولاد، والصدقة، تقدير وتشجيع الفن والعلم والدين وتقديم الخدمات العامة.

وتكوّن القيم الاجتماعية القوة الدافعة التي تجعل المؤسسات تقوم بعملها بكل فعالية. فالمؤسسات الدينية مثلاً قد تكون قوة حركية في المجتمع عندما يؤمن أغلبية الناس بالخالق ويعتقدون أن هذه المؤسسات تعمل من أجل قيام مجتمع صالح. وحيث يسيطر الدين على المجتمع فإنه غالباً ما يكون قوة محافظة تميل إلى الحفاظ على القيم الأخلاقية السائدة.

القيم الاجتماعية نسبية وليست مطلقة، وغالباً ما تختلف اختلافاً كبيراً من مجتمع لآخر وكل فرد يتعلم من حضارته مثاليات حول ما هو جيد وما هو رديء، صح أم خطأ، مرغوب به أو غير مرغوب به، ففي بعض المجتمعات نجد العلاقات الجنسية قبل الزواج من المحرمات وسطواً على الأخلاق ونجدها في بعض المجتمعات من الضروريات أو مرغوب بها. كذلك نجد أن قتل الأطفال في بعض المجتمعات جريمة كبرى بينما في بعض المجتمعات البدائية مقبولاً وبخاصة إذا كان الطفل غير صحيح الجسم.

١٢ ـ التكامل الحضاري: (Cultural Integration)

تحتوي الحضارات أو المجتمعات على بعض الجوانب التي تشترك فيها مع جميع الحضارات. مثل هذه الجوانب أو الأنماط ندعوها أنماطاً عالمية (Universals) مثل وجود شكل من أشكال الحكومة والعائلة والأهداف الوطنية. أما الجوانب التي لا تتشابه بين الحضارات فندعوها «بدائل» (Aternatives). والبدائل هي تلك الأنماط التي تعتبرها حضارة ما مهمة ولا تشترك بامتلاكها معظم أو كل الحضارات الأخرى. فعلى سبيل المثال، تضع بعض الحضارات كبار السن في أدوار متدنية بينما يعطي بعضها الأخرى أدواراً مرموقة لكبار السن. وكما هي الحال في هذه الأمثلة، فإن الأنماط الخاصة تكون أكثر من غيرها

كبدائل، بينما كل ما كان النمط عاماً كلما مال لأن يكون عالمياً. ولا تختلف الأنماط بين حضارة وأخرى إنما تتغاير أيضاً في نفس الحضارة. في بعض الحضارات الحديثة مثل الولايات المتحدة توجد تنوعات أكثر بكثير من تلك التي نجدها في غيرها. مثل هذه التنوعات المتفاوتة لا نجدها في حضارات الشعوب البدائية أو في حضارات الأمازون في الوقت الحاضر أو في الحضارات الكلية كما في الاتحاد السوفياتي. ولذلك فإن مثل هذه الحضارة أكثر وحدة من غيرها.

الحياة في مجتمعنا الأردني مثلاً حيث نؤكد على حرية الاختيار فيما يخص الأفكار والممتلكات أكثر تعقيداً وهي تزداد تعقيداً كلما تعقد المجتمع وكذلك تصبح كثيرة الضغوط. ويعرف المجتمع المعقد نسبة أكبر من المشاكل الاجتماعية والجرائم، وتمرد المراهقين والأمراض النفسية والتي تنتج عن مقدرة الإنسان الفرد في الاختيار بين المجالات. فلو حددت الحضارة مثلاً أي عمل سوف تقوم به عندما تحصل على شهادتك لكانت حياتك سهلة، وتوجد حتى تلك الحضارات التي تتوصل إلى درجة عالية من الحرية توازناً ما بين أنماط الحضارة المشتركة والقوى المحتملة غير التكاملية الكامنة في الأنماط غير المشتركة. فما بعد السبعينات في الأردن مثلاً تطورت العادة أن يقوم كل بالأشياء الخاصة به وأن لا يعتمد على غيره وهذه العادة تختلف عن سابقتها إذ كان الأب أو الأخ الأكبر هو الذي يقوم بعمل الأشياء حتى البحث عن وظيفة لأولاده وإخوانه. وقد نشأت هذه العادة في أوروبا وأمريكا. غير أننا لا نعرف ماذا يحدث في المستقبل عندما يكون التنافس على أشده في المجتمع.

١٣ ـ التباين الحضاري: (Contrasting Cultures)

إحدى الظواهر الممتعة حول الحضارات هي الطريقة التي تطورت من خلالها. وبينما نجد بعض المؤسسات المتشابهة في الحضارات المختلفة إلا أن الاختلافات بينها واسعة. وإحدى الطرق لشرح هذه الاختلافات الحضارية مثلاً هي مقارنة حضارتنا العربية الأردنية مع حضارة أخرى ـ ولنقل بلغاريا.

أهم مجموعتين من المؤسسات في الدولة هي الدين والحكومة. يرأس حكومتنا الأردنية ملك خاضع للدستور والحكومة هي المسؤولة في الدولة وخاضعة لرقابة مجلس الشعب الذي ينتخبه الشعب في انتخابات ديموقراطية، ولأحكام دستور قانونية، حتى في غياب ما يدعى بالأحزاب فإن هذه تفعل فعلها بطريقة ما ولكنها لا تتحكم بالانتخابات، بينما وعلى الرغم من إدعاء بلغاريا بأن لديها انتخابات إنما لا يوجد فيها سوى حزب واحد ـ الحزب الشيوعي ـ ونتائج انتخاباتها لا تناقش قط. ترشح المرشح في بلغاريا قيادة الحزب ويدعمه الأعضاء والأفراد الذين يملكون السلطة في الدولة وحتى رئيس الجمهورية والجيش. وقد يكون المرشح أثناء الانتخابات ذا سلوك معتدل إلا أنه بعد نجاحه ينفرد بالسلطة ويقدم خدمات للأفراد المعروفين الذين آزروه.

كذلك فقد عرف الأردن تقليدياً مجتمعاً متعدد الأديان ومتعدد الاعتقادات في الديانة الواحدة: يوجد عندنا مثلاً أقل شيء تسع طوائف مختلفة في المسيحية في الأردن بينما يعرف الأردن أقل شيء مذهبين من المذاهب الإسلامية. هذه التعددية الدينية لا توجد في بلغاريا فهناك الشيوعيون اللادينييون وهناك أيضاً كنيستان الأرثوذكسية والكاثوليكية وتحاول السلطة دائماً الوقوف في طريق الممارسات الدينية بينما الحكومة في الأردن لا تتدخل بالأمور المتعلقة بالدين وتترك الحرية للأفراد والمؤسسات الدينية نفسها عدا فيما يخص وزارة الأوقاف ودار الفتاوي وقاضي القضاة التابعة للدولة لأن الإسلام دين الأغلبية العظمى وهناك مادة الدستور التي تقول أن الإسلام دين الدولة، أما فعلياً فإن الدولة لا تتدخل بالأمور الدينية.

وبينما يوجد عندنا في الأردن مدارس خاصة (مسيحية ومسلمة) فإن بلغاريا لا تعرف إلا المدارس الحكومية والتي تنفذ تعاليم الحزب الشيوعي الحاكم مما يدل على المكانة المتدنية التي تأخذها الكنائس هناك بينما تقدم الحكومة في الأردن المساعدات لجميع المدارس وجميع المدارس في الأردن خاضعة لنظام التعليم من حيث المناهج عدا بعض المدارس التي تدرس مواداً إضافية مثل البكالوريا والمطران والترسنتا وغيرها.

بينمـا نوع الحيـاة وتنظيم المـدن والقرى في بلغـاريا مـوحد، فـإن المـدن الكبيـرة في الأردن قد وصلت إلى درجـة بعيدة من التحـديث بنـاء على النمـوذج الغربي بينما بقيت المـدن الصغيرة والقـرى الكبيرة والصغيـرة في بنيتها التقليـدية والفروق بين المدن والريف كبيرة جداً. وبينما أصبـح نموذج الأسـرة المنجبة في بلغاريا هو السائد في الحياة الاجتماعية، ما زال نموذج العائلة ذو السلطة الأبويـة هو السائـد في الأردن (في حين نجد المـدن الكبيرة في الأردن قـد أخذت تنحي هـذا المنحى في انفصال أسـرة الانجاب عن أسـرة التـوجيـه). كـذلـك، فتحت النـظام الشيوعي أصبـح الفرد سيـد نفسه وحـراً في تنظيم حيـاتـه بينمـا مـا زالت الروابط العائليـة في الأردن تلعب دوراً هامـاً في حياة الأفـراد وتوجيههم. وبينمـا أصبحت عادات الزواج والخطبة في بلغاريا أمراً فرديـاً فما زالت هـذه في الأردن تخضع لأحكام العائلة والنسب وعلى الرغم من الحرية التي حصلت عليها المرأة هنا في الاختيار إلا أن قرار تزويج الفتاة ما زال في يد الأهل والوالدين.

وقد يكون التقليد جامـداً إلى درجة تضـر العائلة الأردنيـة بدلاً من الحفـاظ على التـراث. فما زال بعض النـاس في الريف يستعملون الأدوات البـدائيـة في الزراعة على الرغم من توصيـات الدولـة في تحديث الأدوات الـزراعية. ونتيجـة لذلك فقد أصبح انتـاج الأراضي الزراعيـة وبخاصـة الأراضي البعلية من التـدني بحيث أخذ الكثيرون بترك الزراعـة وهجر القـرى. أما في بلغـاريا فـالأمر يختلف تماماً حيث أن الملكية الفردية معدومة وكل الأرض ملك للدولة والزراعة وطرقهـا مفروضة فرضاً.

وحتى إذا ما قارنا هذه الأمـور ما بين الأردن وسـوريا لـوجدنـا الاختلافـات كبيرة على الرغم من أن الدولتين دولتان عربيتان لكن الأنظمة مختلفـة. ففي قرى سوريا مثلاً ما زلنا نجد أن الشوارع غير معبدة وأن الدخـل متدن جـداً وكل شيء هناك خاضع لرقـابة الحـزب الحاكم. وبينمـا نجد المـدن السوريـة تعيش حسب نموذج غربي فإن الكثير من القرى ما زال غير متطور. وعلى الـرغم من وجود مـا يدعى بالنظام الاشتراكي فهنـاك طبقة أرستقـراطية بحتـة. وقد نضيف العـديد من

الاختلافات بين الحضارتين السورية والأردنية كدولتين متجاورتين، فكيف يكون الاختلاف بين حضارتين تبتعدان عن بعضهما مئات الأميال؟ وقد قادت هذه الاختلافات بعض الناس لاعتبار حضارة أحسن من الأخرى، غير أن علماء المجتمعات رفضوا مثل هذا الرأي وقبلوا بدلاً منه ما ندعوه: النسبية الحضارية.

١٤ ـ النسبية الحضارية: (Cultural Relativism)

تذهب نظرية النسبية الحضارية إلى أن جميع الحضارات تملك شرعية وجودها. هذا يعني أن كل حضارة تتطور بطريقة تفي باحتياجات أفراد المجتمع الذي توجد فيه وأن الأنماط الحضارية في أي حضارة تملك أهدافها الخاصة.

لا يوجد في وقتنا الحاضر من دارسي المجتمع من يشك في النظرية القائلة بأن كل حضارة، مهما كانت، جديرة بالاحترام لأنها كانت قادرة على مساعدة الجماعات المكونة لها في إشباع حاجاتهم ومساعدتهم على البقاء على مدى فترة طويلة من الزمن وحتى بأن الأفراد الذين يمارسون عاداتهم ويتبعون قواعدها الأخلاقية في نظر هؤلاء جديرون بالاحترام. والحضارات ككل ليست جيدة ورديئة وصح أو خطأ. وعلينا أن نكون الحكم على كل حضارة بناء على أنسقتها القيمية وليس بناء على أنماط قيم الحضارة التي ننتمي إليها. ولفهم حضارة ما فعلينا أن ننظر إليها بمنظار الأفراد الذين ينتمون إليها والذين نشأوا تحت نفوذها وليس من المنظور الحضاري الذي تعلمناه من حضارتنا. فإذا ما فعلنا ذلك لوجدنا أن هذه الحضارة كانت قادرة على إشباع حاجات فشلت حضارتنا في إشباعها، ومن هنا بطل الاعتراف بها. فلو أخذنا كمثل ماذا فعل المبشرون في المناطق الإستوائية لأصبحت الصورة أوضح. دخل المبشرون المناطق الإستوائية ووجدوا أن النساء تعيش وأجسامهن فوق الخصر عاري. هذا العرى كان عيب بالنسبة للمبشرين وعندما تحول سكان هذه المناطق إلى المسيحية علّمهم المبشرون وبخاصة النساء أن يلبسن صدريات. وقد وجد المبشرون أنهم فعلوا شيئاً حسناً وأن هذا العنصر الحضاري الأوروبي كان مكسباً للسكان. لكن اختصاصي الطب وجدوا أن الكثيرات من نساء هذه المناطق قد تأثرن سلبياً من

هذه العادة. فالملابس الضيقة على الصدر في مثل هذه المناطق الحارة والشديدة الرطوبة تبقى مبلولة ورطبة طيلة الوقت ووجدوا أن الصدريات قد ساهمت في زيادة الوفيات بين النساء بسبب مرض التبركلوز الذي سببته.

الميل للحكم على حضارة ما من خلال أو بناء على حضارة الفرد الذي يكوّن الحكم ندعوه «التزمت الحضاري» وهو أن تعتقد جماعة من الناس بأن شعبها وحضارتها تملك طرق حياة أرفع من طرق حياة الشعوب الأخرى. مثال مذهل على ذلك هي النظرية اليهودية الدينية التي تستثني الآخرين وتجعلهم ذا مكانة دونية، وكذلك هي النظرية النازية «نظرية الجنس المتفوق». وفي عصرنا الحديث يزداد التزمت الحضاري والفوقية في حالة عدم الأمن والتراجع الاقتصادي. كذلك ظهرت النظرية النازية في مثل هذا التدهور الاقتصادي، ويذهب الكثيرون أن الحالة الاقتصادية المتضعضعة هي التي أوجدت هتلر، وقد استطاع التزمت الحضاري أن يستمر في بعض الشعوب البدائية في فترات كثيرة لأنه كان يقدم لتلك الشعوب الثقة بتفوق حضارتهم وشعبهم. ولكن في الوقت الحاضر وعلى الرغم من أن هذا التزمت يساعد على تماسك المجتمع (أي مجتمع) فإن البقاء يعتمد على التفاهم والتعاون بين الأجناس والشعوب والأمم. ولا يترك هذا مجالاً لتنمية التزمت الحضاري الذي يقود إلى عدم التفاهم والأحكام المسبقة والعداء والصراع.

١٥ ـ عوامل التغير الاجتماعي: (Factors of Social Change)

حضارة أي مجتمع في تغير مستمر، فهي تتطور وتتقدم لتتلائم مع حالات جديدة. تقود الحرب مثلاً إلى تغير آني متمحور حول هدف واحد وهو كسب الحرب، فيركز المجتمع على المصلحة الذاتية والنقود والطاقة ويصبح التركيز على النشاطات الحربية وليس على نشاطات غير هادفة. وسواء ربح المجتمع الحرب أم خسرها فإن هذا المجتمع بعد الحرب سوف يكون مختلفاً عما كان عليه قبل الحرب. وتأتي بعض هذه التغيرات نتيجة للجهود التي يقوم بها الشعب

الذي يربح الحرب، وتأتي تغيرات أخرى نتيجة للاختلاط بأفراد (الجنود) من المجتمعات الأخرى.

لقد أخذ التطور يسير بسرعة من خلال التطور الاجتماعي الإنساني. أما في الماضي فقد كان التطور يحدث ببطء. قبل خمسة آلاف سنة مثلاً كان جميع الناس وجميع الشعوب تعيش حياة بدائية دون كتابة. وعلى الرغم من تنوعات واختلافات الحضارة، فإن القاعدة التي كانت تعيش عليها الشعوب هي العرف والعادة التي كانت متأصلة بحيث أن أعضاء المجتمع لحضارة ما كانوا يعيشون حسبها لأجيال عديدة متلاحقة. ومع تتابع التغير بعد ذلك ازدادت سرعة التغير الاجتماعي. والحقيقة هي أن التغير الاجتماعي قد حدث على شبه تدحرج طابة من الثلج من أعلى التلة تجاه الوادي، تبدأ صغيرة وتتحرك ببطء وبعدها عندما يتجمع المزيد من الثلج عليها وتكبر تزداد سرعة.

وقد أدت بعض العوامل أكثر من غيرها في ازدياد سرعة التغير الاجتماعي. وقد تميز من بين هذه العوامل عامل الزراعة أو تطور الزراعة. لقد أدت زراعة المحاصيل بالناس إلى الإستيطان، ومن خلال الزيادة في الانتاج وتخزين الغذاء ازداد عدد السكان، ورويداً رويداً ازداد عدد القرى والمدن. عامل مهم آخر هو اختراع الكتابة التي جعلت تدوين المعرفة الإنسانية ممكناً وتوريثها إلى الأجيال اللاحقة بطريقة أكثر دقة من أي وقت مضى ومع زيادة مجموعة المعرفة ازدادت سرعة تراكمها أيضاً.

التطورات المتأخرة التي ساهمت في إسراع معدل التغير الاجتماعي كان اختراع الطباعة، تطور العلوم الحديثة والثورة الصناعية التي بدأت في إنجلترا في نهاية القرن الثامن عشر. وقد مثلت الثورة الصناعية تحولاً في طرق الانتاج وقد شملت على إحلال الآلة الحركية بدلاً من الأدوات اليدوية وخلقت حركة التحول من الانتاج الزراعي على المستوى الضيق إلى تطور الصناعات الكبيرة والانتاج الضخم. وقد قاد ذلك إلى الحاجة إلى الأيدي العاملة الكثيرة في المصانع

وأصبحت الأيدي العاملة في الزراعة قليلة. ثم أدت الصناعات إلى تكوين المدن وازدياد الهجرة إليها. والعامل الحديث في إسراع عجلة التغير هو اكتشاف وسائل النقل السريع والاتصال التي قضت على مشكلتي المسافة والزمن. وقد استطعنا الآن أن ننقل الأحداث إلى العالم وهي في حالة الوقوع عن طريق القمر الصناعي. وأصبح من السهل أن نرى كيف أن سرعة التطوّر قد ازدادت وبخاصة مع هذه المكتشفات.

ولم يزد فقط معدل سرعة التغير التكنولوجي بل زادت أيضاً سرعة العلاقات بين المجتمعات والحضارات. وهذا صحيح فيما يخص الدول النامية حيث أن التكنولوجيا الغربية قد انتشرت فيها بسرعة عجيبة ولا بد أنها في المستقبل سوف تتغير نحو طرق الحياة الغربية.

إحدى نتائج التغلب على المسافة بين البلدان هي أن شعوب العالم سوف تتشابه بعاداتها والمنتجات التي تستعملها والطرق التي تحصل فيها على دخلها. وعلى الرغم من وجود فروق كبيرة في أنظمة الزراعة في العالم إلا أن هذه الاختلافات في تناقص مستمر وبسرعة أكثر من أي وقت مضى. غير أن الرأي القائل بأن تداخل الحضارات في خط مستقيم رأي خاطيء.

فتغير نماذج اللباس، والأطعمة وأشكال الفن وألوان الفكر في الحضارات الأخرى يسبب أيضاً تغيرات في الحضارات الغربية. لا داعي أن يكون التغير مصيباً أو خطأ فهو يعني فقط أن حالات جديدة تحل محل الحالات القديمة. ويحتوي التطور على أبعاد أكثر ثباتاً من التغير. يعني التطور تقدماً تدريجياً لأشكال الحياة من البسيط إلى المعقد ويشمل جميع أنواع هذه الأشكال من فن وتكنولوجيا وتنظيم اجتماعي. وربما تكون هذه الأشكال الجديدة ملائمة للإنسان ويرغب الإنسان بها. للإشارة إلى مثل هذه التطورات التدريجية نستعمل في علم الإنسان التعبير «الإرتقاء الاجتماعي».

أما مفهوم التقدم فيعني تحسن أو تغير نحو حالة يعتقد الناس أنها أفضل

من الحالة التي سبقتها. فالتحسن هو تغير نحو هدف مرغوب فيه. وللتحسن معنى فقط في علاقته مع القيم الشخصية أو الاجتماعية. ويمثل أي تغير اجتماعي تحسناً عندما يسهم في تحقيق أكمل للقيم الاجتماعية الأولية أو الأساسية.

١٦ ـ بعض النظريات القائمة حول التغير الاجتماعي:

يميل بعض الناس في الغالب إلى تمجيد الماضي. ويعتقد بعض الناس في متوسط العمر أن عصر شبابهم وطفولتهم (الأيام القديمة الحلوة) متفوقة على الحاضر السافر المنحط. إحدى النظريات القديمة للتغير الاجتماعي تتكون من آراء الفلاسفة الإغريق القدامى الذين ذهبوا إلى أن كل إنسان كان قد عاش في عصر مثالي ذهبي. ومن هذه المرحلة أخذ ينحدر إلى عصر من الفضة ثم البرونز وأخيراً إلى عصر حديدي.

وقد نشأ في أوروبا وأمريكا اتجاه معاكس لهذه النظرية خلال المائتي سنة الأخيرة. ويدعى هذا الاتجاه بنظرية «التحسن الذي لا نقدر أن نتفاداه»، أو الرأي بأن العالم في تحسن مستمر. ولم يتغير رأي هؤلاء على الرغم من مرور حربين عالميتين.

نظرية أخرى في التغير الاجتماعي هي النظرية التي طورها سبنجلر وتوين بي (Spengler & Tounbee) والتي تقول أن التغير يمر في حلقات.

ويرى هؤلاء أن المؤسسات والمجتمعات والحضارات تمر في دوائر وحلقات تتكون من النمو والقمة والانهيار (كان هذا الرأي لابن خلدون في أول الأمر) والحضارة الغربية ليست شواذاً على هذه القاعدة ولا بد أنها سوف تنحل. وتعتمد هذه النظرية الدائرية على الفكرة بأن التاريخ يعيد نفسه. ويذهب بعض منظري هذه النظرية إلى أن الحضارة الغربية الآن على حفة الهاوية ولدعم هذا الرأي فإنهم يقدمون أمثلة الأمبراطوريات الإغريقية والرومانية. وعلى الرغم من التنوع في أفكار أصحاب هذه النظرية إلا أنهم جميعاً يدعمون الفكرة بأن

الحضارات تتطور وتصل إلى أوج معين ثم تأخذ بالإنهيار.

كانت هنالك محاولات أخرى لشرح التطور الاجتماعي أو التغير الاجتماعي اعتمد بعضها على النظريات الدينية، وغيرها على الخصائص العرقية، والأحوال الاقتصادية والاختراع. وعلى كل حال فإن أي حضارة هي نتاج لعوامل عديدة ولا نقدر على تفسيرها بناء على عامل واحد. فالعلاقة بين الإنسان وبيئته علاقة حركية بغض النظر عن البقعة التي يعيش عليها وهذه العلاقة الحركية تنتج التغير.

١٧ ـ العوامل المؤدية إلى التغير:

بعد أن تطرقنا إلى التغير الحضاري، نتطرق الآن إلى بعض أهم القوى الاجتماعية التي تؤدي إلى التغير وإلى المشاكل التي أوجدها التغير. نبدأ بمناقشة التطور التكنولوجي ثم دور الدين، والعقائد، والتداخل الحضاري والحروب والفعل الجماعي المخطط، والجغرافيا والمناخ.

أ ـ الاكتشاف والاختراع: (Discovery & Invention)

الاكتشاف هو تعلم شيء ما عن البيئة الطبيعية أو الاجتماعية لم يك معروفاً من قبل. ففي الماضي اكتشف المكتشفون جزراً وقارات واكتشف علماء الفلك القوانين التي تنظم حركات الأجرام واكتشف علماء الإنسان الاختلافات بين الحضارات وغالباً ما تمهد لنا اكتشافات العالم الطبيعي الطريق للاختراعات وتضع الأساس لها. فقد كان اكتشاف الكهرباء الأساس الذي اعتمده أديسون (Edison) في اختراع اللمبة واختراعات أخرى مفيدة.

الاختراع هو تجديد حضاري يقوم على برمجته فرد أو عدة أفراد من مجموعة اجتماعية وهي طريقة جديدة لفعل الأشياء أو غرض جديد أو آلة ميكانيكية يطورها الأفراد لتخدم هدفاً ما. والآلات المعتادة مثل جزازة العشب والمحرك البخاري والطائرة كلها اختراعات مادية. أما التأمين الاجتماعي أو خطة

إدارة المدن، وتدوير المحاصيل فهي أمثلة على الاختراعات غير المادية. وإحدى أهم الاختراعات غير المادية هي الحروف الهجائية التي جعلت عملية الكتابة والطباعة في الوقت الحاضر ممكنة.

والاختراع حقيقة نوع خاص من الاكتشاف ولذلك لا نقدر أن نميز بينهما بخط واضح. ويمكننا تسمية صنع النار من خلال إحتكاك الحجارة اكتشاف أو اختراع. وتشمل جميع الاختراعات على الاكتشاف بأن اقتران المادة واستخدامها بطرق معينة سوف تعطي نتائجاً نبتغيها. وتقود الاختراعات إلى تغيرات في التقنية وتغيرات التكنولوجيا في المجتمع الحديث تقود إلى وتكون قوة هائلة للتغير الاجتماعي. المثل الجيد في هذا المجال هو الحاسوب الذي يغير نمط حياتنا اليومية وحضارتنا بطرق عدة. فالآلة المبرمجة تحل الآن محل الإنسان في كثير من الوظائف، والعملية البنكية تتم الآن عن طريق الكمبيوتر وسوف يحل الكمبيوتر المتحدث بعد قليل محل المعلم.

ب ـ الانتشار الحضاري: (Culture Diffusion)

عندما يتأصل عنصر حضاري في مجتمع ما يمكنه أيضاً أن ينتشر في أو إلى حضارات أخرى. تدعى هذه العملية «الانتشار الحضاري» بمعنى آخر: لم تك جميع العناصر التي نجدها بين مجموعة حضارية من اختراعات هذه المجموعة. وفي أغلبية الحالات نجد أن أكثر العناصر في حضارة ما مستوردة أو مستعارة من حضارات أخرى. ويشكل هذا الانتشار الحضاري عاملاً مهماً في التغير الاجتماعي لأغلبية المجتمعات. والمجتمعات المنعزلة عن الصلات مع العالم الخارجي تكون ثابتة بينما تلك التي استطاعت الاتصال بمجتمعات أخرى تحصل باستمرار على عناصر حضارية جديدة.

كان الانتشار الحضاري مسؤولاً عن التطور في المدنية الغربية أكثر من أي عامل آخر. ومهد الحضرية الغربية هي القارة الأوروبية وما زال مركز هذه المدنية هناك. وعلى الرغم من ذلك فإن أكثر العناصر الأساسية لهذه المدنية لم يتأصل

في أوروبـا بل استعـارتها أوروبـا من الشعوب الأخـرى. فعلى سبيل المثـال كان نسق الأعداد الذي تفوق على الأعداد الرومانية مستعار من العرب الذين استعاروه بدورهم من سكان الهند. ولولا هذا النسق العددي أو أي بديل عنـه لما استـطاع الغرب الوصـول إلى العمليات الحسـابية المستعملة في العلم والتجـارة، كذلـك فإن الحروف الهجائية التي تستعملها جميع البلدان الأوروبية في الكتابة والطباعة مستعار من الفينيقيين واستعملت بعد إدخال تطورات على الحروف الفينيقية. ولا بـد أن يكون الفينيقيـون قد استعـانوا بعنـاصر حضـارية أخـرى حتى توصلوا إلى اختراع الكتابة.

الأفكار والعقائد: (Ideas and Ideologies)

قد يبدأ التطور الاجتماعي بأفكار جديدة يطورها العقل الإنساني. وقد تنتج أفكار عملية بسيطة اختراعاً سرعان ما يجد اعترافاً ويصبح جزءاً من نمط حضاري يعتـرف به المجتمـع، مثل نـوع جديـد من الرقص، أو التعـاون التجاري أو أداة ميكانيكية جديدة. ولكن ليست جميع الأفكار من هذا النوع. بعض هـذه الأفكار تكوّن تغيراً مهماً في المواقف والقيم الاجتماعية الأساسية. مثـل هذه الأفكـار قد تسيطر على عقول الناس سيطرة قوية مثل مثاليات الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر وحركة حقوق الإنسان في الولايات المتحدة في الستينـات من هذا القـرن. وغالباً ما تكون هذه الأفكار محط آمال قد لا تتحقق كلياً ولكن يطالب بها الإنسان بطرق عديدة. وعندما تعتنق مثل هذه الأفكار في مجتمع ما تصبـح قوة هـائلة في دعم استمرارية التغير الاجتماعي في اتجاهات تقود إلى تحقيقها.

حتى في وقتنـا الحاضـر فـإن الأفكـار بحـاجـة إلى وقت طـويـل حتى يتم اعتنـاقها. ويـذهب بعض الكـتّاب إلى أن التغيـر الاجتمـاعي يحصـل بنـاء على وضمن توجيه نـظريات اكتشفهـا مفكرون في الأجيـال السالفـة. فلم يك لكـارل مـاركس تأثيـر على مجتمعـه أثنـاء حيـاتـه ولم يتـأثـر الاقتصـاديـون بـآراء جـون ماينردكينيس (John Maynard Keynes) (١٩٣٠) إلا في الستينات. وفيما عدا في حقل العلوم الطبيعية فإن الأفكار المهمة لا تنتشر بفاعلية أثناء حياة منشأها.

العقيدة نسق منظم من الأفكار لإعادة صياغة نموذج للمجتمع يهدف إلى تصحيحه ليلائم ما دعاه بعضهم «رغبات النفس». ونقدر أن نعتبرها مركباً فكرياً يتكون من أفكار وقيم وعواطف. وغالباً ما يدعمها الذين يؤمنون بها بحماسة دينية. فالفاشية والشيوعية والاشتراكية والديموقراطية عقائد لكل منها نسقها الخاص من القيم وكل منها يفترض تنظيم المجتمع ليلائم المصلحة العامة حسب أنماط مختلفة. ولا تستطيع عقيدة ما أن تصل إلى المجتمع المثالي الذي تصوره اتباعها. وحتى في أكثر المجتمعات ديموقراطية مثل المجتمع الأمريكي يعي الناس بأنهم ينحرفون عن المثال الديموقراطي في شتى الطرق.

د ـ الفعل الجماعي : (Collective Action)

يحدث التغير الاجتماعي تدريجياً ولا توجد وكالة مركزية تخطط له وتنفذه. وفي بعض الأحيان تقوم جماعات ما بتخطيط وتنفيذ بعض التغيرات الاجتماعية المهمة. الفعل الجماعي يعني الأمة ككل، كما في الأمم الحديثة يشير في كثير من الأحيان إلى فعل الحكومة لأن الحكومة هي المؤسسة الوحيدة التي تقدر على تشريع وتنفيذ القوانين التي تلزم الأمة بأكملها ولو على المستوى النظري. اليابان مثلاً أمة جربت النقلة الاجتماعية الكبيرة في القرن العشرين. فقد تطورت من مجتمع إقطاعي إلى مجتمع صناعي وديموقراطي. وقد حدث هذا التغير من خلال تخطيط حكومي كان يهدف نقل المجتمع الياباني إلى مجتمع حديث.

أمثلة على التغير الجذري في القرن العشرين نجدها في روسيا والصين. ففي هذين البلدين وهما أكثر البلدان كثافة سكانية استطاعت القيادات الشيوعية بعد أن جاءت للسلطة أن تغيّر وفي وقت قصير جداً معظم الجوانب في البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وفي محاولتها لخلق مجتمعات بناءاً على العقيدة الماركسية، فقد قامت القيادات الحكومية بالإستيلاء على كميات كبيرة من الممتلكات، وغالباً ما قضت على المالكين من الطبقة المتوسطة والعليا، واقتلعت الملايين من الفلاحين من مزارعهم ووضعهم في مزارع جماعية

واستولت على جميع الشركات الانتاجية. ولكن هذه التغيرات قد حصلت تحت سلطة حكومة متسلطة لا تكترث لحريات الأفراد وحقوقهم ولم تقدر هذه الحكومات الحصول إلا على دعم اعداد قليلة من الأفراد.

كذلك يمكن لمثل هذه التغيرات المهمة أن تحصل في الدول الديموقراطية من خلال التخطيط ولكن تنفيذ هذا التخطيط لا يتم إلا بعد أن تجد الحكومة أن الشعب يدعم مخططاتها. وغالباً ما يكون التغير المخطط في الدول الديموقراطية منظماً حسب قواعد وقوانين أعدت وتم تشريعها لحل مشاكل اجتماعية معينة كما هي الحال في خطط التنمية كما في الأردن مثلاً.

وعلى كل حال فعلى نمط يخالف النظام الاشتراكي قامت حكومة الأردن بمنع عمل الأطفال وجعل التعليم إلزامياً ولذلك زادت من عدد المدارس ووحدت البرامج... الخ. غير أننا في الوقت الحاضر بدأنا نضع بعض الأسئلة حول فعالية بعض التنظيمات.

غير أن للتشريع حدوده. ففي بعض الأحيان تقوم الحكومات الديموقراطية بتشريع بعض القوانين التي يشعر أفراد المجتمع بأنها تحد من حرياتهم. ففي عام (١٩١٩) شرعت الولايات المتحدة قانوناً بمنع المشروبات الروحية لكن الشعب اعترض على ذلك مناقشاً أن مسألة شرب الكحول وعدم شربها من مسؤولية الفرد واختياره ولا حق للحكومة في أن تتدخل قانونياً بهذه الحقوق.

هـ ـ الجغرافيا والمناخ: (Geography & Climate)

عندما تعيش مجموعة من الناس في منطقة ما لمدة طويلة من الزمن فإنها تتكيف بجغرافية ومناخ هذه البقعة. فالجماعة التي تسكن على شاطيء المحيط سوف تستعمل الإمكانيات المائية كالملاحة، وتعتاد على السمك كطعام وعلى صناعة المجوهرات والتجارة البحرية بسبب قربها من المحيط أكثر من جماعة تعيش في أرض بعيدة عن البحر ومحصورة في البر. وكثيراً ما تحصل تغيرات في الطبيعة مثل الهزات الأرضية ونفاذ الموارد الطبيعية وتغيرات في المناخ وجميع

هذه التغيرات تتطلب تكيفاً حضارياً جذرياً.

والجغرافيا والمناخ عاملان مهمان في التغير الاجتماعي عندما يهاجر الأفراد من منطقة إلى أخرى، فالأوروبيون أو العرب الذين هاجروا إلى العالم الجديد وجدوا اختلافات كبيرة في طبيعة الأرض والمناخ وشعروا بالتغيرات الطبيعية وبخاصة الطعام واللباس والإسكان وطرق كسب المعيشة.

١٨ ـ مقاومة التغير : (Resistence to Change)

على الرغم من استمرارية التغير الاجتماعي فإنه يواجه مقاومة قوية. ونتيجة لذلك يكون التغير تدريجياً وتظهر معظم الحضارات درجة ملحوظة من الثبات. والتغير الاجتماعي في الدول الصناعية الآن أسرع بكثير مما كان عليه في الماضي. وكثيراً ما يسمى هذا التغير بالتحسن أو التقدم ولذلك فكثيراً ما يعطيه الناس أهمية أكبر من تلك التي يعطوها لباقي اللائحة من القيم الاجتماعية. وعلى الرغم من التغيرات الكثيرة في مجتمعنا الحاضر فهناك مجموعة كبيرة من العوامل المقاومة التي تساعد حضارتنا على الثبات وتعطي طريقة حياتنا نوعاً من الاستمرارية.

أ ـ ثبات العادات الشعبية والأخلاق والمؤسسات الاجتماعية:

على الرغم من أن المجتمعات الصناعية تعطي قيمة عالية للتقدم إلا أن الكائنات البشرية تبدو محافظة في أول الأمر. ويبدو أيضاً أن عقل الإنسان وشخصيته مكونتان بحيث أنه إذا حصل مرة على بعض المعتقدات والمواقف وأنماط السلوك يصعب عليه تغييرها. وهذا صحيح فيما يتعلق بالعناصر الأولية لحضارتنا التي نتعلمها على السليقة في سني الطفولة التي تترك طابعها فينا. وقد تشمل معتقداتنا ومواقفنا بعض الدعم للتغير مثل التغير في الصيغة ولكن ضمن حدود فقط. فالأخلاق أو المؤسسات الرئيسية في مجتمعنا وكذلك بعض العادات الشعبية تبدو راسخة فينا بحيث أنها أصبحت جزءاً من شخصياتنا.

ب ـ العرف:

سبب رئيسي لثبات العادات الشعبية والمؤسسات الاجتماعية أنها تصبح (أعرافاً أو عادات) اعتيادية لأعضاء المجتمع. والعادات طرق سلوك يتعلمها الفرد ويقوم بها أو يسلك حسبها دون أن يفكر بها. وعندما يتعلمها الإنسان يصعب عليه تركها لأنها تصبح جزءاً من شخصية الفرد.

جـ ـ الارتباط بالقيم:

سبب آخر لثبات العادات والمؤسسات الاجتماعية هو أن الفرد والجماعة يربطون بها قيماً فهي ذو قيمة. ففي العادات الشعبية قد تكون هذه القيم بسيطة ولكن في حالة الأخلاق وبعض المؤسسات الأولية فإن القيم المرتبطة بها مهمة جداً. فعندما نعتقد أن للأنماط السلوكية قيمة عالية وتثير فينا شعوراً عاطفياً قوياً فإن هذه الأنماط تصبح قوى مقاومة للتقدم.

د ـ المصالح الخاصة: (Vested Interests)

تجابه التغيرات الاجتماعية المهمة، حتى عندما تحبذها أغلبية أفراد المجتمع، مقاومة أفراد وجماعات كثيرة أسست لها مصالح خاصة. المصالح الخاصة هي امتيازات يتمتع بها الفرد بسبب مركزه الاجتماعي كما هي الحالة في كثير من الأحيان. فإذا ما كان الفرد قصّيراً ماهراً يكون له مصلحة في تجارة الاسمنت ولكي تحافظ بعض الاتحادات العمالية على مهن أعضائها في الولايات المتحدة مثلاً فقد حاربت صناعة البيوت المجهزة وأصرّت على طريقة البناء التقليدية. . . الخ. ولا تقتصر معارضة دخول العناصر الحضارية الجديدة على الشركات من حيث التحديث المادي بل أن العلماء والفلاسفة وعلماء الشريعة واللاهوت قديماً أخذوا يعارضون الأفكار الجديدة خوفاً على آرائهم وأفكارهم من حيث رواجها.

١٩ ـ التغير الاجتماعي والثبات الاجتماعي:

(Social Change & Social Stability):

ما كان للأشياء التي نعطيها قيمة في مجتمعنا الحديث أن تحدث لو لم يكن لأفراد المجتمع أعين ثاقبة في رؤية فوائدها ـ كما هي الحال في مستوى الحياة العالي نسبياً في المجتمع الأردني. ولو وضعنا المعادلة لوجدنا أن معظم الناس تقريباً يعتقدون بأن التغيرات التي حدثت خلال القرون الأخيرة كانت مفيدة وساهمت في الرفاهية الإنسانية. وكذلك فسوف يشترك أغلبية الناس في الرأي بأن الانفجار السكاني وتلوث البيئة واختراع القوة النووية سوف تثبت حتفيتها وأنها شواذ. وعلى كل حال فإن كل تغير يتطلب تغيراً آخر ولا نقدر على رؤية أو تصور النتيجة النهائية.

وبما أن جميع التغير يأتي بمجالات جديدة، فإن التغيرات السريعة سوف تخلق مشاكلاً لم نجهز أنفسنا لها، وبدلاً من أن تعمل على تحسين العالم فإنها سوف تخلق للإنسان أزمات مؤقتة وسوف تسبب عند الناس شعوراً بعدم الطمأنينة والسكينة. وتشعر كل جماعة بالحاجة إلى بعض الثبات. وإذا ما أردنا الحفاظ على هذا الثبات فإن التغير يجب أن يكون تدريجياً وعليه أن يحدث من خلال التطور لا من خلال الثورة، ولكي يقدر المجتمع الحديث على إشباع حاجات أعضائه كما يفعل دائماً فعليه أن يمتلك تنظيماً معقداً، ويمكن لهذا النظام أن يكون موضع تحدّ وعليه أن يتكيف ويمكن أن يتغير. ولكن أي اعتقاد بأن هذا التنظيم يمكن هدمه وإحلال تنظيم آخر أحسن محله بسرعة يكون اعتقاداً غير واقعي. الثورات الاجتماعية لا تكتمل ولا تصل إلا لبعض النتائج المتوقعة. فقد انتجت الثورة الروسية بعد سنين من الكفاح والصراع ستالين وانتجت الثورة الوطنية الاشتراكية في ألمانيا هتلر، ولم تنتج أيهما الفوائد التي توقعها الناس منها.

٢٠ ـ التغير الاجتماعي والمشاكل الاجتماعية:

ما هي المشكلة الاجتماعية؟ على الرغم من أن علم علماء الاجتماع لم يتفقوا على تعريف واحد لمفهوم المشكلة الاجتماعية فسوف نكتفي هنا بالتعريف التالي: كي توجد المشكلة الاجتماعية يجب أن يستوفي شرطان: **الأول**: هو الاعتراف الواسع بأن حالة ما تؤثر عكسياً على رفاهية مجموعة كبيرة من الناس. **وثانياً**: يجب أن يسود الاعتقاد والقناعة أن هذه الحالة يجب أن تتغير. والإقرار بوجود مشكلة اجتماعية يشتمل بكل وضوح على احتمالية التغير لأنه مهما كانت الحالة غير المرغوب بها فهي ليست بمشكلة إلا إذا اعتقدنا بأن هنالك طريقة لتغييرها، ففي المجتمعات البدائية نجد أن وجود الجوع والجفاف والطاعون لا تشكل مشاكلاً اجتماعية لسبب بسيط وهو أنه لا أحد يقدر على تغيير الحالة وعلى المجتمع أن يقبلها. لكن هذه الظواهر تصبح مشكلة إذا كانت هناك طرق لتفاديها وتجنبها عن طريق تقديم الذبائح للآلهة مثلاً.

وبمعنى ما فإن المشاكل الاجتماعية دائماً مشاكل فردية لأن الأفراد هم الذين يجربون آثارها السلبية. ونحن ندعوها مشاكل اجتماعية لسببين: **الأول**، هو أنها تؤثر على عدد كبير من الناس لتشكل تهديداً لرفاهية وسلامة الجماعة ككل، **وثانياً**، لأن الأفراد لوحدهم لا يقدرون على مجابهتها. وإذا ما وجب حل هذه المشاكل فإن ذلك يتطلب فعلاً جماعياً. ويصبح هذا الشرح أكثر وضوحاً إذا ما استعنا بأمثلة كالفقر والأمراض، والبطالة الجماعية والجريمة والتفكك الأسري والحرب.

وكما هو متوقع فإن المجتمع الحديث الواسع عرضة للمشاكل الاجتماعية المعقدة أكثر من المجتمع الصغير، فالمجتمعات الكبيرة تحتوي جماعات فرعية لها أنماط حضارية مختلفة ولذلك تميل إلى التضاد والضغوط والصراعات التي تزيد من سرعة التغير الاجتماعي، وهذا التغير الاجتماعي يزيد بدوره من حدة هذه المشاكل.

حين نريد تعريف ودراسة مشكلة اجتماعية ما فإننا نواجه عدة مشاكل، لسبب واحد وهو أن أي مشكلة جتماعية مرتبطة بمشاكل اجتماعية عديدة ولذلك فهي معقدة. ولكي نفهم أحد هذه المشاكل على الوجه الصحيح علينا أن نعرف بعض الأشياء حول المشاكل الأخرى. فإذا ما أردنا فهم مشكلة التفكك الأسري مثلاً يكون لزاماً علينا أن نعرف شيئاً من خلال السؤال عن الإسكان الرديء، البطالة والطبقات الاجتماعية.

قلما يوجد حل بسيط أو جذري لمشكلة اجتماعية رئيسية، فالأسباب دائماً معقدة والمعالجات العملية صعبة الوجود. إضافة إلى ذلك فإن الفعل اللازم لحل أو معالجة مشكلة ما قد يتوقف نتيجة لغياب الوعي العام والجهل وتحت معارضة المصالح الخاصة. ولا يعني هذا أن جميع المحاولات للتحسن الاجتماعي دون جدوى. يعني هذا فقط أن بعض المشاكل الرئيسية سوف تلازمنا إلى وقت غير محدود.

٢١ ـ الهوة الحضارية والمشاكل الاجتماعية:

(Cultural Lag & Social Problems)

لا يوجد ما يدعو إلى الافتراض بأن جميع جوانب الحضارة سوف تتغير بنفس السرعة وبنفس الوقت. فقد تتغير المعتقدات والطقوس الدينية على سبيل المثال بينما تبقى الجوانب التكنولوجية ثابتة. وقد يحدث العكس تماماً بأن تبقى المعتقدات الدينية سائدة وثابتة بينما يطرأ تغير كبير على التكنولوجيا. وعلى الرغم من ذلك فإن الجوانب المتعددة للحضارة مترابطة ومتشابكة مع بعضها بعضاً ولا يوجد منها ما هو مستقل عن الآخر. وللتوضيح، فقد يمارس الدين تأثيراً كبيراً على التغير التكنولوجي. فمن ناحية يقدر الدين أن يشجع هذا التغير من خلال تعليم الناس بأن التقدم المادي يتفق مع الإرادة الإلهية، ومن ناحية أخرى فقد يعارض الدين هذا التغير من خلال تعليم الناس بأن الاختراعات الآلية من صنع الشيطان.

لقد أعطى العالم وليم أوجبيرن (William F. Ogburn) أهمية كبرى في دراسة التفكك العائلي لما دعاه «الهوة الحضارية»[1]، وحسب نظريته تكون حضارة مجتمع ما نمطاً لعناصر متشابكة، فإذا ما وصلت الحضارة إلى التكامل والثبات فإن التغير في أي جزء من هذا النمط سوف يخلق ضغوطاً وقلاقلا في الأجزاء التي يرتبط بها. وقد تحدث تكيفات لإعادة التناغم ولكن في نفس الوقت تظهر فجوة زمنية مهمة يمتد خلالها التوتر، أما في المجتمعات الحديثة فإن التغير الاجتماعي هو الذي يبدأ التغير. وحسب رأي أوجبيرن فإن:

التقدم التكنولوجي ينتج تغيرات سريعة في الجوانب المادية للحضارة ولكن الجوانب غير المادية للحضارة تفشل في التكيف أو أنها تتكيف فقط بعد فترة زمنية تشكل هوة.

ونتيجة لذلك يخلق التغير مشاكلاً اجتماعية مزعجة.

أحد أنواع هذه الهوة الحضارية التي تذكرها الكتب هي فشل المنظمة السياسية في التكيف مع تقدم وسائل النقل، كما في الهند والباكستان أو إيران مثلاً حيث أن الاتصال مع والتنقل إلى المناطق النائية ما زال صعباً بسبب عدم وجود الطرق، أو كما في الولايات المتحدة من حيث أن كثير من القرى الزراعية من الصغر بحيث لا تحتمل وجود حكومة محلية فيها وأن المؤسسات الحكومية تقاوم التغير بحيث أن أي تعديل جوهري على حدود هذه القرى المدعوة (Countries) يصبح متعذراً.

٢٢ ـ تحديدات نظرية الهوة الاجتماعية:

قد تكون نظرية الهوة الاجتماعية مفيدة إذا ما أدركنا معناها وتحديداتها بوضوح.

---

(١) William F. Ogburn. Social Change, (New York: Viking Press) 1960, PP. 200 - 213.

أولاً: علينا أن لا نفترض أن التغيرات في الجوانب المادية للحضارة تحدث قبل أو يجب أن تكون سابقة على التغيرات في الجوانب غير المادية فيها، فهناك تفاعل دائم ما بين الجانبين، ومع الزمن يأخذ التغير في الجوانب المادية بالاعتماد على بعض العوامل غير المادية مثل المواقف الاجتماعية وأشكال التنظيم الاجتماعي. تتأصل جميع المنتجات المادية لحضارة ما في عقول الناس أولاً ولن تخترع الحاجات المادية وتعرض للاستعمال حتى تجد الجو الحضاري غير المادي الملائم لذلك. وقد كانت خصائص مجتمعنا الحديث المتمثلة في التطور المادي السريع نتيجة لتغيرات سابقة في الحضارة غير المادية وهي تغيرات جعلت تطور الآلة التكنولوجية الحديثة ممكناً. وقد قدمنا نبذة عن هذه التطورات السابقة. وكان أحدها ازدياد الرغبة في قبول التطور والتغير الذي يبرز نتيجة لبعض الحركات التاريخية كثورة الإصلاح والنهضة ورحلات الاكتشاف الكبيرة. تطور آخر وعامل يتعلق بالعامل السالف الذكر هو تطور الاتجاهات النفسية التي جعلت تطبيق المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة ممكناً.

ثانياً: عندما يحصل التغير في الحضارة المادية فإننا نجد في بعض الأحيان صعوبة في أنواع التكيف الضرورية في الحضارة غير المادية. ولنعتبرها هنا اختراع السيارة واعتمادها الواسع كوسيلة للنقل. لقد أدى اختراع السيارة إلى تغيرات اجتماعية كثيرة في العادات والقيم حتى وفي مفهوم الشرف. أبسط هذه التغيرات أنها ساعدت المارقين على عادات الزواج عند العشق للهرب والتخلص من أشراف الأهل. ولكن هل يمثل هذا عجزاً في تكيف حضارتنا غير المادية مع السيارة؟ يذهب البعض إلى أن العجز حاصل ويعتبرون ذلك مثالاً على الهوة الحضارية وناقشوا بأنه كان على الحضارة غير المادية أن تتوقع ذلك وتخلق طرقاً جديدة في الاشراف على تربية الأولاد للحفاظ على المستوى الأخلاقي، واعتبر آخرون أن الحرية التي خلقها اختراع السيارة بين الجنسين ليست مشكلة بل تطوراً

يمثل تقدماً اجتماعياً.

وحتى حيث يوجد اتفاق عام في الرأي على أن الحضارة غير المادية لم تقدر على التكيف مع التغيرات في الحضارة المادية، فإن الوصول إلى مثل هذا التكيف صعب إن لم يك مستحيلاً أن نتصوره. فكلمة «هوة» تحتوي على الرأي المتفائل بأن الحل الكافي للمشاكل الاجتماعية والناتج عن التغير التكنولوجي هو مسألة وقت ولكن هذا الوقت في بعض الأحيان ممتنع (قد لا يأتي). فمعرفتنا الطبية مثلاً حول عمليات الإجهاض لم تفعل إلا زيادة مشاكل جديدة إلى الصراعات حول الموضوع.

٢٣ ـ القيم الاجتماعية والمشاكل الاجتماعية:

توجد المشاكل الاجتماعية فقط في علاقاتها مع القيم الاجتماعية. إذا أعطى الناس في مجتمع ما قيمة عالية للحرية الشخصية فإن أي تحديدات لهذه الحرية سواء إرادية أم غير ذلك تعتبر اضطهاداً سياسياً وتشكل مشكلة اجتماعية ـ والحل، إذا وجد، قد يكون من خلال التغير السياسي السلمي ـ أو كما في بعض البلدان من خلال الثورة. أما في البلدان التي تضع تحديدات جامدة على الحرية الشخصية وتعتبر هذه عملية عادية وطبيعية فإن هذه التحديدات للحرية لا تعتبر مشكلة قط. ففي الماضي اعتبرت بعض الشعوب العبودية عملية طبيعية وصحيحة لأعداد كبيرة من الناس. ولم تشكل مشكلة اجتماعية. ولم تشمل هذه المجتمعات المجتمعات القديمة كالمجتمع اليوناني والروماني فقط ولكن أيضاً مجتمعات وجدت بعد الثورة الفرنسية كما كانت عليه الحال في الولايات المتحدة واعتبروا هؤلاء العبيد ذا مستوى ذكاء متدن وغير قادرين على الاعتناء بأنفسهم.

وكثير من مشاكلنا الحالية لم تك لتعتبر مشاكل اجتماعية في الماضي. وكانت كثير من المسائل العامة كما هي في الوقت الحاضر لا تعتبر مشاكلاً اجتماعية في الماضي مثل الفقر وعدم المساواة في الإمكانيات التعليمية وفي

الامتيازات القانونية بين طبقات المجتمع المختلفة، ولكنها الآن جميعاً مشاكل اجتماعية معترف بها وبحاجة إلى علاج. من خلال هذه القيم التي أكد عليها مجتمعنا نقدر أن نقول أنه طور ما يدعى بالوعي الاجتماعي أو الضمير الاجتماعي الذي يعبّر عن القيم السائدة في الحضارة الحديثة. ونحن لا نتبع حرفياً ما يمليه هذا الوعي ولكننا نضطرب إذا ما فشلنا في الاستماع إليه. فهو يقول لنا أن نضع قيمة عالية لحياة الإنسان ورفاهيته وأن نجد حلولاً لمشاكله.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل الثالث:

١ ـ أذكر بعض التعريفات لمفهوم الحضارة (تعريفين)؟

٢ ـ أعطي مثالاً على كل من العادة الشعبية، الأخلاق والقانون المعتادة في المجتمع الأردني.

٣ ـ ما هي المؤسسة الاجتماعية؟ وما هي عناصرها الأربعة؟

٤ ـ ميز بين المركز والدور. وما هي العلاقة بينهما؟

٥ ـ ما هي القيم الاجتماعية؟ أعطي أمثلة.

٦ ـ ما هو التطور الحضاري؟

٧ ـ لماذا تكون الحضارة البدائية أكثر تكاملاً من الحضارات الحديثة الصناعية؟

٨ ـ ما هي النسبية الحضارية؟ وما صلة هذا المفهوم بمفهوم التزمّت الحضاري؟

٩ ـ ما هي التطورات التي حدثت في القرون الستة الأخيرة والتي قادت إلى ازدياد سرعة التغير الاجتماعي؟

١٠ ـ بين الفرق بين «التغير الاجتماعي» و «التطور الاجتماعي»؟

١١ ـ اشرح علاقة كل من الآتي بالتغير الاجتماعي: الاكتشاف، الاختراع، انتشار الحضارة، الأفكار والعقائد، الفعل الجمعي.

١٢ ـ لماذا يجابه التغير الاجتماعي مقاومة قوية؟

١٣ ـ ما هي المشكلة الاجتماعية؟

١٤ ـ اشرح نظرية الهوة الاجتماعية؟

١٥ ـ ما هي العلاقة بين المشكلة الاجتماعية والقيمة الاجتماعية؟

المفاهيم المستعملة في الفصل الثالث:

ـ حضارة	Culture
ـ معايير	Norms
ـ عادات شعبية	Folkways
ـ أخلاق	Mores
ـ قوانين	Laws
ـ مؤسسة اجتماعية	Social Institution
ـ مركز	Status
ـ دور	Role
ـ انتاج حضاري مادي	Artifacts
ـ تطور حضاري	Cultural Evolution
ـ قيم اجتماعية	Social Values
ـ تكامل حضاري	Social Integration
ـ عالميات حضارية	Cultural Universals
ـ بدائل حضارية	Alternatives
ـ نسبية حضارية	Cultural Relativism
ـ تزمّت حضاري	Ethnocentrism
ـ تطور اجتماعي	Social Evolution
ـ انتشار حضاري	Cultural Diffusion
ـ اكتشاف	Discovery

- اختراع	Invention
- عقيدة	Ideology
- المصلحة الخاصة	Vested Interest
- مشكلة اجتماعية	Social Problem
- هوة حضارية	Cultural Lag
- الضمير الاجتماعي	Social Consciousness

مراجع الفصل الثالث

- بريتشارد، ايفانز. **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**. (ترجمة أحمد أبو زيد) (الاسكندرية: منشأة المعارف ١٩٥٨).
- رياض، محمد. **الإنسان والحضارة: دراسة في النوع والحضارة**. (بيروت: دار النهضة العربية ١٩٧٢).
- لطفي، عبد الحميد. **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**. (مصر: دار المعارف ١٩٥٠).
- وصفي، عاطف. **الأنثروبولوجيا الثقافية**. (مصر: دار المعارف، ١٩٧٥).
- Keesing, F. M.. **Cultural Anthropology.** (New York: Holt, Rinehart and Wington 1966).
- Redfield, Robert. **The Primitive World and Its Transformation Ithaca** (New York: Cornell University Press, 1971). 1 st ed. 1953.

الفصل الرابع

مدخل الى علم الاجتماع

د. مهنا حداد

مدخل الى علم الاجتماع

كل الحيوانات متساوية هنا ولكن بعضها أكثر
تساوياً من آخرين.

جورج أورويل

١ ـ التعريف بعلم الاجتماع ومدارسه:

علم الاجتماع هو ذلك العلم ـ إذا ما عرفناه تعريفاً فكاهياً ـ يبحث فيما يعرفه كل إنسان بحيث بعد صياغته وقراءته لا يفهمه أي إنسان. صحيح هو الأمر بأن كتابات المختصين بعلم الاجتماع معقدة ولكن المعرفة التي يحتويها علم الاجتماع هي تلك المعرفة التي يجمعها باحثوا هذا العلم من الناس أنفسهم ثم ينظرون حول هذه المعرفة ويستخدمون نظريات كثيرة لتفسير الظواهر الاجتماعية والمعرفة المتعلقة بها.

وليس من السهل تعريف علم الاجتماع لكن ملخصاً للتعريفات المختلفة قد يكون كالتالي:

علم الاجتماع هو العلم الذي يبحث في المجتمع ويهتم به ويحاول أن يصنف المعلومات حوله ويحللها ويقدم تفسيراً لها.

وعندما نقول أن علم الاجتماع يهتم بالمجتمع فإننا لا نقول أن جميع علماء الاجتماع يقومون بنفس الأشياء فلعلم الاجتماع مدارس كثيرة وكل منهم

يمارس هذا العلم من منطلق معين ولكي نتعرف على هـذه المدارس نحـاول هنا أن نمر عليها باختصار. قبـل ذلك علينـا أن نعرف شيئـاً عن نشأة علم الاجتماع ومن خلاله نتعرف على مدارس هذا العلم.

١ ـ **الاتجاه الوضعي التطوري**: على الرغم من أن عبد الرحمن بن خلدون قد سبق الغرب في الحديث عن علم الاجتماع والمجتمـع إلا أن هذا لا يعني أن المحاولات الجادة الأولى في دراسة المجتمع كموضوع دراسة قد كـانت على يد الفرنسي أوجيست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٨). فقـد ذهب هذا العـالم إلى أن علم المجتمع علم معقد وأن دراسة المجتمع أصعب الدراسات.

رأى كونت أن المجتمع يتطور من حال إلى حال وأنه قـد يخضع للدراسة مثله مثـل أي مادة أخـرى. ولذلـك نجده يضـع فلسفة خـاصة بـالعلم سمـاهـا: الفلسفـة الوضعيـة. أي استخدام الأسلوب الـوضعي في الـدراسـة ويعتمـد هـذا الأسلوب على الملاحظة والتجريب والمقارنة والاستفادة من المنهج التاريخي في ذلك. وقد ذهب كونت إلى أن المجتمع قد تطور حسب قانون سمـاه لنا: قـانون المـراحل الثـلاث. أي أن المجتمع قـد تطور خـلال مراحـل ثـلاث: المرحـلة الـلاهوتيـة، المرحلة الميتـافيزيقيـة ثم المـرحلة الـوضعيـة. في المـرحلة الأولى تعددت فيها أسباب الوجود في الفكر الإنساني وتعددت الآلهة وسيطر الكهنة على المجتمع، وفي المرحلة الثانية تقلصت الأسباب المتعددة للوجود إلى سبب واحد غيبي هـو الله وسيـطر رجـال الكنيسـة على المجتمـع، ثم انتقـل المجتمـع إلى المرحلة الوضعية حيث أصبح العلم هو الأساس لتفسيـر الظواهـر ولا يعتمد على غيرها. هذا الاتجاه في علم الاجتماع أخذ يـدعى فيما بعـد الاتجاه الـوضعي أو حتى الاتجاه التطوري.

من الـذين اهتموا بعمليـة تطور المجتمـع أيضاً هـربرت سبنسـر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) لكن سبنسر ذهب إلى أن المجتمع يتطور قياساً بتطور علم العضـويات ـ ففي العضوية تتطور الخلية من خلال التكاثر ونمو الهيكل ثم التمايز الوظيفي ومن

خلال ذلك تصل العضوية إلى تكامل. ثم جاء بعده آخرون تبنوا نظرية التطور العضوي.

العالم الذي أعطى نظرية التطور العضوي وتطبيقها في علم الاجتماع هو شارلز دارون الذي كتب عام ١٨٥٨ كتاب أصل الأنواع وحاول أن يثبت أن الإنسان نوع من الكائنات الحية الحيوانية تطور من خلال عملية طويلة حتى وصل إلى ما هو عليه وهي أرقى مراتب التطور. فقد أخذ بعض الاجتماعيون هذه النظرية، مثل سبنسر، وطبقوها في دراسة المجتمع وأصبحت تدعى في علم-الاجتماع «الداروينية الاجتماعية». حيث أصبحت فكرة التطور نوعاً من القانون العام تخضع له تحولات المجتمعات، وأن الإنسان لا يحق له التدخل في مسيرة هذا القانون.

لكن جاء بعد سبنسر كثيرون انتقدوا هذه النظرية ومدرستها وقالوا: إذا كان علم الاجتماع علماً من العلوم فهو لا يقتصر على الدراسة النظرية ولا بد أن يكون له ناحية تطبيقية لمعالجة القضايا الاجتماعية، وأن المجتمع ليس ثابتاً ولا توجد فيه حالة الثبات ولذلك يجب أن تدرسه في حركته وتطوره من خلال أسلوب الاستقراء وهذه هي الناحية الأمبيريقية أو الحقلية. الذين قالوا بهذا هم مرديناند تونيس (١٨٥٥ ـ ١٩٣٦) واميل دركهايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧). غير أن اميل دركهايم وضع معايير أخرى في دراسة المجتمع مثل التكامل الاجتماعي، والوعي الجمعي وتقسيم العمل.

جميع هؤلاء العلماء اهتموا بتغيير المجتمع من حالة إلى حالة. فبينما ذهب هؤلاء المذكورون أعلاه إلى أن المجتمع يتطور، ذهب آخرون لاحقين مثل الفريدو بارتيو (١٨٤٨ ـ ١٩٢٣) أن يدخل إلى المنهج الوضعي الفكر المثالي، وأهم ما قال به هو التركيز على ما دعاه (بالرواسب) أو البقايا السلوكية التي تبقى عند الإنسان في اللاوعي وتوجه سلوكاته، من ناحية ونظرية النخبة في احداث التطور. فهو يرى أن التغير في المجتمع يأتي عن طريق مجموعة من الأفراد

القياديين الذين يعالجون الأمور ويقررون اتجاه تصحيحها، وأهم المعايير لمفهوم النخبة هو النجاح في نظره.

نستطيع أن نسمي في آخر حلقة هذا الاتجاه العالم أوزوالد شبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) والذي قدم لنا المنهج العضوي من خلال مفهومي القياس والسببية. فحسب مفهوم القياس نجد أن التباين بين القانون الرياضي والقياس الاجتماعي ينطبق على الفرق بين العالم كتاريخ والعالم كطبيعة وبين الأساليب اللازمة لفهم كل منهما. لكن شبنجلر كان عالم حضارة قبل كونه عالم اجتماع. وأهم ما عند شبنجلر أنه قدم لنا مفهوم مورفولوجيا التاريخ لفهم الحالات الاجتماعية. بمعنى آخر يجد أن هنالك تاريخ خاص لكل حضارة ولا يوجد تاريخ عام. وقد أثر شبنجلر على عالم التاريخ يوين بي (١٨٨٩ ـ الآن) والذي قدم لنا مفهوم النمط التاريخي.

٢ ـ **مدرسة الصراع**: شكل الاتجاه العضوي التطوري مدرسة فكرية اجتماعية قبل أن يشكل مدرسة تتعامل مع علم الاجتماع كعلم. ولذلك ما أن جاءت نهاية القرن التاسع عشر حتى ظهرت مدارس أخرى كانت قد بدأت مع بداية القرن التاسع عشر ومن أهم هذه المدارس هي المدرسة الماركسية والتي أنشأت علم الاجتماع الماركسي وظهرت اتجاهات أخرى حول الصراع ولكن بأفكار تختلف عن الأفكار الماركسية من حيث المضمون ومن حيث منهج البحث. ذهب ماركس (كارل ماركس ١٨١٨ ـ ١٨٨٣) إلى أن المجتمع قد تطور خلال العصور وكان شأنه في ذلك شأن مفكري التطور. ما اختلف به عنهم هو الدافع إلى تطور المجتمع. فبينما ذهب أولئك إلى أن المجتمع تطور نتيجة لتطور الفكر أولاً وآخراً ذهب ماركس إلى أن الفكر نفسه قد يطور نتيجة لتطور وسائل الانتاج وملكيتها والصراع حول هذه الملكية. لقد أدى تطور وسائل الانتاج والملكية إلى إيجاد فئتين إحداها مالكة وغيرها غير مالكة وهو هذا التطور الذي أدى إلى عبودية الإنسان للإنسان. وللمشاركة في هذه الملكية تكونت الطبقات في المجتمع الصناعي فيما بعد وظهر الصراع الطبقي. وعلى هذا يكون

المجتمع في صراع مستمر حتى يعود المجتمع إلى الملكية الجمعية. لكن آخرون ظهروا وقالوا بأن الصراع ليس بالضرورة مرتبطاً بالملكية لأن للصراع وجهين وجه التنافس ووجه الصراع - ومن أهم من قالوا بذلك داهر ندورف ولويس لوزر وغيرهم.

٣ - **مدرسة الفعل الاجتماعي**: ومن أهم مؤسسي هذا الاتجاه هو جورج سمل (١٨٥٨ - ١٩١٨) فقد اهتم هذا الباحث ومن بعده أيضاً دركهايم وفيبر بالتفاعل الاجتماعي لأن التفاعل الاجتماعي هو أساس العملية الاجتماعية. وبينما ظهرت هذه المدرسة في ألمانيا كان معظم روادها من الألمان مثل ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) ثم تلكوت بارسونز.

٤ - **مدرسة علم الاجتماع الشكلي أو الصوري** برئاسة بارتز بيكر وسوروكن اللذين ذهبا إلى أن للعملية الاجتماعية وجهان: الشكل والمضمون. فبينما يكون الشكل ثابتاً فإن المضمون متغير.

٥ - **مدرسة السلوكية الاجتماعية**: وأهم من عمل على تأسيسها جبرائيل تارد (١٨٤٣ - ١٩٠٤) وقد خرج من نقطة الانطلاق بأن السلوك الاجتماعي يعتمد عمليتين التقليد والإبداع وأن الفئات الاجتماعية الدنيا تقلد الفئات الاجتماعية العليا. هاتان القاعدتان اعتمدتا في تفسير التغير الاجتماعي. وقد انقسمت هذه المدرسة فيما بعد إلى مدرستين مثل الثانية منها وليم أوجبيرن (١٨٨٦ - ١٩٥٩) وبتمكوف (١٩٠٤ -). وفي نفس الوقت ظهرت مدرسة التفاعل الرمزي التي بنيت على فلسفتي كاسيدر وبياجيه ومن أهم رواد هذه المدرسة وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) الذي لعب مفهوم الغرائز في فكره دوراً أساسياً، ثم شالرز كولي (١٨٦٤ - ١٩٢٩) والذي اعتبر الجماعات الأولية نقطة انطلاق لعلم الاجتماع.

٦ - **المدرسة الوظيفية**: بدأت هذه المدرسة بهربرت سبنسر ثم بنى عليها العالم الفرنسي اميل دركهايم ولكن هذه المدرسة ترعرعت في علم الأنثروبولوجيا

على يد برانزلو مالينوفسكي وتؤكد على أن أي عنصر اجتماعي لا يوجد إلا وله إسهام يقوم به في الحفاظ على الكل الاجتماعي واستمراريته. وهذه الوظيفة تحصل عن طريق المؤسسة. لكن هذه المدرسة اندمجت مع المدرسة البنائية في مدرسة واحدة أخذت تعرف بالبنائية الوظيفية وما زالت هي المسيطرة في العلوم الاجتماعية.

٢ ـ مجالات علم الاجتماع:

كأي علم آخر يقسم علم الاجتماع إلى علم كلي وعلم جزئي أو علم اجتماع عام وعلم اجتماع خاص. ويهتم علم الاجتماع العام بالنظرية الاجتماعية عامة وفي أي من تخصصات هذا العلم وكذلك في منهجية هذا العلم وتطورها... الخ. أما علم الاجتماع الخاص فيسمى كل منها باسم الاختصاص الذي يهتم به في المجتمع. ولتسمية هذه المجالات نسمي:

١ ـ علم اجتماع العائلي وهو العلم الذي يبحث في الأسرة والعائلة وتكوينها ووظائفها وصراع الأجيال فيها وغيرها.

٢ ـ علم الاجتماع الريفي وهو علم اجتمع متخصص بدراسة الريف أين كان والمشاكل الخاصة به وتكوين المجتمع الريفي.

٣ ـ علم الاجتماع المدني ويبحث في المجتمع في المدينة وتوسيعاته وبناءاته والعلاقات بين أجزاءه ومؤسساته وفي تنظيم المدن ومشاكلها وغيرها.

٤ ـ علم الاجتماع السياسي وهو يبحث في العلاقات بين الحكام والمحكومين وفي تكوين المؤسسات الحكومية والسلطة.

٥ ـ علم الاجتماع الاقتصادي ويبحث في العلاقات الاجتماعية بين المؤسسات الاقتصادية في المجتمع من ناحية وبينها وبين الجماعات العاملة في هذه المؤسسات من ناحية أخرى ووسائل الصراع والانسجام التي يصلون إليها.

وهكـذا يمكن أن نسمي مجمـوعـة من تخصصـات علم الاجتمـاع حسب المجـالات التي يـدرسهـا علمـاء الاجتمـاع وعلينـا أن لا ننسى أن أهم هـذه التخصصات والتي نجدها في جميع التخصصات هو التغير الاجتماعي.

٣ ـ التقسيمات الاجتماعية:

يمكننـا دائماً تقسيم النـاس في المجتمـع إلى فئـات. ففي بعض الأحيـان تكون هذه التقسيمـات واضحة وفي بعضهـا تكون تقـريبية. وتكـون هذه الفئـات مختلفـة في الدخـل والمهنة، والقـوة والامتيـازات وطـرق الحيـاة والمنـاطق التي تعيش فيها. وندعو هذه التقسيمات سواء إلى فئـات اجتماعيـة أو فئات عمـرية أو إلى المنـاطق التي يعيشون فيهـا باسم التـدرج (Stratification). نتـطرق في هـذا الفصل إلى مسألة التدرج ثم نتعرض إلى بعض أنواع التدرج البديلة الأخرى.

تخلق معظم أنساق التـدرج الاجتماعي بنـاء طبقياً يتكـون من طبقة متفـوقة وطبقـة متوسـطة وطبقة دنيـا بينما هنـاك بعض أنساق التـدرج لا تخلق مثـل هـذه الطبقية. ولذلك فإن التدرج الاجتماعي مهم في نظرنا لأنه يؤثر تأثيراً مباشراً على شعورنا وإحساسنا بالعدالة الاجتماعية.

الوحدة الأولية في عملية التدرج هي العائلة لأن جميع أفراد العائلة الواحدة في أغلب الأحيان ينتمون إلى نفس الطبقة[١]. وعادة ما تكون الطبقة الفوقية قليلة جـداً تتكون فقط من الأفـراد ذي المكانـات الرفيعـة. وينتمي معـظم النـاس إلى الطبقتين السفليين في هذا السلم.

لا يـوجـد مثـل هـذا التـدرج في بعض القبـائـل البـدائيـة ولكنـه مـلازم للمجتمعـات الكبيرة أو المتـوسطة. كـذلك فـإن بعض الأعمال تبـدو أكثر أهميـة

---

(١) كلمـة Stratification مشتقة من الـلاتينية Strutum وهي الخـطوط المتوازيـة وتـأتي أيضـاً بمعنى شـارع. وبما أن هـذه الخطوط المتـوازية تشكـل درجات فقـد جاءت هـذه الكلمة Stratification بمعنى تدرّج.

للمجتمع من غيرها ولذلك فهي تناط إلى أو تلقى على عاتق مجموعة من الأفراد ذي الكفاءات العالية والمهارات المتفوقة والتجربة الطويلة. فهناك المكاتب السياسية الهامة التي يجب أن نملأها، والنشاطات الاقتصادية التي يجب أن ننظمها والقوات المسلحة التي يجب أن نضبطها من خلال قيادة حكيمة قوية. ويحصل الذين تناط إليهم مثل هذه الأدوار على امتيازات متنوعة. وبما أن مثل هؤلاء الأفراد يتعاملون ويتفاعلون مع بعضهم بعضاً فإنهم يكونون مواقفاً مشتركة ونمط حياة خاص بهم. وهم في بعض الأحيان قادرون على تقوية أنفسهم في مراكزهم من خلال وسائل قانونية ودينية، ولكن أيضاً دون هذه الوسائل فهم قادرون على توريث مراكزهم المتفوقة إلى أبنائهم.

عندما يتأصل التدرج الاجتماعي في المجتمع فإنه قد يقود إلى ثبات اجتماعي ويعني هذا أن بقية المجتمع تعتاد على مثل أفراد هذه الجماعة ليقوموا بوظائف معينة وكذلك على أن يقوم أبنائهم من بعدهم بها: وبما أن كل إنسان عندها يعرف ما هي المهن التي يقدر أن يقوم بها فإن كل إنسان أيضاً يعرف مكانته في المجتمع وتتناقض المنافسة. ولكن عندما يكون هذا التدرج أقل جموداً فإن إمكانات الفرد في تحسين مركزه الاجتماعي تزداد وتظهر عدم القناعة وينشأ الصراع بوضوح.

٤ ـ أنواع التدرج الاجتماعي:

ظهرت في العالم ثلاثة أنواع من التدرج الاجتماعي: الإقطاع، (Estates) والطبقية الاجتماعية الدينية (Casts) ثم الطبقات الاجتماعية (Social Classes). سوف يكون هذا النمط الأخير من التدرج (الطبقية) موضوع اهتمامنا لأنه يوجد في جميع المجتمعات الصناعية والمتقدمة ونحن نعتبر الأردن بلداً متقدماً أكثر منه كجزء من البلدان الأخرى. وعلى أية حال فإن بعض التعرف على النوعين الأوليين يساعدنا على فهم هذه الطبقية.

أ ـ الإقطاع (Estate): يدعى التدرج الاجتماعي الذي وجد في أوروبا

وفي بعض البلدان الشرقية في العصور الوسطى الإقطاع. ففي هذا النسق كان الإقطاع الذي كان ينتمي إليه الفرد والمكانة التي يحتلها الفرد على السلم الاجتماعي يعتمد على العادة والمهنة والحقوق والواجبات إلى جانب محددات أخرى. وكانت كل إقطاعية تتكون من جماعات مثل النبلاء ورجال الكنيسة والتجار والصناع والمزارعين. وكان كل من هذه الجماعات مقسماً إلى جماعات أصغر ودرجات متعددة.

ففي نسق الإقطاعية، أينما وكيفما وجدت، تكون مكانة الفرد وراثية موروثة عن الأهل وتكون خطوط التقسيمات بين الجماعات واضحة وغالباً ما يعرف الفرد إلى أين ولمن ينتمي. كما كان عليه حتى أن يلبس لباساً معيناً ليبيّن مكانته في علاقته مع من هم أعلى منه. والحراك الاجتماعي في هذا النسق طفيف ولكنه ممكن فقط من خلال إطار القانون والعادة، وكان الشريف قادراً أن يعتق عبداً من عبوديته مقابل خدمات خاصة، أو كان باستطاعة الملك أن يهب أرضاً لأحد العامة من الناس، ويجعله فارساً ويضفي عليه بعض النبل. كذلك كانت الرهبنة والخدمة العسكرية سبلاً للوصول إلى مكانة النبيل والحراك الاجتماعي العمودي.

كان نظام الإقطاع يتلائم مع مجتمع جامد أكثر من تلائمه مع مجتمع حركي. ولكن هذا النظام تفكك تحت تأثير تغيرات معينة واختفاء الإقطاع، الثورة الصناعية ونشوء العقائد الديموقراطية بتوكيدها على الحرية والمساواة.

ب ـ الطبقية الاجتماعية الدينية (Castes) : تقترن هذه الطبقية مع مجتمع الهند حيث دامت زهاء ثلاثة آلاف سنة. وفي هذا النظام كما في الإقطاع يحصل الإنسان على مكانته الاجتماعية مع الولادة. وعلى أية حال فإن حيوية هذه الطبقية الكاستية تنبع من أصالتها في المجتمع من خلال العادة والعرف بالإضافة إلى أنها جزء لا يتجزأ من الديانة الهندوسية. وتعتمد هذه الطبقية على مفهومي «الكارما» و «التناسخ». تشير كلمة كارما إلى المعتقد بأن اهتمام الفرد الأول هو

قيامه بالواجبات التي ألقيت على عاتقه بما في ذلك الالتزامات الطقوسية التي ترافق عضويته في طبقة معينة. أما عقيدة التناسخ فتقول أن الإنسان إذا ما قام بواجباته على الوجه الصحيح في حياته فإنه في الحياة المستقبلية سوف يولد في طبقة أعلى. والطبقية الدينية أكثر جموداً من طبقية الإقطاع لأنه لا مجال للفرد بالحراك من طبقة لأخرى إلا من خلال الموت والتناسخ. غير أن هناك بعض الحالات التي ينتقل فيها بعض الأفراد القلائل إلى طبقة أعلى.

وفي مثل هذه الطبقية الدينية تكون خطوط توزيع الناس على طبقات واضحة فالكل يعرف مكانه، وبخاصة في الجماعات الصغيرة، ويعرف أيضاً مكان الآخر. وتعتمد كل طبقة مهن معينة كقاعدة. ففي الهند تزود طبقة البراهمان المجتمع بالكهنة، وتزوده طبقة الكاشتريا بالجنود والحكام، وتزود طبقة الفايسيا بالتجار والمزارعين بينما تنتج طبقة السودرا العمال والحرفيين. وعلى كل حال فإن كل من هذه الجماعات تحتوي على طبقات كلية وطبقات فرعية لا يعيش بعضها إلا في مناطق معينة. وما عدا الشواذ النادر فلا يتم الزواج إلا بين أفراد من الطبقة الواحدة. وإضافة إلى ذلك فهناك قواعد مفصلة حول الاتصال بين أفراد الطبقات المختلفة. وفي قاعدة السلم التدرجي نجد جماعة المنبوذين (أو غير الملموسين) وكل تماس مع هؤلاء يعتقد الهنود أنه ينجس الناس ذا المكانات العليا.

كان مهاتما غاندي من طبقة السودرا أو المنبوذين وقد حاول تحطيم هذه الطبقة إلا أنه فشل على الرغم من مركزه القوي. ومع الزمن فإن هذه الطبقية سوف تنحل تحت ضغوط التصنيع وتأثير العناصر الحضارية الغربية. وتحاول حكومة الهند جاهدة في الوقت الحاضر إلى إلغاء هذه الطبقية أو بالأحرى تمييزات هذه الطبقية. وقد منعت الحكومة المواقف النابذة وظاهرة النبذ ووضعت عقوبة على كل من يرفض تقديم الخدمة لأفراد السودرا في المطاعم أو من يحاول طردهم عن بئر القرية. وقد تلاشت هذه الظاهرة في المدن ولكنها ما

زالت قـويـة في الـريف حيث يعيش الهنـدوس على الـرغم من التشـريعـات الحكومية.

وجدت بعض أنظمـة الطبقيـة التي تشبه طبقيـة الهند في جنـوب الولايـات المتحدة حيث دعي بعض الكتاب الزنوج بـاسم كاست. وكـانوا يشيـرون بذلـك إلى أن الفرد الأسود ينتمي إلى المجموعة المحرومة بالولادة ولا إمكانية له للحاق أو الالتحـاق بإحـدى الجماعـات الأوروبية وامتيـازاتها، وحتى عـام ١٩٦٥ كانت بعض الولايات تحضر زواج الأسود من البيض وبالعكس. والطبقيـة الأقرب إلى الطبقية الهندية هي الطبقية العنصرية في أفريقيا الجنوبية وفي إسرائيل، فلا مجال في هـذه المجتمعـات لغيـر البيض أو اليهـود من الـوصـول إلى طبقـة الأغنيـاء والأرستوقراطيين وكـل يرث مـركزه الاجتمـاعي عن أهله. كذلـك يوجـد في هذه المجتمعات الفصل بين الأجناس ويحظر على العبيد في جنوب أفريقيا أن يكـون لهم علاقات مع البيض والعمل والسكن مع البيض.

وقد رفض المجتمع الدولي الحالة في جنوب أفريقيا وكانت هنالك محاولة لمقاطعة دولتها اقتصادياً لإرغامهـا على التخلي عن السياسـة العنصريـة. ويتوقـع معظم الباحثين أن ينتهي هذا النسق العنصري في السنة الألفين.

جـ ـ الطبقات الاجتماعية: بينمـا لا يوجـد في المجتمعات المتقـدمة الآن مثل هذه الطبقيات السالفة الـذكر يـوجد فيهـا نوع آخـر وهو الـطبقية الاقتصـادية وكذلك هي الحال في الأردن إلى درجة بعيدة. وتختلف هذه الـطبقيات الأخـرى بأنها لا تعتمد على أسس قانونية أو دينية. ثم أن هذه الطبقية لا تعرف التقسيمات الواضحة بمعنى الجماعات المحصورة التي يوضع الفرد في أحدها دون شـك أو سؤال. والحقيقة بأن هذه الطبقات الاجتماعية غير واضحة التقسيم سهلة البرهـان لأن علماء الاجتماع غيـر قادرين على تكـوين رأي عام أو اتفـاق حول عـدد هذه الـطبقات المـوجودة. وهـذا ليس غريبـاً لأن: المركـز الاجتمـاعي في المجتمـع الديموقراطي الحر هو استمرار تتبعثـر على مداه الأفـراد والعائـلات من القمة إلى

القاعدة. وإذا ما قسمنا الناس إلى جزئين أو ثلاثة أو أكثر فإننا نقوم بذلك إرادياً دون أن نعتمد أسساً ثابتة.

ويجد علماء الاجتماع كثيراً من المشاكل في الأسس التي يجب أن يستعملوها في تحديد المركز الاجتماعي. يعتنق الذين يتبعون النظرية الماركسية في الأصل القاعدة الاقتصادية والعامل الواضح في هذا المجال هو الدخل. ويتبع آخرون (أغلبية علماء الاجتماع) في تحديد مركز الفرد الموقف الاجتماعي العام أو ما تراه الجماعة في وضع مثل هذا الفرد في مكانة عالية أو متدنية على السلم الاجتماعي بناء على أسس متعددة. ولا يشكل العامل الاقتصادي هنا أكثر من أحد هذه الأسس إلى جانب التعليم والمهنة. هذه العوامل الثلاث تحدد المركز الاجتماعي الاقتصادي النهائي للفرد.

٥ ـ تعريف الطبقة الاجتماعية:

سوف نعتبر لغرضنا الدراسي الحالي أن المركز الاجتماعي:

يتكون من مجموعة أفراد في مجتمع ما يتشابهون في مركزهم الاقتصادي واتجاهاتهم ومعتقداتهم وتحصيلهم التعليمي وطريقة حياتهم ونظرة الأفراد الآخرين إليهم ومقدرتهم أو عجزهم في التأثير على شؤون المجتمع.

تكوّن الطبقة الاجتماعية حسب هذا التعريف حضارة فرعية. فالناس ذو المراكز الاجتماعية المتشابهة لن تكتفي بالحياة في نفس الاحياء وبالتفاعل فيما بينهم والتزاوج من بعضهم لكنهم أيضاً سوف يمارسون نفس طريقة الكلام ونفس العادات والمستويات الأخلاقية مقارنة بالناس في الطبقات الأعلى والأدنى على السلم الطبقي.

وبما أن الطبقات الاجتماعية، مثلها مثل غيرها من نماذج التدرج، تمثل علاقات فوقية ودونية فقد شبه بعض الكتاب بنية الطبقات في المجتمع بطبقات الكيك. فعلى سطح الكيك توجد طبقة طفيفة، كذلك في المجتمع فهي تتكون من مجموعة صغيرة من الناس لهم أعلى مستوى اقتصادي. كذلك فعلى القاعدة

طبقة طفيفة تمثـل مجموعـة صغيرة من النـاس مستواهم الاقتصـادي والاجتماعي متدن جداً ويعتبرهم المجتمع ذات أهمية قليلة جداً. وعلى مستويات متنـوعة بين هاتين الطبقتين نجد طبقات كثيفة تمثل الأغلبيـة العظمى للمجتمـع. والاعتراض الـرئيسي على هذا القيـاس هو أن طبقـات المجتمع ليست مقسّمـة ذلك التقسيم الواضح كما هي طبقات الكيك.

وليست الطبقات الاجتماعية منظمة كما هي العائلات والجماعـات المحلية بل هي مفاهيم نقدر أن نستعملها وهي أيضـاً حقائق اجتمـاعية ولكن بـالمعنى أن الناس في كل المجتمعات يمكن تقسيمهم إلى عدد من الجماعات بطريقة يكـون لأفراد كل مجمـوعة نفس المستـوى العام والخصـائص التي تلازمهـا. وعلى كل حال فإن خطوط الانقسام، وكما أشرنا، غير واضحة وإرادية كمـا أنه من الصعب تصنيف بعض الأفراد.

يعي الكثيرون من الناس الطبقة التي ينتمـون إليها على الـرغم من أنهم قد لا يعطوا هذه الطبقة الاسم الذي يعطيه لها عالم الاجتماع. وقد يدعو أفراد عائلة ما أنهم أناس عاديون جيدون في حين قد يصنفهم عالم الاجتماع في طبقة متدنية أو طبقة عاليـة. ويلاحظ أفـراد طبقة مـا مباشـرة الصفات التي يشتـركون بهـا مع آخـرين من نفس الطبقـة أو الخصائص التي يختلفـون فيها عن آخـرين من طبقـة أخرى. والعائلة هي أساس الطبقة الاجتماعيـة ويشترك أفـراد العائلة في طبقـة ما بالمركز الاجتماعي. والعوامل المهمة التي تحدد الـطبقة الاجتمـاعية هي المهنـة والدخل والثروة التي يتمتع بها رب الأسرة أو العائلة. فبعض المهن مثل المحاماة والطب وإدارة المشاريع التجارية تجلب امتيازات معتبـرة لأصحابهـا لأنها تتـطلب مقـدرة وتـأهيـلاً أعلى من المتـوسط المعـروف، بينمـا مهن أخـرى مثـل مـالكي المحـلات التجاريـة الصغيرة أو العمـل في شـركـات متخصصـة على درجـة من الاحتـرام من خـلال المـركـز الاقتصـادي الـذي يتمتـع بـه أفـراد هـذه الـطبقـة واستقـلاليتهم في أعمالهم. ولكن بعض المهن التي تتـطلب أعمالاً يـدويـة غيـر ماهرة قليلة الاعتبار عند الكثيـرين في المجتمع. وعـادة ما يتعلق اعتبـار الوظيفـة

بالدخل الذي تدره، غير أن هنالك شـواذاً على القاعـدة. فقد يعتبـر القاضي ذا امتيازات أكبر بكثير من التاجر الذي تدر تجارته عليه دخلاً يساوي مئـات المرات دخل القاضي.

وتميل العضوية في الطبقة الاجتماعية إلى الانتقال من الآباء إلى الأبناء في نفس العائلة لأن الأولاد يتعلمون من أهلهم مواقف متشابهـة ونموذج حيـاة معين، أن يحصلوا على تعليم مماثل ويتعلمون مهناً متماثلة بينما يرثون عن أهلهم كل ما يملك هؤلاء.

٦ ـ وليم وورنر (W. Lioyd Warner) والطبقات الاجتماعية:

قـامت في الستينات من هـذا القرن في أمـريكا عـدة دراسات ركـزت على الـطبقات الاجتمـاعية والتـدرج الاجتمـاعي وقـد يبـرز بين هؤلاء البـاحثين عـالم الاجتماع (W. Lioyd Warner) الذي ترك طابعه على كثير من الأبحاث والباحثين. ويبدو لنا أن ملخصاً عن هذه الدراسات سوف يساعـدنا على فهم المشـاكل التي تنشـأ عندمـا نحاول تحليـل طبيعة ومعنى مفهـوم الطبقـة الاجتماعيـة. مثل هـذه الدراسات عن الشرق الأوسط قليلة وعدا ما جاء بـه المر بيـرجر ويـاتاي وغيـرهم (مثل نيونهاوسن) فإن إسهامات الباحثين العرب قليلة جداً.

لقد قسم وورنر المجتمـع الأمريكي مبـدئياً إلى ست طبقـات: عليا عليـا، متدنية عليـا، عليا متـوسطة، عليـا متدنيـة، ومتدنيـة متوسـطة، ومتدنيـة متدنيـة. وبعدها استعمـل وورنر طـريقتين لتحديـد الطبقـات الاجتماعيـة التي ينتمي إليها الأفـراد. وسمى الـطريقـة الأولى الـمشـاركـة الـمقـيّمـة (E. P) (Evaluated Participation). وتتكون هذه الطريقة من مقـابلات شخصيـة يسأل فيهـا الباحث أعضاءاً مختارين من الجماعات المحلية حول تقييمهم لمعارفهم وفي أية طبقـات اجتماعية يصنفوهم، والفرضية التي اعتمدتها هذه الطريقة هي:

«إن الأفراد الذين يتفاعلون في النسق الاجتماعي لجماعة اجتمـاعية معينـة يقيّمون مشاركة الأفراد المتواجدين حولهم وأنهم يعون ضمنياً أو علناً هذه الرتبيّـة

ويترجمون تقييماتهم لهذه المشاركة في طبقات اجتماعية يمكن بطريقة ما أن يوصلوها إلى الباحث (وورنر وزملاءه ١٩٦٠ : ٣٥).

طريقة وورنر الثانية لتحديد الطبقة الاجتماعية كانت استخدام مؤشر لخصائص المركز (Index of Status Characteristies ISC) يعني هذا الحصول على ترتيب لكل فرد في كل من خصائص المركز الأربعة: المهنة، مصدر الدخل، نوع المسكن ومنطقة السكن. وقد أعطى كلاً من هذه الميزات رقماً عددياً تشير الأعداد الصغيرة إلى ترتيب اجتماعي عال وتشير الأعداد الكبيرة إلى ترتيب اجتماعي منخفض. وما كان على وورنر إلا أن يضيف الأعداد التي يحصل عليها فرد ما في الخصائص الأربعة ليكون قادراً على وضع الفرد في مركزه على السلم الاجتماعي.

وكان ما فعله وورنر كالتالي:

الرقم العددي	الخصائص
أ)	المهنة
٤	المهنيون والملاكون كأصحاب الأعمال (مثل الأطباء وأصحاب المصانع).
٨	شبه مهنيين وموظفون صغار في شركات تجارية كبيرة (مثل فنيبو مختبر أو إداريين).
١٢	موظفون وعمال مماثلون (محاسبون وسكرتيرات).
١٦	عمال مهنيون (خبازون نجارون).
٢٠	ملاكو متاجر صغيرة (أصحاب حوانيت ومطاعم... الخ).
٢٤	عمال شبه مهرة (سائقون وعمال مشاغل... الخ).
٢٥	عمال غير مهرة (منظفون ومساحون).

الرقم العددي	الخصائص
ب)	مصدر الدخل
٣	غنى موروث
٦	غنى مكتسب
٩	مرابح وضرائب
١٢	رواتب
١٥	مياومات
١٨	إعانة خاصة
٢١	إعانة عامة ودخل غير محترم ؛لعب القمار مثلاً) .
جـ)	السكن
٣	بيوت كبيرة في حالة جيدة
٦	بيوت كبيرة في حالة رديئة ، وبيوت متوسطة الحجم بحالة جيدة .
٩	بيوت كبيرة في حالة متردية .
١٢	بيوت متوسطة الحجم ومتوسطة الحالة (شقة في عمار كبيرة).
١٥	بيوت صغيرة بحالة جيدة وبيوت صغيرة بحالة متوسطة .
١٨	بيوت متوسطة الحجم بحالة رديئة ، وبيوت صغيرة بحالة رديئة .
٢١	كل البيوت بحالة متردية جداً ومساكن في مباني لم يكن المقصود منها السكن .
د)	**منطقة السكن**
٢	منطقة سكنية من الطراز الأول في الضواحي .
٤	الضواحي الأفضل ومنطقة الشقق المكيفة والبيوت ذو الحدائق الواسعة .
٦	مناطق فوق المتوسطة ، جميع المناطق فيها سكنية وبيوت

حولها مساحة أكبر من متوسط حديقة البيت العادي.

٨	مناطق متوسطة وأحياء سكنية صالحة.
١٠	مناطق تحت المتوسط مناطق لم يحافظ عليها وبادئة بالتدهور.
١٢	مناطق منخفض تبدو أحياء متدهورة.
١٤	مناطق متخلفة.

جدول (٤ ـ ٢)

خصائص المركز:

مجموع الأرقام	الطبقة الاجتماعية
١٢ ـ ١٧	الطبقة العليا
١٨ ـ ١٢	طبقة عليا متوسطة
٢٣ ـ ٢٤	طبقة تتوسط السابقتين إما عليا أو عليا متوسطة.
٢٥ ـ ٣٣	طبقة عليا متوسطة.
٣٤ ـ ٣٧	طبقة وسيطة إما عليا متوسطة أو دنيا متوسطة.
٣٨ ـ ٥٠	طبقة دنيا متوسطة.
٥١ ـ ٥٣	طبقة وسيطة إما دنيا متوسطة أو عليا دنيا.
٥٤ ـ ٦٢	طبقة عليا دنيا
٦٣ ـ ٦٦	طبقة وسيطة إما عليا دنيا أو دنيا دنيا.
٦٧ ـ ٦٩	طبقة دنيا دنيا مع احتمالية كونها طبقة عليا دنيا.
٧٠ ـ ٨٤	طبقة دنيا دنيا.

وعلينا أن نلاحظ أن أكثر الأعداد تقع في الهامش الذي يقع بين طبقتين ولذلك فهي طبقات وسيطة. وعلى كل فإن وورنر يعتقد أن المشاركة المقوّمة أهم مؤشر خصائص المركز لتحديد الطبقة الاجتماعية ولكنه يجد علاقة قوية بين الطريقتين. كما أن الطريقة الأخيرة (ISC) أبسط وأقل تكلفة لتقدير الطبقة الاجتماعية بدرجة عالية من الدقة.

وبينما استعملت الدراسات الحديثة مقاييس تختلف اختلافاً طفيفاً عن مقاييس وورنر فقد بقيت قريبة من مقاييسه. وهكذا نجد أن هناك أحكاماً اختيارية لوضع نسق للتصنيف ولا عجب في أن تكون هذه الدراسات موضع نقد. وبين نقاط النقد التي وجهها علماء الاجتماع للعالم وورنر ما يلي:

١ ـ إنها تبالغ في جمود الطبقات الاجتماعية وتقلل من تقدير الحراك الاجتماعي والسبب في ذلك هو أن الباحث قد قام بعمله في جماعات صغيرة وثابتة نسبياً ولا تمثل التيار الرئيسي في المجتمع الأمريكي كذلك فهي لن تمثل الاتجاهات الرئيسية حتى في المجتمعات غير الأمريكية. وسبب آخر هو أنه لم يعير اهتماماً إلى الأفراد الذين هجروا هذه المجتمعات المحلية وذهبوا إلى المدن الكبيرة وتسلقوا السلم إلى الطبقة العليا.

٢ ـ تشير دراسة وورنر إلى أنه من الممكن وضع جميع الناس في المجتمع في خمسة أو ستة طبقات اجتماعية واضحة التحديد وأن هذه الطبقات تكون واضحة أيضاً لأغلبية السكان ذي الملاحظة الجيدة. أما ناقدي دراسات وورنر فيرون غير ذلك ويضعون كثيراً من الأسئلة حول تعميماته.

٣ ـ والنقد الثالث الذي يقدمه هؤلاء النقاد هو أن نتائج وورنر لا تعتبر سارية المفعول على المجتمع الأمريكي ذلك أن دراسته شملت مجتمعات محصورة وثابتة نسبياً ولأن مواطني المجتمع الأمريكي في حراك مستمر من الريف إلى المدن ويعيش معظمهم في المدن أو في المراكز المدنية.

وقد قام بعد وورنر باحثون مثل بيتر بلاو (Peter Blau) وأوتيس دونكان

(Otis Duncan) (١٩٦٧) ووجدوا أن مهنة الأب وتعليم الفرد أحسن مؤشرات للتنبؤ بمركز الأولاد المهني. وبقيت هذه العوامل من أهم نتائج البحوث التي أجريت فيما بعد مثل دراسة فيذرمان وهاوسر (Featherman and Hauser, 1978) وغيرها.

أما إذا ما أردنا تطبيق هذا النموذج على المجتمعات العربية فسوف نجد أن هذه العوامل يجب أن تتسع حتى تشكل أسساً سليمة لتصنيف الأفراد في طبقات اجتماعية علماً بأن دخل الأب أو غناه سوف يكون من أهم الأسس. وقد وجد الباحث الهولندي فن نيونهاوسن أن التدرج الاجتماعي في البلاد العربية يخضع لأسس غير التي نجدها في المجتمعات الصناعية أو أن تلك الأسس يجب أن توسع بناء على بحوث جديدة.

٧ ـ الحراك الاجتماعي:

المجتمع الطبقي عاجز إلى درجة بعيدة عن أو لا يتفق دائماً مع القواعد الديموقراطية في تقديم الإمكانيات المتساوية للحياة والحرية والركض وراء السعادة إلى جميع أفراده. ومن المؤكد أن أبناء الطبقات الدنيا في المجتمع لا تملك نفس الإمكانيات التي يملكها أبناء الطبقة العليا. وعلى كل حال فعلى غرار الدول الغربية طورت كثير من البلدان أو المجتمعات أنظمة طبقية مفتوحة. فحدود الطبقات غير واضحة ومحددة وعلينا أن لا نأخذ نتائج الباحث وورنر بكل هذه الجدية لأن المجال مفتوح أمام كل فرد أن يتسلق سلم هذه الدرجات بينما المجال أيضاً مفتوح أمام هؤلاء في القمة أن ينزلقوا إلى أسفل.

والحراك في الطبقية المفتوحة أكبر منه في المجتمع ذي الطبقات الدينية أو الإقطاعية. وعلى الرغم من ذلك فهي صعبة القياس وقد تتنوع حسب المجتمعات. وقد تسلق الكثيرون ليس فقط في أوروبا أو أمريكا بل أيضاً في المجتمع العربي السليم إلى الأعلى أفراد كثيرون. كذلك فالحراك من أعلى إلى أسفل ليس فقط محتمل إنما أيضاً حقيقة فهناك الكثيرون ممن انزلقوا إلى طبقة

العمال بعد أن كانوا أغنياء/ وقد دلت بعض الدراسات كتلك التي قام بها جيرهارد لينسكي في أمريكا بين ١٩٤٥ ـ ١٩٦٥ أن أقل ما فيه ١/٣ من جميع الأمريكان قد انتقلوا من طبقة منخفضة إلى طبقة عالية. أي أن ٣٣ شخصاً من كل ماية حصلوا على وظيفة أرقى من الوظيفة التي كان والدوهم يشغروها. أما المعلومات حول الحراك الاجتماعي التنازلي فقليلة ولكنها موجودة ولم تقاس.

أ ـ من يتحرك إلى الأعلى؟

لقد تبين من بعض الدراسات التي أجريت على أفراد تسلقوا السلم الاجتماعي إلى الأعلى أن في هؤلاء بعض الميزات أهمها أربعة:

١ ـ الجنس.
٢ ـ العرق.
٣ ـ كون الفرد ابناً وحيداً أو أول مولود.
٤ ـ معتقد النتائج المتأخرة بمعنى أن يتاجر الإنسان من أجل سعادة يجني ثمارهاأفي المستقبل.

سوف نعالج العامل الأول والثاني تحت عنوان التمييز، ويتعلق الثالث في رأينا بالدخل (فقد وجد أن الكثيرين من الأغنياء لا ينجبون أكثر من ولد واحد) ولا يقدر فرد أن يغيره. والعامل الأخير هو أهم هذه العوامل. والسؤال هو إلى أي مدى يمكن أن يتغير. فمعتقدات الفرد تنتقل إليه عن طريق أهله من خلال ردود الفعل الإيجابية على تنشئته التي تدعم ترسيخ هذه المعتقدات وفي الوقت الذي يصل فيه الفرد إلى الجامعة تكون هذه المعتقدات قد أصبحت جزءاً منه.

ولذلك فإن احتمالية الحراك إلى طبقة أخرى في معظم الناس (مثل الطلاب) قد تحددت وأصبحت جزءاً من شخصيته. وقد يلعب الحظ دوراً هاماً مثل أن تكون في المكان المناسب والوقت المناسب لتحصل على الوظيفة المناسبة وهذه المناسبة تفوت من لا يحالفه الحظ. وكما قالها جيمي كارتر مرة: «لم يقل لي أحد قط أن الحياة عادلة».

وتمرق جميع المناقشات حول الحراك الاجتماعي على حقيقة صغيرة واحدة وهي أن الأماكن في الطبقة العليا محدودة جداً، وأن ارتفاع الأفراد إلى الطبقة العليا يعني انحداراً مستمراً لأفراد أو لبعض أفراد الطبقة العليا. فلو افترضنا أن نسبة أفراد الطبقة العليا لمجموع السكان تساوي ٥٪ وأن هذه نسبة ثابتة فإن فرداً واحداً من كل ١٩ فرداً سوف يكون قادراً على هذا الحراك من الطبقة الوسطى أو الدنيا إلى الطبقة العليا. ويعني أيضاً أن أفراد الطبقة العليا مع الزمن سوف ينزلون السلم إلى الطبقات الدنيا وهذا غير متوقع. ما هي الأحوال التي تقود إلى الحراك الاجتماعي؟ ربما يكون أهم عوامل الحراك الاجتماعي هو التغير الاجتماعي. ففي حالة التغير الاجتماعي يصيب النظام القديم عطلاً وتفتح على الأفراد احتماليات كثيرة لكسب الرزق والثروة وتستحدث الوظائف الكثيرة والمتنوعة. وهكذا أدت الثورة الصناعية إلى طريقة جديدة من الأشغال والتنظيم التجاري وقدمت إمكانيات كثيرة للحراك الاجتماعي العمودي. هكذا كانت الحالة في أوروبا وأمريكا وأيضاً في الأحوال المتغيرة في البلاد العربية وخاصة دول الخليج حيث أصبح الكثيرون أصحاب ملايين بعد أن كانوا فقراء. وهذا التغير مستمر وتستمر فيه عملية خلق الوظائف والمكانات الاجتماعية. كذلك فقد أدى ذلك وخاصة في البلاد العربية إلى نشوء ونمو الطبقة المتوسطة قياساً بالطبقة الدنيا، وأصبح التعليم الجامعي والتكنولوجي مثلاً في متناول جميع أبناء المجتمع من ذي الذكاء الكافي بدلاً أن كان مقتصراً على أولاد الأغنياء. وإضافة إلى سوق العمل المهني فقد أدى التعليم إلى الحراك الاجتماعي التصاعدي.

وقد يقود التوسع في التعليم إلى تجديد الحراك الاجتماعي على الرغم من أن الطلب في هذا الوقت يزداد على الوظائف المتخصصة والمؤهلات والكفاءات العالية. ومع مرور الزمن سوف يكون على الأبناء في المستقبل القبول بمركز اجتماعي ووظيفي أدنى من مراكز الآباء. وعلى كل حال فالمجال في الطبقة العالية محدود جداً ولا يصله إلا الأفراد المصممين والقادرين ومن يحالفهم الحظ للتسلق إليها.

*ب ـ ارتفاع الدخل وخصائص الطبقات:

عاشت أمريكا مثلاً في أعلى مستوى اقتصادي مدة قرن كـامل. أثنـاء تلك الفترة كانت الثورة الصناعية قائمة في أوروبا وكـانت البلاد العـربية تئن تحت نيـر الفقر والجهل. في الثلاثينات من هذا القرن كان أكثر من ثلث سكان أمريكا التي كانت تملك أعلى مستوى اقتصادي تعيش فقراً مدقعاً وكـانت الشعوب الأوروبيـة في حـالة تـراجع اقتصـادي شنيع بينمـا رزحت معظم الـدول العـربيـة تحت نير الاستعمار.

وعلى الرغم من أن الطبقات الاجتماعيـة قد بقيت إلا أن الأغلبيـة العظمى من النـاس كانت قـادرة على الحصـول على مستـوى حيـاة مـا يـدعى بـالـطبقة المتوسطة. ونستطيع أن نقول أن هؤلاء الناس قـد صعدوا السلم الاجتمـاعي إلى مـرتبة الـطبقة المتـوسطة. ونتيجـة لـذلـك فنحن لا نستـطيـع أن نقـول أن هؤلاء يشكلون الطبقة الدنيا أو العاملة فقد عمل ارتفاع الدخل والتحول في نوع الحيـاة والمسـاكن وقضـاء أوقـات الفـراغ على أن لا يعتبـر هؤلاء أنفسهم من الـطبقـة الكـادحة. ففي البـلاد العربيـة عامـة وفي الأردن خاصـة أصبحت طريقـة الحيـاة الجديدة والدخل لما ندعوه طبقة العمـال حافـزاً لهم كي يرفضـوا هذه التسميـة. والحقيقة هي أن الطبقة العالية أو الغنية في البلاد العربيـة كانت تتكـون من حفنة من الناس قليلي العدد بينما كانت الأغلبية العظمى من الناس في الحضيض وكان الأغنياء يسكنون المدن: القدس، دمشق، بيـروت وحلب بينما لم يـك في شرق الأردن مدناً معتبرة. فلم يزد عدد سكان السلط في الخمسينـات مثلاً على عشـرة آلاف نسمـة بينما كـانت سكان عمـان في عهد الامـارة الأولى لا يتجاوز الثـلاثـة آلاف نسمة، ولم تك في الأردن طبقة تدعى الطبقة الحاكمة أو الطبقة الغنية. وما تقدم به الباحث تالكوت بارسونز عن الطبقية لا ينـطبق قط على مجتمعات البـلاد العربية فقد وصف الطبقات في أمريكا كالتالي:

«من المميزات المهمة للتدرج الاجتماعي الأمـريكي ميوعتهـا ومطاطيتهـا،

غياب السلم الترتيبي الواضح، التقسيم للامتيازات الطبقية عدا ما يخص الشكل العام وغياب الطبقة العليا المحدودة الواضحة أو الطبقة الحاكمة وسيولة الحدود بين الطبقات والحراك بين الجماعات على الرغم من أبعاد الامتيازات لأهداف النجاح العامة وتسامح الناس تجاه طرق النجاح المختلفة، والمجتمع الأمريكي ليس خال من الطبقات ولكنه مميز بين المجتمعات الطبقية».

أما في مجتمعنا الأردني والعربي الآسيوي على الإجمال فإن هذه الطبقية كانت مبنية في صلب القبلية.

٨ ـ الوعي الطبقي في البلاد العربية:

لقد أدى التطور الأخير في الأردن (١٩٥٠ ـ ١٩٨٠) إلى غياب الوعي الطبقي وأصبح هم الفرد كيف يشبع رغباته (الوظيفة الجيدة، دخل أكبر وامتياز شخصي أوسع). وعلى عكس المجتمعات الغربية التي تأصلت فيها الطبقية بحيث أن الذين يطمحون إلى الإنتماء لطبقة أعلى قليلون، يميل الفرد الأردني إلى الحصول على ما يدعى براءة ذمة من الطبقة التي أنتمى إليها أهله والكل يطمح أن ينتمي إلى الطبقات الأعلى وكأن النفسية الأرستقراطية متأصلة في نفس الفرد في هذه المجتمعات وتتفق مع ما كنا نتعلمه من أن العربي شهم ونفسه أبية لا يقبل أحداً يعتلي عليه مع ما في هذه السمات من أبعاد.

وحتى القيادة في مجتمعاتنا العربية فإنها تختلف عنها في المجتمعات الغربية. الطابع الأساسي في القيادات العربية هي الوراثة (ابن الشيخ شيخ إلا إذا برز في العشيرة من هو أكثر منه غنى وجاه) وحتى في حالة غياب وراثة المكانة الاجتماعية فقد يصل الإنسان إلى الرفعة ولكنها تنهار بعده أو خلال فترة معينة وهذا واضح أكثر ما يكون في الأنظمة الجمهورية، في حين أن جميع الملكيات في العالم عدا النذر اليسير منها وراثية. والطبقة العليا في المجتمع التقليدي في وجهاء القبائل والعشائر والحمائل وهكذا تطورت. حتى الطبقة الغنية والعالية في مجتمعاتنا فتتكون من عائلات كان أفرادها في النظام التقليدي،

بغض النظر عن بعض الشواذ فيهم، كما يقال، وجه البكسة أو المرموقين من عشائرهم. كذلك هو الفرق في الطبقية بين أوروبا وأمريكا: ففي أوروبا ساد نظام الإقطاع وأصبحت الطبقة العليا بعد الثورة الصناعية تتألف من أصحاب الأموال والملاكين الذين حلوا محل نبلاء الإقطاع ومن سلالاتهم بينما لا نجد هذه الظاهرة في أمريكا لأن سكان أمريكا عدا الهنود الحمر هم من المهاجرين الذين جاءوا إلى العالم الجديد بحثاً عن حياة جديدة. كذلك فإن الكثيرين ممن تسلقوا المناصب العالية كانوا من عامة الناس ومن خلال جدّهم وتحصيلهم وصلوا إلى القمة بما في ذلك رؤساء الدولة. وهناك اختلاف آخر بين المجتمعات العربية والأوروبية أو الأمريكية وهو أن المجتمعات الغربية قد فتحت من خلال الديموقراطيات السائدة إمكانات أكبر للاعتراف بنجاح الفرد من خلال الأحزاب السياسية، والعضوية الكنسية والجمعيات الأخوية وكانت هذه القنوات وعضويتها أهم بكثير من تسلق سلم الدرجات الاجتماعية بالنسبة للأفراد.

٩ ـ الوعي الطبقي والحركة العمالية:

قسم كارل ماركس أب الشيوعية في القرن التاسع عشر المجتمع الرأسمالي إلى طبقتين رئيستين: طبقة أصحاب رؤوس الأموال الذين يملكون وسائل الانتاج وطبقة العمال الذين تستغلهم الطبقة الرأسمالية. وكان عمل العمال يفيد الطبقة الرأسمالية في تقدم أرباحها وغناها دون أي اعتبار لحاجات العمال، حسب قوله. وذهب ماركس إلى أن هذا الاستغلال سوف يقود إلى تطور الوعي الطبقي بين العمال. وبينما ظهرت حركة العمال في أوروبا وأمريكا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فلم تظهر هذه في البلاد العربية بشكلها المنظم إلا في نهاية الثلاثينات. وبينما اتجهت الحركات العمالية لتحسين أحوال العمال في أوروبا وأمريكا فإن قيادة هذه الحركات في البلاد العربية لم تك من بين العمال أنفسهم بقدر ما كانت من الطبقات العليا. والحقيقة هي أنه لم تظهر عندنا في الشرق حركات عمالية على غرار ما ظهرت في أوروبا فقد كانت تختلف في اتجاهاتها ومواقفها وكذلك فقد ظهرت في أحوال مخالفة. فبينما

كانت في أوروبا تنظيمات صناعية لتجابهها الحركات العمالية فقد انتقصت هذه هنا في البلاد العربية. وبينما كانت نفسية الأوروبي تقبل هذه التجزئة والتفريق بين مكانات اجتماعية متدنية ومكانات اجتماعية عالية وكانت الأجيال اللاحقة تقلد الأجيال السالفة في هذا الاعتراف، فقد كانت النفسية في الشرق تختلف عنها. لقد عرف الإنسان العربي رفض هذا التقسيم في المجتمع وعدم الاعتراف بما يدعى بالمركز الاجتماعي المتدني ذلك أن الفرد هنا كان يعيش في كنف العائلة والقبيلة التي كانت تمده بالحماية والدعم وفي القبيلة من جميع المكانات والمراكز العليا والدنيا بينما المراكز الدنيا في البناء القبلي لم تجد طريق التعاون مع المراكز الدنيا في القبائل الأخرى بناء على المصلحة الاقتصادية كما كانت الحال في المراكز القبلية العليا. أما في الأونة الأخيرة فقد أصبحت العضوية في الحركة العمالية طريقة للوصول إلى الشهرة والرفعة.

من ناحية أخرى فإن التعليم الماركسية كما يبدو لا-تتفق والخصائص النفسية حتى عند العمال في المجتمعات الشرقية، وقد دخلت هذه التعاليم إلينا عن طريق حفنة من الناس كان أولهم يهوداً استقطبوا بعض أفراد الأقليات. ثم أن العامل الديني الفعال في مجتمعاتنا (الإسلام) قد نادى بنوع معين من الاشتراكية (الناس سواسية كأسنان المشط) بحيث أن هذه التعاليم الماركسية التي تنادي بافيونية الدين لم تك قادرة على اجتذاب الفكر العربي.

١٠ - الصراع الطبقي:

من السهل على من يعرف المجتمع الأمريكي والمجتمع الأوروبي أن يرى لماذا لم يتطور فيها الصراع الطبقي الذي بشرّ فيه كارل ماركس. ما توقعه ماركس هو أن الطبقة الوسطى التي تفصل الطبقة الرأسمالية عن طبقة العمال سوف تندثر ويبقى في المجتمع فقط طبقتان أو تنبأ أيضاً أن أحوال العمال الاقتصادية سوف تتدهور لأن الطبقة الرأسمالية لا تسمح لها أن تتحسن أحوالها ولذلك سوف يثور العمال على الطبقة الرأسمالية وينتزعون منها ملكية وسائل الانتاج ويقيمون الدولة

الاشتراكية تحت ديكتاتورية البلوريتاريا. والحقيقة هي غير ذلك لأن أحوال العمال الاقتصادية ليس فقط في الدول الرأسمالية إنما أيضاً في الدول النامية تحسنت واستمرت في التحسن على عكس تنبؤ كارل ماركس ولولا العنف لما كانت هذه الحركة العمالية قادرة على كسب الثورة في روسيا القيصرية. وحتى الثورة البلشفية فقد موّلها أصحاب رؤوس الأموال في أوروبا وعلى رأسهم أصحاب البنوك اليهود (روتشيلد وغيره).

ونظراً إلى تحسن الأحوال الاقتصادية للعمال سواء في أمريكا أو في أوروبا وليس فقط الأحوال الاقتصادية إنما أيضاً الاتجاهات الفكرية والمواقف فإن التنبؤ بالصراع الطبقي في هذه المجتمعات يبدو بعيداً عن الحقيقة وليس له أسس في الواقع الموضوعي حتى في البلدان النامية. وحتى الثورة الشيوعية في روسيا فإنها لم تحدث حسب النموذج الماركسي ولم تك أكثر من إستيلاء مجموعة مصممة من الأفراد على السلطة وقد كان هذا الإنقلاب من أسهل الإنقلابات بسبب فساد الحكومة القيصرية وتدهور قوّتها على أيدي الألمان في الحرب العالمية الأولى ثم إستيلاء حكومة كيرنيسكي على السلطة ولم تك مستعدّة لتحمل هجوم جديد. وفي تلك الفترة كانت روسيا بلداً زراعياً وعدد عمال الصناعات فيها قليل جداً ليكوّنوا طبقة عمالية قوية.

وذهب ماركس إلى أن الطريق سوف يصبح مفتوحاً بعد تحطيم الرأسمالية لتكوين «مجتمعات دون طبقات اجتماعية». ما حدث في روسيا هو أن جماعة ذات امتيازات طبقية جاءت لتحل محل الأرستقراطية القديمة. وتتكون هذه الطبقة الآن من أعضاء البيروقراطية الشيوعية وأيضاً من العلماء والمهندسين والكتاب والمفكرين والفنانين من أصحاب الولاء لسياسة الحزب. وهذا الوصف مقبول عند جميع المفكرين تقريباً بما فيهم الماركسيين.

وعلى كل حال فقلما يصل المجتمع إلى المثالية التي رسمت له. ولم تنجح أي دولة إلى هذا الوقت في تأسيس مجتمع تحكمه المساواة. وكل منا

يحكم على نسق معين من أنساق المجتمعات بناء على قناعات ذاتية ومفاهيم تعلمها من محيطه الخاص. والمعرفة الموضوعية في هذا المجال صعبة ولذلك تبقى آرائنا نسبية.

١١ ـ التدرج حسب العنصر والحضارة:

هناك الكثيرون ممن يخلطون بين ما يكوّن العنصر أو الجنس وما يكون الحضارة أو يربطون الحضارة بالعرق. والحقيقة أن هذا خطأ. لقد سبق أن عرفنا ما هو الجنس:

جماعات من الناس تشترك في خصائص فيزيائية ووراثية ترثها الأجيال عن طريق العوامل الوراثية الطبيعية (الجينات) والتي تميز هذه الجماعات عن جماعات أخرى لها خصائص مختلفة.

أما الحضارة فهي وكما عرفناها سابقاً تعاريف مختلفة:

«طريقة حياة جماعة من الناس تعيش في بقعة جغرافية واحدة».

والجنس والحضارة ينتميان إلى صنفين مختلفين وكل من هذه الأصناف مستقل عن الآخر. والفرضية القائلة بأن العنصر يحدد الحضارة فرضية خاطئة لا أساس علمي لها. فحيث تعيش جماعات تنتمي إلى عرق واحد قريبة من بعضها بعضاً فإن حضاراتها قد تتشابه ولكن حيث تعيش هذه الجماعات بعيدة عن بعضها بعضاً فإنها تنتج حضارات مختلفة.

أ ـ التفوق العنصري:

يذهب كثيرون من الناس في العالم أن جنساً ما متفوق في تركيبته الفيزيائية والنفسية والذكائية ومن ثم بإبداعه على جنس آخر وأن هذه الميزات تشرح لنا الدرجة العالية التي وصلت إليها حضارات بعض الشعوب. وقد يكون سبب هذا الاعتقاد هو تطور العلم والصناعة والمدنية في هذا العنصر. ولكن مثل هذا الرأي قصير المدى لأن الحضارات التي تفوقت خلال التاريخ كانت حضارات لشعوب

مختلفة مثل السومريين، والبابليين والفراعنة وفارس ثم الإغريق والرومان. وقد جاء إبداع هذه الحضارات العربية ثم العثمانية حتى جاء دور الأوروبيين بغض النظر عن سيادة الحضارة الصينية في القديم وسيادة حضارات الازتيك والأنكا (هنود حمر) في الأمريكتين. ولذلك فإن الفروق بين الحضارات كبيرة. ولكل أمة أبنائها الأذكياء والأقل ذكاءاً. وعلى الأكثر توجد فروق نفسية بين الشعوب كما توجد فروق فيزيائية ومن الصعب أن نثبت ذلك أو ننقضه لأننا لا نعرف طريقة لفصل التأثيرات الإحيائية في تكوين شخصية الإنسان عن الآثار الحضارية في نفس العملية. وحتى ولو وجدت هذه الاختلافات بين الجماعات فلا داعي أن تقودنا إلى القول بالتفوق أو التدني لعنصر ما لأن فعالياتها لن تكون أكثر من فعاليات الاختلافات في لون العينين أو شكل الشعر (أجعد أو مسترسل) أو نوع الرأس (طويل أم مستدير). وهذه اختلافات صغيرة جداً إذا ما قيست بالاختلافات بين الأفراد في جماعة معينة أو في عنصر معين. وفي الديموقراطية نحاول أن نحكم على فرد ما بناء على استحقاقاته وإعطائه جميع الإمكانات ليطور المقدرات التي يملكها.

ب ـ التميّز العنصري والتمييز:

تتنوع العلاقات بين العناصر والأجناس البشرية في المجتمعات المختلفة والأحوال المختلفة. ففي بعض الحالات نجد أن الصراعات بين أعضاء الأجناس المختلفة قليلة. وعلى الرغم من وجود التحامل والتمييز العنصري إلا أن الحدود ليست من ذلك النوع الذي يمنع العلاقات بينها سواء عن طريق التزاوج أو غير ذلك. مثل هذه الحالة نجدها في جزر الهاواي وفي السودان حيث أن الأجناس المختلفة استدمجت مع بعضها وكونت أمة واحدة على الرغم من أن الحدود الحضارية قد تبدو واضحة المعالم. وهناك بعض المناطق في العالم حيث نجد فصلاً تاماً بين الأجناس وحيث التميز العنصري والتمييز بناء على الإنتماء للجنس في أوجها. مثال على ذلك هي جنوب أفريقيا وإسرائيل والولايات المتحدة. ففي جنوب أفريقيا نجد الفصل ما بين البيض الأوروبيين والسود قاطعاً عدا في بعض

حالات العمل. فكيف تفسّر هذه التنوعات؟

يعتقد الكثيرون أن التميز العنصري نشوز وراثي ولا يمكن تفاديه. غير أن علماء الوراثة وعلماء النفس قد رفضوا مثل هذا التفسير واعتبروه غير علمي. وكغيره من جوانب الحضارة فهذا التحيز شيء يتعلمه الفرد من محيطه الاجتماعي وأسبابه متنوعة ومعقدة. وقد اقترح لنا علماء عدة أسباباً متنوعة لهذا التحيز أبرزها:

١ ـ تأثير التقليد.

٢ ـ الحاجة النفسية للأفراد حيث يشعرون أن عليهم أن ينتموا إلى مجموعة معينة للتعريف بالذات.

٣ ـ تكوين «الأنا» أو الذات الفردية من خلال تنمية الشعور بالفوقية.

٤ ـ فائدة التحيز كسلاح اقتصادي وسياسي.

وأريد أن أضيف إلى هذه العوامل عاملاً آخر مهم ينبع من التاريخ المسيحي والتعاليم التوراتية المسيحية وهو:

٥ ـ العامل الديني . فبناء على قصة نوح وأولاده ولعنة نوح لابنه حام كون الفكر اليهودي ثم المسيحي بعده نظرية عنصرية ما زالت تستعملها السياسة الإسرائيلية وجنوب أفريقيا العنصرية.

(أنظر العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الثامن والتاسع).

والحقيقة هي أن مشكلة العنصرية كانت موجودة منذ القدم. فقد استثنى كل من أرسطو وأفلاطون العبيد من المواطنية. وكان الرومان يعتبرون العبد نجساً، ثم جاء عصر الإصلاح وأخذ الإنسان الأوروبي يتاجر بالعبيد الذين قطعوا من أرضهم ليقوموا بالأعمال الزراعية في العالم الجديد كجزء من ملكية الرجل الأبيض... الخ. وكان هؤلاء العبيد يعتبرون من أولاد حام الذي لعنه الرب وأراده هو وبنيه أن يكون عبداً لأخويه سام ويافث ونسلهما، والأوروبيون يعتبرون

أنفسهم من نسل يافث ومن هنا جاءت الفكرة الأولية في تفوق الرجل الأبيض على الأسود.

أما في البلاد العربية فقد عرفت العبودية وكلنا يعرف قصة عنترة العبس الذي لم يعترف به أبوه لأن أمه كانت حبشية أو عبدة. إلا أن الإسلام جاء وقضى على هذه العادة وأصبح الإيمان هو القاعدة ونادى الرسول باعتاق العبيد فالعبودية لله وحده (أنظر في الرق والعبودية عباس محمود العقاد، بلال بن رباح، بيروت المكتبة العصرية د. ت). كذلك نجد شيئاً من هذه العبودية ليس فقط تجاه العبيد ولكن أيضاً تجاه جماعات أخرى تستثنى من المجتمع مثل طبقة السوترا في الهند، والهنود الحمر في أمريكا، والأستراليين الأصليين في أستراليا وغيرها. وحيث عاشت هذه الأقليات بقيت محط اضطهاد واحتقار لقسوة الإنسان الحاكم والشعب الذي يحكم.

لكن القرن العشرين عرف كثيراً من الحركات التي نادت بمساواة الإنسان بالإنسان ولم يبقى في الوقت الحاضر إلا ثلاث مجتمعات تسيطر فيها العنصرية المسيرة حسب أنماط متعددة من القواعد: جنوب أفريقيا وإسرائيل (والهند فيما يخص الطبقات الدينية في الأرياف والمدن الصغيرة). فحيث وجدت هذه الجماعات كانت الشعوب الحاكمة تعتبر حضارتها حضارات متدنية مقارنة بحضارات الشعوب الحاكمة. وخرج لنا بعض المفكرين الذين رتبوا هذه الحضارات، وبخاصة في القرن التاسع عشر في طبقات من أسفل إلى أعلى ليضعوا الحضارة الأوروبية الناشئة في سلم الحضارات متغاضين عن أن بعض الحضارات قد وصلت إلى مستوى عال من التعقيد في الوقت الذي كانت فيه الحضارات الأوروبية حضارات بدائية.

١٢ ـ التدرج حسب المنطقة والجنس والعمر:

لم تك تجزئة الناس وتقسيمهم إلى الفئات السابقة هي الطرق الوحيدة الموجودة في المجتمع وهنالك طرق أخرى مثل أن تقسمهم إلى مقاطعات

وتجلب هذه التقسيمات في جعبتها أيضاً أنواعاً من التمييزات أهمها:

أ ـ الاختلافات بين المقاطعات أو أماكن السكن:

يبدو أن الإنسان لم يسكن القرى أو المدن إلا في وقت متأخر، فقد كان الناس يعيشون في الأرض في جماعات ثم تغيرت أنماط هذه الحياة بتغيير مصادر الرزق ووسائل الانتاج من جمع البقول إلى الصيد ثم إلى الزراعة وانتاج الغذاء، بعدها وجدت المدنية. وكان اكتشاف الزراعة هو الذي دفع الإنسان إلى السكنى في أماكن ثابتة. بسبب انتاج الغذاء المتزايد من الزراعة تكاثر السكان ونمت القرى والمدن. ومع تطور العلم والتكنولوجيا أخذ الفرد العامل في الزراعة ينتج ليشبع أكثر من فرد واحد قد يصل عددهم إلى خمسين أو أكثر. ونتيجة لذلك أخذ الكثيرون يذهبون إلى المدن فكبرت هذه وظهر عندنا ما يدعى «بالتمدن» أو «التحضر» بينما أخذ عدد سكان الريف بالتناقص.

ولو نظرنا إلى سكان الأردن في الأونة الأخيرة لوجدنا أن سكان الريف لا يتعدوا ثلث السكان. وفي الستينات كان سكان الحضر ينظرون بنوع من الدونية لسكان الريف. ولكن مع التقدم وانتشار وسائل الاتصال والرفاهية أخذت هذه الفروق تتقلص. ومع ذلك ومع تنمية الزراعة في وادي الأردن فما زال قسم لا بأس به من السكان يعيشون في الريف وما زال نمط الحياة في الريف يختلف عنه في المدن.

نحن ندعو سكان القرى المختلفة «الجماعات المحلية». فالكثير من القرى الأردنية كانت قد تكونت من انضمام جماعات إلى بعضهم بعضاً والحياة معاً. ولكي يكونوا قادرين على الحياة معاً فهم يجدون طرقاً ينظمون بها حياتهم ويصلون من خلالها إلى حل مشاكلهم ويطورون معتقدات مشتركة فيما بينهم أو ما ندعوه «حضارة محلية». وفي هذه الحضارة يعرف كل شخص كل شخص آخر والتماثل بين أفراد هذه الجماعة كبير جداً في السلوك والعلاقات الاجتماعية،

والمصالح المشتركة، ومحاولات التعاون، ويكون لهم اتجاهات ومواقف متماثلة.

إلا أن هذه الجماعات تتنوع وتختلف كل جماعة محلية عن غيرها. أما في المدن فالسكان مختلفون. فعلاقات الأفراد مع بعضهم بعضاً فردية ورسمية، والتنظيم الاجتماعي رسمي ومعقد إضافة إلى أنه مركزي. ويشترك سكان المدن في هذه المؤسسات إلا أن الأفراد قد لا يقابلون بعضهم بعضاً. والإنسان لا يعرف الأفراد الذين يراهم في الشارع أو يمر عنهم مثل سائق السيارة، شرطي المرور، صاحب أو الموظف في الدكان... الخ. ولذلك فالمدينة لا تعرف الجماعات المحلية إنما تعرف نوعاً آخر من التجمهر ندعوه «الجيرة» أو «الوحدات السكنية». والحقيقة أن مفهوم الجيرة يرادف الكلمة الإنجليزية (Neighborhood) أكثر من كلمة (الوحدات السكنية)، وحدات الجيرة هذه أصغر من الجماعات المحلية وتختلف عنها في أن تنظيمها الداخلي غير رسمي. وعلى الرغم من وجود حدود لها تفصلها عن وحدة جيرة أخرى واشتراك أفرادها بنوع متماثل من المراكز الاجتماعية والاقتصادية وحضارة متشابهة إلا أنها لا تكون جماعة محلية. وقد تتكون الجماعة المحلية (Community) من عدة وحدات «جيرة» وتكون الوحدة الرئيسية للتنظيم الاجتماعي المحلي وهكذا تقدم الخدمات التي يحتاجها السكان يومياً.

وتشكل الجماعات المحلية وجماعات الجيرة جماعات أولية (Primary Groups) (أنظر الفصل الثاني) بينما الوحدات المحلية في المدينة تشكل جماعات ثانوية (Secondary Groups) فالعلاقات بين أفرادها غير رسمية وغير مباشرة ولأن الأفراد لا يشتركون بإطار تجريبي أو اجتماعي مشترك وحتى علاقات الأفراد الشخصية فيها شكلية. كذلك فعلى عكس الجماعات المحلية فإن الضبط الاجتماعي في المدن رسمي من خلال المؤسسات الحكومية، الشرطة والمحكمة.

وبينما نجد أن أفراد المدن يعيشون نوعاً من الشعور بالعزلة والوحدة ويتمنون بعض العلاقات العاطفية والصداقة، نجد الناس في الريف بعض الأحيان يقاومون الرقابة غير الرسمية وينفرون من تدخل الآخرين في حياتهم الخاصة ويتمسون في بعض الأحيان لو أنهم لا يعرفون أحداً إلا على الصعيد الرسمي. وعلى عكس الضبط الاجتماعي في القرية فإن الأفراد في المدن وبخاصة الشباب يشعرون بأنهم يعيشون في مجتمع لا يعرف المعايير أو القيم وما أسماه العالم الفرنسي اميل دركهايم اللامعيارية (Anomie) أو فقدان المعايير. ومع تطور المدن فقد أصبحت هذه الظاهرة تزداد وتكبر يوماً عن يوم.

ب ـ التدرج الجنسي:

قدمنا في الفصل الأول الأحجية حول الطبيب الذي قال للمريض الخارج من الحادث «لا أقدر أن أقوم بعمليته فهو ابني». وهذا المثل البسيط قد يبين لنا أن مجتمعنا متدرج حسب الجنس إلى درجة عالية. ربما لم يصل إلى حل الأحجية إلا القليلون بأن الطبيب هو أب الولد. فقد تعلمنا جميعاً أن هناك بعض الأدوار لا يقوم بها إلا الرجال أو النساء... الخ.

أما في الوقت الحاضر فإن أدوار الجنس مختلفة ثم أن قبول هذا التغير أو رفضه يعتمد على الفرد نفسه. وعلينا أن نعي بأنه على الرغم من أن الدستور الأردني مثلاً قد منع التمييز بناء على جنس الفرد (ذكر أو أنثى) إلا أن التمييز حاصل في كثير من الأحيان. وكثيراً ما يعزى إلى المجتمعات العربية بما في ذلك الأردن إنها تقلل من شأن المرأة لكن هذه الظاهرة موجودة في جميع المجتمعات. ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً تقدمت بعض الجمعيات بطلب لتعديل الدستور حول المرأة ولكنه رفض. وكان الطلب يتضمن إعطاء حقوق متساوية لكل من الرجل والمرأة والمعروف بـ (Equal Rights Amendment ERA)، وعند رفضه ظهرت عدة منظمات احتجاج ومعارضها تقودها نساء مشهورات مثل (Phyllis Schafly) وغيرها. وظهرت كذلك الحركة الأنثوية

(Feminism) التي اعتبرت النساء أو الإناث الأغلبية العظمى في المجتمع والتي تأخذ مكانة الأقلية. وعلى الرغم من حركات التحرير الأنثوية إلا أن الولايات المتحدة مثلاً لا تعرف أكثر من ١٢٪ من مجموع القضاة والمشرعين إناثاً، ولا تمثل الإناث في التمثيل البرلماني أكثر من ٥٪ (٢١ من ٤٣٥).

أما في الأردن فقد حفظ الدستور حقوق الأفراد بغض النظر عن الجنس والديانة والعرق وغيرها، إلا أن التقاليد والعادات ما زالت تلعب الدور الكبير في تنظيم الأمور من حيث مسألة تقسيم الأدوار إلى أنثوية وذكرية. ويبدو لنا أننا سوف نصارع هذا التضارب ما بين الاحتمالات الرسمية والتقيد التقليدي لعقود آتية.

جـ - التدرج العمري:

آخر أنواع التدرج في هذه الحالة هو التدرج العمري. يتكون المجتمع من أفراد يترتبون في المجتمع حسب العمر. وهذه الميزة من تدرج المجتمع تختلف عن باقي الخصائص الأخرى في أن الفرد ينتقل ما بين هذه الفئات على السليقة في سن معينة. وبينما نولد إما ذكراً أو أنثى ونبقى كذلك طيلة أيام حياتنا، فإن تدرج الإنسان في العمر لا يمكن تفاديه.

فكأطفال نحن عالة على من هم أكبر منّا ونكوّن جماعة مفصولة عن المجتمع، وكذلك عندما نهرم فإننا نستقصي من الأعمال المنتجة ونصبح جماعات مميزة عن المجتمع. وعلى كل حال فلا يوجد حد واضح للفصل بين الجماعات العمرية مثل الشباب والبلوغ والكهولة والشيخوخة. كذلك فإن كل فترة عمرية يمر بها الإنسان تطور فيه حالة نفسية خاصة. وبينما نجد الفئات العمرية شبه منفصلة عن بعضها بعضاً في مجتمعنا الحديث فإننا نجدها أكثر تكاملاً في المجتمعات البدائية وبعض المجتمعات الريفية. كذلك فإن الشيخوخة في المجتمعات البدائية قلما كانت موجودة بسبب تأخر العناية الصحية وحيث وجدت فإن الإنسان يحافظ على نوع من الكرامة الإنسانية بين أبنائه

وأحفاده أما في مجتمعنا الحديث وخاصة في المدن والمحيط الصناعي فإننا نضع الكبار في السن في ملاجيء للعجزة والتي وصفت بالكلمات التالية «غرف انتظار الموت». ومع تحسين الصحة العامة والتغذية والعناية الصحية فقد أخذ الإنسان يعيش عمراً أطول وكبرت هذه الفئة العمرية المدعوة كبار السن حتى أصبحت تتراوح في بعض البلدان بين ١٠٪ و ٢٠٪ وبذلك تحولت إلى مشكلة سياسية واقتصادية. لقد أصبحت مشكلة سياسية من جراء التمييز ضدها وتكونت عدة جمعيات تطالب بحقوق أفرادها وتطالب كذلك بتحسين دخلها والعناية بها وأصبحت هذه الفئة في الدول المتقدمة تكلف أموالاً كثيرة. غير أن معظم كبار السن يعيشون حياة تحت مستوى خط الفقر.

كذلك فإن حدود الشيخوخة قد أخذت تتسع. فبينما كان خط الشيخوخة متمثلاً في العمر ٦٥ سنة، اتسع هذا ليشمل أبناء الستين. ونتيجة للتراجع الاقتصادي فقد اضطرت الشركات العديدة أن تحيل عمالها على المعاش حتى في الخمسينات من عمرهم وعندما يحاول هؤلاء الحصول على وظيفة فإنهم لا ينجحون بسبب سنهم حيث أن الشركات تحاول اجتذاب عمال من ذي السن الصغير كي تكون قادرة على الاستفادة من خدماتهم مدة أطول.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل الرابع:

١ ـ تنقسم المجتمعات في طرق عديدة إلى فئات من التدرج الاجتماعي. ما هي أهم وحدة للتدرج ولماذا؟

٢ ـ هل يمكن لنا أن نتفادى التدرج الاجتماعي؟ وماذا يفيد هذا التدرج في الثبات الاجتماعي؟

٣ ـ اذكر أسماء الأنواع الثلاثة في التدرج واشرح طبيعة كل منها باختصار؟

٤ ـ ما هو الفرق بين طبقة العبيد في أمريكا والطبقة الدنيا في الهند؟

٥ ـ ماذا نعني بقولنا أن الطبقة الاجتماعية تمثل حضارة فرعية؟

٦ ـ سمي الطبقات الستة التي ذكرها وورنر واشرح الطريقة التي استعملها في تصنيفه؟

٧ ـ ما هي المآخذ على نظرية وورنر؟

٨ ـ لماذا تكون عملية الحراك الاجتماعي العمودي صعبة في مجتمع ما؟

٩ ـ ما هي العوامل التي قد تسهم في الحراك الاجتماعي؟

١٠ ـ لماذا لا نقدر أن نقول أن مجتمعنا يعرف الوعي الطبقي؟

١١ ـ لماذا لم يتطور الصراع الطبقي الذي تنبأ به ماركس في أي مجتمع؟

١٢ ـ لماذا نعتبر الاختلافات الحضارية والاختلافات العنصرية مستقلة عن بعضها بعضاً؟

١٣ ـ كيف يمكنك أن تشرح التحيز للعرق أو الجنس ومدى هذا التحيز في العالم؟

١٤ ـ كيف تختلف الجماعة المحلية عن جماعة الجيرة؟

١٥ ـ كيف تميز الجماعات الريفية عن الجماعات المدنية؟

١٦ ـ ما الذي يميز التدرج حسب العمر عن غيره من أنواع التدرج؟

المفاهيم المستعملة في الفصل الرابع :

التدرج الاجتماعي	Social Stratification
الإقطاعية	Estate (Fendalism)
الطبقات الدينية العرقية	Castes
الطبقات الاجتماعية	Social Classes
الانجاس غير الملموسين	Untouchables
الفصل العرقي	Apartheid
الحضارة الفرعية	Subculture
الحراك الاجتماعي	Social Mobility
المشاركة المقومة	Evaluated Participation
مؤشر خصائص المركز	Index of Status Characteristies
نسق الطبقات المفتوح	Open Class System
الحراك الاجتماعي الأفقي	Horizontal Mobility
الوعي الطبقي	Class Consciousness
الرأسماليون	Capitalists
العمال	Prolitariats
الصراع الطبقي	Class Conflict
العنصر	Race

Prejudice	التحيز
Discrimination	تمييز
Legal Segregation	التجزئة والقانونية
Urbanisation	التحضر أو التمدن
Community	جماعة محلية
Neighborhood	جماعة الجيرة
Anomie	اللامعيارية

المراجع:

- عبد الرحيم، عبد المجيد. **علم الاجتماع السياسي**، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩).
- غيث، محمد عاطف، **التغير الاجتماعي والتخطيط**، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢).
- غيث، محمد عاطف، **علم الاجتماع: النظرية والمنهج والموضوع**، (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧)، جـ١.
- النوري، قيس وعبد المنعم الحسني، **النظريات الاجتماعية**، (بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٨٥).
- الفوال، صلاح مصطفى، **علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية**، (القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٢).

- Coser, Louis. **Masters of Sociological Tjought.** (New York: Harcourt, Brace Jovanovich Inc., 1971).
- Hoover, Kenneth R., **The Ele ments of Social Scientific Thinking.** (New York. St. Martinus Press, 1980). 2 nd ed.
- Murdock, G. P. **Social Structure,** (New York: The Free Press 1949).

الفصل الخامس

مدخل إلى علم النفس

د. مهنا حداد

مدخل الى علم النفس

إن لم أكُ لنفسي، فمن أكون؟
وإن كنت لنفسي فقط، فمن أنا؟
وإن لم أكُ الآن، فمتى أكون؟

راباي هيليل

١ ـ تعريف علم النفس:

علم النفس هو الدراسة العلمية لسلوك الكائنات الحية بما في ذلك الإنسان بهدف التوصل إلى فهم السلوك وإدراكه أو تفسيره والتنبؤ به والحكم فيه (سليمان ورفاقه ١٩٩٠ : ١٨) هذا التفسير العام لعلم النفس يعتبر كلاً من السلوك الإنساني والسلوك الحيواني. وبما أن علم النفس يستخدم التجربة المخبرية طريقة ومنهجاً للبحث فإن علماء النفس كثيراً ما كانوا يجرون تجاربهم على الحيوان قبل أن يطبقوها على الإنسان. ولا بد لنا أن نعرف بأن تقسيم الإنسان إلى جسد ونفس قد اكتشف في عالم الطب. وإذا ما عدنا إلى تاريخ أوروبا لوجدنا أن الطب عند الإغريق قد اعتمد الملاحظة وكان يفسر المرض من خلال النظرية السببية البحتة والمثال على ذلك ما هو ما تبقى لنا من قوانين هيبوقراط. وهذه الطريقة هي التي استخدمت في تاريخ حضارات الشرق الأدنى. لكن المسيحية بقيادة الكنيسة الغربية اهملت الجسد وأخذت تعتبر أن سبب الأمراض هو الخطيئة ولذلك توجد العلاج نحو علاج الروح من خلال

الصلوات والدعوات. وعندما ظهر العالم الألماني «وند» في القرن التاسع عشر أقر شذوذ السلوك كظاهرة لأمراض السلوك وهكذا فعل فرويد من بعده.

بما أن السلوك هو مجال دراسة علم النفس فإن هذا السلوك هو سلوك الكائن الحي الذي يتصف بالحياة، فإن هذا الكائن الحي يتكون من مجموعة من الأجزاء المترابطة (يشكل نسقاً) تتسم بنوع من الترتيب والتنسيق والانتظام والاستمرار والتماسك وتؤدي وظائف متكاملة. هذا الكائن الحي يعيش في بيئات طبيعية واجتماعية كوحدة متكاملة تضم هذه الأجزاء بحيث أن كلاً منها يقوم بوظيفة من خلال علاقة هذا الجزء مع الأجزاء الأخرى.

في الطبيعة نجد أن أي فعل في ظاهرة ما له ردة فعل مساوية له في الحجم ومقابلة له في الاتجاه. بالنسبة للكائن الحي يشكل الفعل نوعاً من التنبيه يستجيب له الكائن الحي ولكن الاستجابة ليست بالضرورة مساوية للتنبيه ولا معاكسة له بالاتجاه دائماً. فلكل كائن حي مثلاً حاجات أولية وإذا ما تعرض لأحدها في أول مرة تكون استجاباته قوية ولكن إذا تعرض لها ثانية في وقت قصير تكون استجابته أقل أو تكون استجابته بالنفور. استجابة الإنسان لظاهرة ما سوف تعتمد على حالته الداخلية. فقد يكون قد مضى يومين دون طعام لأنه مريض وإذا ما تعرض للطعام فقد يستجيب له بالنفور. وبما أن الإنسان أرقى أنواع الكائنات الحية فإن استجابته للتنبيهات تتأثر إضافة إلى حالته الفيزيقية بحالاته النفسية والاجتماعية ودوافع أخرى نابعة من حياته الروحية والنفسية من آمال وتوقعات تتغير مع سنه ومسكنه وجنسه وغيرها من المتغيرات. ولقد تعارف العلماء على نوعين من المتغيرات الداخلية للكائن الحي دعو أحدهما عضوية «أورجانزمية» والثانية وظائفية أو «فيسيولوجية» (من وظائف الأعضاء). وبينما تتميز الثانية بسلامة الإنسان أو مرضه فإن الأولى تتميز بخصال سايكولوجية مثل الخبرات الشخصية، الاتجاهات والميول ومستوى القدرات والذكاء والاستعدادات الانفعالية وغيرها.

وبما أن الإنسان ككائن حي متعدد التكوين فإن التنبيهات أيضاً متعددة فقد تكون حسية وغير حسية أو عقلية وغيرها من اجتماعية ونفسية وعاطفية. . . الخ. والتنبيه هو تغيير في أنواع الطاقة لدى الكائن الحي سواء زيادة أو نقص تؤدي به إلى محاولة التفريغ أو الاستكمال. والإنسان ككائن حي مستمر العرضة لهذه التغيرات والتنبيهات واستجاباته عليها متعددة ومستمرة أيضاً.

٢ ـ مجالات علم النفس:

إذا كان علم النفس يبحث في التنبيهات والاستجابات لدى الكائن الحي بشكل عام والإنسان بشكل خاص فهو يبحث في ذلك في جميع مراحل واحتياجات الإنسان. وهو كأي علم آخر يقسم إلى اتجاهين يكمل كل منهما الآخر.

الاتجاه الأول نظري ويسعى إلى الحصول على المعرفة أو اكتشاف القوانين العلمية بغض النظر عن قيمة هذه المعرفة العملية أو العلاجية، الممكن تطبيقها في وقت قريب ومباشر. والاتجاه الثاني عملي ويهتم باكتشاف وحلول جميع المشاكل التي تواجه التطبيق. ولكن هذين الاتجاهين متداخلان في معظم البحوث، فهذه سمة العلم بأن النظرية أساساً للتطبيق والتطبيق هو الأساس في اختبار النظرية:

أ ـ من حيث النظرية أو البحوث الأساسية التي تهتم باكتشاف القوانين نجد في علم النفس المجالات التالية:

١ ـ علم النفس التجريبي البشري ويركز على قدرات وعمليات الإدراك والحركة: السمع والبصر والكلام ثم على العمليات المعرفية (التذكر والتعلم) والدوافع والانفعالات والانتباه والحالات الشعورية.

٢ ـ علم النفس التجريبي الحيواني ويركز على التعلم والدافعية والسلوك الغريزي والاجتماعي عند الحيوان.

٣ ـ علم النفس الفيـزيولـوجي ويركـز على وظائف الأعضـاء وتأثيـرها على سلوك الإنسان.

٤ ـ علم النفس النمو (الارتقاء) ويركز على نمو وارتقاء السلوك في مراحل العمر المختلفة وبخاصـة النمو الجسمي والحـركي والحسي، والمعرفي والإدراكي والاجتماعي وتكوين الشخصية.

ب ـ من حيث التطبيق نجد التخصصات التالية:

١ ـ التدخل الفيزيولـوجي حيث يبحث هذا العلم في آثـار التدخـل الفيزيـولوجي على السلوك وخـاصة إذا مـا تعرضت أعضـاء الجسم لمنبهات خـارجية مثـل العقارات والأدوية، والكهرباء والمخدرات.

٢ ـ مجالات علم النفس الاجتماعس ـ (أنظر الفصل اللاحق).

٣ ـ الاضطرابات الجسمية والنفسية ويدعى هذا التخصص «علم النفس العيادي» (الاكلينيكي)، أو تـدعى أيضاً الـدراسـات التشخيصيـة وتهتم بتشخيص المشكـلات الانفعـاليـة والسلوكيـة والأمـراض النفسيـة والعقليـة والسلوك الاجـرامي وجنـاح الأحـداث وغيـرهـا. وأهم فـروع هـذا التخصص هي الاضـطرابات النفسيـة والعقليـة، واضـطرابـات السلوك المعـادي للمجتمـع (الاجرام) واضطرابات التعليم والتأخر العقلي، واضطراب الكلام واللغة، ثم الاضطرابات الجسمية والنفسية.

٤ ـ علم النفس الاكلينيكي والعـلاجي وأهم فـروعـه العـلاج النفسي (الارشـاد العـلاجي النفسي والجمعي والأسري والتـدريب على العلاقـات الإنسانيـة، والعلاك السلوكي، والعلاج بالعقاقير والتنويم الاصـطناعي، وعـلاج الكلالام خدمات الرعاية الصحية).

٥ ـ علم النفس التـربوي ويهتم بمشـاكل التعليم والتحصيـل، وتـوافق التـلاميـذ واتجاهاتهم، والارشاد التربوي والنفسي، والتربية الخاصة والتربية العلاجية،

والادارة التربويـة، والمقررات والبـرامج الـدراسية ومنـاهج التعليم والتقـويم التربوي.

٦ ـ علم النفس الصناعي والاداري ويهتم بالاتجاهات والميـول المهنية والتـوجيه المهني، واختبـار العـاملين وتقـويم أدائهم والتـدريب على الادارة والسلوك المؤسسي والرضى المهني.

ـ التطور والشخصية:

على الرغم من أن الحضارة تشكل وتصنع شخصية كل شخص إلى درجـة معينة إلا أن تأثير هذا الفـرد على الحضارة طفيف جـداً. وكثيراً مـا على الفرد أن يقبل الحضارة كما يجدها وإذا ما أمل أن تكون له حياة جيدة إلى درجة ما ككائن إنساني فعليه أن يتكيف بها. وكثيراً ما تبدو الحضارة من خلال اعتماد الفرد عليها وحـدة مستقلة، كشيء لـه وجـوده واستمـراريتـه بغض النـظر عن الأفـراد الـذين يتواجدون فيهـا ويحملونها. ويبـدو هذا الانـطباع قـوياً عنـدما نبـادر الحضارة من وجهة نظر تاريخية ونرى كيف أن عناصرها الأساسية قد عاشت جيـل بعد جيـل. فلم تكن اللغة العربيـة في الماضي السحيق وخـاصة فيمـا يتعلق بميزاتهـا الأولية كثيرة الاختلاف عما هي عليه اليوم، ولم تك اللغـة الإنجليزيـة قبل مـائتي عامـاً تختلف في خصائصها الأساسية عن إنجليزية اليـوم. وعلى الرغم من ذلـك فكل الذين تكلموا الإنجليزية قبل مائتي عام قد ماتوا.

ولو أن التفكير بالحضارة كوحدة مستقلة قد يكون نـافعاً إذا مـا انطلقنـا من بعض الجـوانب إلا أن هـذه الفكـرة في التحليـل النهـائي سـوف تكـون خـطأ. فالإنسان هو صانع الحضارات. وعندما نحلل الحضـارة من الداخـل فإننـا سوف نرى أن خصائص الأفراد الذين ينتمـون إلى جماعـة ما ليست أكثـر من سلسلات لـردود فعل نمـطيّة. فهم النـاس الذين يملكـون معتقدات ويكـونـون اتجـاهـات ويمارسون عادات ويتصرفون حسب أنماط تقبلها الجماعة.

تتكـوّن الحضارة ببطء وبـالتدريـج ويكـون هـذا التكـوين من البطء بحيث

يصعب تمييز وعزل إسهامات أفراد معينة، فليس الفرد في الجماعات الكبيرك أكثرخمن واحد بين الملايين. إضافة إلى ذلك فإن معظم الأفراد يقبلون الحالة، ورغم ذلك فالحضارة تتطور والحضارات تتغير ولا يتأتّى هذا التغير إلا من خلال الأفراد الذين يغيرون مواقفهم وطرق حياتهم كأعضاء في المجتمع.

الحالات الوحيدة التي تساعدنا على تمييز الاسهامات الفردية في أنماطنا الحضارية هي حالات يخلقها القادة المتميزون. نحن نعرف أن الأنبياء مثلاً والمصلحون قد أثروا على مجرى التاريخ في حضارات مختلفة وكذلك فعل بعض القادة (نابليون وهنري فورد) والمبدعون العلميون مثل اينشتاين وماركس وهيجل في صنع الحضارات الغربية. وربما نهوّل بعض الأحيان اسهامات القادة فنحن لا نعرف إلى أي مدى كانت الحضارة الغربية سوف تختلف عما هي عليه الآن لو أن كارل ماركس ونابليون وغيرهم كانوا قد ماتوا في المهد، ولكننا نعرف أننا لم نك قد عرفنا الطيارات لولا الاخوان رايتس (Rights Brothers) أو التصنيع الضخم للسيارات لو لم يقم هنري فورد بجهوده وربما أيضاً كانت هذه التطورات سوف تحدث في وقت لاحق.

لا تعني مساهمة الحضارة في تشكيل الأفراد بأن الفرد محروم من حرية السيطرة على سلوكه واختيار نمط حياته. والنمط الحضاري متوازن إلى درجة تسمح ببعض المروق على المعيار، وقد تكون هذه التنوعات ضئيلة في المجتمع البدائي إلا أنها كبيرة في المجتمع الحديث، وقلما يعي الفرد المتوسط في المجتمع إلى أي درجة تحدد الحضارة من حريته. فهو يستدمج الحضارة بحيث تصبح جزءاً من شخصيته بحيث أنه لا يريد أن يتصرف على غير ما يعترف الأفراد في المجتمع أن هذا السلوك صح ومقبول. ولا يعي الفرد الصراعات بين ما يريده هو وما هو مسموح به في المجتمع إلا في بعض الأحيان.

٤ ـ الفرد والتنشئة الاجتماعية:

تلعب عملية التنشئة الاجتماعية دوراً هاماً في تطور الشخصية الإنسانية. لا

يعني هذا أن شخصية الطفل قد لا تتأثر بوراثته الطبيعية وبعلاقاته مع محيطه الطبيعي. غير أن الطفل يتعلم أنماطه السلوكية ومواقفه ومعتقداته والتوقعات التي تبرر سلوكه من الناس حوله. وكل هذه المدخلات مدخلات حضارية في الأصل، ولذلك فإن سلوك الفرد عندما ينمو ويتطور تعكس وإلى درجة بعيدة حضارة المجتمع الذي يولد ويعيش فيه.

أ- أهمية سنوات الطفولة المبكرة:

يبدو أن تجارب الطفل الصغير داخل العائلة ذو تأثير كبير على تطور الشخصية الإنسانية. ففي الفترة الأولى بعد الولادة يبدأ الطفل بالتعرف على الوجوه المعتادة، وعلى الإحساس بالتأييد أو الرفض (الابتسامة وهزة الرأس إلى الأمام = تأييد، وهزة الرأس إلى الخلف أو الجانبين مع بعض العبوس = رفض) وفي البحث عن اهتمام وبطرق أخرى يرى الطفل ردود فعله على المحيط الاجتماعي.

تتطور شخصياتنا في هذه المرحلة المبكرة من الطفولة. وبينما نغص بالنقص في معلوماتنا حول عملية تعلم الطفل فقد اكتشفت بعض الطرق التي يتعلم الطفل من خلالها. كان أحد قادة هذه الاكتشافات جان بياجيه (Jean Piaget) عالم نفس سويسري متميز طور كثيراً من النظريات في عملية تطور الأطفال وأصبحا رائجة جداً.

كانت فرضية بياجيه الأولى واضحة: يفكر الطفل بطريقة تختلف عن طريقة تفكير الكبار، فمثلاً يفكر الأطفال أن خيالهم وحدة حية تتبعهم أينما اتجهوا. وبنفس الطريقة يرون أن أصدقائهم الخياليين يطيرون في أنحاء الغرفة في الليل، ويرون في جميع الأشياء الجماد من الرخام إلى الشفاطة (المكنسة الكهربائية) خصائص الكائنات الحية أو حتى البشرية. والحقيقة عندهم مرتبطة بالخيال. وعندما يكبر الإنسان يأخذ بالفصل بين الحقيقة والخيال. وإذا ما انتقص الفرد

البيئة الصحيحة فإنه لن يكون قادراً على ذلك وربما يعيش بقية حياته في عالم شبه خيالي.

ويرى بياجيه أن من الضروري والمفيد أن نقسم حياة الطفل إلى أربعة مراحل: من الولادة إلى السنة الثانية حيث يشغل الطفل نفسه في التعرف على العالم المادي حوله. ومن السنة الثالثة حتى السنة السادسة أو السابعة يكون الطفل مشغولاً في تعلم الرموز في اللغة، والأحلام والتخيل أو الوهم. بعدها يتعلم الطفل المفاهيم المجردة مثل الأعداد والعلاقات بينها. وأخيراً من السن الثانية عشر إلى الخامسة عشر يتعلم الطفل السيطرة على الأفكار المنطقية البحتة ويتعلم أن يفهم الرسالة المزدوجة مثل السخرية والتهكم والمعاني المختلفة للكلمات.

ولكي يكون الطفل قادراً على التطور الطبيعي من الناحيتين العاطفية والعقلية يجب أن يشعر بالحب والدعم، وعلينا أن نتفادى إظهار العطف والدعم الزائد عن الحاجة لأنهما قد يقودان إلى الإتكالية وعدم البلوغ. أما من ناحية ثانية فإن النقص في العطف والاهتمام والرفض العائلي تخلق في الفرد الشعور بعدم الطمأنينة والدونية وتولد فيه ردود فعل تعويضية مثل العنف والثورة والسلوك المسيطر أو الفوقي.

عندما يكبر الطفل فإنه لا يتصل ليس بأفراد الأسرة والعائلة فقط إنما أيضاً بأبناء الحارة (جماعة اللعب) والجيران وغيرهم. ويحصل من خلال هذه العلاقات على كفاءة جسمية ومهارة أكبر في استعمالات اللغة ويأخذ بالتكيف المستمر بحالات جديدة ومع أفراد جدد. وتترك هذه التجارب فيه انطباعات مزمنة يصعب محوها فتؤثر على بنية شخصيته.

ب ـ أهمية الاختلافات في محيط الفرد:

على الرغم من أن العلماء يشكوّن إذا ما كان لشخصين نفس الخصائص الوراثية إلا أنهم وصلوا إلى تقييم عالي لخصائص التوأمين من البويضة الواحدة

المشتركة، ومن المؤكد أيضاً أنه لا يوجد شخصان يملكان نفس المحيط الاجتماعي. والباحث الملاحظ قادر على أن يرى بوضوح بعض الاختلافات في بيئات الأفراد لكنه يعجز عن ملاحظة بعضها الآخر.

بينما ينمو الأفراد في الأردن في بيئة اجتماعية شبه متماثلة ينمو الأفراد في الولايات المتحدة مثلاً حيث السكان خليط من جنسيات وحضارات مختلفة في بيئات اجتماعية مختلفة اختلافاً كبيراً. وأول هذه الاختلافات هي الاختلافات في اللغة وفي المناطق التي يولد الأفراد فيها، ثم وحتى في نفس المنطقة هناك الفرق بين بيئة المدينة الاجتماعية وتلك في الريف. وحتى في المدينة فهناك اختلاف الطبقات التي يولد الأفراد وينشأون فيها، ثم الاختلافات في العرق والدين واللغة والدخل والقومية. وتوجد حتى في المجموعة الواحدة اختلافات بين عائلة وعائلة بحيث أن الطفل المولود في عائلة ما يجد أن البيئة الاجتماعية في عائلة أخرى مختلفة تماماً. وقد تمتد الفروق إلى أبعد من ذلك بحيث نقدر على القول بأن نفس البيئة الاجتماعية لطفل تختلف عنها لأخيه الطفل الآخر، ذلك أن البيئة الاجتماعية لا تتكون فقط من الأفراد في العائلة بل تعتمد أيضاً على طبيعة العلاقات الاجتماعية لهذا الطفل مع هؤلاء الناس. وبينما يكون أحد الأطفال محبوباً ومدللاً ويعطي كل شيء، قد يكون الطفل الآخر غير محبب، مهملاً وليس محل ثقة الأهل، ومثل هذين الطفلين حقيقة لا يعيشان في نفس البيئة الاجتماعية بل في بيئتين مختلفتين وأن هذه الاختلافات سوف تؤثر تأثيراً عميقاً على تطورهما العاطفي والنفسي، وعلى شخصيتيهما وعلى علاقاتهما مع الآخرين.

٥ ـ تأثير العزلة المتطرفة على الأطفال:

كان لدراسة الأطفال المعزولين عن العلاقات الاجتماعية أهمية خاصة في تبيان أهمية التنشئة الاجتماعية من خلال إظهار ما يحدث في حالة غياب هذه التنشئة. فهي تعرفنا على احتمالية التعويض في السنوات اللاحقة عن التطور

الذي فشل أن يحدث في الوقت المحدد له. وهذه الحالات الدراسية نوعان: النوع الأول هي حالة الأولاد الوحشيين، والنوع الثاني حالة الأولاد الذين عزلوا في غرفة ولم ينالوا الانتباه إلا فيما يتعلق بتقديم الطعام لهم.

أ ـ الأولاد الوحشيون:

قصة الأولاد الوحشيين تعود بنا إلى الأسطورة والخيال. فقد تحدثت كثير من القصص عن أولاد تربوا مع الوحوش (الذئاب والدببة وغيرها) وربما تكون أقدم هذه القصص هي قصة رومولوس وريموس (Romulus Remus) مؤسسي روما اللذين، كما يقال، تركتهم أمهم وحنت عليهم ذئبة، وعلى كل حال فبعض علماء الاجتماع يؤمنون بقصة اكتشاف طفلين مع الحيوانات وهي قصة أمالا وكمالا اللذين ـ كما تقول القصة ـ وجدا في مغارة ذئب في الهند. فلم يك هذان الطفلان قادرين على الحديث وأنهما كانا يركضان على أربعة وأن سلوكهما كان حيوانياً، ورغم محاولة الباحثين لتعليمهما إلا أن استجاباتهما كانت ضعيفة ومات الاثنان في سن مبكرة(*) وقد علق بعض الباحثين على أن السلوك الذي تقدم به كاتبا الرواية عن الطفلين يشبه ما يدعى «بالتوحد الطفولي» (Infantile Autism)، حالة ناتجة عن رفض الأهل المتطرف للأولاد في الطفولة المبكرة، وذهب إلى أن الطفل الإنساني لا يقدر على الحياة دون إعالة وأن هذين الطفلين وجدا بعد هجرهما مباشرة.

ب ـ الأطفال المعزولون:

ذكر لنا كنزلي دافيس (Kinsley Davis)(**) قصة إيزابيلا وأنّا اللتين عزلتا بسبب عدم شرعيتهما فقد عزلت إيزابيلا مع أمها الطرشاء في التسوية، بينما

(*) J. A. L. Singh Robert M. Singh, Wolf Children and Feral Man, New York, Hasper Row, 1942.

(* *) Kingsley Davis, «Final Note on a Case Extreme Isolation». American Journal of Sociology, March 1947, PP. 432 - 437.

عزلت أنّا في غرفة سوداء لوحدها. ولكن بعد اكتشاف إيزابيلا ووضعها في المحيط المناسب استجابت لعملية التعلم وكانت خلال سنتين قادرة على التكيف مع المدرسة وأظهرت ذكاءاً وتفوقاً بينما لم تفعل ذلك أنّا. وذهب بعض الباحثين إلى أن وجود الأم مع إيزابيلا قد ساعدها لتفسير الاهتمام والحنان الجديدين بينما لم تستجب أنّا لذلك وماتت في سنها العاشرة. وذهب بعضهم إلى أن الوراثة الجسمية عند إيزابيلا كانت أقوى منها عند أنّا.

٦ ـ الشخصية وتطورها:

ربما يساعدنا على أن نفهم العلاقة بين الفرد والمجتمع إذا وضعنا مفهوماً واضحاً لمعنى الشخصية. لقد قيل أن كل إنسان من ناحية ما يشبه جميع الآخرين، ومن جانب آخر يشبه بعض الآخرين ومن جانب ثالث لا يشبه أحداً. ويمكن تعريف الشخصية بأنها:

التنظيم الكلي لخصائص الفرد الموروثة والمكتسبة كما تظهر هذه في سلوكه. وهي نتيجة التفاعل بين طبيعته الاحيائية وبيئته الاجتماعية والطبيعية. وهي لذلك تحمل دمغات أربعة أشياء:

١ ـ إمكانيات الفرد الموروثة.
٢ ـ بيئته الطبيعية.
٣ ـ حضارته ومجتمعه.
٤ ـ تجاربه الشخصية الفريدة.

وعلى كل حال فما أن تبدأ الشخصية حتى تصبح قوة مستقلة يمكن أن تلعب دوراً مسيطراً في تطورها المستقبلي وفي تكيف الفرد مع بيئته الكلية.

٧ ـ النقاش حول الطبيعة والطبيعة: (Nature / Nature Debate)

قلنا أن الإنسان يولد ببعض الحدس والغريزة مثل الحيوان إلا أن هذه تولد

مع غير الإنسان متطورة ولذلك فالحيوان قادر على إعالة نفسه إلى حد ما على عكس الإنسان الذي يعجز عن ذلك وهو يولد في تمام العجز حتى أنه لا يقدر أن يقبض على الأشياء ولا حتى على تحريك نفسه من جنب لآخر. كل ما يولد مع الإنسان هو دوافعه واستجاباته، والقدرة الكامنة على النمو والكبر تدريجياً. وأثناء عملية النمو يبدأ بالوعي بوجوده كشخص، ومن خلال هذا النمو التدريجي تنمو أيضاً مقدرته على التعلم لكن عليه أن يتعلم كل شيء من الخارج (من البيئة).

الدوافع التي يرثها الفرد هي حوافز لإشباع الحاجات الأولية مثل دوافع النوم والطعام، ويسبب عدم إشباعها الاضطراب، عدم الراحة، والتوتر. وهي هذه الدوافع التي تزود الفرد بحافز التعلم، فإذا جاع الطفل نجد أنه يصرخ ويبكي، ويسكت، إذا أعطيت له. وهذه هي بداية للتعلم أو أيضاً بداية تكوين الشخصية.

يؤكّد عالم النفس ب. ف. سكنر على تأثير المجتمع على الفرد ويرى أن التشجيع الإيجابي والسلبي (Positive Negative Reinforcement) هو الذي يشكل شخصية الفرد. مثلاً مدح الشخص حين يجدّ، وتأنيبه حين يتوانى تؤدي إلى تكوين شخصية جادة أو العكس فتح المجال للطفل للبكاء والشكوى تؤدي إلى تطور شخصية متوانية وشاكية. كذلك فقد ركّز آخرون على الوراثة الطبيعية في تكوين الشخصية وناقشوا نظريات سكنر واتباعه في التأكيد على التشجيع أو الإهمال سواء السلبية أو الإيجابية ودعي هذا النقاش النقاش بين (الطبيعة والطبيعة) الطبيعتين وقد ركز على السؤال التالي:

- ما هو الأهم في تكوين الشخصية وفي تحديد نجاح أو فشل الفرد: البيئة أو الوراثة؟

وهذا ما يشبه السؤال حول أهم ما في السيارة الغاز أم المحرك. فإذا ما أردنا السيارة أن تشتغل فعلينا أن نزودها بالوقود والمحرك وكذلك إذا ما أردنا الطفل أن ينمو نمواً طبيعياً فعلينا أن نجهزه بالبيئة الملائمة بجانب وراثته.

إذا ما أخذنا شخصين متماثلين ووضعناهما في بيئتين مختلفتين فإنهما سوف يصبحان شخصيتين مختلفتين (حتى التوءام يختلف أفراده عن بعضهما)، ولا يوجد شخصان بنفس البيئة الاجتماعية أو الطبيعية. وعلى ذلك يكون على الباحثين أن يركزوا على دراسة الجماعة ليكتشفوا ما يؤثر على الفرد أكثر: البيئة أو الوراثة.

وقد قاد هذا السؤال إلى نقاش حاد بين العلماء الاجتماعيين، وكان أحد مواضيع هذا النقاش هي المقدرات النسبية عند الرجال والنساء. لقد بقي الإنسان ولقرون يعتقد أن الرجال أذكى من النساء إلا أن هذه الصورة الجامدة قد تغيرت الآن بعد دخول التعليم إلى المجتمع وبروز ذكاء الأنثى. وعلى الرغم من ذلك فقد بقي النقاش حول هذا الموضوع في مجالات معينة مثل نسبية مقدرة الأنثى والذكور في الرياضيات أو الجدل واختلفت الآراء حول هذا على الرغم من الاختبارات التي أجريت في جامعة جون هوبكنز في الولايات المتحدة حيث وجد الباحثان جوليان ستانلي (J. Stanley) وكاميلا بنهاو (C. P. Benhow) أن الذكور تفوقوا على الإناث بنسبة ٣:١ في الرياضيات. وقد ذهب غيرهم من الباحثين إلى أن هذه الاختلافات متأصلة في الفروق التي يضعها المجتمع بين الذكور والإناث وأن توقعات المجتمع من الذكور أعلى من توقعاته من النساء، وأن السبب لا يكمن فيما يدعى العوامل الوراثية أو المقدرات الطبيعية.

٨ ـ تطور الشخصية:

ربما كانت أشهر نظرية في تطور الشخصية هي نظرية ماسلوف المدعوة «سلم ماسلوف الترتيبي» أو (Maslow's Hierarchy). يقول ماسلوف أن هناك خمس مستويات للتحصيل الإنساني وعلى كل منها أن يصل إلى درجة الإشباع قبل أن يحاول الفرد المستوى الآخر.

١ ـ الحاجات البيولوجية الأساسية.
٢ ـ حاجات الأمن والطمأنينة.

٣ ـ حاجات المحبة والإنتماء.

٤ ـ حاجات التقدير الذاتي.

٥ ـ تحقيق الذات.

وأعلى هذه المستويات هو مستوى تحقيق الذات والـذي يعني تكيف الفرد الجيد مع المجتمع، ولا يحتاج الفرد لهذه الغاية أن يكون مشهوراً جداً أو أحسن مـا يكون في حقـل اختصاصـه ليشعر أنـه حقق ذاته بـل أن يصل إلى حـالـة من القناعة بالحياة وأن يكون قادراً على التعامل مـع المشاكـل التي نواجههـا جميعاً. وبمـا أن على الفـرد أن يشبـع المستـوى الـذي وصـل إليـه قبـل أن يـطمـح إلى المستـوى الأعلى، لـذلـك فـالـذين يصلون إلى تحقيق الـذات قليلون وحتى إذا وصلوا إلى أعلى مستوى فيجب أولاً أن يعرفوا كيف يبقون في هذا المستوى وإلا انزلقوا إلى مستوى أو مستويات أدنى.

أ ـ الأفراد المتكيفون جداً:

ماذا نعني بالتكيف الاجتماعي الجيد؟ هنالك أخـطاء تجابه محاولـة وضع أسس للتكيف الاجتماعي كمثالية (قيمة)، لو أن هناك فرداً متكيفاً اجتماعياً بشكل جيد ولا يشكو من مشاكل ولا يتمنى أن يجابه حـالات مختلفة فسـوق يتوقف عن التطور. من ناحية أخرى لو وجدنا شخصاً متكيفاً ويحب الحياة أو يجـدها ممتعـة ومثيرة لقلنا أنه يواجه نقصاً في القناعة أو أنه يجد مشـاكلاً أو مـا زال يحاول بلوغ أحد الأهداف. لذلك فإن مفهوم التكيف الجيد يجب أن يكون مفهوماً حـركياً ولا توجد له قاعدة تطبق في جميع الأحوال.

فالمتكيف اجتماعيـاً بمعنى الكلمة يكـون قد طـور شخصية متـوازنة وقـوية يمكن أن تعـاني من سـوء الحـظوظ وتشفي منهـا. ونؤكـد هنـا أن الألم والحـزن والإستياء تجارب جانبية مشتـركة نـواجهها جميعـاً بين الفينة والأخـرى. والإنسان المتكيف قادر على التعامـل معها دون أن يتحـطم. وتتنوع الـطرق التي يصل من خلالها الفرد إلى تكيف جيد بالمحيط الاجتماعي. فنمط الحيـاة الذي قـد يعتبره

فرد ما ملائماً قد يكون أيضاً غير ملائم ومزعجاً لفرد آخر. وعلى كل فرد أن يحل مشاكل حياته فيما يلائم ذوقه وطبيعته، أو طريقة حياته الخاصة.

ب ـ التكيف والشخص العادي:

هذانالمفهومان ليسا مترادفين لكن علاقاتهما وحيدة. فالناس في مجتمع ما يعترفون بالشخص المتكيف جيداً إنه إنسان عادي. والعكس صحيح: فالإنسان العادي في المجتمع هو الذي كيف نفسه بالمجتمع، وإذا ما استعملنا المفاهيم الحضارية فإن الإنسان المتكيف اجتماعياً هو الإنسان الذي تعلم المواقف الأولية والأنماط السلوكية في حضارته بما يكفي لأن يقبله أفراد المجتمع ويشهدوا له بذلك. وقد لا يكون هذا الشخص مثال الشخص في الجماعة أو الفرد المتوسط فيها ولكن عليه أن لا يشذ كثيراً عن السلوك المعتاد، وإلاّ فأفراد الجماعة لا يعتبرونه عادياً، ومن الطبيعي أن تحدد الجماعة المعايير الحضارية. وقد تعتبر أنواع معينة من السلوك في حضارة ما عادية لكنها قد تعتبر في أخرى غير عادية وشاذة.

٩ ـ المفهوم الفرويدي للشخصية:

قد يكون أكثر اسم معروف في علم النفس هو اسم فرويد (Freud) عاش فرويد في فينا ـ النمسا بين ١٨٥٦ ـ ١٩٣٩، ودرس الطب ولكنه تخصص في الأمراض العصبية ولذلك فإن جميع مرضاه كانوا أناساً ذا مشاكل عاطفية. وقد عرف فرويد من خلال طريقة معالجته النفسية المدعوة بالتحليل النفسي (Psycho Analysis). يتكون جوهر طريقة التحليل النفسي من أدلاء المعلومات إرادياً وبكل حرية. والمقصود من ذلك هو أن المريض يترك حرّاً ليقول ما يكون في باله ويعبّر عن ذاته أملاً باكتشاف أفكار أو ذكريات لا يعيها المريض ولكنها قد تكون قد سببت له الصراعات العاطفية والنفسية. فمثلاً قد يكون الشخص مر بتجارب سيئة في فترة الطفولة ولكنه كبتها وبقيت تحت مستوى الوعي عنده. ويعتقد المحلل النفسي أنه إذا ما اكتشف هذه التجارب فإنه سوف يكون قادراً

على معالجتها بـواقعية بحيث تـزول الاضطرابـات التي كانت هـذه التجارب قـد سببّتها. لكن عملية إظهار التجارب من اللاوعي إلى مستوى الـوعي تتطلب وقتاً قصيراً وتصميم كل من المحلل النفسي ومريضه.

في ذلك الوقت كـان فرويـد مثالاً لعـالم النفس، أما اليـوم فيعترف علمـاء النفس أن فرويد قد قدّم إسهامات قيّمـة لحقل علم النفس ولكن نـظرياتـه تواجـه الكثير من الآراء المتناقضة والجدل.

يتكون مفهوم الشخصية عند فرويد من ثلاث بناءات أو أنساقٍ سمّاهـا: Id (الذات) و Ego (الأنا) ثم Superego أو الذات الفوقيـة. وتتعاون هـذه البناءات الثلاث في الشخص العادي لإشباع الحاجات والرغبـات الأولية داخـل إطار بيئة الفرد، ولكنها عندما تكون في صراع فيما بينها فإنها تنتج أمراضـاً نفسية متنـوعة. ونحن ندعوها هنا للتبسيط مرتبة:

الذات الدنيا، الأنا، والذات العليا.

فالذات الدنيا (Id) هي ذلك الجزء من الشخصيـة الذي يسيـطر عليه مبـدأ المتعة، ويخضع لدافع واحد وهو البحث عن المتعة وتفادي الألم. وهـو الجانب غير البالغ والأناني من الشخصيـة. ونقيضه هي الـذات العليا أو الضميـر البدائي الذي ينمو مع عملية نمو الإنسان والذي تسيطر عليه الأخلاق. والبناء الثالث هـو الأنا الذي يلعب دور الوسيط بين هذين القطبين، يسمح بعض الأحيـان للفرد أن يبحث عن المتعة وبعضها الآخر عن السلوك الأخلاقي.

وهذه الكليات الثلاث ليست كليات مستقلّة تعيش في الفـرد الواحـد، إنما هي مفاهيم تشير إلى قوى مختلفة تتفـاعل داخـل الشخصية. وقـد لا تكون هـذه أحسن المفاهيم الممكنة التي تقـودنا إلى تفهّم طبيعـة الشخصية، غيـر أن معظم علماء النفس وأطباء الأمراض النفسية وجدوا أن نظرية فرويد قد أفادت في دراسة أطول لتطوّر الشخصيـة، ولأن لفرويـد تأثيـراً كبيراً في علم النفس، قـام العديـد منهم بإعادة النـظر في نظريـاته وحيـاته، واكتشفـوا عدة حقـائق ممتعة من خـلال

الرسائل التي تبادلهـا مع «فلهلم فليس» (Whilhelm Fliess) الـرجل الـذي اقتبس عنه فرويد، كما يقال، أوّليات نـظرياتـه، وبناء على هـذه الرسـائل ذهب بعضهم إلى أن فرويد رفض نـظريته القـائلة بأن مشـاكل الأفـراد النفسية (العقـد النفسية) ترتكز على مضايقات الأهل الجنسية للفرد، ذلك أنه أراد أن يبعد والـده عن هذا الإتهام. ولتفادي ذلك فقد طوّر نظرية «عقدة أوديبس» (Oedipus Complex) التي تضع اللوم على الطفـل بدلاً من أن يقـع هذا اللوم على الأهـل. وهذا مـا جعل التحليل النفسي يصل إلى الجمود الذي وصل إليه الآن.

رأي مضاد لرأي فرويد هو ما قدمه لنا المحلل النفسي برونو باتلهايم (Bru-no Betlelheim) الذي ذهب بأن فرويد لم يك ذلك العالم الدقيق كمـا يقول عنـه قرّائه بـاللغة الإنجليـزية، وعلل ذلـك بقولـه أن ترجمـة أعمال فـرويد إلى اللغـة الإنجليزية قد حوّلت هذه الأعمال من مناقشة مقـروئة حـول النفس الإنسانيـة إلى أطروحة علمية حول وظائف العقل الإنساني. وقد غيرت هذه الترجمة فـرويد من فنان إلى عالم وأصبح كل ما قاله فرويد حقيقة علمية بدلاً من أن تكـون ملاحـظة يجب التفكير بها مليّاً. وعلى الرغم من ذلـك فإن نـظريته في الشخصيـة ذو قيمة كبيرة.

أ ـ عقدة الأوديب: (Oedipus Complex):

هذه النظرية قياساً مع الأسطورة الإغريقيـة أوديب الذي قتـل والده دون أن يعلم وتزوج زوجته فاكتشف أنّها أمه. لقد جاءت صياغة فرويـد لعقدة أوديب من حقيقة اكتشفها في بداية حياته المهنيـة واعتقد أنـه اكتشف في العمليات النفسيـة في اللاشعور عند مرضاه نسيجاً خيالياً من العلاقات الجنسية مع أحد الوالدين من الجنس المضاد. وعتقد في مرحلة لاحقة أن الطفل يكوّن جاذبية جنسية مـع أحد الوالدين من الجنس المضـاد وأن هـذه الجـاذبية تصـطحب نوعـاً من الغيرة عنـد الوالد الآخر، ثم أن هذه التجربة تجربة إنسانية عالمية عنـد الأطفال في سنـوات العمـر الأولى وخاصـة تحت السن الخامسـة. بعد السن الخـامسـة تكبت عقـدة

أوديب هذه وتختفي من العقل الواعي بسبب اعتراف الفرد بعدم إمكانية إشباع هذه الرغبات الجنسية عند الإناث، وأيضاً بسبب الخوف عند الذكور من الأب الذي قد يثأر لنفسه منهم. في هذه المرحلة يبدأ الفرد بتعريف ذاته من خلال الأب المماثل جنسياً (الفتاة مع الأم والولد مع الأب). واعتقد فرويد أن عقدة أوديب هذه تشكل عاملاً جوهرياً في تطور شخصية كل طفل ومن هنا أيضاً عاملاً محدداً لطبيعة المجتمعات الإنسانية.

لقد وجدت نظرية عقدة أوديب انتشاراً واسعاً وكتب عنها كثيراً كما وجدت أيضاً معارضة قوية. فقد أعجبت هذه النظرية الكثيرين من الأجيال السابقة ولكنها أيضاً هزتهم هزة عنيفة لأن فرويد قد وضح بصورة شبه قاطعة أن الطفل يملك الرغبة الأكيدة في التعامل الجنسي مع أحد الوالدين من الجنس المضاد، وهذا يقود إلى غيرة الأب الآخر بسبب هذه العلاقة الجنسية. غير أن الطفل في المجتمعات الحاضرة لا يملك أي فكرة مهما كانت مبهمة عن ما يدعى بالعلاقات الجنسية أو حتى وجودها. وحقيقة أن الأطفال لا يملكون هذه الرغبات في مثل هذا السن ولذلك لا نعرف كيف سوف يسببون غيرة بعض الآباء. غير أن علماء التحليل النفسي في الوقت الحاضر يرفضون نظرية فرويد حول عقدة أوديب علماً أنهم يقبلون بعض نظرياته الأخرى.

ب ـ التحليل التبادلي:

لقد أضيف إلى علم النفس المعاصر ما يدعى (علم نفس اللعبة) (Pop Psychology، حيث ترجمت النظريات العلمية إلى نظريات بسيطة يمكن للكل أن يتداولها وأحد هذه هو التحليل التبادلي الذي أشهره الباحث توماس أ. هاريس (Thomas A. Harris) في كتابه «أنا على ما يرام... وأنت على ما يرام؟». وتقسم هذه النظرية الشخصية الإنسانية إلى ثلاثة أجزاء: الأهل، والبالغ، والطفل والتي تتطابق مع أجزاء نظرية فرويد الثلاثة: الذات العليا والأنا والذات (الدنيا). وتذهب نظرية التحليل التبادلي إلى أنه عندما يتفاعل شخصان فيجب

أن يكـون لهما نفس النـوع من الشخصيـة. فعنـدمـا يخـاطب أحـد الشخصيتين بصوت البالغ شخصية أخرى بصوت الطفل فإن الرسالة لا تصـل واضحة ويـظهر الاضـطراب. وهناك نـظريات أخـرى لا نريـد الخوض فيهـا هنا وقـد ظهرت في السبعينات نترك البحث عنها للطالب الفضولي.

١٠ ـ سوء التكيف الشخصي وأسبابه:

أحـد الأسباب لاهتمـام النـاس في علم النفس هـو أن هـذا العلم يـدرس ظاهرة سوء التكيف. ما يشير إلى سوء التكيف هو السلوك الذي ينفرد بوضوح عن المعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع. وليس من السهل معالجة هذه الظاهـرة ونحن ندعو هذه الظاهرة أيضاً شذوذاً، فسوء التكيف:

١ ـ دائماً على درجات.
٢ ـ يأخذ أشكالاً متنوعة.

إضافة إلى ذلك فإن الأفراد على اختلافهم في المجتمع المعقد يخضعـون إلى بيئـات اجتماعيـة تختلف فيما بينهـا اختلافـاً كبيـراً. وعلى الـرغم من تكيف الأفراد في مجتمعاتنـا إلا أن هنالـك مجتمعات تعـرف جماعـات فرعيـة كثيرة لم يتسنى لهـا أن تتكيف مع بعضهـا بعضاً، مثـل المجتمع الأمـريكي، والإسرائيلي ومجتمعـات أمريكـا الجنوبيـة والمجتمعات الأوروبيـة الحـاليـة. وفي مثـل هـذه المجتمعات قد يكـون الفرد متكيفـاً في عائلتـه أو عصبته ولكن إذا كـانت مواقف واتجاهات هـذه العائلة أو العصبـة لا تتلائم من المجتمـع الكلي فإن تكيف مثـل هذا الفرد يكون ضعيفاً.

الجـريمـة شكـل من أشكـال السلوك الشـاذ التي تسـطو على المعـايير والتوقعات السائدة في الجماعة الكبرى (المجتمع). ولكن نجد بعض الأحيان أن هذا المجرم إنسان عادي في الجمـاعة التي ينتمي إليهـا ومتكيف جيداً من حيث معـايير وتـوقعات هـذه الجماعـة. وقد يكـون مثل هـذا الإنسان قـد نمى في بيئة اجتماعية متدنية ورافق أفراد عصابة ما وأعجب بالشخص الذي أظهـر له مهـارات

في السرقة كسلوك. وكإنسان بالغ فقد يكون قد قضى مدة في السجن وكان عضواً في عصابات معينة وجميع مثل هؤلاء الأفراد يشاركونه نفس الرؤية الحياتية. وقد يظهر مثل هذا الشخص أيضاً ميزات بارزة وقيادية.

وتنمو معظم الأنواع المعتادة من سوء التكيف على كل حال من عدم المقدرة في مجابهة سوية للمشاكل التي تعترض الفرد في بيئته الاجتماعية، وقد يعزى ذلك إلى تحديدات موروثة، أو إلى بيئة صعبة جداً، أو إلى بعض الإصابات أو المرض أو حظوظ سيئة أخرى. وعلى الرغم من أن الإنسان الذي تكيف ببيئته الاجتماعية قد يجابه الكثير من قسوة الحياة والإحباط فلكل إنسان حدود في تحمّله لمصاعب الحياة، وإذا ما زادت هذه على حدودها فإنه يشعر بتحطيم نفسي. ويبدو أن بعض الأجهزة في الدول تستعمل هذه الطريقة في الحصول على المعلومات التي تريدها وقد اتخذتها كمبدأ في تحقيقاتها. وقد جرّبت هذه الطريق أولاً على الفئران حيث عودها الباحثون الحصول على طعامها بطريقة معينة لتتفادى التجارب غير الممتعة ثم يحبطون هذه الفئران من خلال تغيير طريقة إعطائها الطعام.

١١ ـ الخلل النفسي والتكيف الشخصي:

التغير والإحباط عمليتان قاسيتان وعلى الرغم من ذلك فإن معظم الناس يعرفون كيف يتعاملون معهما. إحدى الجماعات التي تجد من الصعب التعامل مع هذه الإحباطات والتغيرات هي الجماعات التي تتكون من أفراد ذي خلل نفسي. ويحدث بعض هذا الخلل النفسي من خلال الوراثة، أو من خلال البيئة غير الملائمة، أو من خلال المرض والاصابة التي قد تكون قد حدثت قبل الولادة، وقد تكون سوء التغذية سواء قبل أو بعد الولادة هي السبب في هذا الخلل. ويذهب بعض الأطباء إلى أن النقص أو الخلل في بروتينات طعام الأم قد يقف حائلاً دون التطور الكامل لمخ الطفل غير المولود ويحدد بذلك مقدراته على التعلم وعلى تطوير ذكائه بعد الولادة. حالات أخرى تقود الفرد إلى التطرف

في سوء التكيف هي داء النسيان والتي تشمل جميع الأمراض النفسية. وندعو ذلك الجزء من الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية والتي لا تكون طبيعتها شديدة بالعصاب (Neuroses).

أ ـ الخلل العقلي:

الخلل العقلي مرض يعاني منه بعض الأفراد في المجتمع وعلينا أن نتعامل مع هذه الظاهرة كمرض وليس كشذوذ أو كسلوك شاذ. ففي جميع المجتمعات تتنوع الأفراد وتختلف بالذكاء، وقد قاد ضعف الذكاء عند بعض الأفراد في كثير من المجتمعات إلى ضعف تكيفهم بالبيئة الحضارية، لكن الجهود المترتبة لتعريف الذكاء والخصائص العقلية الأخرى عند الإنسان لم تنشط إلا في العقود الأخيرة.

ب ـ الاختبارات العقلية:

الهدف من هذه الاختبارات هو قياس الخصائص العقلية، وقد وصف أحد هذه الاختبارات منذ القديم في الأساطير الإغريقية. يقال أن أحد الإغريق المدعو «أوليس» (Ulysses) لم يعير اهتماماً لنداء الحكومة بحمل السلاح أثناء حرب التروجان. فأرسلت السلطات من يزوره فوجده على ساحل البحر يحرث الرمل ويبذر الملح. فقررت السلطات اختبار جنونه، وأرسلت من جاء بابنه الوحيد ووضعوه أمام حصان الحراثة وعندما رآه أوليس أدار وجهه بدلاً من أن ينقذه وقررت السلطات بعد هذا الاختبار أن أوليس معتوه.

ترتكز الاختبارات العقلية في الوقت الحاضر على الفرضية بأن الباحث يستطيع التنبؤ بردود فعل الفرد في حالات متنوعة من خلال إعطائه اختبارات أعدت مسبقاً وتشمل على حالات متشابهة. إضافة إلى ذلك فهناك الافتراض بأن هذه الاختبارات قادرة أن تقيس مقدرات الفرد مقارنة بالآخرين عن طريق تعريضه إلى عينات متنوعة من الحالات الكثيرة.

يستعمل علماء النفس أنواعاً متعددة من الاختبارات التي تحـدد الخصائص التي يملكها الفرد. أحد هذه الاختبارات مختص بقياس المقدرة الذكائية العامة، ويدعى اختبار الذكاء. ونوع آخر باكتشاف الاهتمامات الأولية للفرد من خلال إعطائه أنواعاً مختلفة من الاختبارات الفرضية والطلب منه التعبير عما يفضله، ونوع ثالث لقياس مقدرات الفرد للقيام بأنواع معينة من العمل... وفي علم النفس أنواع كثيرة من اختبارات القياس، وقد صممت جميعاً لتستعمل في العيادات لتشخيص قوة ومقدرات الفرد كما توجد هذه في أي مرحلة من مراحل تطوره. وبناء على هذه الاختبارات يحاول علماء النفس أن يتعلموا شيئاً عن مشاكل الفرد النفسية والعقلية. بناء على هذا العلم يحاولون تحديد السبل التي يجب اتباعها في مساعدة هذا الفرد للتغلب على المصاعب التي تواجهه.

كان الباحثون في الماضي يعتقدون أنهم صمموا اختبارات لقياس المقدرات العقلية الكامنة أو الموروثة عند الفرد وليس لقياس المعرفة المكتسبة. ولذلك اعتقدوا أيضاً أن النتائج التي يسجلها الفرد لا يمكن أن تتأثر باختلافات البيئة العادية.

وعلى أية حال فقد أثبتت التجارب أن هذا الافتراض خاطيء وأن تأثير بيئة العائلة والمدرسة على الاجابات التي يعطيها الفرد لأسئلة الاختبارات كبيرة جداً أو أنها تأثيرات جوهرية. ظهرت هذه التأثيرات من التجارب التي أجريت على فئات كثيرة من الأفراد حتى أن التوأم إذا ما فصلنا أفراده وربينا كلاً منهم في بيئة معينة ثم أجرينا عليهم التجربة فسوف نجد أن فرد التوأم الذي تربى في محيط اجتماعي عال سوف يحصل على علامات أعلى من أخيه الذي تربى في محيط اجتماعي مختلف.

وذهب بعض علماء الاجتماع في الأونة الأخيرة إلى أن الاختبارات الثابتة وبخاصة اختبار الذكاء خاطئة بناء على أسس عنصرية، ويتعلق هذا الخطأ بالبيئة التي ينشأ فيها الفرد. فالطفل الذي ينشأ في قرية نائية قد لا يعرف اسم عاصمة

اليونان بينما ابن الشميساني يعرف ذلك. كذلك فابن الأسود الذي يعيش في الأحياء الفقيرة من نيويورك قد لا يعرف اسم عاصمة بولندا بينما يعرفها ابن عائلة من الطبقة المتوسطة في المدينة، إلا أن نقص معلوماته هذا لا يعني أنه أقل ذكاءاً من الفرد الآخر الذي حصل على هذه المعلومات لكن بعض علماء النفس ينكرون ذلك ويذهبون إلى أن المعرفة من هذا النوع ليست موضوع الاختبارات.

ما يمكن أن نستنتجه من هذه الدراسات هو أن الأجوبة على أسئلة الاختبارات الذكائية حصيلة معرفة تجربية كما أنها حصيلة مقدرات عقلية موروثة أو وراثية. وحيث تتشابه البيئات الاجتماعية فإن نتائج اختبارات الذكاء تفصح عن اختلافات وراثية لكن علينا أن نكون حذرين ونحسب حساب لاختلاف البيئة الواحدة حتى للإخوان.

الذكاء أحد المواضيع المهمة جداً في علم النفس وربما أهم مواضيع هذا العلم. كذلك فإن قياس الذكاء مهم في مجالات كثيرة من مجالات الحياة، وفي الدول المتطورة نجد أن هذه الاختبارات تطبق في عدة حالات مثل تعيين الأفراد في الوظائف وإدخال الطلاب في المدرسة... الخ. ويبدو أن للذكاء مستويات وهذه المستويات أشبه ما يكون بمستويات مراحل عمرية أو مراحل نضج. لذلك نجد علماء النفس يفصلون بين ما يدعى العمر الحقيقي والعمر العقلي. ما يهم علماء النفس هو العمر العقلي وليس العمر الحقيقي. ويقاس مستوى الذكاء عادة عن طريق قسمة العمر العقلي على العمر الزمني وضرب الناتج بمائة.

والمهم في هذا المجال هو أن نشرح كيفية تحديد العمر العقلي في علم النفس.

١٢ ـ العمر العقلي ومعدل الذكاء (IQ):

لتقدير العمر العقلي قام العالمان سيمون وبننت في وضع اختبار يتكون من متنوعة من الأغراض ورتبوا هذه الأغراض من البسيط إلى المقعد ورتبوها كذلك حسب صعوبتها، ثم جربا هذا الاختبار على عدد كبير من الأطفال في صفوف

مدرسية مختلفة. بناء على التجربة عيّن الباحثان قيمة عمرية عقلية لكل غرض. كانت الطريقة التي اتبعاها كما يلي: افرض أن اختباراً ما أعطي لأفراد في السنة العمرية الحقيقية الثامنة. فإذا أجاب على الاختبار بين ٦٥٪ - ٧٥٪ من مجموعة الطلبة إجابة سليمة وأن نسبة صغيرة أخرى أجابت على هذا الاختبار إجابة سليمة في حين كان أفرادها أقل من هذا العمر فإن الغرض يعيّن للسن الثامنة، واعتبراه اختباراً لفئة الذكاء العمرية من السن الثامنة. بعدها يجمعون عينة من الأغراض المتشابهة في الصعوبة (وعادة ما تكون هذه خمسة أغراض) ليختبروا أطفالاً من أعمار مختلفة. فإذا ما استطاع طفل الإجابة على جميع المستويات وعلى الأسئلة المعينة للسن الثامنة ولكنه لم يستطع الاستجابة لأخرى معينة للفئات العمرية الأعلى عندها يعتبر أن عمره الذكائي ثمان سنوات بغض النظر عن عمره الزمني. لكن افرض أنه أجاب على أسئلة الاختبار المعين لابن التسع سنوات من العمر الذكائي فإنه يحصل على علامات الأجوبة الصحيحة في الاختبار. افرض مثلاً أنه أجاب على ثلاثة أسئلة من خمسة لهذا لعمر إجابة جيدة وأجاب على جميع الأسئلة في الاختبار المعين للعمر الثامنة ذكائياً فإن عمره الذكائي سوف يعتبر ٨,٦. فإذا ما استطاع هذا الطفل الإجابة على سؤالين من الاختبار المعين للسن الذكائي العاشر فإن عمره الذكائي يتقرر ٩ سنوات.

بعد ذلك جاء علماء نفس آخرون وطوروا تقنية العالم بننت وجعلوا من كل سنة عمرية أو ذكائية اثني عشر شهراً ذكائياً. أصبح كل غرض عقلي يمثل شهرين عقليين بحيث أن ستة أغراض تمثل السنة الذكائية أو العقلية. فبدلاً أن يأخذ المبحوث علامات على كل غرض ذكائي أصبح يأخذ أو يعين له شهران ذكائيان لكل إجابة صحيحة.

عندما يعين العمر الذكائي تبقى خطوة واحدة للوصول إلى تعيين مستوى الذكاء من خلال تقسيم العمر الذكائي على العمر الزمني وضرب الحاصل بمائة. يفيد ضرب الحاصل بمائة بتعيين الكسور العشرية في المستوى، وبما أن هذه

لمستويات لا تعرف الكسور العشرية، فقد أصبح العدد مائة يعتبر متوسطاً للذكاء. فلو فرضنا أن ابن ثمان سنين ذكائياً كان في السن الثامنة فإن درجة ذكائه تكون ٨/٨ × ١٠٠ = ١٠٠ وهو متوسط الذكاء. ويشار إلى عامل الذكاء بالأحرف (I Q) وهي اختصار للكلمتين ذكاء (Intelligence) وعامل (Quotient) أو (Intelligence Quotient). أما في الوقت الحاضر فقد أخذ المختصون باستعمال النسب المئوية في حساب عامل الذكاء وبخاصة في الاختبارات المستعملة للدخول في المدارس والصفوف المختلفة. وأهم هذه الاختبارات هو اختبار المقدرة المدرسية (Scholastic Aptitude Test).

تشير الاختبارات العقلية إلى أن هناك اختلافات كبيرة في ذكاء أفراد المجتمع. وعلى الرغم من أن هذه الاختبارات ساعدت كثيراً في فهم المستويات الذكائية وأصبحت تستعمل في جميع مجالات الحياة الاجتماعية مثل الوظائف الحكومية والجيش والأعمال والمدرسة إلا أنها تجابه الكثير من النقد. وعلى كل حال فإن هذه الاختبارات ما زالت أنجح وسيلة للمقارنة بين القوى العقلية لأعداد كبيرة من الأفراد.

وقد تكون هذه الاختبارات أكثر فائدة إذا ما راعينا محدداتها. هذه الاختبارات قادرة أن تقول لنا شيئاً حول متوسط ذكاء الفرد في حين الاختبار إلا أنها لا تستطيع أن تقول لنا شيئاً عن مقدرات الفرد العقلية الموروثة. وربما يكون أهم محدد لاستعمال هذه الاختبارات نابعاً من طبيعة المفهوم (ذكاء) بحيث أن المختصين بعلم النفس غير قادرين على الإلمام بمدخلات هذا المفهوم ووضعها موضع الاختبار. ويبقى السؤال دائماً حول إمكانية تعريف مفهوم الذكاء بكل دقة وإذا ما كنا قادرين على تحديد متوسط ذكاء الأفراد وبخاصة في مستويات عليا بمثل هذه الدقة المطلوبة. وربما يكون أحسن تعريف لمفهوم الذكاء هو مقدرة الفرد لفهم الحالة التي يتواجد فيها أو يصطدم معها في محيطه، ويكون قادراً على التكيف بها من حيث أن التكيف يعتمد على التعلم والتفكير. والشخص الأكثر ذكاءاً هو الشخص الذي يكون قادراً على القيام بما يلي:

١ ـ أن يدرك الحالة ككل وليس جزئياً أو ناقصة.
٢ ـ أن يتعلم بسرعة.
٣ ـ أن يركز تفكيره وتعليمه في اتجاه معين.
٤ ـ أن يجد حلولاً كافية لمشاكله سواء بمساعدة الآخرين أو دون ذلك.

وربما يتطلب الذكاء العالي خيالاً واسعاً وأصالة لأن حل المشاكل الصعبة يتطلب من الفرد أن يفكر وأن يقيّم عدداً من المبادرات الجديدة.

ويذهب بعضهم (بعض الناس) إلى الافتراض بأن المقدرات العقلية المطلوبة للإجابة على أسئلة اختبارات الذكاء هي نفس المقدرات التي يحتاجها الفرد لحل المشاكل المعقدة التي تواجهه في حياته اليومية. هذا افتراض خاطىء بسبب محددات اختبار الذكاء. من هذه المحددات أن الاختبار يجب أن يتم في وقت محدد بناء على النظرية التي تقول أن هذا المحدد يجعل نتائج الفرد في الاختبار أكثر قابلية للمقارنة. غير أننا نعرف أن بعض أكبر النجاحات في العالم قد حدثت من خلال التفكير البطيء وليس من خلال التفكير السريع ذلك أن التفكير البطيء يتيح الفرصة للباحث أو المفكر أن ينظر في دقائق الأمور. إضافة إلى ذلك فإن إطلاق خيال وعقل الفرد لغاية ما وإعطائه الوقت للبحث عن الجوانب غير الممكنة للحالة ليس إلا نوعاً واحداً من الذكاء أو السلوك الذكي وهو جانب مهم للأصالة والحيوية.

كذلك ذهب بعض علماء النفس أن هذه الاختبارات تقيس المقدرات العقلية الكامنة عند الفرد وأن هذه لا تتغير بغض النظر عن مستوى التعليم والعمر. إلا أن هذا القول قد رفض الآن لأنه لو أخذنا هذا الاختبار لأفراد أكملوا التوجيهي قبل عشرين عاماً فإنهم سوف يجيبون بناء على ما تعلموه خلال هذه الفترة الزمنية. وعلينا أن لا ننسى أن في المجتمع أفراداً مبدعون وذكائهم خارق. ولكن معظم الناس في متوسط الذكاء أو في فئات الذكاء بين ١٢٩ و ٩٠ ـ.

١٣ ـ معالجة الخلل العقلي :

عولج الخلل العقلي خلال التاريخ بطرق مختلفة ومتنوعة. فبعض الأحيان كان الناس يتركون ذا الخلل العقلي ويهجرونه حتى يموت، أو يتركونه يتجول كيف ما أراد، أو كانوا يعزون إليه بعض الخرافات (أن الجن تلبّسه أو غير ذلك). أما في العصر الحالي فقد أوجد العلم والمنهج الإنساني الحديث طرقاً جديدة لفهم أصحاب هذا السلوك ومعالجتهم.

وتعتمد معالجة مثل هذه الحالات على :

١ ـ ما تكون عائلة صاحب هذا الخلل مستعدة وقادرة أن تفعله من أجل مثل هذا الفرد.

٢ ـ ما تسمح به وما لا تسمح به الجماعة المحلية للتخلف العقلي.

٣ ـ درجة الخلل العقلي للفرد التي تقرها الاختبارات.

٤ ـ الخصائص الأخرى لشخصية المتخلف عقلياً.

بناء على هذه الأسس وبخاصة الاختبارات الذكائية يرتب هؤلاء الأفراد إلى فئات ويعالجون حسب درجة التخلف. فبعضهم يوضع في صفوف خاصة وبعضهم يرسل إلى مؤسسات خاصة. عندنا في الأردن عدد لا بأس به من هؤلاء وقد أقامت الحكومة مراكز لمثل هؤلاء المعوقين في مناطق مختلفة إلا أن هذه المراكز ما زالت في طور التكوين ولم تجهز بالقدرات البشرية الكافية. وما زال مثل هذا العمل مع المعوقين عقلياً في الأردن بحاجة إلى دراسات وجهود كبيرة.

١٤ ـ مشكلة السلوك الذهاني :

«الخبل أو البلاهة» (Amentia) تعني النقص في الذكاء أو ضعف العقلية و«العتاة أو فقدان الذاكرة» وتعني داء النسيان أو ضياع أو فقدان الذكاء وهي أسماء أخرى لتلك الأمراض العقلية التي يدعوها علماء النفس والطب النفسي «مرض الذهان» (من الذهن أو العقل). وينطبق ضعف العقلية على الأفراد الذين

لم يطوروا أي نوع من الذكاء. غير أن أمراض الذهان تصيب الأفراد الذين كانوا قد تطوروا عقلياً كباقي الأفراد في المجتمع. ولكن فقدان الذكاء لا يشكل عارضاً رئيسياً لمرض الذهان. والتغيرات في التكيف العاطفي دارجة أكثر في المجتمع. الحياة العاطفية للمصاب بالذهان تكون شديدة الاضطراب والتفكك فهو إما أن يظهر عاطفة متأججة أو أن لا يظهرها على الاطلاق. أما الأعراض الأخرى فهي الهذيان والوهم.

نعني بالوهم هنا معتقدات لا علاقة لها بالواقع أو لا تتناسق مع الحقيقة. والهذيان هو خلل في الإدراك. وجميعها تنشأ من الداخل، إذا ما صح القول، وقد تؤثر على الحواس: الرؤيا والسمع واللمس والذوق أو الشم. ونستطيع التمييز بين الوهم والهذيان بطريقة أخرى: فالوهم هو فكرة خاطئة كأن يعتقد فرد ما أنه معاوية بن سفيان أو الدكتور الذي يسكن قريباً منه. والهذيان رؤية خاطئة كأن ترى فيلة صفراء بينما لا توجد فيلة قط. وفي كل من الوهم والهذيان يعيش الإنسان في حالات خيالية ويكون الفرد مبعثر الأفكار وينتقصه الاهتمام بالحقيقة أو الواقع والاتصال بها.

١٥ ـ أنواع السلوك الذهاني:

يميز العلماء النفسيون وعلماء الطب النفسي بين نوعين من الأمراض العقلية: العضوي والوظيفي. المرض الذهاني العضوي يكون نتيجة لعطل أو خلل في أنسجة أو كيميائيات الخلايا الحية للمخ. مثل ذلك هو الذهان نتيجة لمرض السيفليس والذي يؤدي إلى تسميم وتغيرات في الغدد الصماء أو عن الكحوليات أو نتيجة لاستعمال المخدرات. أما المرض الوظيفي فهو المرض أو حالة المرض التي لا نستطيع أن نجد فيها تغيرات في التكوين الإحيائي للفرد.

لا نستطيع هنا تسمية جميع أنواع السلوكيات الذهانية ولكن عددها كبير فقد ذكرت نشرات الجمعية الأمريكية للطب النفسي أكثر من سبعين نوعاً منها. ففي بعضها يتأرجح المصاب بين الإعجاب الشديد أو التيه أو النوبات العصبية

الشديدة أو أنه يبقى مدة من الزمن في كل منها. وفي بعضها الآخر يتطور تدهور الشخصية وازدياد في عدم الاكتراث وفقدان الاهتمام بالعالم وانسحاب من الصلات بالعالم. وفي حالات أخرى يعيش الإنسان في ويطوّر الوهم بأنه مطارد أو أنه شيء كبير جداً. وكثيراً ما ينزلق الذهانيون في حديث لا معنى له وسلوك شاذ ويصبحون في بعض الأحيان عدوانيين ويشكلون خطراً على الآخرين.

١٦ ـ معالجة مصابي الأمراض الذهانية:

العلاجات التي أمكن اكتشافها تتعلق جميعاً بالذهان العضوي، مثل الشلل العام الذي قد ينتج عن السيفليس فقد عولج من خلال البنسلين، وكذلك عولجت بعض الأنواع عندما عرفت علتها.

فلم يقدر العلماء على اكتشاف أدوية ثابتة وتعتمد احتمالية وجود علاجات لها بالتأكيد على استعمالها العضوية وإلا بقيت صعبة. إلا أن هناك تقدماً في اكتشاف طرق للعلاج وصلت إلى جراحة الدماغ وكانت ناجحة في بعض الأحيان. كذلك فقد أدى استعمال أشعة ليزر في العمليات الطبية إلى بعض الأمل في علاج بعض هذه الأمراض. أما العلاجات النفسية فتتكون من عدة إستراتيجيات أهمها اثنين:

١ ـ محاولة علم النفس أن يكسر الحاجز الذي بناه المريض لنفسه ليحتمي به وتحطيم الإجهاد عند المريض.

٢ ـ محاولة المعالج أن يعيد بناء الشعور بالكفاءة الذاتية عند المصاب.

وتشمل بعض طرق المعالجة:

- المعالجة الموجهة: طرح الأسئلة على المصاب ومحاولة الوصول إلى مجال الصراع.
- المعالجة غير الموجهة: حيث يقوم المعالج بترداد ما يقوله المصاب ليساعده على أخذ حريته بالتفكير.

ـ المعالجة السلوكية: بحيث يستعمل المعالج طريقة الثواب والعقاب ليركز على سلوك المريض المباشر.

ـ المعالجة الجمعية: يستعمل المعالج بعض الأحيان طريقة تجميع الأفراد في مجموعات بحيث يتحدثون عن مشاكلهم بكل حرية ويساعدون المريض أن يناقش مشاكله بكل حرية أيضاً.

ـ المعالجة الاجتماعية الحضارية: حيث يحاول المعالج تغيير طريقة حياة المريض من خلال دعم أفراد العائلة.

ـ المسرح النفسي: إعطاء المريض أدوار ليمثلها مثل دور الأب أو الأم أو صاحب العمل لفهم أسباب الإحباط.

ـ المعالجة بالمخدرات العضوية: يستعمل هذه الطريقة فقط الأطباء النفسيين (الذين يملكون رخص طبية) وهم يعطون مخدرات للمريض أو مواد مضادة للإحباط لتغيير الحالة النفسية للفرد.

إلا أن استعمال هذه المخدرات له أخطار كثيرة ويخضع لقانون المخدرات في معظم بلدان العالم. وقد تفشى استعمال المخدرات في البلدان المتقدمة إلى درجة كبيرة بحيث أصبح المريض لا يحتاج أن يذهب إلى الطبيب فهو يشتريها في السوق السوداء. ولذلك فقد أصبحت المخدرات من أهم المشكلات التي تعاني منها المجتمعات الغربية.

هذه أمثلة على بعض اختصاصات علم النفس. ولكي يكون مختص علم النفس قادراً على التعامل مع هذه الظواهر فإن دراساته تشمل قاعدة واسعة من الموضوعات تتطلب منه في كثير من الأحيان دراسة الأساسيات العضوية للإنسان مثل الجهاز العصبي والمخيخ والنخاع الشوكي والغدد المتنوعة (وبخاصة الغدد الصماء) والوراثة الطبيعية والصحة العامة.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل الخامس:

١ ـ هل يتحكم الإنسان بالحضارة أو تتحكم الحضارة بالإنسان؟ اشرح.
٢ ـ ما هي المراحل الأربعة التي طورها العالم بياجيه؟
٣ ـ اشرح لماذا يمكن أن يختلف نفس المحيط الاجتماعي على شخصين تربيا فيه في نفس الوقت؟
٤ ـ كيف تتوقع أن يختلف الطفل الذي ينمو في عزلة تامة عن الإنسان العادي؟
٥ ـ ما هي الأشياء الأربعة التي يحمل الطفل آثارها؟
٦ ـ ما هو الأهم في نمو الشخصية البيئة أم الوراثة؟ اشرح العلاقة بينهما؟
٧ ـ كيف يساعد التشجيع والدعم السلبي والإيجابي في نمو الطفل حسب رأي العالم سكنّر؟
٨ ـ ما هي المستويات الخمسة للتحصيل الإنساني عند ماسلوف؟
٩ ـ ما الفرق بين التكيف الجيد وما هو عادي؟
١٠ ـ اشرح نظرية فرويد في بناء الشخصية؟
١١ ـ اشرح عقدة الأوديب؟
١٢ ـ ما هي الأسباب الممكنة التي تقف حائلاً دون التكيف الاجتماعي الجيد؟
١٣ ـ اشرح ماذا نعني بالعمر العقلي وكيف تحددها من خلال الاختبارات العقلية أو الذكائية؟
١٤ ـ ما هي أهمية عامل الذكاء عند الفرد؟
١٥ ـ ما هو الذكاء؟
١٦ ـ ماذا يمكن أن نفعل لمساعدة الفرد ذي الخلل العقلي؟
١٧ ـ ميز بين الذهان العضوي والوظيفي؟
١٨ ـ ما هي الطرق المستعملة في بحوث علم النفس؟

المفاهيم المستعملة في الفصل الخامس:

ـ الشخصية	Personality
ـ الأطفال الوحشيون	Feral Children
ـ غرائز	Drives
ـ الدعم الإيجابي	Positive Reinforcement
ـ الدعم السلبي	Negative Reinforcement
ـ الوراثة	Heredity
ـ نقاش الطبيعتين	Nature / Nature Debate
ـ سلم ماسلوف	Maslow's Hierarchy
ـ إثبات الذات	Self Actualisation
ـ التحليل النفسي	Psychoanalysis
ـ الذات	Id
ـ الأنا	Ego
ـ الذات العليا	Superego
ـ عامل الذكاء	IQ
ـ ذكاء	Intelligence

قائمة المراجع:

١ ـ راجح، أحمد عزت. أصول علم النفس. (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٥).

٢ ـ ربيع محمد شحاتة. تاريخ علم النفس ومدارسه. (القاهرة: دار الصحوة ١٩٨٦).

٣ ـ سليمان، شاكر عبد الحميد، ومحمد نجيب الصرايرة ورفاقهما. علم النفس العام. (القاهرة مكتبة غريب، ط ٣، ١٩٩٠).

٤ ـ سويف، مصطفى. نحن والعلوم الإنسانية. (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨).

٥ ـ نجاتي ، محمد عثمان . علم النفس في حياتنا اليومية. (الكويت: دار القلم، ط ١٠؛ ١٩٨٤).

6 - Rozen,P. **Freud and His Followers.** (New York: New American Library, 1975).

7 - Singh, J. A. L R. M. Singh. **Wolf Children and Feral Man.** (New York: Harper & Row 1942).

8 - Skinner, B. F. **About Behaviorism.** (New York: Random House 1976).

9 - Malcolm, Jannet. **Psychoanalysis: The Impossible** Proffession . (New York: Knopf 1981).

الفصل السادس

مدخل إلى
علم النفس الاجتماعي

د. مهنا حداد

مدخل الى علم النفس الاجتماعي

كـان كنـدي في الحقيقـة أطـول من نكسـون
بعض أنشات فقط
هيلجارد. . . (١٩٧٥ : ٥٣١)

١ ـ مقدمة :

يبحث علم النفس الاجتماعي بتأثير المجتمع والأفراد والأحوال على سلوك الإنسان، وهو يهتم بمحاولة فهم وتفسير تأثيـر وجود الآخـرين على سلوك الأفراد وشعورهم وأفكارهم سواء كان وجود الآخرين وجوداً فعلياً، خيـالياً أو مستقـراً من تأثيرات معينـة (عقل، ١٩٨٥). محـور علم النفس الاجتماعي إذاً هـو كيف يؤثر الناس على بعضهم بعضاً وبخاصة الجماعة وما ينتج عنها على الفرد والجمـاعة. مثـل هـذا التـأثيـر يشمـل التكيف والـطاعـة (الانصيـاغ) والإقنـاع والاتجـاهـات والمعتقدات وجميعها تمارس تأثيرات واضحة في عمليات التفاعل الاجتماعي.

لا يعني هـذا أن علـم النفس الاجتمـاعي لا يهتم بتـأثيـر العـوامـل غيـر الاجتماعية على سلوك الأفراد، فهو يهتم بحوادث البيئة الطبيعية والمنـاخ وغيرهـا على سلوك الأفراد. كما إنه يهتم بتأثير الوراثة والأحوال الاقتصـادية وغيـرها على هذا السلوك.

إذا كـان هـذا التعـريف يعتمـد على دراسـة السلوك ذاتـه فمن الممكن أن

تعرّف هذا العلم من زاوية أخرى أي من خلال التفسيرات التي يقدمها هذا العلم للسلوك الاجتماعي. هذه التفسيرات في علم النفس الاجتماعي نجدها على ثلاث مستويات:

المستوى الأول: هو المستوى الإحيائي: العرق، الجنس أو المستوى الجماعي. بعض الشعوب أكثر عدائية من أخرى، وبعض الحضارات أكثر عنفاً من غيرها.

المستوى الثاني: هو المستوى الفردي: فخصائص بعض الأفراد البيولوجية والوراثية تؤثر في سلوكاتهم، فالذكر أكثر عنفاً من المرأة. كذلك فالبيئة التي كان الفرد ينتمي إليها تؤثر على سلوكاته، كما تفعل ذلك الحالة التي يوجد فيها الفرد سواء كانت هذه عاطفية أم اجتماعية أو غير ذلك.

المستوى الثالث: يتكون من متغيرات أخرى كعوامل مؤثرة مثل الدوافع، ومستوى الذكاء وخصائص الشخصية، والمعتقدات والاتجاهات، والنظريات التي يعتنقها الفرد، والأحوال العاطفية. والبحوث المعرفية تهتم بالأفكار والمشاعر والسلوكات الاجتماعية. كذلك فإن البحوث حول الاجتذاب والنفور والمحبة والكراهية هي صلب علم النفس الاجتماعي. كل هذه نجدها في خانة الأنا. وكما نعرف أن هذه من خصائص الذات والتي تنقسم إلى قسمين الأنا الفاعلة والأنا الموضوع: الأنا الموضوع هي التي تستخدمها كموضوع للبحث وجمع المعرفة بما في ذلك الأفكار والاتجاهات، بينما الأنا الفاعلة هي التي تأخذ القرارات وتقوم بالأفعال وهي أيضاً تيار الوعي المستمر عند الإنسان. وتعتبر هذه الذات الفاعلة أو الأنا الفاعلة عملية مستمرة تعود باستمرار لتؤثر على مستويات التفسير الأخرى.

ما الذي يميز علم النفس الاجتماعي عن غيره من العلوم الاجتماعية؟ أهم هذه العوامل التي يتميز بها علم النفس الاجتماعي هو أنه يركز على الفرد وسلوكه الاجتماعي وليس على الجماعة. كذلك فإن طرق البحث المستخدمة في علم

النفس الاجتماعي مختلفة في نوع المعلومات التي نبحث عنها، فعلم النفس الاجتماعي علم تجريبي وشبه تجريبي ويبحث عن ارتباطات، علماً بأنه يركز على السلوك الاجتماعي للفرد أو الأفراد وكذلك فإن تطبيقات علم النفس الاجتماعي مختلفة في طريقة تطبيق النظرية.

٢ ـ بعض نظريات علم النفس الاجتماعي:

تقدم نظريات علم النفس الاجتماعي طرقاً منظمة ومرتبة لتفسير السلوك الاجتماعي والتنبؤ به. فالنظرية المفيدة تحتوي على مجموعة متماسكة من المفاهيم والمباديء الأولية تسمح بالقيام بتنبوءات مفصلة عن نوع معين من السلوك الاجتماعي. كذلك فإن النظرية في علم النفس الاجتماعي تساعد الباحث في تنظيم المعلومات التي يجمعها وتساعده كذلك في إضفاء معنى للمكتشفات الميدانية الكثيرة والمتنوعة التي يصل إليها. والنظرية في هذا العلم تساعد في الوصول إلى أو اقتراح فرضيات جديدة للباحث والاتجاهات التي يجب أن نبحث فيها. وأهم النظريات المستخدمة في هذا العلم:

أ ـ نظريات التعلم: مثل هذه النظريات لها محتويات متنوعة وهي تبحث في أشياء بسيطة تحدث عند جميع الناس ويمكن تطبيقها على أنواع مختلفة من السلوك الاجتماعي، لماذا يكره الطلبة المعلم؟ أو يحبوه؟ وقد استخدمت البحوث في هذه المواضيع لتفسير تكوين الاتجاهات وتغيرها، ثم جوانب الأخلاق والاجتذاب، وآثار الجماعة على قيام الفرد بعمله.

ب ـ نظريات الثبات المعرفي: تقوم هذه النظريات على أن الإنسان يطمح دائماً أن تكون له أفكار ثابتة (أي معتقدات واتجاهات ومشاعر). وربما أن أشهر نظريتين بين هذه النظريات هما: نظرية فستنجر بغياب التماثل المعرفي (فستنجر ١٩٥٧) ونظرية هايدر في التوازن (١٩٤٦، ١٩٥٨). تقول نظرية غياب التماثل أو نظرية التنافر المعرفي إن الإنسان عندما تكون له أفكار غير ثابتة، يمر

بحالة واقعية غير مرضية وقد تقود هذه في بعض الظروف إلى تغير في الاتجاهات التي كان قد كونها.

أما نظرية التوازن فإنها تركز على ثبات أو عدم ثبات الإنسان في ما يرغب أو لا يرغب به. وبعض أنماط الحب والكراهية متوازنة. الجانب المعرفي في هذه النظرية أنها تركز على التمثيل النفسي للمعتقدات والاتجاهات. وجميع هذه النظريات في الدافعية عندنا تبين أن الحالات النفسية غير المريحة يجب أن تحل عندما يكون الإنسان غير ثابت فيما يرغب وما لا يرغب.

جـ ـ نظريات العزو وغيرها من النظريات التي تخدم تفعيل المعلومات المعرفية: تدور هذه النظريات حول السؤال لماذا يتصرف الناس بالطريقة التي يتصرفون بها ونريد دائماً أن نعرف الأسباب الكامنة وراء السلوكات. هذا يعني أننا نعزو السلوكات إلى أهداف وعوامل، ولذلك نحن دائماً في عملية جمع معلومات وتفعيلها وترتيبها وتحليلها.

نظريات المساواة والتبادل: لا يكفي أن نفسر سلوك الفرد وعلينا أن نفهم كيف يربط الفرد ذاته بالآخرين. هذه الأمور أمور اقتصادية وتبادلية من خلال سلوك الإنسان وتفسر أيضاً الفعل الإنساني بطريقة أو بأخرى. كذلك فإن هذه النظرية (التبادل) نظرية اقتصادية وهي تبحث السلوكيات الإنسانية بمفاهيم مثل التكلفة، والربح والخسارة.

٣ ـ الفرق بين عالم النفس وعالم النفس الاجتماعي:

لقد رأينا كيف أن تطور الطفل يتأثر بتجاربه السابقة مع الناس وكيف أن الدوافع الشخصية تتأثر بالتفاعلات الاجتماعية. وبما أننا نقضي معظم حياتنا في حضور الآخرين فمن المؤكد أننا نقدر أن نقول بأن جميع ما هو نفسي هو في نفس الوقت اجتماعي. وعلى أية حال فإن منهج علم النفس الاجتماعي يختلف عن منهج علم النفس ذلك أن عالم النفس الاجتماعي ينظر إلى التأثير الاجتماعي

من منظور غير منظور الشخصية وعالمها أو منظور عالم التطور النفسي. فهو:

أ ـ ينظر إلى الحالة الموجودة وتأثيرها على السلوك الإنساني أكثر مما ينظر إلى عوامل التطور وعوامل الشخصية. فعلى سبيل المثال يرى باحث علم النفس الاجتماعي أن محمداً ترك عمله وذهب ليساعد شخصاً ما ووقع فانكسرت رجله. إذا ما أراد عالم النفس تفسير هذا الفعل فإنه سوف يسأل عن تجارب محمد السابقة في حياته التي قادته أو أدت به لأن يقوم بمثل هذا الفعل (أي أن يكون ذا شخصية مساعدة). وعلى عكس عالم النفس فإن عالم النفس الاجتماعي سوف يسأل عن الأحوال المحيطة بمحمد والتي شجعته للتدخل في مثل هذه الحالة. وسوف يطرح أسئلة مثل: هل كان هنالك آخرون في الحالة؟ هل كان في الحالة خطراً جسمياً؟ هل كان محمد سيتدخل لو أن الحادث وقع في الشميساني في عمان؟ وهكذا.

ب ـ الفرق الثاني بين علم النفس الاجتماعي وعلم النفس هو تأكيد منهج هذا العلم على فينومينولوجيا الفرد أو على رأي الفرد الخاص أو تعريفه الذاتي والعاطفي للحالة أكثر من تأكيده على بعض القياسات الموضوعية للحالات. فإذا ما تصرف فرد ما بطرق معينة لأنه أعتقد أن الآخرين معادون له ـ حتى ولو كان اعتقاده غير صحيح ـ يذهب عالم النفس الاجتماعي أن هذه الرؤية العدائية هي سبب سلوك هذا الفرد.

الموضوع الرئيسي في علم النفس الاجتماعي هي العلاقات بين الأفراد وماذا يحدد هذه العلاقات.

٤ ـ رؤية الآخرين أو إدراكهم، أو كيف يرى الفرد الفرد الآخر:

تتقابل مع إنسان وتتحدث إليه قليلاً. بعد هذه المقابلة الوجيزة تجد نفسك تصوغ أحكاماً حول شخصيته أو بعض ميزاتها. ويبدو أن الناس يكوّنون انطباعات

عن بعضهم بعضاً بناء على أقل المعلومات. فكيف تتكون هذه الانطباعات؟

أ ـ الأثر الأول والأثر المتأخر:

تدخل إلى قاعة المحاضرات ويعطيك المدرس بعض المعلومات عن شخص ما لتقرأها:

محمد شاب جميل الوجه لطيف الخلقة يطيع والديه. خرج في الصباح حاملاً كتبه إلى المدرسة وسار مع رفيقيه بهدوء. في الطريق رأى ابن الجيران فحيّاه ووقف معه يتحدث إليه بضع دقائق ثم سار إلى المدرسة. بعد المدرسة خرج محمد من الصف وحيداً وبدأ رحلته الطويلة إلى البيت وأخذ محمد في المسير على جانب الشارع المعروف. على طرف الشارع وجد محمد قهوة فذهب إليها ووقف حتى فرغ القهوجي من مساعدة الآخرين فأخذ مطلبه وجلس لوحده. وعندما فرغ من شربه خرج وذهب إلى البيت.

بعد قراءة هذا النص يسأل الأستاذ: ما رأيك بمحمد؟ سوف يجيب بعض الطلبة بأنه جيد وسوف يجيب آخرون أنه غير ذلك.

يكون الإنسان انطباعاته بناء على معلومات يحصل عليها حول الآخر وكثيراً ما تكون المعلومات الأولى هي التي تحدد نوع هذا الانطباع: جيداً كان أم رديئاً. معظم الذين يقرأون المعلومات المعطاة حول محمد سوف يقولون لأول وهلة: محمد شاب جيد. أثر المعلومات الذي يساعد على تكوين الانطباع مبدئياً ندعوه: الأثر الأول (Primacy effect). والقارئون نوعان: نوع يبدأ قراءة النص بجدية ثم تتضائل هذه الجدية. ونوع آخر يقرأ جميع المعلومات بنفس الجدية ثم يكون حكمه بناء على كلية المعلومات. هؤلاء الآخرون سوف يكونون حكماً آخر حول محمد لأن المعلومات الأخيرة تختلف عن الأولى. فمن الجملة الرابعة تبدأ

صورة محمد بالاختلاف.

لكن افرض أن هذه المعلومات لم تقدم دفعة واحدة بل على دفعتين:

الدفعة الأولى حتى يدخل محمد المدرسة ثم نتوقف عن القراءة ونتحدث عن اللغة الإنجليزية فترة من الزمن ثم نعطي الدفعة الثانية من المعلومات من الجملة «بعد المدرسة...».

أنا أظن أن بعد قراءة هذه المعلومات سوف نجد الذين يكونون صورة رديئة عن محمد أكثر من الذين سوف يكونون صورة جيدة. وهناك بعضهم سوف يحاول أن يجد حلاً وسطاً بين المعلومات الأولى والأخيرة. أثر هذه المعلومات في تصحيح الانطباع الذي تكون بناء على المعلومات الأولى ندعوه أثراً رجعياً أو متأخراً (Recency effect). ولكن معظم الناس يكونون انطباعاتهم بناء على المعلومات الأولية.

ويبدو أننا نكون هذا الانطباع ونبقى عليه بناء على المعلومات الأولى في حين نجد أن المعلومات اللاحقة إنحرافاً. وكذلك فنحن نحاول إما أن نضع علامة استفهام بناء عليها أو أننا نتجاهلها. مثل هذه الانطباعات الأولية مهمة جداً في تكوين علاقات الصداقة، وفي المقابلات للعمل والحصول على وظيفة. ففي العلاقات السطحية يبقى الانطباع الأولى مهماً جداً أما في العلاقات الطويلة الأمد فإن الأثر اللاحق يصبح مهماً.

لكن ما الذي يجذب الأفراد إلى بعضهم في لقاءاتهم؟ عندما نلتقي مع الآخرين نصطدم دائماً بسؤالين حسب نتائج البحوث التي أجريت. هل يشبهني الآخر وهل أشبه الآخر؟ وهناك عوامل عدة لعملية االجذب:

ب ـ عوامل الاجتذاب الشخصي:

١ ـ **المظهر الفيزيائي**: قامت عدة دراسات حول الجاذبيات الأولية في العلاقات بين الأفراد. وقد وجد أن المظهر الفيزيائي من أهم مظاهر الجذب على

الرغم من أن الأفراد يحاولون تجاهل ذلك في الحديث العام. وللمظهر الفيزيائي جانبان في العلاقات: العلاقات مع الجنس الآخر، والعلاقات مع أفراد من نفس الجنس. فقد وجد مثلاً أن الأفراد يتزاوجون مع أشباههم في الجاذبية الشكلية (Bershied Walster 1974) أو (Murstein 1972)، بينما كان الناس في القديم يعتبرون الصفات المعنوية للفرد أهم (Perrin, 1921) و (Miller Rivenbark 1970). كذلك وجد أن الأفراد ذي الجاذبية الفيزيائية أكثر شعبية بما في ذلك الأطفال (Dion, 1972, Bersheid Walster 1974).

٢ ـ **الكفاءة**: إن لم نكن جميعاً جميلين فعلى بعضنا أن يحصل على ما يريد عن طريق الكفاءة. أوجدت بعض الأبحاث التي قام بها (Aronson, 1972) وغيره أنه لا داعي لأن يكون صاحب أحسن الأفكار في المجتمع أكثرهم شعبية. فقد أوجدت الاستمارة بعد فشل عملية خليج كوبا أن الرئيس كندي قد حصل على تقدير شعبي أوسع مما كان له قبل ذلك. وربما يكون السبب في ذلك أنه بعد عمل خطأ كما حصل مع الرئيس كندي أن الناس يجدون أنه أصبح إنساناً مثلهم ومن هنا يزيد إعجابهم. وقد اختبرت هذه الفرضية أكثر من مرة وثبتت صحتها (Helmreich et al 1970). غير أن الكفاءة كما يبدو ليست كافية لنيل الإعجاب بل هي بحاجة إلى عامل مساعد.

٣ ـ **التشابه**: ولكن هل نحبذ من يشبهنا أو من يختلف عنّا؟ هناك الكثير من الحقائق تشير إلى تفضيل من يشاركنا آراءنا ومعتقداتنا وطريقة حياتنا كما بينت أبحاث (Byrne, 1971 Newcomb, 1961) غير أننا قابلين لأن ننسى بأننا نتشابه مع آخرين في التعليم والطبقة الاجتماعية والدين وغير ذلك. وتوضح جميع الأبحاث أن الجاذبية مرتبطة بالتشابه في مختلف الجوانب المعيشية. وكثيراً ما يقال أن الأقطاب المختلفة تتجاذب ولكن هذا يبدو صحيحاً في حالة إشباع الحاجات الأولية بمعنى أن أفراد العلاقة يتكاملون من خلال ما يجلب كل منهم في هذه العلاقة (Wnich, 1952). فقد يكون الأول ذو شخصية مسيطرة والثاني ذو شخصية خضوعية. أما في المجتمعات

الحديثة فقد نقدم الباحثان (Kerckhiff Davis 1962) بالنظرية التي تقول أن العلاقات العاطفية تمر في ثلاث فترات من التصفية: التصفية الأولى بناء على أسس اجتماعية مثل الدين والحالة الاقتصادية. والثانية، بعد أن يتفق الشخصان على بعض القيم الأولية، والثالثة، بعد فترة طويلة من التعاشر وتظهر فوائد التكامل في إشباع الحاجات.

٤ ـ **الشبه المتبادل**: إحدى العوامل التي ترغم على الإعجاب بشخص ما هو الإعجاب المتبادل. ويبدو أننا نحب الناس الذين يحبوننا ونرفض من يرفضنا.

٥ ـ **الاعتياد**: (الوجه الذي تعرفه خير من الوجه الذي لا تعرفه) هو المثل الشائع في بلادنا. غير أن هذا المثل أظهر عالمية تواجده. ففي دراسة جاذبية الأفراد لبعضهم جاء عامل الاعتياد كعامل مهم في اجتذاب الأفراد. وقد أظهرت بعض التجارب التي أقيمت على الفئران أن اعتياد الفأر على نوع من الموسيقى يجعله يحبها ويفضلها على أنواع الموسيقى الأخرى (Cross et al. 1967). كذلك أيضاً كانت النتائج التي خرج بها نيكومب، ١٩٦١ على طلاب الجامعة. فقد حاول في إحدى السنين ترك اختيار شريك في الغرفة إلى الطالب نفسه ووجد أن الطلاب اختاروا طلاباً كانوا يعرفونهم أكثر من غيرهم.

وهكذا إن لم تكن جميلاً، وكفوءاً، وكنت لا تشبه أحداً فيجب عليك أن تعمل ما في وسعك أن يعتاد عليك الآخر ومن خلال الاعتياد تجتذبه.

٥ ـ الصور الجامدة (Stereotypes) :

في إحدى الدراسات حول الجاذبية الجسمية بين الأفراد أعطي المبحوثون عدداً من الصور وكانت جميعها مختلفة وطلب منهم أن يصفوا هذه الصورة إذا ما كان الشخص المصور فيها جذاب أو غير جذاب بناء على صفات معينة للشخصية. وقد فكر الباحث أنه من الصعب إعطاء حكم على الشخص الذي في

الصورة لأن المعلومات حوله لا تتعدى الصورة. ولكنه فوجيء عندما وجد أن المبحوثين أعطوا رأيهم في الموضوع.

ويبدو أن الإنسان يقوم بهذه الأحكام حتى ولو لم يتكلم مع شخص ما أكثر من بضع دقائق. ووجد أن الإنسان الجذاب قد وصف بأنه ألطف من الإنسان غير الجذاب وأكثر إنسانية... الخ. والمبحوث يضع هذه الأوصاف حول صورة ثابتة في ذهنه أو: مجموعة من الخصائص المرتبطة ببعضها تحسب خصائص ثابتة لنوع معين من الأفراد.

ربما تعلمنا جميعاً أن هذه الصور الثابتة تعمل على اتساع الهوّة بين الجماعات وهذا صحيح لأن أفراد الجماعات تعتبر نفسها بطريقة أو بأخرى أحسن من غيرها وهذا في حد ذاته خطأ. الخطأ هنا هو أننا نستثني الإنسان الذي لا ينتمي إلى جماعاتنا من فعل الفضائل. وربما كانت أحسن طريقة لإزالة الصورة الجامدة من ذهن أفراد الجماعات هو التفاعل. غير أن التفاعل لم يقم بوظيفته حتى يقوم على أساس من المساواة، وسوف نرى كيف أن هذه الصور الثابتة باقية في المجتمع وهي تكون نوعاً من النظريات الضمنية للشخصية.

٦ ـ النظريات الضمنية للشخصية:

تكون الصور الثابتة نوعاً من النظرية المزخرفة حول الشخصية. وعلى الرغم من أننا لا نقدر الاعتماد عليها علمياً إلا أننا ننطلق منها في أغلب الأحيان وجميعنا يملك مجموعة من الفرضيات المسبقة الصياغة حول الخصائص والسلوكات التي تقترن به وتتماشى مع خصائص وسلوكات أخرى. إلا أن هذه المعلومات الأولية وقد تبقى وحتى بعد الحصول على معلومات جديدة. وفي تقصي الحقائق (في البحث) نجد أن المعلومات الجديدة هي صاحبة الأثر الفعال، أي أن الأثر الأول (Primacy effect) يعتمد في استمراريته على الأثر الثاني (Recency effect).

(أنـظر في هذا دراســة Chapman Chapman ١٩٦٩) ودراسة Newcomb ١٩٢٩).

٧ ـ عملية عزو الأسباب (Attribution):

لا أظن أنه يوجد فينا من إذا ما شاهـد سلوكاً معينـاً عند فـرد ما يحـاول أن يعزو هذا السلوك إلى أسباب معينة. صاحبك يقـوم بوليمـة ويدعـو رفيقك الآخـر لكنه لا يدعـوك، فتسأل نفسـك: لماذا لم يـدعني؟، لماذا دعى رفيقي؟ هـل له مصلحة ما؟ ربما هو ليس صاحباً لي؟ ربما يريـد أن يجنبني إحراجاً معيناً؟... الـخ. وعشرات الأسبـاب الأخرى. يحـاول الفـرد دائمـاً أن يفـرد مجمـوعـة من الأسباب لتفسير سلوك مـا. والهدف الأسـاسي لنظريـة عزو الأسبـاب (Attribution theory) هـو تبيان القـواعد التي نـريد بنـاء عليها أن نكتشف حـوافـز سلوك مـا، وكـذلك تبيـان الأخطاء التي تتـدخل في ذلـك. وقد أصبحت هـذه الدراسـة من المسائل المحورية في علـم النفس الاجتماعي.

(أنــظر دراســات Heicler ١٩٥٨، Jones وDavis ، ١٩٦٥، و Kelly ١٩٦٧). والحقيقـة هي أن عـزو الأسبـاب لا يتعلق بسلوك الآخـرين فقط إنمـا بسلوك الفـرد ذاته فكم من المـرات نقوم بـأفعال ونحـاول أن نجد الأسبـاب التي دفعتنا للقيام بهذه الأفعال.

٨ ـ الرؤية الذاتية (Self - perception) :

ليست عمليـة تقصي أسباب السلوك عنـد الآخرين عمليـة عشـوائيـة، لأن الملاحظ يراقب سلوك هذا الإنسان وبنـاء على هذه المعلومـات يحاول أن يعـزو السلوك لأسباب. كذلك نفعل مع سلوكنا الخاص. فكل منا بطريقة ما يحاول أن يجد تفسيراً لسلوكـه كما لـو أنه يـلاحظ سلوكات نفسـه كما يـلاحظهـا الغريب. وكثيراً ما نفسر حتى مواقفنا من الأشياء من خلال مراقبة السلوك الذاتي. وقد قدم لنا العالم بيم (١٩٧٠) نـظرية حـول الرؤيـة تقول أن عنـد الإنسان مشـاعر ذاتيـة ضعيفـة ومبهمة تجبـره على القيام بـدور الشخص الخـارجي في مـراقبـة سلوكـه

الخاص، وأن عليه أن يراقب سلوكه والأحوال المحيطة به لتساعـده على اكتشاف ووصف ماهية مشاعره. ولكي نصف شيئاً ما كما هو، علينـا أن نكون وصلنا إلى قناعات بأن هذا الشيء هو كذلك. وإذا ما أقنعنا طفلاً بـأن لا يلعب مع لعبة في يديه فنحن لم نقنعه بل ساعدناه على الاكتشاف بأن تلك اللعبة لا تجذبه كما كان يـظن وأنـه وصـل إلى قنـاعـة ذاتيـة أن اللعب مـع هـذه اللعبـة ليس جـذابـاً (Friedman١٩٦٥). ولكن إذا مـا هـددنـاه بـالعقـاب إذا بقي يلعب مـع اللعبـة وتركها ثم عاد إليها فهذا الطفل ما زال يؤمن بأنه أحب اللعبة.

في الحالة الأولى يكون الطفل قد ترك اللعبة من دافع ذاتي لتركهـا أو دافع التخلص (Dispositional force) أما في الحالة الثانيـة فإنـه تركهـا من خلال دافع حالي (العقاب أو الإغراء) (Situational force). ندعو الحالة الأولى عزو تخلّصي (Dispositional Attribution) والثاني عزواً حالياً (Situational Attribution).

وهنـاك كثير من الحـالات يحاول فيهـا الأهل دفـع أولادهم أن يقومـوا بمـا يريدهم الأهل أن يقوموا به من خـلال إغرائهم بـالجوائـز مثل النقـود أو الهدايـا. ويبدو أن هذه الطريقة فعالة إلى درجة ما ولكنها تفقد فعاليتها أمام اكتشاف الفـرد لدوافعه الذاتية وقناعاته الخاصة.

٩ ـ التأثير الاجتماعي:

بين المؤثـرات الكثيرة على السلوك الإنسـاني تلعب التأثيـرات الاجتماعيـة الدور الأهم. وحين نسمع بالتأثيرات الاجتماعية نفكر بـالجهود المبـرمجة للتـأثير على سلوك الأفراد في حين أن التأثيرات الاجتماعيـة لا داعي أن تكون مبـرمجة. فأقوى التأثيرات على سلوك الإنسان هو وجوده مع الإنسان الآخر في جماعات.

أول من اكتشف ظاهرة تأثير الحضور على الفرد كـان عالم النفس تـريبليت (Triplett) (١٨٩٧) الذي اكتشف أن سرعة راكبي الدراجـة الهوائيـة تزداد عنـدما يرافقه آخر ويكونـا في مسابقـة. بعد ذلـك قامت عـدة دراسات حـول الموضـوع وأثبتت صحـة ذلك (Allport ١٩٢٠ و ١٩٢٤ Harlow ١٩٣٢، James ١٩٥٣،

وغيرهم). وقد أظهرت الأبحاث اللاحقة أن وجود الناس في مثل هذه الحالات تنمّي في الفرد روح المنافسة والدافع الذاتي في أن يقيّمه الموجودون إيجابياً. غير أن الدراسات في هذا المجال لم تنتهي (أنظر دراسة Tolman ١٩٦٣، و Wilson ١٩٦٨، Murdoch ١٩٧١).

إلا أن تأثير وجود الآخرين على الفرد، كما يبدو، يعتمد إلى درجة بعيدة على تعريف الشخص لهذا التواجد، وتفسيره لما يفعل الموجودون في الحالة المعنية. هل هم منافسون أم هم هناك لتقييمه؟ والمتغيّر هنا ليس الحضور الجسمي مثل ما هو الحضور الاجتماعي ومدى تدخل الآخرين:

في عام ١٩٦٤ الساعة الثالثة والنصف ظهراً قتلت الآنسة كيني جينوفيس بجانب بيتها في مدينة نيويورك. وعلى الرغم من أن جميع الجيران سمعوا صراخها واستغاثاتها إلا أن أحداً لم يفعل شيئاً لمساعدتها حتى أن شخصاً لم يكلف نفسه بالاتصال مع الشرطة (Rosenthal ١٩٦٤). وقد كانت ردّة الفعل عنيفة في المجتمع الأمريكي فأسرع باحثوا علم النفس الاجتماعي في البحث عن أسباب هذا التخاذل. ووجدوا أن الأسباب عديدة أولها الخوف وثانيها التورط وثالثها عدم الاهتمام ورابعها أن بعضهم لا يعرفون كيف يتصرفون في هذه المفاجئات. . . الخ. وقد يقول قائل أن وجود أعداد كبيرة من الناس قد يتخطى هذه المعوقات للتدخل. غير أن البحوث وجدت «وللغرابة» أن حضور الناس هو الذي يزيد من احتمالية عدم التدخل. ويخدم حضور الناس على الأخص:

١ ـ لتعريف الحالة أنها غير اضطرارية.

٢ ـ لتعقيد مسؤولية القيام بالفعل.

أ ـ تعريف الحالة:

تبدو كثير من الحالات الاضطرارية مبهمة. هل الرجل الذي يترنح في الشارع مريض أم سكران؟ هل الدخان الذي يخرج من النافذة أثر حريق أم مجرد غاز بخار؟ هل المرأة المستغيثة فعلاً في خطر أم هل هي حالة شجار

عائلي؟ ثم هل على الفرد أن يتدخل أم لا؟ وإحدى الطرق العادية للتعامل مع هذه الأزمة هي تجاهلها وتأجيل اتخاذ أي فعل ومراقبة كيف يكون رد فعل الآخرين. وما يحدث بعد ذلك يكون تجاهل جماعي وكل فرد يحاول التغرير بالآخر. وطالما سمعنا بالجماهير التي تساعد على عدم التدخل في أمر كان يجب على أحد أن يتدخل فيه كما أظهرت لنا ذلك كثير من الأبحاث. هذا يعني أن الحضور يساعد على تعريف الحالة وكأنها ليست حالة اضطرارية كما بين بحث الباحثين (Latane و Darley١٩٦٨) حيث وجد أن الطلاب المنفردين في تجربة ما هم الذين قاموا بالإعلام عن الحريق في الغرفة المجاورة بينما هؤلاء الذين كانوا في جماعات أهملوا الموضوع ولم يخبروا عنه في الوقت المناسب. وقد كرر الباحث لاتانيه هذه التجربة مع زميله روادان (Rodin)، ١٩٦٩ ووجد نفس النتائج.

ب ـ تعقيد المسؤولية:

من الواضح أن التجاهل الجمعي يقود الأفراد إلى تعريف الحالة على أنها ليست حالة اضطرارية لأن الفرد يرى أن الآخرين لا يقومون بأي فعل. لكن هذا لا يفسر لنا حالة استغاثة تبدو واضحة كما هي الحال في حادثة كيتي والأفراد لا يرون بعضهم فجميعهم في بيوتهم ولا يقدرون الإدعاء بأنهم شاهدوا الآخرين هادئين ولم يقوموا بفعل. فماذا يفسر لما عدم التدخل؟ المسألة هنا هي عدم الوضوح في المسؤولية وتوزيعها على أكثر من فرد واحد بحيث تصبح مبهمة وكل فرد سوف يقول في نفسه: لا بد أن يكون أحد قد تدخل واتصل مع الشرطة وهكذا تضيع المسؤولية.

علينا أن نلاحظ هنا أن تعريف الحالة وضياع المسؤولية أو المتغيران اللذان يعملان على عدم التدخل هما متغيران ظاهريان، أي أنهما يشيران إلى الحالة الاضطرارية كما يراها الفرد ويفهمها من ذاته ويفسرها من معرفته الخاصة. وهكذا نرى لماذا يركز علم النفس الاجتماعي على البحث عن أسباب للسلوك

الإنساني في العالم الظاهري للفرد أكثر من بحثه عن هذه الأسباب موضوعياً أو في العالم الموضوعي.

١٠ ـ ظاهرة الإذعان وتغير المواقف:

ركزنا حتى الآن على ذلك النوع من التأثيرات الاجتماعية غير المخطط لها والتي تأتي على السليقة. فالمتفرجون والمنافسون لا يتواجدون لتسهيل أو إعاقة القيام بعمل ما. وكذلك الحضور، فلا نية مسبقة لهم في إغواء بعضاً لإهمال الحالات الاضطرارية. والحقيقة هي أن علم النفس الاجتماعي لا يدرس هذه الظواهر فقط بل يعني عناية كبرى في دراسة المحاولات الجادة لانتاج السلوك وتغيير المواقف.

كل منا يعرف أننا نستعمل جميع أنواع المغريات لنجعل الفرد يتكيف مع ويذعن للجماعة، سواء من خلال التهديد أو من خلال الهدايا والمكافئات... الخ. ويهمنا هنا بعض الأسئلة التي يطرحها علم النفس: ما هي أنواع الضغوط الاجتماعية التي توصل إلى نفس الهدف؟ كيف يستطيع المكلف بالتأثير أن يخترق ظاهرة الإذعان ويجعل الفرد يغير أفكاره واتجاهاته؟ وأخيراً ما هي التقنيات المضادة التي يمكن تطويرها لتطعيم الأفراد ضد محاولات التأثير غير المرغوب بها؟

أ ـ دراسات الإذعان (أو التكيف):

لقد أثبتت عدة دراسات على أن الضغوط التي يمارسها المجتمع على الفرد تقود إلى إذعان الفرد لإرادة الجماعة وأن التأثير الاجتماعي على الفرد قوي جداً. فقد أثبتت دراسات الباحث (Milgram ١٩٦٣، ١٩٦٤ و ١٩٦٥)، أن الضغط في التجربة يؤدي إلى الإذعان وتطبيع إجابات المبحوث للاجابات العامة والمطلوبة. وقد وجد أن درجة الطاعة تسقط في التجربة في حالات معينة وبخاصة إذا شعر المبحوث أنه مسؤول شخصياً عن سلوكه الخاص، وإذا كانت التجربة مفتوحة أو أقيمت في مكان مفتوح. غير أن التجارب التي يجريها علم

النفس تـظهر الكثيـر من القسريـة وتثير الكثيـر من التساؤلات الأخـلاقية حـولها. وعلى الرغم من أن الفرد قد يذعن تحت الضغط إلا أن هـذا الضغط قد لا يقـود إلى أية تغيرات في الآراء والاتجاهات والمواقف.

ب ـ من الإذعان إلى تغير الاتجاهات والمواقف:

هناك بعض الحالات حيث يقود الضغط على الفرد إلى المـوافقة والإذعـان ثم إلى تغيير معتقداته واتجاهاته. فما هي هذه الحالات؟

قلنا في بداية هذا الفصل أن هناك بعض الأطفال الذين يتركون اللعبة التي يلعبون معها بعد طلب الوالدين، فيتركـونها ولكن من خـلال قناعـة ذاتية أن اللعب مع هذه اللعبة غير جذاب. في مثل هذا الإذعان الذي لا يرتكز على ضغط شديد نجد أيضاً المجال لتغيير المواقف والاتجاهات. فالشرط الأول في تحصيل التغير في المواقف والاتجاهات هو المبادرة الإرادية وغير القسرية.

وقد قدم لنا ليون فستنجر (Leon Festinger) نظرية اللاإنسجـام المعرفي أو (Theory of Cognitive Dissonance) حيث يقول بعدم ثبـات اللاإنسجـام المعرفي وافتـرض أن الأفراد سـوف يجدون الـدافع للتقليـل من عدم الإنسجـام بالـطريقة الممكنة. إحدى الطرق التي يستعملها الأفراد هي اقناع الذات بأنهم يؤمنون فعلاً أن سلوكهم جيد. فهم يغيرون معتقـداتهم واتجاهـاتهم كي تتلائم مـع سلوكاتهم ويحلون بذلك مشكلة اللاإنسجام.

مثال: أقام أحد العلماء تجربة على طلاب لقياس هذا اللاإنسجـام المعرفي والتي قـام بها فستنجـر نفسه وزميله كـارل سمث (١٩٥٩). لقـد طلبـوا من كـل من الطلاب في المحاضـرة أن يذهب بعـد المحاضـرة ويعمل على واجب ممـل ومتكرر. وبعد العمل أعطى الباحثان لكـلٍّ من الطلاب دولاراً واحـداً لكي يخرج إلى غرفة الانتظار حيث ينتظر زميله دوره ويخبر هذا الزميل (المبحوث الجديد) أن الواجب كان بهيجاً وممتعاً. أما طلاب القسم الآخر فقد أعطى البـاحثان كـلاً منهم عشرين دولاراً ليقوموا بنفس العملية الإقناعية. بعد قبول النقود كان الطالب يخرج إلى

زميله المنتظر ويحاول إقناعه أن واجب التجربة ممتع. بعد التجربة قام الباحثان بطرح السؤال على جميع الطلبة: هل كان الواجب ممتعاً وإلى أي درجة؟

وكانت أجوبة الطلبة الذين استلموا دولاراً واحداً أنهم وجدوا الواجب ممتعاً وعلى عكس ذلك كان الطلاب الذين حصلوا على عشرين دولاراً. فقد وجدوا الواجب مملاً بنفس الدرجة التي وجدها طلاب جماعة الضبط في التجربة.

لو نظرنا إلى هذه التجربة لوجدنا أن الطلاب الذين حصلوا على عشرين دولاراً قد قاموا بعمل لا ينسجم مع معرفتهم للواجب وقناعاتهم حوله. ولكنه يقع في هذا التناقض من أجل النقود التي تشكل سبباً كاف لأن يقول غير ما يعتقد. فالنقود تبرر له سلوكه بحيث أنه لا يقع تحت ضغط التناقض المعرفي الذي قد يجعله يغير رأيه حول ما قاله عن الواجب. أما الطالب الذي حصل على دولار واحد فلا داعي أن يقول غير ما يعتقد من أجل هذه الكمية القليلة التافهة من النقود ولو أنه قال ما لا يعتقد لبقي في تناقض مع معرفته حتى يغير آرائه بحيث أنها تتناسب مع سلوكه. كذلك هي الحال مع الأولاد واللعبة.

١١ ـ الإقناع:

الإذعان وطرقه شائعة الاستعمال في المجتمعات الصغيرة والبسيطة وهي تقنية تقليدية. في المجتمعات الزراعية الأردنية كان الجد أو الوالد أو الأم أو الأخ الأكبر يعاقب الفرد في العائلة الذي لا يتوافق مع السلوكات السائدة في العائلة. والطريقة المستعملة على شكل واسع في المجتمع لتغيير مواقف واتجاهات وآراء الأفراد هي الإقناع. ومن هنا فإن وسيلة الإقناع من المواضيع المهمة في علم النفس الاجتماعي. وقد قام علماء النفس الاجتماعي منذ الخمسينات من هذا القرن في إجراء التجارب لاختبار الامتيازات ومدى مصداقية الذي يقوم بالإقناع. وقد وجد العلماء أن الأسئلة المطروحة للبحث معقدة بحيث أن البحوث ما زالت قائمة في مجال التجربة لاختبارها. ما يهمنا هنا من بين الأسئلة الكثيرة سؤالان.

ـ ما هو الترتيب الأكثر فعالية الذي نقدم به الحجج؟
ـ هل تأتي وجهة نظرك أولاً في الحجج أم تتركها إلى الأخير؟

أ ـ إعادة النظر في التأثير الأول والمتأخر:

قلنا في بداية هذا الفصل أن أثر المعلومات الأولى هو أهم الأثر في تكوين الانطباع الأول. أي أن المعلومات الأولى حول شخص ما هي صاحبة الوزن الثقيل في تحديد رؤيتنا (Preception) لهذا الشخص. وقلنا كذلك أن فعالية المعلومات المتأخرة لا تظهر إلا إذا أعطينا المجال للمعلومات الأولى أن تترسب، قبل أن تقدم هذه المعلومات المتأخرة. كذلك فبينما فعالية المعلومات الأولى وفعالية المعلومات المتأخرة مهمة في المجتمع فهناك فعالية وتأثير العوامل الأخرى في إبعاد الحجج الإقناعية خلال الجلسات المحكمية ومناقشاتها.

على عكس الانطباعات الأولى فإن ردود فعلنا على الحجج الإقناعية تعتمد على عوامل التعلم والذاكرة. فمن المعروف مثلاً أنه من الصعب تعلم مادة جديدة إذا كان الشخص الذي يريد أن يتعلمها قد حاول قبل ذلك أن يتعلم مادة مشابهة. يعني هذا أنه في حالة تقديم جانبين متضادين لحجة واحدة بالتتابع في نفس الوقت فإن فعالية الأثر الأول أي الجانب الذي يسمع أولاً سوف تكون أكبر من أثر الجانب المضاد الذي يسمع في النهاية، ومن الصعب أن نسمع المعلومة المتأخرة جلياً ونتعلمها بوضوح بسبب تدخل فعالية المعلومة الأولى، من ناحية ثانية حتى ولو تعلمنا المعلومة الأخيرة بنفس الوضوح كالمعلومة الأولى فإن احتمالية الاحتفاظ بالمعلومة الثانية أكبر لأنها أقرب وعادة ما يحفظ الإنسان آخر ما سمع سواء كان هذا في الحصة (المحاضرة) أو عند الخبّاز.

وعلينا أن نلاحظ بأن العامل هنا هو عامل الوقت. فالجانب الأول سوف يتمتع بامتيازاته إذا ما تبع الجانب الثاني بعده مباشرة وهنا تأتي فعالية الأثر الأول. لكن إذا كان على المستمع أن يتصرف بعد سماعة المعلومة الثانية فإن فعالية الأثر المتأخر ستكون أكبر (أنظر تجربة كامبل ١٩٥٩).

لذلك فإن عملية الترتيب تصبح أقل أهمية لأن عـامل الـوقت والتوقيت هـو الـذي يتحكم أو من بين العوامـل التي تتحكم بالتعلم والحفظ وقبـول الحجـج. كذلك فإن مسألة الأثر الأول والأثر المتأخر ليست مسألة ممارسة أكاديمية فقط بل لها أيضاً أبعاداً عملية مهمة.

ب ـ حماية الأفراد ضد عمليات الإقناع:

بما أننا قضينا وقتاً طويلاً في مناقشة الطرق التي يمكن من خلالها التلاعب بالأفراد وإغوائهم وإقناعهم، علينا أن نضع السؤال: كيف نساعد الفـرد أن يحمي نفسه ضد هذه الممارسات؟ لا شك بأن كل تجربة تختبر أحد هذه الطرق نقتـرح أيضاً طريقة لمكافحتها.

ويبـدو أن أهم طريقـة لإعطاء الأبنـاء منـاعـة ضـد هـذه الممـارسـات هي المناقشات البيتية الحرة ومحاولة الأهل تمرين أولادهم على وضع أسئلة معاكسـة في حين يقدمون لهم حججاً تدافع عن مواقفهم.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل السادس:

١ ـ ما هو الفرق بين علم النفس وعلم النفس الاجتماعي؟

٢ ـ كيف نكون انطباعنا الأول عن الناس وهل من اللائق أن نبقي هذا الانطباع كما هو؟

٣ ـ كيف يساعد الأثر المتأخر للمعلومات في تغيير الانطباع الأول؟

٤ ـ سمي بعض عوامل الجذب بين الأفراد وناقش أهمية كل منها؟

٥ ـ يقال «الأكثر إبداعاً أكثر شعبية». هل هذا صحيح وكيف؟

٦ ـ ما هي عملية عزو الأسباب واستعمل مثال على ذلك؟

٧ ـ ماذا نعني بالرؤية الذاتية؟

٨ ـ ما هي الطرق المستعملة في تأثير الجماعة على الفرد وهل جميع هذه الطرق متشابهة.

٩ ـ كيف يؤثر تعريف الحالة على سلوك الأفراد؟

١٠ ـ كيف تعمل ظاهرة الإذعان على تغير المواقف؟

١١ ـ ما الفرق بين الضبط الاجتماعي وعملية الإقناع؟

المفاهيم المستعملة في الفصل السادس:

ـ رؤية الذات	Self - perception
ـ الأثر الأول (للمعلومات)	Primacy Effect
ـ الأثر المتأخر	Recency Effect
ـ الاجتذاب	Attraction
ـ الكفاءة	Competence
ـ التشابه	Similarity
ـ التفضيل المتبادل	Reciprocal Liking
ـ الاعتياد	Fanniliarity
ـ الصورة الجامدة	Stereotype
ـ الشخصية	Personality
ـ الاعزاء	Attribution
ـ الاعزاء التخلصي	Dispositional Attribution
ـ التأثير الاجتماعي	Social Influence
ـ الإذعان	Compliance
ـ مواقف	Attitudes
ـ إقناع	Persuasion

المراجع :

١ ـ زهران، حمدان. علم النفس الاجتماعي .(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩).

٢ ـ سلامة، عبد العزيز، وعبد الغفار. أ. علم النفس الاجتماعي. (القاهرة: دار النهضة العربية ١٩٧٧).

٣ ـ عقل، عبد اللطيف. علم النفس الاجتماعي .(عمان: دار البيرق ١٩٨٨). ط ١، ـ نابلس ١٩٨٥ .

٤ ـ عيسوي، ع. دراسات في علم النفس الاجتماعي .(بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٤).

- Allport, F. H. Social Psychology. (Boston:Houshton Mifflin, 1924).

- Backman. S, Social Psychology. (New York: Me Graw Hill /Co. 2 nd ed. 1974).

- Ellwood, C. A. The Psychology of Human Society. (New York: Appelton Croft 1925).

- Hollander, E. Principles and Methods of Social Psychology. (New York: Oxford University Press, 1981).

الفصل السابع

المدخل الى التربية

أ. د. محمد الخوالدة
قسم التربية

التربية

كان أولى بفرويد أن يفكر أن المرأة تريد تزويج بناتها لتحافظ على ملكية والدهن ـ أو زوجها.

مهنا حداد

ستقرأ في هذا الموضوع، شرحاً لمفهوم التربية، وتفسيراً لوظيفتها للفرد والمجتمع والحضارة، فضلاً عن بيان المذاهب الكبرى التي فسرت وظيفة التربية في المجتمع، بالإضافة إلى فلسفة التربية ووظائفها وأبعادها واتجاهاتها وأخيراً النماذج التربوية المعاصرة.

١ ـ **تشريح التربية**: ما مفهوم التربية في السياق اللغوي، وما مفهومها في السياق الإصطلاحي؟ وكذلك مفهومها حينما تتوجه عملياتها إلى الفرد وحينما تتوجه إلى المجتمع وحضارته؟

تشير المعاجم إلى أن التربية في اللغة تشتق من الفعل الثلاثي ربا يربو وهي بهذا تعني الزيادة والنماء. . . ولكن الزيادة في سباق تربية الإنسان تنصب على خصائص شخصيته المتمثلة في سلوكياته العقلية والانفعالية والحركية، لذا فإن تربية الإنسان هي إنماء لسلوكياته وتطوير لهذا السلوك الذي يزيد من قدرة الإنسان وتعيد دوره الوظيفي في النظام الاجتماعي.

أما حينما ننظر إلى التربية في سياقها الفني الإصطلاحي، فإنها تقع في إطار وظيفتها الإجرائية للفرد والمجتمع والحضارة. وهنا نرى أنها تعني تطوير الفطرة الإنسانية بكل أبعادها وإخراج إمكانات هذه الفطرة من حالة القوة التي تتمثل في خصائص جبلة الإنسان الوراثية وتحويل هذه الإمكانات الفطرية إلى

حالة الفعل التي تتمثل في قدرات الإنسان المختلفة على العمل والإنجاز والفعل والتكيف مع المستجدات ومواجهة التحديات.

وحتى نتمكن من فهم العمليات التربوية، يحسن بنا قبل ذلك أن نتعرف على المعنى الإجرائي للفطرة الإنسانية.

٢ ـ **الفطرة الإنسانية**: تعني الحالة الطبيعية التي يولد الإنسان عليها وما تشتمل عليه من إمكانات وراثية تجعل من الإنسان صبغة قادرة على الفعل حينما تربى هذه الإمكانات تربية سليمة.

والفطرة مفهوم مركب، ينطوي على خصائص عديدة يمكن تحديدها في الآتي:

١ ـ القدرات الادراكية.
٢ ـ القدرات الوجدانية.
٣ ـ القدرات الجسمية.
٤ ـ القدرات الاجتماعية.
٥ ـ القدرات الروحية.

وإذا رغبنا في تربية الإنسان، فإنه ينبغي علينا تربية فطرته بأبعادها المختلفة، أي انماء خصائص فطرته الخمس سالفة الذكر.

فما السمات التي ينبغي أن تتصف بها مكونات الفطرة الإنسانية لتعتبر الإنسان مربياً؟

١ ـ **القدرات الإدراكية**: إن القدرات الادراكية المربية هي التي تتميز بالتفكير المنهجي، والمنطق والقدرة على التصور والملاحظة المنظمة، والتحليل، وإدراك العلاقات، وفهم المعاني، والقدرة على النقد والتفسير وأعمال العقل في موضوعات الحياة لاستخلاص الحقائق والدلالات.

٢ ـ **القدرات الوجدانية**: وتتميز القدرات الوجدانية للمربية، بالوعي،

والانتباه والاستجابة، والتحكم بالانفعالات والالتزام، والولاء والانتماء وتبني منظومة قيمية، وإحياء الوجدان، والرغبة في اتباع المعدل، والميل إلى الإيمان بالقيم العليا، وغير ذلك خصائل تتحكم بانفعالات الإنسان وتوجيهها نحو الخير في النظام الاجتماعي.

٣ ـ **القدرات الجسمية**: وتتميز القدرات الجسمية للمربية، بالجسم القوي المتين، الذي يتصف بالصحة والحيوية والمرونة وإنماء الجهاز العصبي والعضلي والقدرة على العمل والانجاز، فضلاً عن اتقان المهارات الحركية الادائية ويقظة الحواس، وسلامة ميكانيكيتها للقيام بوظائفها ومساعدة العقل على الإدراك.

٤ ـ **القدرات الاجتماعية**: وتتميز القدرات الاجتماعية للمربية، بالنضج الاجتماعي، واتقان اللغة كظاهرة اجتماعية، وقبول الآخرين، وتكوين العلاقات والتفاعل معهم، والتعاون، والتكيف مع المعطيات الاجتماعية، وتقبل منظومة القيم الاجتماعية السائدة، لغرض الدمج الثقافي والاجتماعي والانسجام مع الأنماط السلوكية والتفاعل داخل المجتمع لتحقيق الاتفاق الاجتماعي والهيمنة الاجتماعية.

٥ ـ **القدرات الروحية**: وتتميز القدرات الروحية للمربية، بتقدير نزعة التشوق إلى الله، والمشاعر الدينية، والتسامي عن النزعات المادية، واحترام القيم الروحية، والتضحية في سبيل الايمان والتوحيد والأماكن المقدسة وغير ذلك من الالتزام بالقضايا الروحانية التي تشكل توازناً في النفس وتصونها من الاستغراق في المحسات المادية.

وبهذا فإن التربية في سياق الشرح الذي مر سابقاً، عمليات تقع على الإنسان لغاية انماء فطرته وابراز إمكاناته وجعله قوة قادرة على الفعل والانجاز. ولكن العمليات التربوية ليست عمليات ميكانيكية، بل هي عمليات ذات مضمون ثقافي، يصمم في ضوء معطيات حضارية وانسانية، لذلك فإن التربية فعل حضاري ينبغي أن يتسق مع درجة الحضارة التي تسود في النظام الاجتماعي لكي

يكون الفعل التربوي صادقاً مع الواقع الاجتماعي.

٣ ـ خصائص الفعل التربوي: حينما ننظر إلى التربية على أنها عمليات إجرائية فإنها تتميز بالخصائص الآتية:

١ ـ إن التربية عمل إنساني: يتوجه في المقام الأول إلى الإنسان وليس لكائن آخر، فالإنسان يتميز بخصائص قابلة للتربية، حيث أن التربية خاصة بطبيعة الإنسان دون غيره، لأنه يملك إمكانات للتعليم كمربي، أما الحيوانات فإنها قابلة للتدريب وليس للتربية.

٢ ـ إن التربية عملية نشاط: إن التربية ليست شيئاً يملكه الإنسان، ولكنها عملية يؤدي إلى تربية.

٣ ـ إن التربية عملية نمو: إن التربية تؤدي إلى تعلم أو نمو الفرد أي احداث اختلاف حقيقي في طبيعة الفرد وسلوكه.

٤ ـ إن التربية عملية توجيه: إن العملية التربوية تتضمن توجيهاً للفرد وتشكيلاً لما ينبغي أن يكون عليه الفرد من سلوك وخصائص في المستقبل.

٥ ـ إن التربية عملية تتم عن طريق الأفراد الآخرين: إن التربية تتطلب وكلاء يقومون بعملية توجيه النمو الفردي، وتنحصر هذه الوكالة في الأفراد الإنسانيين دون غيرهم، وقد تكون الوكالة الموجهة هي ذات المتعلم أو ذات إنسانية أخرى تعمل على التوجيه والتشكيل الإنساني.

٦ ـ إن التربية عملية قصدية: أي إن التربية عملية تتضمن توجيهاً مقصوداً بعينه، أي نشاطاً تربوياً متعمداً لبناء سلوك مقصود في شخصية المتعلم.

٤ ـ طرائق دراسة التربية:

يمكن دراسة ظاهرة التربية في المجتمعات الإنسانية عن طريق المداخل الآتية:

١ ـ تاريخ التربية: وهو المدخل الذي نحاول من خلاله وصف ما قد حدث أو طرأ على التربية في مسيرها التاريخي داخل المجتمع، وأداة هذا

المدخل هو الاعتماد على السجلات والوثائق التي سجلت ما حدث لمسيرة التربية، من أجل قمص المعطيات التربوية في الماضي وتحليلها والإفادة منها في صياغة تربية أفضل للمستقبل.

٢ ـ علم النفس التربوي: وهو مدخل يعتمد على الملاحظة والتجريب والطرائق العملية الأخرى، وتطبيق النتائج على سلوك الفرد الإنساني في ميدان التربية.

٣ ـ علم التربية الاجتماعي: وهو مدخل يعتمد على تطبيق مفاهيم العلوم الاجتماعية المختلفة في ميدان التربية، مثل علم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا، والعلوم السياسية والاقتصادية وغير ذلك.

٤ ـ أصول التربية: ويمكن دراسة التربية عن طريق دراسة أصول التربية التي تتمثل في: أصول الإدارة المدرسية، وأصول التدريس، وأصول بناء المنهج، وأصول الإرشاد النفسي، وغير ذلك. وهي موضوعات علمية تعالج مشكلات أساسية في ميدان التربية على اختلاف أبعاده، وتقديم الارشاد والتوجيه للعاملين في التربية ودعوتهم لتطبيق النتائج التي ثبتت صحتها في النظرية التربوية والتطبيق التربوي.

٥ ـ مذاهب تفسير وظائف التربية وطبيعتها:

تختلف الأراء حول طبيعة التربية ووظائفها في النظام الاجتماعي، ويعود التباين في هذه الآراء إلى اختلاف منطلقات الرؤى نحو عملية التربية، ودون اختلال بشمولية هذه الرؤية تقف عند خمس مذاهب كبرى في هذا الصدد[1].

المذهب الأول: ويرى هذا المذهب أن التربية وسيلة من وسائل تثبيت الهيمنة الاجتماعية، حيث توصل ماكس ويبر إلى بناء نمطية اجتماعية للوسائل والغايات في التربية ترتبط بنمطية أخرى في توزيع القوة الاجتماعية وتوازيها أطلق عليها اسم البناء الاجتماعي من أجل الهيمنة. وقد خلص من المقارنة بين

النمطية إلى أن كل نظام تربوي يهدف إلى تهذيب الأطفال تهذيباً يعودهم على سلوك معين في الحياة. سلوك مشخص لجماعة معينة في بناء اجتماعي معين وملائم لتلك الجماعة وقابل للربط مع النظام البيروقراطي والعقلي لها. وفي هذا السياق تستخدم التربية كأداة السيطرة الاجتماعية التي يملكها المجتمع عن طريق كبت الظواهر السلوكية غير المرغوب فيها اجتماعياً ومنع وقوعها. ولكن الهيمنة الاجتماعية ليست مسألة سلبية بل قد تكون من أجل التقدم والحركة وقد تكون من أجل المحافظة والركود.

المذهب الثاني: وينظر إلى التربية على أنها أداة المجتمع في تحقيق الوفاق الاجتماعي، ونادى بهذه الأفكار أميل دوركهايم في كتابه «التربية وعلم الاجتماع»، والتربية عنده مؤسسة اجتماعية عاملة من أجل تحقيق الاتفاق الاجتماعي وذلك من خلال تنشئة الأطفال على السجايا والشمائل الشخصية وأنماط السلوك المقبولة من لون الجماعة التي ينتسبون إليها. ذلك أن المجتمع لا يستطيع البقاء ـ كما يرى دةركهايم ـ إلا إذا تحققت بين أعضائه درجة كافية من التناظر أو التجانس. والتربية هي التي تحقق هذا التجانس وتعززه عن طريق غرس التشابهات الجوهرية التي تتطلبها الحياة الجماعية في الأطفال منذ البداية.

المذهب الثالث: ويرى أن التربية هي أحد الأساليب الاجتماعية التي تؤثر في سلوك الفرد الإنساني ابتغاء جعله ينسجم مع الأنماط السلوكية الاجتماعية السائدة، أي أنماط التفاعل والتنظيم داخل المجتمع، وينادي بهذا الاتجاه «كارل مانهايم» حيث يرى أن التربية أداة لتجنب الفرد نتائج الارتطام بالوضع الاجتماعي القائم، والذي قد يذهب الفرد ضحية اصطدامه غير المتكافىء به، فإن التربية تسعى إلى مساعدة الفرد على اكتشاف السبل الملائمة للانسجام مع ذلك الوضع القائم، وكان هذا المذهب ينادي بإمكان التعايش بين الفرد والمجتمع عن طريق تفهم ما يسود في بيئته الاجتماعية من غير وجوب الالتزام به التزاماً قهرياً أو تلقينياً.

المذهب الرابع: ويرى أن التربية هي عملية دمج ثقافي، أي عملية تكييف واع أو غير واع تتحقق من خلال العملية التعليمية، بحيث يكتسب الإنسان الكفاية الاجتماعية داخل بيئته الثقافية. وإن عملية الدمج الثقافي هذه هي: عملية مستمرة على مدى حياة الإنسان ولكنها تختلف باختلاف مراحل دورات حياته وعملية الدمج الثقافي تفرض قسراً في مرحلة الطفولة، وعن طريق التعلم في مرحلة النضوج وبلوغ الرشد التي يتحقق فيها الاندماج الثقافي عن قناعة.

المذهب الخامس: وهو مذهب النفسانيين الاجتماعيين، وعلماء النفس المهتمون بنمو الطفل، حيث يرى هؤلاء أن التربية عملية تنشئة اجتماعية، وتشير عملية التنشئة إلى تلك العملية التي بوساطتها يتعلم الفرد كيف ينتمي إلى جماعته عن طريق اكتساب السلوك الاجتماعي التي ترضى به تلك الجماعة. ويتفق أصحاب هذا المذهب على القول بأن جميع الأطفال الذين لا تتعرض قابلياتهم إلى تعويق قاس فإنهم يشاركون في التفاعل الاجتماعي، وبهذه الصورة فإنهم يكتسبون أنماطاً في التفاعل الاجتماعي. وهذا يشير إلى أن عملية التنشئة الاجتماعية هي عملية تعلم تقره الجماعة سواء وقع خارج إطارها أم داخله، وتسهم هذه العملية في احتواء ثقافة المجتمع وأنماط القيم التي يتبناها. أما فرويد فيرى أن التنشئة الاجتماعية تعني تلك العملية التي بوساطتها يقوم الطفل باحتواء أنماط أبويه السلوكية ويكتسب بها ذاتاً عليا، ويتم ذلك عن طريق لآليات العضوية المبنية على التقوية والاطفاء، اللذان يقومان على مبدأ الثواب والعقاب، وكذلك عن طريق الآليات الإدراكية المبنية على التقليد والاقتران، اللذان يقومان على أحاسيس التقدير والحب.

٦ ـ وسائط التربية:

نلاحظ أن التربية كعملية نشاط تحدث للفرد في أماكن مختلفة، فأول عمليات التربية يتعرض إليها الفرد في إطار بيته وحينما يتفاعل مع الأقران

والأصدقاء، وكذلك الاشتراك في العمل والحياة المهنية، والمؤسسات الاجتماعية ووسائل الاعلام والمساجد، والمدرسة، والنماذج الاجتماعية والحياة العامة، والتفاعل مع الخبرات على اختلاف أنواعها وغير ذلك من وسائط. وهكذا ندرك أن التربية كنشاط يحدث في وسائط عديدة، ولم تعد المدرسة هي المكان الوحيد في تربية الأفراد وتعليمهم، بل هناك وسائط أخرى تسهم في هذه العملية ولكن السؤال كيف تتميز المدرسة في عملية التربية عن الوسائط الأخرى، ثم ما وظيفة هذه المدرسة للنظام الاجتماعي..

٧ ـ التربية والمدرسة:

تشكل المدرسة أهم الموضوعات في تربية الأطفال، لأنها أشمل الوسائط قدرة على تربية الإنسان، بفضل تنوع النشاط التربوي فيها، فهي مؤسسة اجتماعية أنشئت لتحقيق أغراض تربوية معينة. والمؤسسة الاجتماعية تنظم له أهدافه وبنيته ووظائفه، وفيها نسق من العلاقات المتبادلة لتحقيق أغراضها الأساسية التي تتمثل في التعليم العام للصغار لتحقيق المواطنة الصالحة، والمكونات الأساسية في المدرسة هي: المدرسين والتلاميذ والمنهج الدراسي وأساليب التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة، وقد برهنت المدارس أنها على درجة كبيرة من الأهمية للمجتمعات الإنسانية لما تقدمه من وظائف. ولكن التربية لا تحدث في المدرسة وحدها، بل تحدث في أماكن مختلفة، ولكن هذه الأماكن لا تكون فيها التربية هي الهدف الأساسي الأول كما هو الحال في المدرسة فما الوظائف التي تقدمها المدرسة؟

٨ ـ وظائف المدرسة:

تؤدي المدرسة وظائف عديدة في المجتمع الإنساني تبرر وجودها من أهمها:

١ ـ التخصص: إن التقدم الحضاري في المجتمعات فرض تقسيم العمل، ونتج عن ذلك التخصص في الوظائف، وهنا جاءت المدرسة لتتحمل

مسؤولية العمل التربوي في مجتمع إنساني متقدم في إيجاد المتخصصين لضمان استقرار معقول للمجتمع.

٢ ـ الكفاية: تعمل المدارس على تحقيق مبدأ الكفاية عن طريق استغلال المصادر التربوية استغلالاً أعظم وعلى درجة كبيرة من الفاعلين، حتى لا تترك تربية التلاميذ للمصادفة وبالتالي توفير اهدارات تربوية كثيرة.

٣ ـ التكيف الاجتماعي: تقوم المدرسة بتعميق التكيف الاجتماعي للأفراد بفضل ما تقدمه من نشاطات متنوعة وتفاعلات اجتماعية تسهم في النمو الاجتماعي لشخصية المتعلمين.

٤ ـ المحافظة على التراث الثقافي ونقله: إن الثقافة في المجتمع الإنساني ذات طبيعة تراكمية، لذا فإن المدرسة وسيلة هذا المجتمع لنقل التراث الثقافي المتراجم فيه من جيل إلى جيل، عن طريق ما يتم في المدرسة من عمليات تربوية تجعل الأفراد المعاصرين مجسمات حية لحكمة الماضي وما فيه من تراث ثقافي، وهكذا فإن المدرسة تحافظ على الثقافة وتعمل على نقلها.

٥ ـ التدرج في الانتقال إلى المجتمع: تسهم المدرسة في نقل التلاميذ من أطفال يعتمدون على أسرهم بصورة كلية، إلى مواطنين يكتسبون المعرفة والقدرة والمهارة التي تساعدهم على القيام بنشاط ذاتي بصورة تدريجية حتى يأخذ دوره الاجتماعي المستقل في المجتمع كشخص له كيانه الذاتي وبذلك تسهم المدرسة بنقل الصغار من نموذج الأسرة إلى نموذج المجتمع.

٦ ـ إعداد المواطن لمطالب الحياة: تقوم المدرسة بوظيفة إعداد المواطن للعيش في مجتمع معقد الحضارة، وذلك بفضل ما تكسبه المدرسة للأفراد من بصيرة وخبرات ومفاهيم نمكنهم من امتلاك الأساسيات اللازمة لمزاولة الحياة داخل المجتمع، مع مراعاة أن الحياة متغيرة ولا بد من اعداد الأفراد للتكيف مع متغيرات الحياة ومستجداتها.

٧ ـ مجتمع المدرسة نموذج للمجتمع الكبير: حيث تعمل المدرسة عن طريق مجتمعها المدرسي الصغير عمليات تربوية تكسب المتعلمين بأن الحياة في المدرسة هي حياة حقيقية من أجل أن تسهم في تسريع تكيف التلاميذ مع النظام الاجتماعي عن إدراك وفاعلية، بفضل ما تقدمه المدرسة من خبرات عقلية وعاطفية واجتماعية تساعده في التكيف مع الحياة المستقبلية.

ويلاحظ أن المدرسة تقوم بوظائف عديدة، حتى يمكن أن ينسب إليها كل مظاهر النمو الإنساني، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للمدرسة فإنها تصبح المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي تتحمل مسؤولية تربية الإنسان في المجتمع، وهنا ينبغي أن نتذكر دور المؤسسات الاجتماعية الأخرى، في هذا السياق، حتى تتكامل الأدوار وتنسق الجهود لتحقيق أفضل مستوى تربوي للإنسان في المجتمع.

٩ ـ أصناف التربية: تختلف التربية من حيث أصنافها ويتوقف ذلك على درجة الضبط والتوجيه للمتعلم أثناء تربيته، فإذا رأت الفرد في إطار من الحياة الفردية الاجتماعية وما فيها من عادات وتقاليد وخبرات تجري وتستمر على نحو تلقائي دون ضبط وتوجيه بصورة دائمة من مؤسسة أو أفراد، فإن هذا اللون من التربية التي يتعرض إليها الأفراد، تسمى تربية تلقائية. أما إذا كانت عمليات التعلم والتربية تتم في إطار من الضبط والتوجيه مثل الذي يحدث في البيت أو النادي أو المسجد أو التلفاز، تسمى التربية التي تحدث للفرد في هذه الحالة تربية غير نظامية.

أما إذا كانت التربية تحدث للأفراد في إطار من المدرسة على أيدي أناس مدربين، ووفقاً لأهداف محددة ومراقبة تامة ومنهج معين، فإن التربية التي تحدث للفرد في هذه الحالة تسمى التربية النظامية، ويمكن تلخيص أصناف التربية في ثلاثة أصناف هي:

١ ـ التربية التلقائية أو التربية البيئية الطبيعية: وهي التربية التي تجري في

البيئة الطبيعية الاجتماعية بما فيها من عادات وتقاليد دون ضبط أو توجيه.

٢ ـ التربية غير النظامية: وهي التربية التي تحدث في إطار البيت والنادي والمصنع والمسجد ووسائل الاعلام، وفيها شيء من الضبط البسيط.

٢ ـ التربية النظامية، وهي التربية التي تحدث في إطار المدرسة على اختلاف مستوياتها وفيها ضبط وتوجيه كبيران.. وتقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

أ ـ التربية النظامية العامة: وتعرف بأنها ذلك الجزء من المنهاج الذي يجعل الطلاب كلهم يتابعونه في أي مستوى من المستويات الدراسية باعتبار كونه ضرورياً لتنمية القيم والمواقف والإدراكات والمهارات المشتركة التي لا بد لكل منهم أن يتخرج فيها لاتقان فنون الحياة الديموقراطية الفضلى.

ب ـ التربية النظامية المهنية: وتعرف بأنها ذلك الجزء من المنهاج الذي يمتد بتنمية المواهب الخاصة وإلى اعداد المرء في مهنة معينة للحياة لكسب العيش وخدمة المجتمع، وهي ما تسمى بالتخصص المهني من أجل كسب الرزق.

ج ـ التربية النظامية الخاصة غير المهنية: وتعرف التربية النظامية الخاصة غير المهنية بأنها ذلك الجزء من المنهاج الدراسي المخطط لأجل حاجات الطلاب الخاصة والاهتمام والميول وملاءمة مواهبهم واستعداداتهم ومهماتهم الفردية لغير أغراض مهنية.

١٠ ـ اختلاف المفاهيم التربوية: عندما نستعرض الفكر التربوي قديماً وحديثاً، نجد تبايناً في النظرة إلى التربية من مجتمع إلى آخر، ومن فترة زمنية إلى أخرى، لأن المجتمعات تختلف في فلسفاتها الاجتماعية، وتتغير في ظروفها وامكاناتها وحاجاتها التربوية في مراحلها التاريخية، فالمجتمعات الرعوية تختلف في مفهومها وأهدافها التربوية عن المجتمعات الصناعية، والمجتمعات النامية تختلف في مفهومها وأهدافها التربوية عن المجتمعات المتقدمة، لأن المجتمعات

الإنسانية تتفاوت في درجة حضارتها وأنماط معيشتها وبالتالي ينعكس ذلك على مفهوم التربية وأهدافها.

لهذا نلاحظ أن الاختلاف في مفاهيم التربية وأهدافها من مجتمع إلى آخر مسألة طبيعية بسبب الارتباط الوثيق بين حالة المجتمع والنظام التربوي فيه، فالتربية عادة ما تكون صياغة المجتمع بما فيه من معطيات وما له من تطلعات يسعى لتحقيقها. فإذا أخذنا هذا الاختلاف من منظور تاريخي بين الأمم والشعوب فإننا نجد أن التربية تتفاوت في مفهومها وأهدافها وطرائقها عند المصريين القدماء عنها عند اليونانيين والرومانيين والمجتمعات المسيحية والإسلامية. وهي ما زالت مختلفة في المجتمعات المعاصرة تبعاً للفكر الأيديولوجي التي تتبعه، ودرجة تصنيفها في سلم التنمية الاجتماعية والاقتصادية الذي يبدأ من المتخلفة إلى النامية إلى الصناعية إلى المتقدمة، وإذا فهمت التربية كنظام فعال يشتغل في إطار اجتماعي يقع في أحد دوائر هذا التصنيف، فإن المسؤوليات التي تقع على عاتق هذا النظام التربوي من مجتمع لآخر، فمسؤولية النظام التربوي في المجتمعات المتخلفة يختلف عن مسؤوليات النظام التربوي في المجتمعات المتقدمة، لهذا فإنه من الطبيعي أن تختلف التربية عن مجتمع لآخر، في مفهومها وأهدافها ووظائفها.

١١ ـ **أبعاد التربية واتجاهاتها**: يمكن النظر إلى التربية من منظورين، الأول وهو التربية في ضوء أسسها والعوامل الفاعلة فيها، وهذه الأسس هي: الأساس الفلسفي والأساس الاجتماعي، والأساس النفسي، والأساس المعرفي، والمنظور الثاني، هو التربية في توسعها وامتدادها وتأثيرها على الفرد والمجتمع المحلي واثلانساني.

١ ـ الاتجاه الفردي في التربية: برز أصحاب هذا الاتجاه في أثر التربية على الفرد، حيث يكون الفرد في العمليات التربوية محور الأهداف والمحتوى والأنشطة لغاية تنمية شخصيته، واشباع حاجاته وتلبية رغباته واحترام قدراته،

حيث يتاح للفرد فرص التعليم في ضوء امكاناته واستعداداته دون أن يستهان بأية خاصية من خصائصه الفردية مهما كانت المبررات، لأن اتحاد الفرد والعناية بالأنا (Ego) يؤدي إلى إنماء المجتمع.

٢ ـ الاتجاه الاجتماعي في التربية: يقصد بالاتجاه الاجتماعي في التربية إدخال المفاهيم والقيم والاتجاهات والخصائص ذات الصبغة الاجتماعية في النظام التربوي، إظهار الخصائص العامة في تخطيط العملية التربوية، وتصميم بنيتها وتحديد أهدافها ومضمونها وطرائقها ومدخلاتها الأخرى، بحيث تظهر العوامل التي تؤكد على روح المجتمع والمحافظة على كيانه وتراثه وصيرورته واستمراره وتجديده.

ويرى هذا الاتجاه من أن الجماعة والفرد قطبان في نظام وجود واحد لا يمكن فصلهما عن بعض، لأن كيانهما متداخلان تداخلاً حيوياً ناشطاً فاعلاً يكيف الواحد الآخر ويتكيف به في عملية تفاعل مستمر دائم، وهذه الحقيقة بالغة الأهمية في تربية النشء وتعليمه ووضع المناهج واختيار الأعمال والخبرات والطرائق والتسهيلات لهذه التربية. ومن الواقع يمكن استخراج أهم المبادىء التي تشير إلى معنى البند الاجتماعي في التربية.

١ ـ يجب أن يعد الفرد والمجتمع على أساس أنهما نظامان من القوى النشطة يعملان بصورة مستمرة لتحقيق نمط من التفاعل والنماء.

٢ ـ ينبغي أن تهتم المؤسسة التربوية بتراث وثقافات الأجيال الماضية لتفسير وإغناء خبرة الأجيال الحاضرة وثقافتها.

٣ ـ ينبغي أن تحافظ المؤسسة التربوية على التفاعل الصحيح بين الفرد والجماعة فتزود الفريقين بالمؤثرات للنماء الفردي والتطور الاجتماعي المحمود.

٤ ـ أن تدرك المؤسسة التربوية الهدف التي تمثله الحياة الجماعية في تنمية الفرد، فتعمل على توفير جو مدرسي طبيعي اجتماعي للاسهام في بناء

الشخصية المحمودة، وتوجيه العمل التربوي فيه على نحو يضمن لكل ناشيء صغير وكبير أشد العوامل فاعلية في النماء الفردي والاجتماعي المتكامل.

٣ ـ الاتجاه الانساني: ويرى هذا الاتجاه أن التربية عملية إنسانية لذا ينبغي أن تركز على الإنسان وكرامته وحريته وإبراز إمكاناته وقدراته العقلية والنفسية والجسمية والوجدانية والعمل على تنميتها، كما تركز على إبراز العناصر المشتركة بين المجتمعات الإنسانية، وفتح المعرفة الإنسانية أمام الجميع دون حواجز اجتماعية واقتصادية لكي يتكامل الجهد البشري في تطوير التراث الثقافي والاجتماعي وتحسين نوعية الحياة الإنسانية. كما يؤكد الاتجاه الإنساني على مبادىء التعاون الإنساني من خلال إدخال البعد العاملي في التربية وذلك يتجاوز الأطر المحلية والإقليمية والتوجه إلى الإطار الإنساني الذي يبرز الخصائص الإنسانية في الفرد ويظهر العوامل التي تساعد على تكامل الجهد البشري في إنماء المجتمعات الإنسانية ثقافياً وحضارياً وأخلاقياً. ويلخص الاتجاه الإنساني في التربية في إبراز الخصائص المشتركة بين الأفراد والجماعات والثقافة والفكر البشري، وتطوير السمات التي تؤكد على إنسانية الإنسان وهي: العقل والنفس، والروح، والوجدان، والأخلاق، وإنماء العقل والتفكير من خلال نماذج معرفية فاعلة ومنهجية في العمل، والاهتمام بما يؤكد وحدة المجتمعات البشرية في الخلق والحياة والحاجات والفعل والتراث والمعرفة والمصير، وتشكيل المجتمع الإنساني الديمقراطي الذي يؤمن أهله بالقيم الديمقراطية الصحيحة المشهودة في شتى المجالات.

٤ ـ الاتجاه الإسلامي: يختلف الاتجاه الإسلامي عن الاتجاهات التربوية السابقة لأنه اتجاه مميز في غاياته وفلسفته في الحياة فيرى أن التربية ينبغي أن تقوم على مبادىء وأصول توجه الإنسان في الحياة لتحقيق ذاته والغاية من وجوده وأداء رسالته نحو الله والمجتمع والكون. ويتطلع هذا الاتجاه إلى تربية متكاملة تعنى بالأبعاد الروحية والعقائدية والجسمية والمادية وتأخذ الأبعاد العلمية والعملية والسلوكية والأخلاقية والفردية والاجتماعية والقيمية والانسانية معاً. والتربية في

هذا الاتجاه هي الحياة في الدنيا والفوز في الآخرة وهي حياة نامية متجددة تسعى لرخاء الإنسان ومجتمعاته من خلال تطبيق مبدأ الخالقية والمخلوقية من أجل إقامة النموذج الإسلامي، وتشكيل الحياة الإسلامية في أهدافها العاجلة والآجلة، وتكوين الإنسان المؤمن في عقله ووجدانه والمبدع في تفكيره النافع في انتاجه.

٥ ـ الاتجاه الانتاجي الاقتصادي: وعندما تبين التربية الاتجاه الانتاجي الاقتصادي، فإنها تركز على مفهوم النموذج التربوي المنتج الذي يراعي أن تقوم بنيته التنظيمية ومؤسساته التعليمية ومحتواه وطرائقه وأدوات تقييمه على ربط التعليم بالإنتاج، بما يحقق التوفيق بين استجابة كافية لقدرات المتعلمين وميولهم من جهة، وحاجات سوق العمل المتنوعة من جهة أخرى. وتبني المناهج التعليمية في هذا النموذج على إيجاد التوازن بين مختلف المواد الأدبية والعملية والتطبيقية، بهدف جعل المعرفة في مختلف الميادين أقرب ما يكون إلى الانتاج، وهكذا يصيب التعليم النظري في التطبيق العلمي ويزول التناقض بين الدراسات النظرية والسهنية بين المدرسة والعمل.

ويتحقق هذا الاتجاه في التربية بادخال التكنولوجيا في التربية وربط العمليات المهنية والتقنية بالدراسات الأكاديمية على محور التعليم كله لجميع الناشئين.

١٢ ـ فلسفة التربية:

عندما يتفلسف الإنسان، فإنه يحاول الإجابة عن الأسئلة التي تطرأ على ذهنه بصورة خاصة، أو اذهان الناس بصورة عامة، وذلك عن طبيعة الحياة ومعناها وقيمتها والغاية منها، وطبيعة الوجود وطبيعة التجربة البشرية وأخيراً العلاقة التي تربط بين الإنسان وذهنه وبين بقية الكون، فالسعي الفلسفي هو في أساسه سعي وراء معرفة شاملة عن طبيعة التجربة الانسانية ومعناها وقيمتها. هذا عن الفلسفة بصورة عامة، ولكن ماذا عن فلسفة التربية؟

معنى فلسفة التربية: ينبغي أن تكون للعملية التربوية فلسفة تربوية تعمل

على توجيهها وتعقيل قرارتها، وتبرير مدخلاتها وعملياتها وتسويغ مضامينها وما فيها من نشاطات وما تسعى إليه من غايات وأهداف. وما نتوجه إليه من تجديدات ومسارات وسياسات. وفي هذا السياق فإن فلسفة التربية، هي النظرية التربوية التي تنبثق من النظريات والأفكار الفلسفية التي تظهر في إطار حضارة معينة.

أو أن فلسفة التربية تمثل سعياً في تطبيق مفاهيم الفلسفة العامة على الميدان التربوي، وعلى العموم فإن تحويل الفكر الفلسفي إلى تطبيقات تربوية يتطلب الالتزام بعمل الإجراءات التالية:

١ ـ اختيار المذهب الفلسفي الذي يناسب العمل التربوي في الواقع الاجتماعي.

٢ ـ تحديد ما يقوله هذا المذهب الفلسفي من مفاهيم وأفكار في طبيعة الحقيقة وطبيعة المعرفة وطبيعة القيم والإنسان والمجتمع.

٣ ـ تحليل المفاهيم التي ينادي بها المذهب الفلسفي ثم اختيار الملائم منها للواقع التربوي.

٤ ـ استخلاص النظام التربوي الملائم لطبيعة البيئة الاجتماعية في ضوء الظروف والإمكانات والمستوى الحضاري وتوجه حركة التنمية.

٥ ـ تحديد نمط المدرسة التي تتلائم مع طبيعة النظام التربوي المختار كوسيلة أو أداة تساعد على التنفيذ.

ولكن المؤسسات التربوية، قد تصيب أو تخطىء وهي تقوم بالمهمة التربوية ويمكن تحديد المشكلات التي تواجهها فيما يلي:

١ ـ مؤسسات تسودها أهداف متناقضة وتستسلم لهذا التناقض في كل الجهات.

٢ ـ مؤسسات تحدد أهدافها بصورة دقيقة ولكن هذه الأهداف ليست هي الأهداف الصادقة اجتماعياً.

٣ ـ مؤسسات تعلن أهدافاً لا غبار عليها ولكنها تضمر أهدافاً أخرى تضر بالحياة الاجتماعية العامة حيث تؤيد الأولى بالقول، وتمارس الثانية بالفعل.

٤ ـ مؤسسات تختار أهدافاً للفرد والمجتمع ولكنها لا تتوفق في اختيار المناهج التربوية المنتمية إليها وتركن إلى عملها غير المجدي لذلك تبقى الأهداف نظرية.

٥ ـ مؤسسات تحسن اختيار الأهداف الملائمة للفرد والمجتمع وتحسن اختيار الأدوات المناسبة لتنفيذها وهذه مؤسسات تستحق الاحترام.

١٣ ـ وظائف فلسفة التربية:

تسدي فلسفة التربية إلى العملية التربوية وظائف عديدة أهمها:

١ ـ تحليل القضية التربوية المطروحة، بهدف التوصل إلى الافتراضات التي تقوم عليها وكذلك المضامين التي تشتمل عليها. فإذا كانت القضية المطروحة هي المناهج التعليمية، فإنها تناقش في ضوء مجموعة من الأسئلة هي: ما طبيعة الأسس التي تقوم عليها هذه المناهج؟ وما صحة الافتراضات الموضوعة؟ وما طبيعة المعرفة التي تتضمنها المعرفة التي يشتمل عليها المناهج، وهل هي متفقة مع طبيعة المعرفة؟ وما طبيعة المستوى الثقافي داخل المجتمع؟ وما صلة هذه الافتراضات بمستوى الحياة العامة ودرجة الحضارة؟ وهل ينتمي مضمون هذا المنهاج في تقدم المجتمع؟ وهل تزوّد الدارسين بكفايات أو آليات لمواجهة المشكلات الراهنة؟ وإلى غير ذلك من تساؤلات.

٢ ـ تمييز التناقض: تسهم فلسفة التربية في اكتشاف التناقضات القائمة بين المدخلات أو بين البراهين والأدلة والمنطق المتعلق بالمبررات حول هذه المسألة: فإذا زعمت مؤسسة تربوية أنها تطبق مبدأ ديموقراطية التعليم، ولكنها لا تستوعب الطلبة والذين هم في سن التعليم، ولم تقبل من الطلاب إلا فئة المتفوقين، واقتصر قبولها على الذكور دون الاناث وتمسكت بطريقة واحدة في تقييم الطلب، وبطريقة واحدة في التعليم، وأخذت تفضل الطلاب الذي يرسبون

في الامتحانات، عندئذ كيف يمكن التوفيق بين التناقض في الأهداف والممارسات؟

٣ ـ تحديد المعاني والمفاهيم: وتفيد الفلسفة التربوية في تحديد معاني ومفاهيم للمصطلحات التي يستعملها التربويون أثناء حوارهم، لغرض تحقيق التفاهم المشترك وإزالة اللبس والغموض عن المصطلحات المستخدمة، وهو موضوع يخفف من الجدل والخصام الذي قد يحدث بسبب فوضى المعاني في التعابير المستعملة في القضايا التربوية المطروحة للنقاش.

٤ ـ تصنيف الحقائق الجزئية: حيث تقوم فلسفة التربية بوظيفة جمع الحقائق والمعلومات المشتقة من مصادر معرفية متعددة مثل: علم النفس والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة، ثم تعمل على تنظيمها وتنسيقها وصياغتها على شكل نظرية تربوية، تفيد في تطوير النظام القائم كان يقوم فريق بالبحث عن الافتراضات والمفاهيم والمبادىء، التي وردت في الفكر الإسلامي، وأكدتها حياة المجتمعات الإسلامية في سياق تاريخها الطويل، لغاية صياغة نظرية تربوية إسلامية، في سبيل تطوير النظام التربوي في البلاد الإسلامية وتأصيله.

٥ ـ مقابلة وجهات النظر المختلفة: وهو أن يقوم المتحاورون بدراسة وجهات النظر المختلفة ومقابلة بعضها ببعض في ضوء اعتبارات قد تكون تاريخية أو ثقافية أو اجتماعية أو لغوية أو معرفية أو أخلاقية. فدراسة مشكلة «طبيعة المعرفة» الملائمة للدراسة، يمكن أن يقوم المتحاورون بمقابلة وجهات النظر المختلفة التي قدمها الفكر الفلسفي فيقابلون ما قاله، أفلاطون، وأرسطو، والغزالي، وأصحاب الفلسفة الواقعية والبرجماتية في العصور المختلفة، ليتوصلوا إلى حكم أو قناعة حول قضية معينة.

٦ ـ اقتراح خطوط جديدة: وهو أن تقوم فلسفة التربية بوضع معالم جديدة لتطوير النظام التربوي أو تحسين كفاياته أو حل المشكلات التي يواجهها بسبب

التغييرات السريعة التي تطرأ على النظام الاجتماعي والثقافي داخل المجتمعات الإنسانية.

وحتى تستطيع فلسفة التربية توجيه المسيرة التربوية في المجتمع بطريقة صحيحة فإنه يجدر بها أن تأخذ من الفلسفة العامة، وظائفها الأساسية وهي:

١ ـ الوظيفة التأملية أو الوصفية.
٢ ـ الوظيفة المعيارية أو الارشادية.
٣ ـ الوظيفة النقدية التحليلية أو التفسيرية.

ويمكن تقديم تلخيص موجز لأبرز الدلالات التي ترتبط بهذه الوظائف الأساسية الثلاث.

١٤ ـ فلسفة التربية ووظيفتها التأملية:

في الوظيفة التأملية لفلسفة التربية فإنها تقوم بنشاطات ومهمات عديدة منها:

١ ـ تنظر إلى العملية التربوية على اعتبار أنها نظام شامل يتكون من أجزاء متشابكة العلاقات، وعليها فإنها لا تدرس ظاهرة في هذه العملية منعزلة عن الظواهر الأخرى داخل النظام التربوي.

٢ ـ إن أية قضية أو مسألة تربوية هي جزء لا يتجزأ من النظام التربوي الذي يشتغل في نظام ثقافي داخل البيئة الاجتماعية.

٣ ـ إن أي تنظيم أو تنسيق أو تحديد للأدوار لا بد وأن يتم في ضوء المبادىء الأساسية.

٤ ـ تحرص على عدم التمييز بين الشيء والعناصر التي يتكون منها حيث تتكامل النظرة بين الوجود وعناصره، بهدف استنتاج أحكام عامة.

٥ ـ إن تكامل الأدوار والنظرة في معالجة أية قضية تربوية تستدعي تحديد العلاقات والأدوار في هذه القضايا.

٦ ـ تتناول القضايا الغيبية (الميتافيزيقية) وتبحث عن الأدلة والبراهين التي تكشف عن طبيعة هذه القضايا وتسويغها.

١٥ ـ فلسفة التربية ووظيفتها المعيارية (الارشادية):

حينما تقوم فلسفة التربية بالوظيفة الارشادية فإنها تقوم بالمهمات الآتية:

١ ـ تحديد إطار الأهداف التربوية المطلوبة في ضوء النظم القيمية التي تتبناها الفلسفة الاجتماعية داخل المجتمع.

٢ ـ تحديد الطرائق والوسائل العامة التي ينبغي اتباعها لتحقيق الأهداف التربوية المقصودة، بحيث تكون هذه الطرائق والوسائل منتمية إلى الأهداف المنشودة.

٣ ـ تطرح استراتيجيات ومفاهيم جديدة في سبيل تطوير النظام التربوي بحيث يبقى أصيلاً مع حضارته ونظامه الثقافي، ومعاصراً مع روح الحياة.

٤ ـ تحديد معايير جديدة في ضوء المتغيرات لمواجهة المواقف المستجدة وتبرير الإجراءات والأعمال التي تتبناها العملية التربوية، وصياغة ذلك بصورة قيمية.

٥ ـ تنظر إلى كل عمل تقوم به ليس على أنه الأمثل، بل هو الملائم حالياً وليس أفضل ما ينبغي أن يكون، من أجل أن تفتح باب الاجتهاد الفكري والتجديد داخل النظام التربوي لصالح الإنسان والمجتمع والتراث الثقافي فيه.

٦ ـ تحاول الرجوع إلى طبيعة العلاقات التي توجد بين عناصر العملية التربوية لتستلهم القرار الملائم الذي يتفق مع أسلم الفرضيات والمبادىء لصالح النظام التربوي والاجتماعي.

١٦ ـ فلسفة التربية ووظيفتها التحليلية:

وفي الوظيفة التحليلية لفلسفة التربية فإنها تقوم بالوظائف الآتية:

١ ـ تمثل الروح النقدية الجامحة التي لا تقنع بالموجود وتستسلم إليه بل دائماً تبحث عن الأمثل والأفضل لتحقيق مبدأ التطور في الحياة.

٢ ـ تعمل على دمج عناصر النظام التربوي التي افترضتها الفلسفة التأملية أو المعيارية وغيرها، من أجل تحريك الواقع نحو الأفضل طلباً للكمال.

٣ ـ تفحص الفرضيات التربوية والمفاهيم للوقوف على مدى اتساقها وانسجامها مع الآراء والنظريات التربوية الأخرى.

٤ ـ تحدد العلاقات بين المفاهيم والحقائق التي تفسر العملية التربوية لتوضيح العقلانية في التفسير والمنطق في النقد والتحليل الذي يتم للنظام التربوي.

٥ ـ توضيح المعاني التي تنطوي عليها المفاهيم والمصطلحات التربوية في سبيل توحيد الآراء ورفع التناقضات التي قد تحدث في القضايا والمسائل التربوية.

٦ ـ تبرر القيم والأهداف والطرائق التي تستعملها العملية التربوية، وذلك عن طريق التحليل والنقد والكشف عما فيها من صدق أو اتساق مع الواقع الاجتماعي وفلسفة الحياة فيه.

بعد قراءة الوظائف الثلاث للفلسفة التربوية، وهي الوظيفة التأملية والوظيفة الارشادية والوظيفة التحليلية، يمكن القول بأن هذه الوظائف الثلاث على درجة كبيرة من الأهمية للعملية التربوية بفضل ما تقوم به من توسيع وتأصيل وتطوير لقضايا النظام التربوي في إطار من المنطق والعقلانية والواقع الاجتماعي والمعطيات المعرفية.

١٧ ـ النماذج التربوية اليوم: نظراً لاختلاف فلسفات الحياة في المجتمعات الإنسانية المعاصرة، ترتب على ذلك اختلاف في الفلسفات التربوية التي توجه العمل التربوي في المجتمع، ويمكن تلخيص النماذج التربوية السائدة

حالياً في العالم بما يلي :

١ ـ النموذج التربوي الرأسمالي .
٢ ـ النموذج التربوي الإشتراكي .
٣ ـ النموذج التربوي في العالم الثالث.
وفيمـا يلي أبرز خصائص هذه النماذج :

١ ـ النموذج التربوي في العالم الرأسمالي : يقصد بالفلسفة الرأسمالية هي الفلسفة الحرة التي تعنى بـالإنسان الفـرد على النقيض من الفلسفة الاشتـراكية، وقـد جاءت نتيجـة رد فعل على أسـاليب القهـر والتعسف التي كـانت تعتيش في ظلها المجتمعات الغـربية أيـام عهد الاقـطاع وسلطة الكنيسة وقـد ازدهرت هـذه الفلسفـة في بدايتهـا نتيجة لاتصـال الغرب المتخلف وقتئـذ بالمشـرق الإسلامي المتحضر. ويمكن تلخيص مبادىء الفلسفة الرأسمالية بما يلي :

١ ـ الإيمان بالفرد وحريته وذكائه وقدراته .
٢ ـ توفير الحرية الاقتصادية والسياسية .
٣ ـ إقامة الحياة على التنافس وتأكيد الحرية .
٤ ـ توكيد الديمقراطية في النظام الاجتماعي .
واتصفت النظم التربوية في المجتمعات الرأسمالية بالخصائص التالية :

١ ـ المرونة الزائدة في الإشراف على النظام التربوي وإدارته ومراقبته .
٢ ـ الاهتمام بالعلوم والتكنولوجيا .
٣ مسايرة النظام التربوي لروح العصر .
٤ ـ استقلال مؤسسات التعليم العالي .

٥ ـ توفير الحرية للمعليمين والمتعلمين لغرض الابداعات الفكرية .
٦ ـ اعطاء الحرية للقطاع الخاص لانشاء المدارس والاشراف عليها .
٧ ـ تنويع التعليم حسب ظروف البيئة لجعله وظيفياً .

٢ ـ النموذج التربوي في العالم الاشتراكي: يمكن ارجاع الأصل في النموذج التربوي الاشتراكي إلى فلسفة الايديولوجية الماركسية، حيث تهتم الماركسية بالتربية وترى أنها الوسيلة الفعالة في نشر ايديولوجيتها، فضلاً عن أنها الوسيلة الفعالة في انماء الطاقات البشرية لغاية تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية ولكن الأديولوجية الاشتراكية في هذه الأيام تمر بتحولات فكرية خطيرة، من شأنها أن تدخل تغيرات جذرية على الفلسفة الاشتراكية وما تنطوي عليه من حقول لتنظيم شؤون الحياة بابعادها المختلفة، حتى يمكن القول بأنها تتوجه تدريجياً نحو الفلسفة الرأسمالية. وفيما يلي: أبرز المبادىء الأساسية التي توجه السياسة التربوية الاشتراكية:

١ ـ العمل على إزالة أثر الديانات على اختلاف أنواعها، وتنمية النظرة المادية تجاه الكون والتاريخ الإنساني وبناء المجتمع.

٢ ـ المساواة بين الأجناس والقوميات المختلفة ومساواة السكان على اختلاف عروقهم وأجناسهم.

٣ ـ المساواة بين الجنسين في التعليم.

٤ ـ توكيد مبدأ الطبقة الاجتماعية الواحدة من خلال المدرسة الواحدة والمناهج الدراسية.

٥ ـ توكيد التدريب المبدئي عن طريق التدريب الرياضي والعسكري.

٦ ـ توكيد التربية التقنية العالية لنشر استخدام الآلات وزيادة الإنتاج.

أما النظام التربوي الاشتراكي فيتميز بالسمات الآتية:

١ ـ سيطرة الدولة والحزب على التعليم.

٢ ـ التنمية الايديولوجية المستمرة.

٣ ـ الاهتمام بالنشاط والتربية الخلقية.

٤ ـ الاهتمام بالتنمية المادية المتمثلة بالعلم والتكنولوجيا.

٥ ـ الاهتمام بالمدارس العامة وتحريم المدارس الخاصة.
٦ ـ العناية الزائدة بالأطفال والشباب ومؤسساتهم.

٣ ـ النموذج التربوي في العالم الثالث: نقصد بالعالم الثالث البلاد غير المتقدمة والتي ما زالت تبحث عن التنمية وتتميز بعدم الاستقرار السياسي، والتخطيط في نظمها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية وذلك بسبب مؤثرات خارجية وداخلية. والذي يحزن حقاً أن معظم بلدان العالم الثالث كانت بلداناً ذات حضارة في التاريخ القديم سواء أكانت في القارة الهندية أم الأسيوية أم غير ذلك، حيث ما زالت هذه البلدان بدون فلسفة اجتماعية واضحة تنبثق عنها فلسفة تربوية محددة كما هو الحال في العالم الرأسمالي الغربي.

ومن أهم السمات التي تتميز بها النظم التربوية في العالم الثالث:

١ ـ الازدواجية في التعليم والصراع بين القديم والحديث.
٢ ـ انتشار ظاهرة الأمية.
٣ ـ انفراد الدولة بمسؤوليات التربية والتعليم.
٤ ـ عدم تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية.
٥ ـ عدم التوازن بين أنواع التعليم ومراحله.
٦ ـ غلبة الجانب النظري على الجانب العلمي في التعليم.
٧ ـ قصور التخطيط للتعليم وضعف السياسات التربوية.

مع نهاية موضوع النماذج التربوية المعاصرة، نكون قد ختمنا هذا الفصل، اعتقاداً منا بأن المعلومات التي قد وردت تكون كافية بتزويد الدارس بخلفية علمية وثقافية عن مفهوم التربية في اللغة والمصطلح، وظيفتها لتنمية الفطرة الإنسانية بأبعادها المختلفة، وكذلك وظيفتها الاجتماعية، بالإضافة إلى المذاهب الكبرى التي حاولت تفسير التربية في النظام الاجتماعي، وطرائق دراسة التربية، ووسائط التربية، والتربية المدرسية ووظائفها، فضلاً عن أصناف التربية والأصل في اختلاف المفاهيم التربوية، كما شرحنا أبعاد التربية واتجاهاتها وأخيراً عرضنا

لفلسفة التربية من حيث معناها، ووظائفها التربوية، والنماذج التربـوية المعـاصرة المتمثلة في النمـوذج التـربـوي الـرأسمـالي، والنمـوذج التـربـوي الاشتــراكي، والنموذج التربوي القائم في العالم الثالث.

المراجع :

(١) آفانزي، غي، ترجمة: عبد الله عبد الدائم. الجمود والتجديد في التربية المدرسية، (بيروت: دار العلم للملايين، سنة النشر: ١٩٨١).
٢ ـ توفيق مرعي ومحمد الخوالدة، محمد إبراهيم حسن وعبد المجيد النشواتي مدخل في التربية، (سلطنة عمان، ١٩٨٤).
٣ ـ رضا، محمد جواد، فلسفة التربية، (الكويت: شركة ربيعان للنشر والتوزيع، ١٩٨٤).
٤ ـ سليمان، عرفات عبد العزيز، ديناميكية التربية في المجتمعات، (القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٧٩).
٥ ـ غالب، هنا. التربية المتحددة وأركانها، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٠).
٦ ـ فنكس، فيليب، ترجمة: محمد النجيحي فلسفة التربية، (القاهرة: مؤسسة فرانكلن، ١٩٥٨).
٧ ـ فهمي، محمد سيف الدين. النظرية التربوية، أصولها الفلسفية والنفسية، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢).

— Belak, Ann, Harold Berlak, Dilemmas Of Schooling; Teaching and Social Change, (London, Methuen, 1981).

- Brenton, Myron, The Runaways: Children, Husbands, Wives and Parents, (Boston, MA: Little, Brown, 1978).

- Bruner, Jerome., The Process of Education, (Cambridge MA: Harvard University Press, 1960).

- Whitehead, Alfred North, Aims of Education ,(New York: Free Press, 1967).

الفصل الثامن

مدخل الى الجغرافيا والبيئة

د. مهنا حداد و د. عبد الله الطرزي

البيئة والجغرافيا والإنسان

إذا شممت الصبا تأتي الصبا من صمد
روحي بتلك القرى فيها الهوى يتّقد

مهنا حداد.

١ ـ المدخل الجغرافي:

حضارة الإنسان جزء من البيئة الطبيعية التي يعيش فيها وتتكيف بهذه البيئة أيضاً. فنوع الملابس التي ينسجها الإنسان وكم يلبس منها والمساكن التي يحتاجها الإنسان في محيطه الجغرافي يعتمد على المناخ. كذلك فالمواد التي يستعملها الإنسان في تصنيع حاجاته من البيئة الجغرافية كما هي أيضاً المواد التي يصنعها عدا في حالة تقدم المواصلات فإن الإنسان قد يستورد هذه المواد. من ناحية ما نجد أن جميع جوانب الحضارة الإنسانية تتأثر بالبيئة الطبيعية، ومن ناحية أخرى فإن الجهد الذي يبذله الإنسان لاشباع رغباته المادية تغير هذه البيئة وبعض الأحيان بطرق تؤدي إلى إيذائها. كما أن البيئة الطبيعية تؤثر على اتجاهات الإنسان ومعتقداته ونماذج تعبيره الفني. نجد مثلاً أن ديانة شعب ما عميقة التأثر بالبيئة ويختلف هذا التأثير من البيئة الصحراوية إلى البيئة الجبلية أو البحرية، غير أن الديانة والفن أقل تأثراً بالبيئة الطبيعية مما في الجوانب التقنية والاقتصادية للحضارة. هذا المدخل الذي يدرس الإنسان في بيئته الطبيعية وتأثير هذه البيئة عليه وعلى اقتصاده وتكاثره هو المدخل الجغرافي بما فيه المناخ والنمو السكاني والمحيط البيئي.

٢ ـ البيئة ومعناها:

بيئة الإنسان هي جميع العوامل الخارجية التي تؤثر على حياته وسلوكه وتظهر هذه التأثيرات على شكل حوافز فيزيائية تنتج الرؤية، والأصوات، والأذواق، والروائح وجميع المهيجات الجسمية. هذه المهيجات هي التي تقود الإنسان بأن يعي محيطه الطبيعي، ومن خلالها يستطيع أن يفسر هذا المحيط ويتفاعل معه. إحدى الطرق الجيدة لفهم المحيط الطبيعي الكلي هو الفصل بين الجانب الإنساني والجانب غير الإنساني في هذا المحيط. فالجوانب أو العوامل الإنسانية في البيئة ندعوها البيئة الاجتماعية أما الجوانب الأخرى فندعوها البيئة الطبيعية. تعتمد الطبيعة العامة للمحيط الاجتماعي في أول الأمر على الحضارة التي تنتمي إليها الجماعة، في حين تعتمد خصائص المحيط الطبيعي على المناخ والمصادر المائية، نوع الأرض وطبيعتها، الحياة النباتية والحيوانية والمصادر المعدنية لذلك الجزء من العالم الذي يسكنه الإنسان. وهناك بديهية تقول أن الإنسان يقوم ببعض التغيرات على بيئته الطبيعية إذا سكن فيها مدة طويلة سواء للأصلح أو للاسوء، ويبقى من الصعب أن نضع حدوداً بين ما هو محيط طبيعي بحت وما هو محيط طبيعي ناتج عن تدخل الإنسان.

٣ ـ التوازن البيئي:

علم التكيف البيئي هو العلم الذي يهتم بالتفاعلات بين الكائنات الحية ومحيطها الطبيعي. ولا يتكون المحيط الطبيعي للنوع الحي من العالم الجماد من حوله فحسب بل أيضاً من جميع الأنواع الحية التي تؤثر عليه، بما في ذلك الكثافة السكانية لأعضائه وخصائص سلوكهم.

يهتم علم التكيف البيئي للانسان بتكيف المجتمعات مع محيطاتها الطبيعية، فهو يهتم بالعمليات التي تتكيف المجتمعات من خلالها بما هو حولها آخذة بعين الاعتبار التقنية التي تستعملها هذه المجتمعات وأنواع التنظيمات الاجتماعية التي تؤثر على هذه العمليات. ويطبق علماء التكيف البيئي بعض

النتائج العلمية التي وصل ويصل إليها علم الأحياء على مشاكل أظهرتها العلوم الاجتماعية.

تعرف الطبيعة عادة نوعاً من التوازن البيئي. يعني هذا أن كل حيوان وكل نبتة بخصائصها واحتياجاتها تجد طريقة ما للتكيف بالمحيط وللبقاء. غير أن الأنواع الأخرى تقف في طريقها كي لا تتوسع إلى ما لا نهاية وتقضي عليها. كذلك تعتمد الأنواع الحية العديدة على أنواع أخرى في الحصول على غذائها وإشباع حاجاتها. لكن على الرغم من ذلك فإن التوازن البيئي ليس توازناً ثابتاً وعادة ما يتغير ببطء على مدى طويل من الزمن. ثم أن أنواعاً جديدة تظهر مع الزمن وتتكيف بطريقة متفوقة على الأنواع الأخرى وكثيراً ما تخنق بعض الأنواع القديمة، أو تطرأ تغيرات جوية لا تقدر بعض الأنواع على التكيف بها. فحيوان الدينوساورس قد انقرض منذ عصور وربما لن نعرف لماذا.

قام الإنسان في الأزمنة الحديثة بتغييرات كثيرة في مناطق كثيرة من العالم، وكانت بعض هذه التغيرات من وجهة نظر الإنسان جيدة لكنها كانت وبائية من وجهة نظر أخرى. أدخل الإنسان مثلاً الأرنب إلى أستراليا وبما أن الحيوانات المعادية للأرنب لا تعيش في استراليا فقد تكاثرت هذه بالملايين بحيث أصبحت مشكلة وطنية. ودون قصد أدخلت مبيدات الحشرات من جزء من العالم إلى الجزء الآخر ومنذ الحرب العالمية الثانية أخذ الإنسان من خلال استعمال الـ د. د. ت بالقضاء على أشكال من الحياة وبتهديد صحة الإنسان. أما في الوقت الحاضر فإن الخطر أصبح كبيراً في احتمالية تغيرات حتفية في العالم لأن أي انفجار في محطة نووية قادرة على القضاء على مدينة أو مقاطعة كاملة، كما أن غلطة واحدة في عملية شطر الجينات قد تحدث أشكالاً عجيبة من أشكال الكائنات الحية التي قد تقضي علينا جميعاً.

٤ ـ الجغرافية والمحيط الطبيعي:

وقع التوكيد في الفصول السابقة على أهمية المحيط الاجتماعي للانسان

والاختلافات الحضارية العديدة المحتملة في نوع معين من البيئة الطبيعية. وعلى المدى البعيد فإن الطبيعة تؤثر على تطور الحضارة وتضع حدوداً شبه ثابتة لأنواع التكيف الحضاري الممكن في بعض الاتجاهات. ومهما تقوم به حضارة مجتمع ما أو لا تقوم به من أفعال فإنها سوف تعمل على مساعدة الإنسان في التكيف بمحيطه الجغرافي ـ أو الشروط الطبيعية في العالم من حوله. يعني هذا بطريقة ما أن المحيط الجغرافي سوف يقدم للإنسان أقل ما يمكن ليحصل على طعام كاف، ولباس ومسكن تمكنه من البقاء. دعنا إذن نفحص باختصار بيئة الإنسان الطبيعية ومتغيراتها.

يدعى المحيط الطبيعي للنبات والحيوان وحتى للإنسان مكان السكن أو الموطن. نعني بالموطن لجماعة من الناس أنها المنطقة التي يسكنون فيها والشروط الطبيعية التي تحدث في هذه المنطقة. ونستطيع تصنيف الاختلافات في هذه الشروط الطبيعية من منطقة لأخرى كاختلافات في المناخ وطبيعة الأرض والموارد الطبيعية.

أ ـ **المناخ**: المناخ أهم جانب من جوانب البيئة الطبيعية، والعناصر الأولية للمناخ هي درجة الحرارة وهطول الأمطار. نصف مساحة الكرة الأرضية تقريباً غير مسكونة إما لأنها شديدة الجفاف، أو شديدة الرطوبة أو شديدة البرودة.

تقسم الأرض بناءاً على أسس مناخية إلى ثلاثة أقسام: المناطق القطبية والمعتدلة والاستوائية. تسكن بعض المناطق القطبية شعوب بدائية متبعثرة، وباقي هذه المناطق خال من السكان. ففي المناطق المأهولة نجد أن المناخ والصيف القصير لا يسمحان بمزاولة الزراعة أو لا يسمح إلا بالقليل منها، من هنا تعتمد الحياة على الصيد وصيد الأسماك أو تدجين الوعل. أما المناطق المعتدلة فتعرف كثافة سكانية مرتفعة ويعتمد السكان على اللحوم والحبوب والمنتوجات الصناعية. وفي هذه المناطق وصل الإنسان إلى تقدم مادي ملحوظ. يفسر لنا العلماء مثل السورث هنتنجتن (Elsworth Huntington) ذلك بأن المناخ المعتدل

يجعل الإنسان نشيطاً ويزيد من إرادته في العمل. الكثافة السكانية العالمية موجودة كذلك في بعض المناطق الاستوائية حيث يعيش الناس على انتاج منتجات زراعية مثل الرز والسكر والشاي والكاكاو والمطاط والموز.

العنصر الجوهري الثاني اللازم لدعم التواجد الإنساني هو هطول الأمطار، مصدر المياه الطازجة. وليس الماء مهماً في الزراعة فقط بل أيضاً في الصناعة. فالصناعات الكبيرة مثل الفولاذ والورق والكيماويات والمطاط بحاجة إلى كميات هائلة من المياه. ويختلف هطول الأمطار اختلافاً كبيراً بين منطقة ومنطقة. ففي المناطق حيث تهطل الأمطار عشر أنشات أو أقل تكون هذه الكميات من القلة بحيث أنها بحيث أنها لا تساعد الانسان على الزراعة أو الصناعة سوى ما يخص بعض أنواع الزراعة الخفيفة ونمو بعض الأعشاب للرعي. وفي بعض الأحيان نجد الأنهار والجداول التي تجلب المياه من أماكن بعيدة مثل نهر النيل في مصر الذي يساعد على قيام الزراعة والصناعة على الرغم من جفاف المناخ، وأصبحت مصر بعد بناء سد أسوان قادرة على توصيل المياه إلى مناطق مختلفة من البلد.

نجد المناطق التي تهطل فيها الأمطار أقل من عشر أنشات في وسط استراليا وأجزاء من هضبة التبت ومنغوليا، الصحراء الإفريقية وشبه الجزيرة العربية، الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية وجنوب غرب الولايات المتحدة، بينما عكس ذلك نجد أن متوسط هطول الأمطار في جاوة والهند يتعدى ١٠٠ أنش وتصل إلى ١٣٣ أنش في المناطق الاستوائية البرازيلية. أما درجات الحرارة التي تساعد على الزراعة فتتراوح بين ٢٠ ـ ٩٠ أنشاً من الأمطار سنوياً، غير أن تربية الماشية والأبقار ممكنة في المناطق حيث يصل هطول الأمطار بين ٨ ـ ١٠ أنشات سنوياً.

ب ـ الجبال والسهول والأنهار والمحيطات: لا يعتمد عدد السكان الذي تحتويه منطقة ما على درجة الحرارة ومعدل هطول الأمطار فحسب بل أيضاً على

طبيعة الأرض في تلك المنطقة وخصائصها الطبيعية. فالجبال مثلاً غير صالحة للزراعة أو للصناعة. ويبدو أن تمركز السكان كثيراً ما يكون في الأراضي المنخفضة وفي الأرض السهلية الخصبة من العالم وكذلك على ضفاف الأنهار. فالأنهار تزود الصناعة بالماء وكثيراً ما تقدم التسهيلات للمواصلات المائية. حتى حين تكون الأنهار غير قابلة للملاحة فإن بناء السكك الحديدية والطرق المعبدة على ضفافها أسهل بكثير من انشائها في المناطق الجبلية. نجد مثلاً أن أشهر مدن العالم قد بنيت على الأنهار مثل لندن وباريس ونيويورك وبيونس ايرس والقاهرة وبغداد وغيرها وبخاصة على مرافىء كونتها هذه الأنهار في التقائها مع البحار. والمدن المبنية على ارتفاعات عالية قليلة مثل المكسيك التي أنشأت على ارتفاع ٨٠٠٠ قدم ولاباز في بوليفيا على ارتفاع ١٢٥٠٠ قدم وهذه شواذ واضح.

كانت المحيطات في الزمان القديم أسرار عجيبة، كانت نهاية العالم لا يعرف أحد ما يمكن تحتها، وتشكل في الوقت الحاضر حدوداً تمنع الجيوش الغازية من احتلال البلاد ولكنها فوق كل ذلك طرق للمواصلات والهجرة والسفر والتجارة. لقد عرفت القرون الأربعة الأخيرة هجرة الرجل الأبيض الذي استولى على قارات بأكملها واستوطنها عن طريق المحيطات. وتقطع المحيطات في هذه الأيام الآلاف المؤلفة من الطائرات والسفن التي تسير في طرق معينة بين عواصم العالم ومراكز التجارة والسفر. لقد أدت تجارة المحيطات إلى قيام كثير من المدن على المرافىء الرئيسية، وهذه من أضخم مدن العالم.

ج - **الموارد الطبيعية**: تتكون الموارد الطبيعية من تلك الأجزاء في الطبيعة التي يستعملها الإنسان لفائدته الخاصة. وتعتمد الأجزاء التي يستخدمها الإنسان على التكنولوجيا الموجودة التي يمكن له أن يستعملها في التصنيع. فقبل أن يخترع المحرك كان الناس يعتبرون الزيت شيئاً ضاراً يجعل الأرض دون استعمال وكانت البلدان التي تدعى الآن بلدان النفط والصناعات النفطية تعتبر بلاداً فقيرة.

الموارد الطبيعية المفيدة موزعة توزيعاً غير عادل بين أجزاء الأرض. فمثلاً نجد أن مخزون الزنك موزع بين الملايا وبوليفيا والنيكل في كندا وخامات الحديد موزعة توزيعاً أوسع لكن بلداناً مثل ايرلندا وإيطاليا لا تملك خامات الحديد. لقد برزت أهمية امتلاك مورداً طبيعياً واحداً من خلال أزمة النفط عام ١٩٧٠ التي قسمت البلد أو حتى مقاطعات بلد واحد بين مالك وغير مالك للنفط. في تلك الأزمة وجدنا دول الشرق الأوسط وشمال أمريكا أقل تأثراً بأزمة النفط بينما كان على دول أخرى مثل الهند وبنغلادش ودول أفريقيا الفقيرة أن تصارع من أجل البقاء. وبما أن بعض الموارد مثل الزيت والحديد والفحم مهمة جداً في الصناعة فإن الدول التي لا تملكها تبقى محدودة الإمكانيات في نموها الاقتصادي. إحدى أهم الموارد الطبيعية هي الأرض الصالحة لنمو الغابات. كذلك وجود الأرض الصالحة للزراعة من أهم الموارد الطبيعية حيث أن العالم يعتمد عليها في انتاج الغذاء. قامت الحضارات الإنسانية القديمة في تلك السهول الصالحة للزراعة مثل وادي النيل ومنطقة النيل ومنطقة ما بين النهرين على نهر دجلة والفرات وفي سهول الصين.

في حديثنا عن الموارد الطبيعية علينا أن لا نغفل أهمية الحياة الطبيعية مثل الأشجار والنباتات والحيوانات والأسماك والحشرات، وليست جميع هذه الأشكال من الحياة ما نعتبرها موارد طبيعية. فنحن كبشر نعتبر كثيراً من الحشرات بلاء، فهي تزعج الإنسان وتنشر أمراضه وتقضي على محاصيله، بينما في الأزمنة الغابرة كانت هذه الأشكال من الأشجار البرية والنباتات والحيوانات والأسماك وبعض الحشرات تزود الإنسان القديم بغذاءه. في فترة لاحقة من التاريخ دجن الانسان بعض الحيوانات والنباتات واستخدمها ليحصل على كمية أوفر من الغذاء ويستقل عن الآخرين. وكذلك فإنه دجّن بعض الحيوانات ليس للغذاء فقط إنما للعمل أيضاً.

٥ ـ العلاقة بين المحيط الطبيعي والحضارة:

قدمنا الرأي بأن المحيط الطبيعي يؤثر على تكـوين حضارة الإنسـان، لكن هذا لا يشرح لنـا جميع أوجـه الاختلافـات بين الحضارات. فعلى الـرغم من أن حضارة شعب ما يجب أن تتكيف بـالبيئة الـطبيعية التي يسكنهـا هذا الشعب، إلا أن بعض أنواع التكيف بالبيئة الطبيعية تتفوق على الأنواع الأخرى ولكن أيضاً قد يكـون هناك نـوعان بـديلان من التكيف بنفس البيئـة الطبيعيـة أو ببيئـات طبيعيـة متشـابهة بنفس الـدرجة من النجـاح. ومن الصعب بل من المستحيـل أن نشـرح لماذا تبدي حضارة ما نـوعاً من التكيف بينمـا تستخدم حضـارة أخرى نـوعاً اخـر وبـطريقة أخـرى في نفس البيئة الـطبيعية. يعني هـذا أن البيئـة الـطبيعيـة ليست العامل الوحيد في تحديد اتجاه الحضارة ولا حتى في تحـديد تلك الجـوانب من الحضارة التي تعتمد عليها كثيراً.

تبدي بعض مراحل الحضارة استقلالاً تاماً عن المحيط الطبيعي الذي تنشأ فيه. وقد تتأثر هذه المراحل بها ولكن بطريقة غير مباشرة يصعب توضيحهـا. مثال على ذلك هي المعتقدات والعادات والتقاليـد والأخلاق وتنـظيم العائلة وعـلاقات القـربى والفن والمـوسيقى، هـذه المفـاهيم قـد تختلف اختـلافـاً شـاسعـاً بين الحضارات ولكن العلاقة بين هذه الاختلافات والاختلافات في البيئة الطبيعية غير واضحة.

المحيط الطبيعي هو أحد العوامل التي تؤثر على الحضارة وتحدد اتجاهاتها وكما قلنا في مرحلة سابقة فإن الحضارة تراكمية وتجمع باستمرار عناصر جديدة. والاتجاه الذي تتطور فيه الحضارة لا يتأثر بالبيئة الطبيعية فقط بل أيضـاً بالأنمـاط المؤسسية التي أقامتها الحضارة، بالاختراعات، والاستعارات من حضارت أخرى وأيضاً بعوامل إضافية غامضة لا يسهل إظهارها ووصفها.

أ ـ مثـال على التكيفات المختلفـة بنفس البيئة الـطبيعية: قـدم لنـا العـالم هرسكوفيتس في كتابه (الإنسان وعمله، ١٩٤٨: ١٥٧ ـ ١٥٨) مثالاً ممتعـاً وحياً

لنوعين من التكيف الحضاري في البيئة الواحدة أو المتشابهة والذين نجدهما في وقتنا هذا:

«لقد قمنا بملاحظات حول الطريقة السليمة التي تكيف من خلالها شعب الأسكيمو، الأسكيمو الشرقيين على وجه التحديد، بمنطقة سكنهم. وأشرنا إلى الدقة التي استعمل هذا الشعب بها الأدوات التي قدر أن يحصل عليها، بناء الكهوف الجليدية من بلوكات الجليد واستعمال عاج الفظ (حيوان بحري شبيه بالفقمة) في أدوات الصيد، والآلات الخشبية بصنع أدوات الصيد، والطرق المحبوكة في استعمال كلابهم بجر العربات الجليدية، والقوارب المحكمة الصنع التي يصنعونها بحيث أنها يمكن أن تقلب في الماء ويستطيعون النجاة منها في الماء. كل هذا يشير إلى أن من أراد أن يسكن هذه المناطق القطبية يجب أن يتبع طريقتهم في التكيف إذا ما أراد البقاء في الحياة».

ولكن هندما ننظر إلى المناطق السيبيرية التي تسكنها قبائل «الشوكشي» و «الكورياك» و «اليوكاغير» يظهر نوع آخر من الحضارة على الرغم من التشابه بين هذه المناطق ومناطق أقصى الشمال في أمريكا الشمالية. فالإيجلو، أو الكوخ الجليدية غير معروف في المناطق السيبيرية، فهي تعرف الخيام المصنوعة من الجلود والمثبتة على برواز من الخشب على الرغم من أن الخشب في هذه المناطق نادر كما هو في جميع مناطق الدائرة القطبية. والسيبيريون على عكس الأسكيمو رعاة لحيوانهم المعروف «الوعل» على الرغم من قربهم من شط البحر والإمكانية الموجودة بأن يكونوا صيادين كما هي شعوب الأسكيمو. في حياة الرعي هذه يذهب الرجال مع قطعانهم في أيام الشتاء الباردة حيث تصل درجة الحرارة إلى أكثر من ثلاثين درجة مئوية، ويكون على النساء والأطفال أن تهتم بفك الخيام وتحميلها على حيوان الوعل وأن تلحق بالرجال إلى مكان الرعي الجديد حيث يجدون الكلاء. ثم أن الحطب غير موجود في هذه المناطق، ولذلك فالناس لا يعرفون النار للتدفئة بل يلبسون الملابس الجلدية ونجدهم في البرد حتى تلحق بهم القوافل ويقيمون خيامهم.

ففي هذه المنطقة القطبية نجد حضارتين مختلفتين علماً بأن البيئة الطبيعية متشابهة إلى حد بعيد، الأولى مبنية على الصيد والأخرى على الرعي. هذا التكيف الذي قامت به الحضارتان ناجح والقياس هو بقاء الإنسان على قيد الحياة في هذه الحالة لأن الإنسان قد عاش في هذه المناطق لأجيال كثيرة متتابعة. وعلى الرغم من أن الطريقة التي استعملها الأسكيمو في التكيف قد تفوق تلك التي اتبعها سكان سيبيريا إلا أن القول بأفضليتها قول خطأ. ما يهمنا هو أن فرضية تحديد البيئة الطبيعية للحضارة واتجاهاتها قول يدعو إلى إعادة النظر (هرسكوفتس ١٩٤٨: ١٥٧ ـ ١٥٨).

ودعماً لنظريته بأن تكيف جماعة ما بالمحيط الطبيعي تحدده عوامل حضارية أكثر ما تحدده البيئة الطبيعية يقدم لنا هرسكوفيتس عدداً من الأمثال ليرينا أنه حتى في المناطق التي تحتوي على نفس الموارد الطبيعية فإن بعض الجماعات التي تسكن هذه المنطقة سوف تستعملها بينما ترفضها جماعات أخرى. ربما نفهم هذه الظاهرة عندما تعيش مثل هذه الجماعات بعيدة عن بعضها تفصلها مساحة شاسعة.

«في منطقة الباتسوا في جنوب أفريقيا تعيش قبائل باتسونجا وبارونجا التي لا تستعمل لحاء الشجر في صنع ألبستها كما تفعل قبيلة باشوبي. كذلك يصنع أفراد باشوبا من هذه الشجرة آلتهم الموسيقية المدعوة «ماريمبا«والتي تتمتع جميع هذه القبائل باستعمالها. وعلى الرغم من وجود المواد الأولية التي تصنع منها فإن هذه القبائل تحصل عليها عن طريق الشراء من أفراد قبيلة باشوبي. هناك أيضاً شجرة «الماكواكوي» ذات الفاكهة الحلوة التي تعود أفراد قبائل باشوبي وباتسجونجا أكلها وكونوا مناعة ضد سمها، أما أفراد القبائل الأخرى فلا يأكلوها. كذلك فعلى الرغم من أن شاطىء المحيط قريب من هذه القبائل إلا أننا نجد أن أفراد قبيلة الباتسجونجا انفردوا بصيد الأسماك وأعرضت عنها القبائل الأخرى. مثال آخر نجده في صناعة السلال من شجر الملالا الموجود في كل مكان لكن

الـذين انفردوا بهـذه الصناعـة هم أفراد قبـائل البـاكوا دون غيـرهم ويبيعون هـذه السلال إلى القبائل الأخرى، بينما انفرد أفـراد قبائـل «المكدونـة» بصنع الأدوات الخزفية وبيعها للقبائل الأخرى مقابل الحبوب والسوداني وأنواع الأطعمة الأخـرى حسب الطقوس المحددة في هذه التجارة» (هرسكوفيتس، ١٩٤٨ : ١٥٩).

ب ـ خصائص حضارية متشابهة في مناطق سكنية مختلفة: لا نجـد تشابـه الخصـائص الحضاريـة في حضارات نمت في منـطقة واحـدة فقط بل أيضـاً بين حضارات نشأت في منـاطق بعيدة عن بعضهـا بعضاً. العـائلات متعـددة الأزواج التي ما زالت موجودة في منطقة التبت وجدت كذلك في مناطق مختلفة من آسيـا حيث المحيط الطبيعي مختلف كلياً عما هو في منطقة التبت. كذلك نجد الزواج الموحد ينتشر في معظم منـاطق العالم وفي كل البيئات الطبيعية. ونشأت الصناعة في بريطانيا ولكننا نجدها في المناطق ذات المناخ المعتـدل وانتشرت كـذلك في مناطق أخرى مثل الهند وجنوب شرقي آسيا حيث البيئة الطبيعية مختلفة جداً.

ج ـ الحدود الطبيعية والاختلافات البشرية: في الأزمنة القديمة وقبـل تطور التكنولوجيـا وتسهيل المـواصلات كـانت الحدود الـطبيعية تقف حـاجزاً في وجـه الجمـاعات ولـذلك كـانت الجماعـات تبقى في عزلـه وهكذا تكـوّن كل جمـاعة حضارتها الخـاصة. هـذه الحدود الـطبيعية مثـل الأنهار والجبـال والبحار عـزلت الجماعات الإنسانية عن بعضها بعضاً لمدة طويلة من الزمن. يقال مثلاً أن الهنود الحمر جاؤا من آسيا عن طريق ما يدعى الآن مضيق بيرنج ولكن المحيط عـزلهم في منطقتهم الجديدة عن العالم القـديم، كما فعلتـه في عزل شعـوب استراليـا. ونجد كذلك أن الصحراء الإفريقية فصلت الشعوب السوداء في أواسط القارة عن الشعـوب القوقـازية في شمـال القارة لأزمـان طويلة، وفصلت جبـال همالايـا بين شعـوب الهند والجنس الأصفـر في الشمال والشـرق. وبسبب هذه العـزلة قـامت الحضارات المختلفة والمميزة. ولكن الآن بعد تقدم العلوم والتكنولوجيا نجـد أن عنـاصر الحضـارة الغـربيـة قـد وصلت إلى معـظم أنحـاء العـالم. غيـر أن هـذا

الانتشـار، وكما يبـدو، يقتصر على انتشـار العلم والتكنولـوجيا أكثـر من جـوانب الحضـارة الغربيـة الأخرى. هكـذا ساعـد تطور المـواصـلات البـريـة والبحـريـة والجـوية في التغلب على هـذه المصاعب وعمـل على نشر الثقـافات في منـاطق مختلفة من العالم.

د ـ عـلاقة المصـادر الطبيعيـة بالنشـاط الاقتصادي والتكنـولوجيـا: النشاط الإقتصادي هو النشـاط الإنساني الـذي يهتم بحصول الإنسـان على قوتـه ويلعب هـذا النشاط دوراً رئيسيـاً في كل حضـارة. وتتحـدد طبيعـة هـذا النشـاط بثلاثـة عـوامل: الأول، هـو أن جميع النـاس يـريـدون الحصـول على أنـواع كثيـرة من الأغراض أو السلع النادرة. نعني بالسلعة النادرة ذلك الشيء الـذي لا توجـد منه كميـات كبيرة والـذي نحصل عليـه فقط إذا انتجناه أو إذا أعـطينا مقـابله أشياء ذا قيمة عالية. الدافع الذي يؤدي إلى النشاط الاقتصادي هو رغبة الإنسان في إشباع حـاجات خـاصة. العـامل الثـاني، الـذي يحـدد النشـاط الانسـاني هـو المـوارد الطبيعية. السلع المرغوب فيها مثل الطعام والملابس والبيوت والأسلحة لا تخلق من لا شيء، وإذا ما أراد الإنسان الحصول عليها فيجب أن تكون هذه في شكـل ما في البيئة الطبيعية «الموارد الطبيعيـة» التي يمكن تصنيعها لانتـاج هذه المـواد. والعامل الثالث، الذي يتحكم في النشـاط الاقتصادي الإنسـاني هو التكنـولوجيـا التي تعني معرفة كيفية استعمال الموارد الطبيعيـة لانتاج السلع المـرغوب بهـا بما في ذلك الخدمات.

تتأثر كل من التكنولوجيا والنشاطات الاقتصادية في مجتمع ما بمدى تواجـد الموارد الطبيعية علماً بأن وجود الموارد الطبيعية لا تحددهما. فالطاقة مثلاً عنصراً جوهرياً في الاقتصاد الصنـاعي الحديث. ولكن حتى الاقتصـاد الحديث لا يقـدر على استعمال الطاقة بشكل مكثف دون وجود كميات جوهرية من الموارد المنتجة للطاقـة. إضافـة إلى ذلك تعتمـد الطرق المستعملة لانتـاج الطاقـة على تـواجـد وتكـاليف الـطاقـة المـائيـة والفحم والغـاز الـطبيعي والنفـط ومـواد أخـرى مـثـل

الأورانيوم. وسوف تتأثر طرق انتاج الطاقة في المستقبل بمدى النجاح الذي يحققه الإنسان في القضاء على إسهام عملية انتاج الطاقة في تلوث البيئة والحاق الضرر بالمحيط أو البيئة الطبيعية.

هـ ـ التلوث (Pollution) : أصبحت مشاكل التلوث من أوائل المشاكل التي تشغل علماء البيئة، والتلوث يقود إلى تدمير الموارد الطبيعية وهو نتاج لعملية تصنيع المواد الخام. عرفت السنوات الخمسين الأخيرة تلوث كثير من الأنهار والبحيرات من خلال المجاري التي تصب فيها وبقايا الصناعات التي ترمى بها. نقد قاد التلوث في نهر الراين إلى الكثير من الخسارة للدول الصناعية الأوروبية سواء من حيث الملاحة أو من حيث استعمال هذه المياه في الري، أو من حيث صيد السمك. واجهت الولايات المتحدة نفس المشكلة في تلوث بحيرة ابرلي بحيث قتلت أسماك البحيرة وتوقف انتاج الأسماك. وأدت البقع الزيتية إلى تفاقم المشكلة في بحيرة ميتشيجان. كذلك أصبح الحصول على هواء نقي مشكلة كبيرة في كثير من المدن المكتظة بالسكان حيث يتنفس السكان مزيجاً من الهواء ودخان غازات السيارات والغبار وروائح المنتجات المختلفة الخارجة من مداخن المصانع.

مع زيادة عملية التلوث، علينا دائماً أن نبحث عن حلول جديدة لحماية الموارد الطبيعية من الأضرار والتلوث. وحتى لو نجحنا في ايجاد برامج للحفاظ على مواردنا الطبيعية فإننا سوف نواجه مشكلة ندرة الموارد في المستقبل. والحقيقة هي أن مشاكل التلوث هذه التي نتجت عن التصنيع في البلاد الصناعية قد أخذت تنتقل إلى دول العالم الثالث رويداً رويداً وإذا لم تضع هذه البلدان المدعوة بالبلدان النامية هذه المشاكل في برامجها التنموية فإنها سوف تندم على ذلك في المستقبل القريب.

والتلوث عدة أنواع نسمي منها ما يلي :

١ ـ تلوث الهواء.

٢ ـ تلوث الماء.

٣ ـ تلوث الأرض من خلال دفن البقايا الصناعية مثل صناعة الكيماويات.

٤ ـ تلوث الأرض من خلال رشها بمواد لقتل الحشرات.

٥ ـ التلوث السمعي مثل الأماكن القريبة من المطارات حيث أن أصوات الضجيج تؤثر على أذن الإنسان.

٦ ـ تلوث بصري من خلال استعمال الغازات الكثيرة التي تؤثر على عيون الناس، كما في الصناعات البترولية والغاز وغيرها.

٦ ـ السكان:

العلم الذي يهتم بالسكان يدعى ديموغرافيا وهذا العلم لا يهتم فقط بعدد السكان في منطقة ما إنما أيضاً بالعوامل التي تؤدي إلى الزيادة أو النقص السكاني. ويحتوي هذا المجال على مسائل كثيرة مثل الحالة الصحية والطبية والنظافة، تنظيم النسل وتواجد الغذاء والموارد الضرورية الأخرى. وتهتم الدراسات السكانية بتوزيع السكان على البلدان والمناطق وأنواع الناس الذين يكونون السكان في محيطهم الطبيعي والنفسي والحضاري. وعادة ما يحصى دارسو السكان الناس بناء على خصائص مميزة مثل الجنس والعمر والحالة الاجتماعية والمهنة والدخل والمواطنية والعرق.

٧ ـ نمو السكان في التاريخ:

لا يوجد لدينا معلومات أكيدة حول السكان قبل القرن التاسع عشر، ومعلوماتنا عن السكان قبل ١٧٥٠ أقل بكثير عما هي عليه بعد عام ١٨٠٠. ويمكن أن نقول أن سكان المناطق في القديم قد تعرضوا إلى تكاثر وتقلص. وعلى كل حال فإننا لم نكن قادرين على الحصول على أعداد للسكان بناءاً على الاحصاءات السكانية. الإحصاء السكاني هو تعداد مرتب رسمي لعدد الناس الذين يسكنون في منطقة ما. وعندما يحدث هذا التعداد يقوم الباحثون عادة بجمع معلومات أخرى مثل العمر والجنس وبناء على غياب التعدادات السكانية فنحن

قادرون فقط على القيام بتخمينات حول التغيرات السكانية قبل النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

كان أول تعداد سكاني ذو قيمة حدث في السويد عام ١٧٤٩، وكان أول تعداد في الولايات المتحدة عام ١٧٩٠ ثم انتشر التعداد السكاني في الدول الأوروبية وما إن جاء عام ١٨٥٠ حتى كان الغرب يعرف الإحصاءات السكانية الدقيقة. أما الأن فتعرف معظم دول العالم هذه الإحصائيات كما توجد دائرة احصاءات عامة في كل دولة على الرغم من أن احصاءات بعض المناطق تبدو غير دقيقة وتشبه التكهنات.

٨ ـ لماذا نمى سكان العالم بسرعة بعد عام ١٨٠٠؟

كان نمو السكان في العالم بعد عام ١٨٠٠ نتيجة مباشرة لتناقص معدل الوفيات، وكان المسؤول عن ذلك عاملان رئيسان. الأول هو التقدم في الطب والصحة العامة، والثاني هو ارتفاع مستوى الانتاج الذي قدم للفرد كمية من الغذاء زادت كثيراً عن مستوى الاكتفاء الذاتي. كان السبب في ارتفاع الانتاج للفرد الواحد هو ظهور التجارة واستثمار بعض المناطق غير المتطورة في العالم. ويعود الفضل في الزيادة السكانية إلى تقدم العلوم والتكنولوجيا التي قدمت للعالم إمكانية إعالة الزيادة السكانية. بالإضافة إلى ذلك فلم يتسنى لبعض المجتمعات الصناعية إعالة عدداً متزايداً من السكان فقط بل أيضاً في رفع مستوى المعيشة لهم إلى مستوى لم يعرفه التاريخ قط.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت بعض المناطق غير المتطورة تجرب فوائد تقدم العلوم والتكنولوجيا واتساع شبكة المواصلات. وقد قاد التقدم الصحي والطبي في العالم إلى انخفاض ارتفاع السكان في الدول المتطورة كما في دول أمريكا الجنوبية وآسيا (الهند والصين). في مقارنة للسكان بين ١٩٤٠ و ١٩٨٠ وجد الآتي من ارتفاع عدد السكان:

المنطقة	عدد السكان ١٩٤٠	عدد السكان ١٩٨٠
شمال أمريكا	١٠٠ مليون	٢٠٠ مليون
أمريكا الجنوبية	١٠٠ مليون	٣٠٠ مليون
أفريقيا	١٠٠٠ مليون	٤٠٠ مليون
أوروبا	٣٠٠ مليون	٤٥٠ مليون
آسيا	١٢٠٠ مليون	٢٦٠٠ مليون

على أية حال فقد كانت الزيادة في عدد السكان في الدول النامية على حساب مستوى المعيشة، وبينما بقي متوسط الولادة في الارتفاع كان الانتاج يرتفع ببطىء. وسواء توقف الارتفاع في مستوى الانتاج مؤقتاً وحدثت مجاعة أو سوء تغذية فإن النقص سوف يتعوض في وقت بسيط نتيجة لارتفاع الزيادة السكانية. فسكان آسيا قد تضاعف ثلاث مرات منذ بداية القرن العشرين ونجد في هذه القارة الآن أكثر من نصف سكان العالم ولو أنهم في كثير من الأحيان يعيشون على طرف مستوى الاكتفاء الذاتي. في عام ١٩٨١ كان عدد سكان الهند ٧٠٠ مليون نسمة بينما مساحة الهند تساوي ثلث مساحة الولايات المتحدة وقسم كبير منها صعب الاستثمار. من هنا فإن نصيب الأغلبية العظمى من سكان الهند هو الفقر. في كالكوتا مثلاً قدر عدد الذين لا مأوى لهم بحدود المليونين من البشر تعج بهم الشوارع نياماً في الليل. كذلك فقد وصل عدد سكان الصين إلى أكثر من مليار نسمة رغم الفقر (الصين هي البلد الوحيد التي فرضت تحديد النسل في العالم على كل من أفرادها).

٩ ـ نظرية مالتوس:

بقي النقاش حول زيادة السكان لأكثر من قرن كامل يدور في فلك نظرية مالتوس. كان مالتوس هذا كاهناً في كنيسة انجلترا وقد كتب عام ١٧٩٨ مقالته المشهورة «مقالة في مبادىء تأثير السكان على تحسين المجتمع في المستقبل وملحوظات حول تكهنات السيد جادوين م. كوندورسيت وكتاب آخرين»، وقد

أعاد تحرير هذه المقالة ست مرات خلال ثلاثين عاماً. لم تظهر آخر طبعة إلا بعد وفاة مالتوس عام ١٨٣٤، وقد بقيت المقالة تدور حول المحور ذاته سوى ما يتعلق في الطبعة الأخيرة التي ضمنها معلومات وعمت رأيه. تدور نظرية مالتوس حول المقولة بأن السكان سوف يتعدون العدد الذي يمكن أن تكفيه منتجات الاقتصاد الذاتي. ولم يك هذا الرأي جديداً إلا أن مالتوس وضعها في صيغة واضحة. فقد ذهب مالتوس إلى أن الإنسان سوف يتزايد في العدد من خلال ضرورة طبيعية قوية محورها الاجتذاب الجنسي بين الذكور والإناث. وإذا لم تظهر هناك مشاكل فإن السكان سوف يتزايدون دون حدود. إضافة إلى ذلك فقد ذهب مالتوس إلى أن السكان سوف يتزايدون بأشكال هندسية أي على التوالي وكان يعني بذلك أن عدد السكان إذا ما تضاعف في فترة زمنية تعادل ٢٥ سنة فإن العدد الجديد سوف يتضاعف في الخمسة وعشرين عاماً التالية أي أن التضاعف سوف يكون ٢، ٤، ٨، ١٦ وهكذا، بينما لا يمكن زيادة الانتاج إلا تتالياً ١، ٢، ٣، ٤ أضعاف وهلم جرا. لذلك فإن عدد السكان سوف يفوق بكثير ما يمكن للانتاج أن يعيله ونتيجة ذلك على المدى البعيد سوف تكون الجوع وسوء التغذية والأمراض والحرب.

وقد رأى مالتوس أن الزيادة السكانية سوف تفوق الزيادة في الانتاج بناء على ما دعي بقانون تناقص الفوائد. يقول هذا القانون أنه إذا زاد عدد العاملين في بقعة من الأرض على نقطة معينة فإن انتاج العامل الواحد سوف يتناقص على الرغم من أن الإنتاج الكلي سوف يرتفع. المناطق الصالحة للزراعة في العالم قليلة. ولكن إذا ما قدر الإنسان أن يستغل جميع المناطق غير المستغلة في العالم فإننا سوف نعود إلى قانون الفائدة المتناقصة على الرغم من أننا سوف نكون قادرين على زيادة الإنتاج حتى باستثمار البقع غير الصالحة للاستثمار. وحتى لو دخلت الوسائل التكنولوجية في الزراعة فإن الزيادة اللامتناهية للسكان سوف تصل إلى الحد الذي تصبح فيه الأرض المنتجة قليلة جداً وغير كافية لغذاء الفرد الواحد.

التفت مالتوس إلى الفكرة بأنه من الممكن اتخاذ بعض الخطوات الواقعية للحد من النمو السكاني من خلال تراجع الزيادة في معدل الولادة. وقد لخص لنا هذه الوقايات تحت عنوان دعاه «الضوابط الأخلاقية» ومن الممكن أنه كان يعني بهذه الضوابط الأخلاقية ضبط التعامل الجنسي قبل الزواج وتأجيل سن الزواج بناء على ما كان يراه في البلدان الأوروبية. وعلى كل حال فإنه كان يعتقد بأن تأثير هذه الخطوات سوف يكون طفيفاً في إيجاد حل للمشكلة.

ويبدو أن مالتوس كان يمانع الامتناع عن الأمور الجنسية بعد الزواج وككاهن فإنه كان يرفض أخذ الأدوية لمنع الحمل لأنه كان يعتقد أن الاكتفاء الجنسي في الزواج يجب أن يحتوي على مجازفة الحمل وإنجاب الأولاد ومسؤولية الاعتناء بهم، وإلا فأن الإنسان سوف يحرم من دافع الطموح للتحسن الاقتصادي من خلال حصوله على شيء من اللاشيء.

على كل حال وبعد مرور ما يقارب القرنين على نظرية مالتوس فإن تنبؤه لم يتحقق ذلك لفشله في تصور عمليتين: الأولى تطور أدوات الانتاج إلى الدرجة التي وصلت إليه في حين ركز مالتوس على استغلال المزيد من الأرض المنتجة. والثانية هو أنه لم يتصور فعالية تحديد النسل في المجتمعات وبخاصة في المجتمعات الصناعية حيث أن هذه الفعالية تزداد مع ارتفاع مستوى المعيشة. فقد أخذت الزيادة في الولادة تتناقص في الدول الصناعية منذ زمن مالتوس حتى الحرب العالمية الثانية في حين أخذت معدلات الوفيات بالتناقص أيضاً، وكل هذه العوامل ساعدت على تناقص النمو السكاني.

١٠ ـ السكان والموارد الطبيعية:

يتحدد حجم السكان الذي يمكن أن تعيله الأرض بالموارد الطبيعية وطرق الانتاج أو تكنولوجيا الانتاج التي تستثمر وتصنع هذه الموارد الطبيعية. والمورد الطبيعي الرئيسي للإنسان هو الأرض الصالحة للزراعة. هذه الموارد المحدودة هي التي حدت بمالتوس إلى أن يذهب بأن الزيادة في الانتاج لن تتناسب مع

الزيادة السكانية. لكن تطور التكنولوجيا الانتاجية جعلت استعمال المزيد من الأرض الزراعية ممكناً إضافة إلى موارد أخرى بطرق فعالة. ولذلك كان بامكان الدول الصناعية الرفع من مستوى انتاجية الأرض بحيث أصبح لديها من الفائض ما يكفي لاعالة الكثيرين في بلدان أخرى. وعلى الرغم من ذلك فإن حجم السكان في الكرة الأرضية الذي يمكن لهذه التكنولوجيا أن تزوده بالغذاء سوف يكون محدوداً وسوف يصغر مع تقدم الوقت. وإذا ما أردنا تزويد سكان العالم بنفس مستوى المعيشة التي يتمتع بها سكان الولايات المتحدة مثلاً يكون علينا أن نتغلب على كثير من المتاعب والمشاكل. ويبدو أن هذا الطموح غير واقعي ذلك أن الموارد الطبيعية محدودة للوصول إلى هذه الغاية.

١١ ـ مفهوم سقف الزيادة السكانية:

إذا ما اعتبرنا المستوى الحالي للتطور التكنولوجي فإن النمو السكاني في أي منطقة من العالم يزيد عن نقطة ما سوف يعني مستوى معاشياً أدنى للكثيرين. وسوف يؤدي ذلك إلى نقص في كثير من الموارد الطبيعية مثل الأرض والوقود والمعادن وغيرها. ومن ناحية أخرى فإن عدد السكان القليل سوف يواجه كثيراً من السلبيات. ففي البلدان القليلة السكان حيث يتبعثر هؤلاء فسوف يكون من الصعب الحفاظ على النظام والقانون في تزويد الخدمات الطبية والصحية أو لتزويد السكان بالتعليم. كذلك يكون من الصعب في هذه البلاد إيجاد الأيدي العاملة الكافية لبناء شبكة المواصلات والقيام بخدمات كثيرة أخرى. فما هو السقف المعقول لحجم السكان إذا ما خرجنا من نقطة الانطلاق بأن يحصل الإنسان على أكبر قدر ممكن من الرفاه المادي؟

لا توجد لدينا في الحقيقة طرق نستطيع من خلالها تحديد عدد السكان اللازم في مرحلة ما من مراحل التطور في بلد معين. ولكن كل بلد يعرف سقفاً معيناً إذا تعداه في الزيادة السكانية فإن الضغط على موارده الطبيعية سوف يزداد، وإن الانتاج للفرد الواحد سوف ينقص وبذلك يتراجع مستوى الحياة فيه. ويعتقد علماء السكان الغربيون أن بلداناً كثيرة مثل الهند والصين وبلدان جنوب شرق

آسيا وأمريكا اللاتينية قد تعـدت الكثافـات السكانيـة الممكنة فيهـا، بينما قـاربت الدول الأوروبية والولايات المتحدة هذه السقوف. ومن ناحيـة أخرى تحتـج هذه البلدان على هذه الأراء مدعية أن الدول الصناعية تحاول من خلال الالحاح على تحديد السكان أن تفرض إرادتها الاستعمارية.

١٢ ـ معدل الولادة ومعدل الوفيات:

محددات النمو السكاني في أي بلد هي معدل الولادات ومعدل الوفيات:

أ ـ التناقص في معدل الوفيات. معدل الوفيات هو عدد الذين يمـوتون بين ألف من السكان في سنة معينـة. معدل الـوفيات في العـالم الآن يقارب ٦, ١٠ وهو أقل بكثير مما كان عليه هـذا المعدل في المـاضي. وتعتمد احتمـالية هبـوط معدل الوفيات في المستقبل على تركيبة سكان العالم العمرية وعلى معدل التقدم في العلوم الطبية. هناك أيضاً احتمالات أخرى مثل أن الارتفاع في معدل الأعمار سوف يعني على المدى الطويل الارتفـاع في مستوى الـوفيات. وبنـاء على تطور العلوم الطبية فقد كان الإنسـان قادراً على التغلب على الكثيـر من الوبـاءات التي أودت بحيـاة الكثيـرين في المـاضي. وعلى الـرغم من وجـود احتمـاليـة التقـدم المتزايد في العلوم الطبية والسيـطرة على الأمراض فقـد أصبحت المشكلة تتمثل في ضبط الأمـراض التي تهاجم كبـار السن مثـل السـرطـان والتهـاب المفـاصـل والأمراض التي تهاجم القلب والأنسجة الدموية، والكبـد، والكلى، وعلى الرغم من تـوقعات التقـدم العلمي إلا أن ضبط هذه الأمـراض يتقدم بكـل بطء. وعلى الرغم من هذا كله فإن النمو السكاني سوف يعتمد على معدل الولادات.

ب ـ السبب في هبـوط معدل الـولادات. معدل الـولادات هو عـدد الأفراد الذين يولدون في كل ألف من السكان في بلد ما. أي نقص في معـدل الولادات سوف يزيد من تراجع النمو السكاني. وقد لوحظ تراجع النمو السكاني في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر في فرنسا بين الأثرياء في المدن وانتشر بعد ذلك إلى بـاقي المدن الأوروبيـة. أما في الـولايات المتحـدة فقـد بـدأ الهبـوط في معـدل

الوفيات حوالي عام ١٨٠٠ واستمر دون انقطاع على الرغم من أنه تميز بذبذبات دورية وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. وقد أجمع الخبراء بأن هذا التراجع كان نتيجة لدوافع اقتصادية واجتماعية وعدم الرغبة عند الأفراد في تحمل مسؤولية العناية بعائلات كبيرة الحجم وتحمل التكاليف الباهظة التي تجلبها معها.

مع تطور الطرق الحديثة في تحديد النسل وتنظيمه، أنتجت هذه القوى الاجتماعية تحديداً إرادياً لحجم الأسرة. ففي الغرب مثفلا نجد عدم الممانعة عند الرجل أو المرأة في إجراء عملية تعقيم، ثم أوجدت المجتمعات الأوروبية طرقاً عديدة لتفادي الحمل أثناء العملية الجنسية بين الرجل والمرأة مثل الإجهاض، والاعتكاف عن الممارسات الجنسية أيضاً وتنظيمها فقط في أوقات محددة ولذلك وصلت المجتمعات المتطورة إلى ثبات في حجم الزيادة السكانية. أما في الدول النامية حيث تحتاج العائلة إلى عمل الأبناء فقد استمر النمو السكاني بمعدلات عالية على الرغم من محاولة الحكومات في تخفيض معدل هذه الزيادة. ففي الصين مثلاً حاولت الحكومة إغراء الأسر لتحديد النسل وأخذت تكافىء الأسرة التي لا تنجب إلا طفلاً واحدة بتلفزيون مجاني. وقد أدت محاولة الهند في إرغام الأفراد على القيام بعمليات العقم إلى سقوط حكومة أنديرا غاندي. كذلك فقد استعملت الحكومات المختلفة أسساً مختلفة للحد من ارتفاع معدل الولادات وأدت جميعها إلى خفض ارتفاع معدل الزيادة السكانية، فقد هبطت هذه الزيادة إلى ١,٩ عام ١٩٨٠ في تايلند بينما كانت ٣,٣ ٪ عام ١٩٧٠. هذا التراجع السكاني قد يساعد على تحقيق التنبؤ الذي قامت به الأجهزة المختصة في الأمم المتحدة بأن معدل النمو السكاني قد يتوقف في نهاية الجزء الأخير من القرن العشرين.

١٣ ـ مشكلة النوع السكاني: يذهب بعض المهتمين بمشكلة السكان في العالم الآن إلى الاحتمالية بأن القوى التي تعمل في هذا العالم في الوقت الحاضر تؤدي إلى تدهور في الصفات الاحيائية للإنسان. ويرون الخوف الكبير

على البلدان التي وصلت إلى تطور كبير سواء التطور الاجتماعي أو الاقتصادي. وقد يأخذ هذا التطور شكلين:

١ ـ تدهور في السمات الطبيعية والمقدرة على التحمل وازدياد حدوث الخلل الجسمي.

٢ ـ تدهور في الذكاء عند السكان الأصليين للبلاد، أو قصور في تطور المقدرات النفسية.

أ ـ هل سيعاني سكان المناطق المتقدمة من التدهور الاحيائي؟ يذهب الذين يقولون باحتمالية التدهور إلى أن تطور العلم يعمل على احتمالية بقاء المواليد الضعاف على قيد الحياة ونموهم إلى البلوغ ومن ثم فإنهم سوف يقومون بالدعاية لجنسهم الضعيف. وعملية التدهور هذه قد تكون سريعة وقد تكون بطيئة نسبياً، ولكن مع الزمن ومع ازدياد هذه الفئة وتأثيرها فقد تصبح هذه المجتمعات مجتمعات ضعاف. عندها سوف يضعف مبدأ بقاء الأفضل أو ينتهي إلى الأبد. وبناء على ذلك فهم يذهبون إلى أن العلم والاتجاه الإنساني سوف يقود إلى ضعف الجنس الإنساني بدلاً من أن يخلصه.

يبقى من الصعب أن نعرف إلى أي مدى يكون لمثل هذا التفكير شرعيته أو تبريره. نحن نعرف أن الخصائص الطبيعية للنوع الحيواني يمكن أن تتغير من خلال التلقيح الاختياري، بمعنى أن نسمح فقط لتلك الأنواع التي نعرف أنها تملك خصائص طبيعية احيائية جيدة بالتكاثر. لكن معرفتنا بالأنماط الوراثية المرغوب بها محدودة بحيث أن التفكير بتحسين الجنس الإنساني يصبح من الفحشاء. فالمجتمع متشابك ومعقد إلى درجة أن الأنماط التي تبدو غير مرغوب فيها يمكن أن تكون جيدة، والعكس صحيح أيضاً.

كان التقدم الكبير في المحافظة على الحياة الانسانية من خلال تعلمنا كيف نسيطر على الأمراض المعدية وغيرها. فكيف نتأكد أن الذين ذهبوا ضحية هذه الأمراض كانوا من الضعاف جسمياً أو أصحاب المناعة القاصرة؟ يبدو لنا أن

هؤلاء لم يكن قد حصلوا على المناعة التي تقيهم شر هذه الأمراض ولا داعي أن تكون المناعة طبيعية. نحن قادرون في الوقت الحاضر أن نوفر هذه المناعة للأفراد وإذا لم نفعل ذلك فسوف نكون قادرين على حمايتهم من الأمراض بشتى الطرق الصحية. إضافة إلى ذلك فلنفترض أننا سوف نساعد الضعفاء على الحياة، ونوصلهم إلى مرحلة البلوغ، فإن السؤال سوف يبقى إذا ما أراد هؤلاء أن يتزوجوا ويتكاثروا مثل الأعضاء الأصحاء في المجتمع. وأخيراً فإن السمات الاحيائية للسكان غير خاضعة لتحديدات الوراثة الاحيائية، لأننا نقدر على تحسين هذه الصفات والخصائص من خلال تقديم الطعام والغذاء الجيد والأحوال المعيشية الأحسن.

الذين يخافون تدهور مستوى الذكاء في المجتمعات الغربية يقارنون بين مستوى زيادة معدل الولادات في الطبقة الغنية والمتوسطة من جهة وبين نفس الزيادة في الطبقة العاملة من جهة أخرى. يفترض هؤلاء بأن النجاح في الحياة له علاقة إلى درجة عالية بخصائص وراثية إحيائية مرغوب فيها. وهم يشيرون إلى أن الأفراد ذات الدخل والتعليم الجيد والمكانة الاجتماعية العالية ينجبون على العموم أقل بكثير من الفقراء والجهلة والذين لا يعرفون الحراك الاجتماعي.

لا يوجد ما يؤكد لنا بأن النجاح الاقتصادي والاجتماعي نتيجة لخصائص موروثة تمتلكها الطبقات العليا في المجتمع ولا تملكها الطبقات الضعيفة. ما نعرفه هو أن النجاح قد يكون نتيجة نتيجة أو يعتمد على كل من المحيط الاجتماعي والخصائص الموروثة وهناك أيضاً تغذية عكسية بين هذين العاملين. إضافة إلى ذلك فقد لا يريد الناس اعتبار المقاييس الاجتماعية المطلوبة للوصول إلى هذه الأهداف.

ب ـ تحسين الوراثة وتحديداتها. أول من تقدم بدراسة المقاييس الاجتماعية المقبولة لتحسين الصفات الاحيائية للجنس الانساني كان فرنسيس جالتون ابن عم شارلز داروين. وسمي هذا العلم تحسين النوع (Eu) إيجابي و

genics من Genetics وهي الوراثة). وقد ذهب إلى أن المتزوجين الجدد يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أصناف بناء على احتمالية الخصائص الوراثية لأبنائهم. صنف صغير مرغوب به، صنف كبير ممكن الرغبة فيه، وصنف صغير غير مرغوب فيه. وذهب إلى أنه من المهم اكتشاف طرق لضبط معدل الولادات في الصنف غير المرغوب فيه، وطرق لزيادة معدل الولادات في الصنف المرغوب به من خلال السماح لأفراد الصنف الثاني بالزواج المبكر وتأسيس عائلات كبيرة الحجم تحت شروط حياتية جيدة(١) .

وقد أشار بعض العلماء مثل ثومبسون(Thompson) إلى أن ممارسات الشعوب المختلفة في الماضي قد أدت إلى تحسين النسل. وأد الأطفال مثلاً قد يكون عادة للتخلص من الأطفال الضعاف البنية والمشوهين. كذلك اعتاد الناس في الماضي على اهمال الطفل الأعرج وغيره من المشوهين حتى أن معدل الوفيات بين مثل هؤلاء الأطفال كان عال. حتى في الوقت الحاضر نجد حالات كثيرة من الاجهاض عندما يعرف الطبيب أن المولود سوف يكون مشوهاً. ومثل هذه القرارات ليس من اختصاص الطبيب بل من اختصاص الزوجين .

مثل هذه المسائل تثير كثيراً من المشكلات. أولها من يقرر أو يأخذ القرار حول من يعيش ومن لا يعيش؟ أو بالأخرى من الذي يقرر الجهة التي سوف تأخذ القرار في مثل هذه الأمور؟ وحتى لو وجد من يقرر فهناك مشكلة اختيار الزوج أو الزوجة. لقد حاول النازّيون مثلاً القيام بتجارب على تجامع أفراد من الجنسين لا خيار لهما في اختيار بعضهما من أجل إيجاد الجنس المتفوق. أما في المجتمعات الديموقراطية فإن مثل هذه الخطوة تصطدم بمعارضة الأغلبية الساحقة من الناس لأن اختيار شريكة وشريك الحياة مسألة يعتبرها المجتمع فردية بحتة وخاصة لا دخل لأحد فيها. والحقيقة أن معظم المجتمعات تمانع

---

(١) انظر

Francis Galton, Memoirs of my life, 2 nd ed. New york: Ep. Dutton, 1908.

وضع قيود على زواج الضعاف أو القاصـرين. ولو أخـذنا جميـع الاعتبارات معـاً لوجدنا أن احتمالية تطبيق أي برنامج لتحسين الجنس ضئيلة جداً وغير متوقعة.

١٤ ـ جغرافية السكان:

تهتم جغرافية السكان بتوزيع الناس في الكرة الأرضية ودراسـة تطورهم في المحيط الجغرافي والمقارنة بين السكان في المنـاطق الجغرافيـة المختلفة. لقـد درجت طريقة توزيع السكـان إلى مناطق غنيـة وأخرى ضعيفـة، أو فقيرة. وحيث يـوجد الغنى يـوجد العلم والتـطور وحيث يوجـد الفقر يـوجد الجهـل والتـأخـر. وتفصل هذين العالمين فجوة كبيرة من الفروقات التي نجملها في الجـدول التالي حسب بعض الخصائص الرئيسية لسكان كل منهما.

الأقطار النامية	الأقطار المتقدمة
١ ـ معدل مواليد مرتفع (٢٥ ـ ٥٠ لكل ألف من السكان).	١ ـ معدل مواليد منخفض (١٥ ـ ٢٠ لكل ألف
٢ ـ معدل وفيات منخفض إلى متوسط (٩ ـ ٢٥ لكل ألف من السكان).	٢ ـ معدل وفيات خام منخفض (٩ ـ ١٠ لكل ألف من السكان).
٣ ـ نمو سكاني سريع (٢ ـ ٣,٥ ٪).	٣ ـ نمو سكاني بطيء (٠ ـ ١ ٪).
٤ ـ نسبة عالية من السكان دون ١٥ سنة (٤٠ ـ ٥٠ ٪).	٤ ـ نسبة معتدلة دون ١٥ سنة (٢٠ ـ ٢٥ ٪).
٥ ـ معدل وفيات الرضع يتراوح بين المتوسط والعالي (٤٠ ـ ٢٠٠ طفل رضيع دون السنة لكل ١٠٠٠ مولود حي). (شكل ٢٣)	٥ ـ معدل وفيات منخفض للأطفال الرضع (٨ ـ ٢٠ طفل رضيع لكل ١٠٠٠ مولود حي).
٦ ـ متوسط عمر منخفض إلى مرتفع قليلاً (٣٥ ـ ٦٥ سنة) شكل (٢٢).	٦ ـ العمر المتوقع عال (٧٠ ـ ٧٥ سنة).
٧ ـ الغذاء اليومي للفرد يتراوح بين المنخفض والمتوسط (١٥٠٠ ـ ٢٧٠٠) سُعر يومياً للفـرد.	٧ ـ الغذاء اليومي للفرد مرتفع في سعراته (٣١٠٠ ـ ٣٤٠٠ سعرة لكل شخص). شخص).
٨ ـ مستوى مرتفع من الأمية (٢٥ ـ ٧٥ ٪) شكل (٢٤).	٨ ـ مستوى الأمية منخفض (١ ـ ٤ ٪).

٩ ـ غالبهم ريفيون وزراعيون.	٩ ـ غالبهم سكان مدن وصناعيون.
١٠ ـ استخدام منخفض للطاقة لكل فرد.	١٠ ـ استخدام مرتفع للطاقة لكل فرد.
١١ ـ متوسط دخل الفرد يتراوح بين المنخفض والمتوسط. (مع تباين كبير في الفقر). (١٠٠ ـ ٢٠٠٠ دولار للشخص سنوياً).	١١ ـ متوسط الدخل لكل فرد مرتفع (يتراوح بين ٣٠٠٠ ـ ١٠ آلاف دولار.

١٥ ـ العوالم الخمس: ـ

توضح المقارنة السابقة بعض الاختلافات العامة بين الأمم النامية والمتقدمة. غير أن هناك بعض الاختلافات الهامة بين الأمم النامية ذاتها. ومن المفيد حقاً أن نقّسم أمم العالم إلى خمسة مجموعات (انظر شكل ٢٥).

١ ـ العالم الأول ويشمل الأمم الصناعية الأكثر تقدماً: الولايات المتحدة، كندا، اليابان، معظم السوق الأوروبية غير الاشتراكية، أستراليا، نيوزلندا.

٢ ـ العالم الثاني ويشمل الأمم الشيوعية: الاتحاد السوفيتي، الصين، أوروبا الشرقية.

٣ ـ العالم الثالث وتشمل على دول تعتمد على مورد رئيسي أو أكثر يسمح لها أن تصبح أمم متقدمة دون مساعدة أجنبية وتشمل هذه أقطار البترول الغنية التابعة للمنطقة المصدرة للبترول.

المغرب (معتمد على الفوسفات، ماليزيا معتمداً على (القصدير، المطاط، الخشب). زائير وزامبيا (النحاس).

٤ ـ العالم الرابع ويشمل على أمم تحتوي على بعض الخامات المعدنية، وتعمل جاهدة على تطوير نفسها ولكن بمساعدة كبيرة من الأمم المتقدمة وتشمل أقطار هذه المجموعة البيرو، الأردن، مصر.

٥ ـ العالم الخامس وتشمل على دول مثل تشاد، أثيوبا، الصومال،

رواندا، بنغلادش، ولها القليل من المصادر مع مناخ وتربة فقيرة. وتواجه هذه الأقطار مجاعات كبرى وفقر مستمر.

١٦ ـ العوامل المؤثرة في النمو السكاني:

النمو السكاني هو الزيادة التي تطرأ على السكان في فترة زمنية محدودة (سنة مثلاً) وتقيسها من خلال طرح مجموع الوفيات من مجموع الولادات الحية. وهذا النمو التكاثر يعتمد في أول الأمر على البيئة الطبيعية وما يمكن أن تقدمه. فهناك بيئة غنية بالموارد الطبيعية الغذائية وأخرى فقيرة. ولكل بيئة مستوى تحمل زيادة سكانية معينة. وتعتبر البيئة بمثابة نظام له قدرة احتمالية وإذا تعداها النمو فإن البيئة نفسها تأخذ بالمقاومة وهذا ما يشار إليه بعوامل المقاومة البيئية. هنالك أربعة مراحل للنمو: المرحلة البطيئة (بداية النمو)، المرحلة اللوغرتمية (النمو السريع) ومرحلة النمو المتراجع (السلبي) ثم مرحلة الثبات حيث يصل النمو إلى القدرة التحملية للبيئة. والعوامل التي تضبط النمو السكاني نوعان: خارجية مثل الغذاء، والمناخ، والأمراض والتفاعل بين الأنواع، وداخلية مثل البقعة الجغرافية والضبط الاجتماعي أو الكثافة الاجتماعية. ولا شك أن سكان الأرض من الناس يتعرضون لهذه العوامل أقل من الكائنات الحية الأخرى ويجدون وسائل لتخطي هذه العقبات الطبيعية من خلال التطور التكنولوجي. ولتفادي النمو السكاني الهائل والذي يجعل الحياة على الأرض صعبة، وجد المفكرون في العالم وأصحاب المعرفة أن على الإنسان أن يتحكم بنمو السكان من خلال ما يدعى بالسياسة السكانية والوصول إلى نمو أقل سرعة مما كان عليه في العقود الأخيرة من تنظيم الأسرة وتحديد النسل. والواقع أنه بينما وصلت المجتمعات المتطورة إلى تخفيف حدة النمو السكاني إلى درجة التوازن (المواليد = الوفيات) فإن الزيادة السكانية في الدول النامية ما زالت كبيرة. ففي الأردن مثلاً وصلت نسبة هذه الزيادة السكانية أو النمو السكاني إلى ٣,٦٪ وهي نسبة عالية جداً.

١٧ ـ الركائز الأساسية لتوازن سكان العالم :

تمثل هذه الركائز فيما يلي :

١ ـ ضرورة دمج التطوير الاقتصادي مع التنظيم العائلي في الدولة بدلاً من الاعتماد على واحد منها .

٢ ـ تصميم برنامج خاص بكل قطر أو منطقة يأخذ باعتباره العوامل الحضارية الديموغرافية، الاقتصادية، البيئية، والأخلاقية لذلك القطر.

٣ ـ استخدام وسائل مشجعة للأسر كي يحددوا عدد أطفالهم مصحوبة بالتعليم.

٤ ـ التأكيد على تأمين :

خدمات صحية مجانية أو بأجور زهيدة، أنقاص معدل وفيات الأطفال الرضع، ضمان اجتماعي لذوي الأعمار المتقدمة، زيادة الثقافة، وتعليم استخدام وسائل منع الحمل خاصة في الأرياف للأمهات الواقعة أعمارهن بين ٢٠ ـ ٣٠ سنة. تحسين الوسائل الصحية والخدمات التعليمية. توفير مجالات عمل المرأة، تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمرأة، رفع متوسط عمر الزواج، خلق عدالة أفضل في توزيع الدخل.

٥ ـ خلق هجرة مرتدة من المدن المكتظة إلى الأرياف في الأقطار النامية عن طريق تحسين الأرض، إعادة توزيع الأراضي، توفير الأموال والقروض.

٦ ـ على الأمم المتقدمة أن تخصص ما نسبته ١ ـ ٢ ٪ من ناتج دخلها القومي ليستخدم في تدعيم الاقتصاد والتخطيط في الدول النامية، ومن أجل التوسع في الأبحاث المتخصصة في تحديد النسل، ويجب أن تعطى هذه المساقات للمنظمات الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة والبنك الدولي لتوزيعها على الشعوب الأكثر فقراً.

٧ ـ يجب أن تعطى المساعدات لتنفيذ مشاريع تهدف بمجموعها لانقاص الخصوبة مع ضرورة اعطائها للشعوب الأفقر، كما يجب تقديم مساعدات تكنولوجية مناسبة كي تصل إلى مستوى الاكتفاء الذاتي من الانتاج الزراعي والصناعي بدلاً من اعتمادها الدائم على الدول المتقدمة.

٨ ـ ضرورة رفع أسعار المواد الخام المستوردة من الدول النامية.

ولا شك أن الغذاء ومصادره من اهتمامات الجغرافيا البشرية أيضاً، فهو يبحث في مشكلة الزيادة، عدد السكان وعلاقة ذلك بالتغذية وارتفاع مستوى المجاعة وسوء التغذية والسبل التي يجب اتباعها للموازنة بين معدلات النمو السكاني ومعدلات انتاج الغذاء. ونعود في هذا إلى تقسيم الكرة الأرضية إلى بلدان متطورة وبلدان نامية. ففي البلدان المتطورة ارتفع مستوى انتاج الغذاء للفرد الواحد بينما زاد بشكل بسيط جداً نتيجة الاختلافات في مستويات التقدم التكنولوجي. وبما أن الغذاء يقاس بأقيسة معينة وحسب حاجات معينة يفرضها المناخ وطبيعة الأنشطة الانسانية وغيرها فإن هذا العلم اهتم أيضاً بأنواع الأغذية ومكوناتها وكمية السعرات الحرارية الناتجة عن استعمالها في التغذية... الخ.

من ناحية أخرى فإن مختصو هذا العلم يتعاونون مع مختصي الطب والتغذية للوصول إلى أنجع الطرق في معالجة أمراض سوء التغذية في مناطق العالم المختلفة، ويتعاونون أيضاً مع مختصي الزراعة لحل المشاكل المرتبطة بانتاج الغذاء في المناخات المختلفة أيضاً.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل الثامن:

١ ـ لماذا يصعب في كثير من الأحيان التمييز بين المحيط الطبيعي الاصطناعي والمحيط الطبيعي العادي؟

٢ ـ بأي طريقة استطاع الإنسان أن يؤثر على التوازن البيئي وإلى أية درجة كان هذا التأثير مفيداً أو ضاراً؟

٣ ـ بأية طريقة تؤثر عوامل المناخ والتضاريس والمصادر الطبيعية على حياة الإنسان؟

٤ ـ ما هي العلاقة بين الحضارة والبيئة الطبيعية؟

٥ ـ بأية طريقة تساعد الحضارة الإنسان على البقاء في المحيط الطبيعي؟

٦ ـ ما هو تأثير التكنولوجيا على حياة الإنسان؟

٧ ـ ما هي خصائص الجماعة التي تهم باحث علم السكان؟

٨ ـ كيف يمكن تفسير النمو السكاني بعد عام ١٨٠٠؟

٩ ـ اشرح تأثير الرفاهية الاجتماعية على معدل المواليد؟

١٠ ـ ما هي نظرية مالتوس؟ ولماذا لم تتحقق تنبؤاته إلى هذا الوقت؟

١١ ـ هل يمكن رفع مستوى معيشة الناس في جميع أنحاء العالم إلى مستوى المعيشة في الدول الصناعية؟

١٢ ـ اشرح مفهوم السقف السكاني بمعناه الاقتصادي؟

١٣ ـ اشرح لماذا قد يقود النمو السكاني في بعض البلدان إلى ارتفاع مستوى المعيشة بينما قد يقود في غيرها إلى تدني مستوى المعيشة؟

١٤ ـ كيف يمكنك أن تشرح النمو السكاني من خلال الزيادة في معدل

الولادات بعد الحرب العالمية الثانية؟

المفاهيم المستعملة في الفصل الثـامن: ـ

بيئة	Environment
بيئة اجتماعية	Social Environment
بيئة حضارية	Cultural Environment
بيئة طبيعية	Natural Environment
علم البيئة	Ecology
التوازن البيئي	Ecological balance
مسكن	Habitat
تضاريس	Topography
موارد طبيعية	Natural resources
سلع نادرة	Scare goods
تكنولوجيا	Technology
تلوث	Pollution
الانتاج الضخم	Mass production
علم السكان	Demograph
تعداد السكان	Census
نظرية مالتوس	Maltusian Doctrine
قانون الفوائد المتناقصة	Law of Diminishing returns
السقف السكاني	Optimal Population
معدل الوفيات	Death rate
معدل الولادات	Birth rate
تحسين الجنس	Eugenics

المراجع :

- إميل، توماس. البيئة وأثرها على الحياة السكانية ـ ترجمة: زكريا أحمد البرادعي .ـ (القاهرة: مكتبة الوعي العربي، ١٩٧٧).
- الحديثي، طه حمادي. جغرافية السكان. ـ (الموصل: جامعة الموصل، ١٩٨٨).
- الجوهري، يسري عبد الرازق. أسس الجغرافية العامة: الطبيعية والبشرية. ـ الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٧.
- الطرزي، عبد الله. ـ البيئة والموارد والسكان. (أربد: جامعة اليرموك، ١٩٨٣).
- المقصود، زين الدين. ـ البيئة والإنسان: علاقات ومشكلات. (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨١).
- نجم، حسن طه وآخرون. البيئة والإنسان: دراسة في الايكولوجيا البشرية. ـ ط ٢. ـ (الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٧٨).
- وهيبة عبد الفتاح محمد. ـ جغرافية الإنسان. ـ (الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٦).

الفصل التاسع

مدخل إلى علم الأديان

د. مهنا حداد

الدراسات الدينية

علم الأديان علم
والبحث في موضوعات الدين شريعة
ولاهوت.

١ ـ الدين كقوة اجتماعية :

لو فكرنا بالدين وكأنه يحتوي كل المعتقدات بالكائنات الفوقية والقوى الروحية وأنه يسيطر على حياة جميع الناس ويحتوي على عدة أنواع من الأرواح والآلهة، فقد تكون بداية الدين في أقدم المجتمعات الإنسانية. لقد اقترحت المكتشفات الأثرية واستنتاجات علم الإنسان أن الإنسان كان يبحث عن تفسيرات للوجود الإنساني والظواهر الطبيعية والتي تذهب إلى أبعد ما يمكن أن نتعلمه من تجارب الإنسان العادية أو من ملاحظة العالم الطبيعي منذ أن وجدت الذاكرة الإنسانية. كان أحد جوانب الحياة الذي أزعج الإنسان منذ القدم هو الموت وعادة ما كان الدين يعد الاحياء بحياة بعد هذا العالم. وعندما أخذت الحضارات والمجتمعات في التطور أخذ الإنسان يبحث عن أهداف وقناعات في الحياة التي يمكن أن تعتلي على حاجات ورغبات الإنسان في الحياة اليومية من أجل اضفاء نوع أعلى من الكرامة والمعنى على الوجود الإنساني، ولكي يفي الإنسان بهذه الرغبات تحول إلى القوة الخارقة للطبيعة.

لا شك في أن المعتقدات والمؤسسات والطقوس كانت دائماً عناصر رئيسية في أنماط المجتمعات الحضارية سواء كانت هذه المجتمعات متطورة أم غير متطورة. تحتوي حتى الحضارة العربية على تراكمات كبيرة من المعتقدات

التي تعود إلى ما قبل الإسلام وتحتوي كذلك على الكثير من المؤسسات الدينية ما بعد الإسلام كالجوامع الكثيرة المنتشرة في أنحاء مدن وقرى البلاد العربية ويحتفل الناس بالأعياد الكثيرة الإسلامية وغير الإسلامية. لا نريد هنا أن نتعرض إلى صدق أو عدم صدق المعتقد الديني ـ أي معتقد ديني ولكن سنتعرض للآتي:

ـ لوصف طبيعة الديانة على وجه العموم والخصائص العامة للديانات في الماضي والحاضر.

ـ إن نصف الدور الذي لعبته الديانات في تطور المجتمعات الإنسانية ليس فقط في تكاملها واستقرارها ولكن أيضاً، كما كان في بعض الأحيان، في خلق الصراعات.

ـ أن نتعرض إلى تأثير التغير الاجتماعي في الوقت الحاضر على الدين والعكس تأثير الدين على التغير الاجتماعي.

٢ ـ طبيعة الديانة:

عندما نقول في الوقت الحاضر أن فلاناً متدين فإننا نعني أنه يؤمن بوجود الله وإن هذا المعتقد يلعب دوراً كبيراً في تحديد مواقفه الأخلاقية وسلوكاته، أنه يعتبر بعض الأشياء ذو قيمة عالية وأنه ينتمي إلى مؤسسة دينية معينة، أنه يذهب إلى جامع معين أو إلى كنيسة معينة حيث يقوم بطقوسه الدينية مع آخرين يشاركونه نفس المعتقد. نعني كذلك أنه يتبع مجموعة من المعتقدات الأخلاقية يعيش بناء عليها.

لذلك فالدين فليس فقط محاولة الاعتقاد بالموت والحياة ما بعده لكن أيضاً محاولة خلق إطار نظري كي يقوم الإنسان بأحكام ذاتية حول كيف يعيش الإنسان حياة صحيحة. فللدين إذن طابعان: أخلاقي وروحي.

تتنوع الديانات كثيراً، ويحتوي أكثرها على ايمان بالله أو بآلهة، ومعتقدات

حول الحياة بعد الموت ثم بعض التنظير حول الخلاص أما من خلال الحصول على حق دخول السماء أو امتياز التناسخ في شكل أرقى من الحياة أو في مركز اجتماعي أعلى. لكن هناك أيضاً ديانات لا تعرف مفهوم الإله بالمعنى الذي يفهمه به أتباع الدين الإسلامي أو الدين المسيحي. أحد مثل هذه الديانات مثلاً نجده في البوذية الأصلية التي تختلف عن متنوعاتها الحديثة بأنها لم تعرف آلهاً وكانت دون مفهوم شخصي لذات الإله وكذلك لم تعرف نظرية لما يدعى خلاص عدا فيما يخص بركة التخلص من التناسخ المتواصل والألم عندما يصل الإنسان إلى النرفانا حيث يتخلص الإنسان من جميع الرغبات والوعي.

ليس من السهل إعطاء تعريف للدين يحتوي على جميع جوانبه. غير أننا سوف نستعمل هنا التعريف الذي استعمله هانس يواخيم شوبس (Hans Joachim Schoeps) في كتابه «أديان الإنسان» حيث عرفه في معناه الواسع:

«العلاقة بين الإنسان والقوى العلوية التي يؤمن بها ويشعر بنفسه خاضعاً لها».

ويعبّر الإنسان عن هذه العلاقة بطرق عديدة بما في ذلك الشعور بالثقة والخوف والأسطورة والخرافة والصلوات والطقوس وتطبيق القواعد الدينية في سلوكه في الحياة.

أ ـ ديانة البدائيين:

تعتمد ديانات الشعوب البدائية على مفهوم الأرواحية، الاعتقاد بأن لكل ما في الكون حتى الكون ذاته روحاً أو نفساً. هذه الأرواح قادرة على ايذاء الإنسان ولذلك يكون عليه أن يرضيها أو ايجاد طرق للسيطرة عليها. والدين والسحر في المجتمعات البدائية ظاهرتان مترابطتان ومتلازمتان بحيث يصعب الفصل أو

(*) Hans joachim Schoeps, The religions of mankind, (Anchor paperbœck, New York: Double day 1968), P. 141.

التمييز بينهما. يتكون السحر من صيغ يستطيع الإنسان (الساحر) من خلالها أن يسيطر على القوى العلوية ليصل إلى أهدافه الخاصة. فمثلاً يعتقد الساحر أنه قادر على إيذاء شخص من خلال صنع شكل إنساني يرمز للضحية ثم يغز في هذه اللعبة دبوساً أو إبرة أو غيرها. أما في الدين فإن الإنسان يعترف بقوة روحية علوية أو قوى أكبر منه ويعتقد أنه قد يكسب رضا هذه القوى من خلال القيام بعمل ما تريده منه هذه القوى أو من خلال مدحها وتمجيدها والصلاة لها وقيامه بالطقوس اللازمة والهبات أو الضحية أو الذبيحة ولكنه لا يستطيع السيطرة عليها. وقد وصل الاعتقاد بالقوى الخارقة للطبيعة في الشعوب البدائية إلى أبعد من ذلك بأن بعض هذه الشعوب كانت تؤمن بأرواح لا حصر لها في الطبيعة. وذهب اعتقاد بعض هذه الشعوب إلى الإيمان بروح أكبر وأقوى من الأرواح الأخرى.

ويبدو أن معظم الشعوب البدائية كانت تعتقد بنوع من الحياة بعد الموت، على الرغم من أن أفكار هذه الشعوب حول مثل هذه الحياة لم تكن واضحة. وكثيراً ما كان الإنسان البدائي يعتقد أن له نديداً روحياً وأن هذا النديد الروحي يتركه أو يترك جسمه ويسافر بعيداً، كما في حالات المرض والنوم، ويكون له مغامراته الخاصة (الأحلام)، أو أن هذا النديد قد يضيع ويعود بعد الموت ويكون خطراً على الأحياء.

إحدى الطرق الجيدة لدراسة الدين ودوره في المجتمعات الإنسانية هو القيام بمقارنة بين أديان مختلفة بما في ذلك اختلاف تفسيراتها اللاهوتية العقائدية. والمقارنة بين طقوسها وأشكال تنظيماتها المؤسسية. لذلك سوف نصف خصائص بعض الديانات التعددية أو المتعددة الآلهة، ونتعرض لطبيعة بعض الديانات الكبرى في الوقت الحاضر وأصولها.

ب ـ بعض الديانات القديمة المتعددة الآلهة:

كانت ديانات الحضارات القديمة وثيقة الارتباط بالطبيعة. في مثل هذه الديانات كانت الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والبرق والرعد والشلالات

والنجوم والجبال تلعب دور الآلهة التي تحمي الإنسان من الأذى. في جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية كانت تعيش جماعات كبيرة من الهنود الحمر أسست مملكة عظيمة تدعى مملكة الأنكا (في بوليفيا والبيرو) كانت تعبد الشمس كإله رئيسي ليس لأنها كانت تجعل نمو المواد الغذائية ممكناً فقط، وإنما لأنها كانت تزود الكون بالحرارة خلال النهار والتي تذهب ببرودة الليل. وعندما كان مدار الشمس يميل إلى الشمال في حزيران كان الهنود الحمر يخافون أنها سوف تستمر في السير إلى الشمال وتتركهم يموتون جوعاً وبرداً. لكن كهنتهم كانوا يقومون بطقوس خاصة في ٢١ أو ٢٢ من نفس الشهر ويجرونها إلى الوراء ثم يربطوها إلى المزولة أو حجر الهيكل المدعو هيكل الشمس. وعندما تميل الشمس في مدارها جهتهم كنت تجدهم يفرحون ويبتهجون.

قبل مجيء المسيحية كانت جميع ديانات الشرق الأوسط عدا اليهودية وديانة زرادشت في بلاد فارس متعددة الآلهة بما في ذلك ديانة الفراعنة والبابليين والأشوريين والفينيقيين والإغريق والرومان. وقد اشتركت ديانات هذه الشعوب بأنها كانت تحتوي على عائلات كبيرة من الآلهة لكنها اختلفت بنواح وطرق عدة وإن هذه الديانات شهدت كثيراً من التغير مع الأيام.

ما زلنا قادرين أن نرى بقايا كثيرة لهذه الأديان الغابرة. الأهرام في مصر مثلاً بنيت كماقامات جنازية للفراعنة الذين كانوا يلعبون دور رئيس الدولة ودور الإله. وقدمت لنا الديانة الإغريقية القديمة زيوس الذي كان اليونان يعتبرونه أب الإنسان والآلهة وجوهر الألوهية والقوة. كان زيوس الإله الذي انحدر منه ملوك الأرض وسيد الكون الطبيعي بأكمله وعلى شرفه كان الإغريق يقيمون الألعاب الأولمبية كل أربع سنوات. كانت ديانة الإغريق هذه ديانة مرتبطة بالأرض ولم تذكر عالم ما بعد الموت إلا ما ندر. أهم ما في أمر هذه الديانات هي أنها وضعت الأسس الأولية لفلسفة الحاضر. كانت المرحلة القديمة أو الكلاسيكية لتاريخ اليونان ٥٠٠ ـ ٣٢٣ ق. م. مثلاً مرحلة تنوير سبقت عصر العلم الحديث

بألفي عام. لقد أخذ النقد الفلسفي والعقلانية بتحطيم المعتقدات القديمة بالآلهة وخاصة بين المفكرين في المدن الإغريقية، فقد ذهب المؤرخان هيرودبتس وهيسود بأن الشعراء هم الذين خلقوا لليونان آلهتهم. كذلك حاول الفيلسوف أبو فيميروس عن طريق المنطق إبراز الآلهة الإغريقية كرجال مميزين. وذهب آخرون إلى أن هذه الآلهة لم توجد إلا كتماثيل.

ج ـ الديانات الكبرى في الوقت الحاضر:

يوجد في عالم اليوم عدد لا يحصى من الأديان والفئات الدينية بما في ذلك ديانات بدائية ارتبطت بها الجماعات التي تعيش حياة قبلية تعتقد بالأرواحية وتمارس طقوسه الدينية والسحرية، وإذا ما أردنا تعداد الأديان التي ما زالت تلعب دوراً كبيراً في حياة الملايين يكون علينا أن نذكر أربعة أديان: الهندوسية والبوذية والإسلام والمسيحية، وربما علينا أن نذكر اليهودية لأن أهميتها التاريخية كبيرة على الرغم من أن الذين يؤمنون بها قلة. وهي تشكل الخلفية التاريخية للديانة المسيحية وربما أيضاً للإسلام.

هناك أيضاً ثلاث ديانات لا نعرف إذا ما كان علينا أن نضمها إلى هذه اللائحة. أولى هذه الأديان الكنفوشوسية أو ديانة كنفوشيوس في الصين. بعد الثورة الشيوعية في الصين أصبح مصير هذه الديانة غير واضح من ناحية، وكثيراً ما ذهب الباحثون في الدراسات الدينية إلى أن الكنفوشوسية فلسفة وليست ديناً من ناحية أخرى. ثاني هذه الديانات هي الشنتو التي كان يدين بها اليابانيون. لكن هذه الديانة وجدت منافسة قوية مع البوذية. وعلى الرغم من أن الشنتوية أصبحت ديانة الدولة الرسمية عام ١٨٦٨ إلا أن اليابان بعد الحرب العالمية الثانية قد أعلنت فصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية ونادت بالحرية على الرغم من أن ملايين اليابانيين ما زالوا يقومون بطقوسهم الدينية. والديانة الثالثة هي التاثوية (   ) التي انتشرت في الصين وأصبح مصيرها كمصير الكنفوشية.

١ ـ الهندوسية: سيطرت الهندوسية على مجتمع الهند منذ زمن بعيد بعيد

وما زالت الملايين في الهند تدين بها على الرغم من أن قسماً بسيطاً من أهل الهند قد تحولوا إلى ديانات أخرى مثل الإسلام والمسيحية وديانات أخرى مثل السنكهية والجيانية والبوذية وهذه الديانات الأخيرة الثلاث تطورت عن الهندوسية نفسها. تبدو الهندوسية لاتباع الديانات الأخرى ديانة غريبة، فهي لا تعرف مؤسس ولا يوجد فيها طريق واضح للخلاص ولا توجد فيها معتقدات رئيسية كالمسيحية والإسلام مثلاً. من ناحية أخرى فإنها تعرف عدداً كبيراً من الآلهة مثل عوالم الآلهة عند الإغريق والرومان والفراعنة. ومع القرون أضافت الهندوسية إلى آلهتها آلهة جديدة ومفاهيم وطقوس جديدة. وتأخذ الهندوسية أشكالاً كثيرة بين الجماعات الهندية المختلفة وتحتوي على أكبر متنوعة من المعتقدات من تقديس الحيوان إلى الإيمان بالأرواحية وتعدد الآلهة. وإلى جانب ما هو متطور منها فإنها تحتوي أيضاً على معتقدات وعادات بدائية. فإلى جانب البقرة المقدسة التي يمنعون ذبحها تنتشر القردة المقدسة في البلاد وتسبب أضراراً فادحة. وتعتبر هذه القردة مقدسة فالقرد الإله الأسطوري «هانومان» قد ساعد الإله «راما» مرة، ويقال أن الإله «سادهوس» الذي يفترضه الهنود إنساناً مقدساً ما زال يخطف الأولاد ليقدمهم ضحية إلى الإله «دورجا» أو «الكالي» الأسود.

نجد التعاليم الأساسية الهندوسية في الكتاب المعروف باسم «الفيدا» ويتكون من مجموعة كبيرة كلاسيكية من التعاليم كتبت باللغة السنسكريتية بين ١٥٠٠ ـ ٨٠٠ ق.م. كانت اللغة السنسكريتية لغة الشعوب الهندية الأوروبية المدعوة آرية وهي شعوب غازية جاءت إلى الهند من الشمال حوالي ١٥٠٠ ق. م. وهذه اللغة قريبة جداً من اللغات الأوروبية مثل الإغريقية واللاتينية والقلطية والالمانية والسلافية لأن أقساماً كبيرة من هذه الشعوب الآرية زحفت على أوروبا واحتلت معظم أجزائها بما في ذلك الجزر البريطانية.

ما الذي عمل على بقاء مثل هذه الديانة الطبيعية حية أكثر من ثلاث آلاف سنة على الرغم من تنوع معتقداتها؟ تتمثل الحقيقة العليا للهندوسية والتي تسيطر على عقول متبعيها في تعاليم «الكارما». تقول هذه التعاليم أنه لا توجد بداية ولا

نهاية، وإن لكل الكائنات أرواحاً خالدة إلى اللانهاية ولكن هذه الأرواح تمر في سلسلة لا نهائية من التناسخ. فإذا ما كانت أعمال إنسان ما جيدة في هذا العالم أو هذه الحياة التي يعيشها على الأرض فإنه سوف يصبح شيئاً أحسن في حياته الثانية على الأرض وهلم جرا والعكس صحيح.

وتعتبر الكارما عنصراً رئيسياً في قانون الكون الخالد وهي التي تدعم الطبقية الاجتماعية الهندية وتبرر الاختلافات في مراكز الناس الاجتماعية. يفسر الهنود الغنى مثلاً أنه مكافأة الإنسان على الحياة الجيدة التي عاشها في تناسخاته السالفة والفقر كعقاب للذنوب التي اقترفها الإنسان في تلك التناسخات ولذلك يقبل الإنسان عضويته من طبقة ما. وربما يخلق أو يولد الإنسان من جديد في طبقة أعلى ولكن فقط من خلال تباع الدقة في القيام بالطقوس وتنفيذ القواعد المفصلة للسلوك التي تمليها عليه طبقته الاجتماعية. وإذا ماكان سلوك الإنسان سيئاً للغاية فإنه قد يولد بشكل كلب أو خنزير أو حتى حيوان أقل مرتبة (عن الطبقات في الهند انظر الفصل الرابع).

لقد كسبت الهندوسية مجالاً لا بأس به في أوروبا في الآونة الأخيرة من خلال حركة هاري كريشنا. فقد وجد الكثيرون من الشباب الأوروبي والأمريكي أن العقلانية الأوروبية التي أملاها عليهم مجتمعهم تجردهم من الكثير من الامتيازات الغيبية. فهم يجادلون أن هذه العقلانية قد جرتهم إلى نوع من المادية البحتة وإن الزمن قد حان ليعودوا إلى الإيمان والصوفية.

٢ ـ البوذية: تطورت البوذية من الهندوسية القديمة وكان أحد أهدافها تخليص الإنسان من الدائرة التناسخية اللامتناهية والتي تكوّن جزءاً من تعاليم الكارما. تأسست البوذية قبل أكثر من خمسمائة سنة ق. م. على يد أمير من النيبال يدعى «سيد هارتا جاوتاما» الذي عرف فيما بعد باسم بوذا أو «الرجل المتنور» عندما رأى معاناة الرجال الذين يعملون لوالده وصل هذا الأمير إلى القناعة بأن جميع أنواع الحياة تقود إلى المعاناة وأن المهرب الوحيد للإنسان هو

التغلب على رغباته في الحياة وملذاتها لأنها هي التي توصل إلى الشقاء والمعاناة. ولذلك ترك حياة والديه الأميرية وأصبح متجولاً صوفياً لكي يتوصل إلى الطريق الذي يقود الإنسان إلى النجاة من المعاناة.

وبعد أن مارس اليوغا والتصوف لمدة سبع سنوات مع خمسة من الرهبان عاد إلى الصوفية والتجول في شمال وسط الهند حتى قدر أن يصل إلى أبعد ما يكون من التأمل والتركيز. في هذه الحالة من غياب الألم والمتعة ورباطة الجأش استقبل التنوير وأصبح بوذا، وأصبح شعوره بالبركة من العظمة إلى أنه عرف السر في عدم أهمية تجارب حياته الماضية، وأنه الآن قد وصل إلى غايته في الحصول على النور أو النرفانا. بالنسبة له انتهى زمن الاعتقاد بالتناسخ. ولكن هل يحتفظ بما وجده لنفسه أو يستخدمه في سبيل العالم وقرر بعد صراع مع نفسه أن يوصل ما توصل إليه إلى الناس ولذلك فقد عاش طيلة خمس وأربعين سنة حتى وفاته في سن الثمانين مبشراً متجولاً يرافقه في أغلب الأحيان زمرة من تلاميذه.

كانت البوذية في أولها فلسفة أكثر منها ديناً على الرغم من أنها احتوت مفهوم الكارما والتناسخ لكن بوذا لم يدعي لنفسه أي أصل قدسي كما لم يكن لديه ما يقوله حول إله أو آلهة. ومع الزمن كسبت البوذية اتباعاً انتشروا في بلاد كثيرة ولذلك طرأ عليها تغيرات كثيرة أدت بعضها إلى انتشارها بين الناس. فقد أعطى بعضهم لبوذا صفة القداسة وأنه قد ولد نقياً وخال من الأخطاء. تقول بعض الأساطير أنه نزل من السماء على شكل فيل ودخل رحم والدته وهي نائمة في القصر. كذلك اكتشف بعض أتباعه أفراد بوذيين سماويينْ آخرين دعوهم «بوذيز اتفا» وهؤلاء كائنات رفضوا الوصول إلى النرفانا شفقة على الإنسان وكرّسوا أنفسهم لقيادة الإنسان إلى الخلاص. مع الزمن أيضاً ادخل مفهوم الفردوس إلى البوذية تسهيلاً للأمور ويمكن للجميع دخوله وليس فقط الرهبان الذين يصلون إلى النرفانا. وأدخلت بعض فئات البوذية أيضاً التعبد إلى الآلهة (الذين لم يرفضهم بوذا بالفعل) بدلاً من التركيز على البحث عن طريق النور من خلال الطرق الثمانية.

لقد تناقص اتباع البوذية في الهند في الوقت الحاضر ولكنها انتشرت في التبت والصين وكوريا واليابان وجنوب شرق آسيا وسايلون وأخذت أشكالاً عديدة. أصبحت البوذية نوعاً من الديانة الرسمية في سايلون وبورما وتايلند وحافظت على الكثير من خصائصها الأصلية غير ما هي عليه في البلدان الأخرى. وبينما كانت البوذية ديانة شرقية، تسربت الآن إلى أوروبا وأمريكا حيث كان عدد البوذيين في أمريكا عام ١٩٨٠ حوالي ٢٠٠٠٠٠ نسمة. وخاصة في أمريكا دخلت عدة اتجاهات بوذية منها زنبوذية، والتأمل الاستعلائي واليوغا وجميعها ممارسات وتمارين لا تدوم أكثر من بضع ساعات يومياً.

٣ ـ **اليهودية**: على الرغم من الدور الذي لعبته اليهودية في التاريخ إلا أن عدد اتباعها بقي قليلاً نسبياً. ففي عام ١٩٨٠ كان عدد اتباعها أربعة عشر مليوناً مقابل مليارد نسمة اتباعاً للمسيحية وسبعمائة ألف نسمة اتباعاً للإسلام.

تطورت اليهودية على موسى والذي أوحيت إليه التوراة. إلا أن اليهود يعيدون أنفسهم إلى فترة زمنية سبقت موسى بكثير وهو زمن إبراهيم. نحن العرب المسلمون لا نعتقد ذلك لأن إبراهيم الذي يدعيه اليهود أباً لهم هو أب شعوب كثيرة. وإذا ما تتبعنا مصحف اليهود «التوراة» لوجدنا أنهم يرجعون أنفسهم إلى يعقوب المدعو إسرائيل وأبيه اسحق ويقول لنا أنهم هاجروا إلى مصر هرباً من المجاعة فاستعبدوا في مصر. وفي القرن الثالث عشر ظهر بينهم موسى الذي أوحيت إليه التوراة وخرج باتباعه من مصر إلى سيناء بين ١٢٥٠ ـ ١٢٠٠ ق. م. لا تؤمن اليهودية بأن هناك إله عام لجميع البشر بل تؤمن أن هذا الإله خاص بإسرائيل وهو هذا الإله ـ حسب قولهم ـ هو الذي اختارهم ليكونوا شعبه من بين الشعوب وأكرمهم بإعطائهم أرض كنعان أرضاً خاصة بهم. وقد سمي موسى الإله «يهوة» في حين كان إبراهيم واسحق ويعقوب يعرفونه باسم «ابل». تقول التوراة أن الله كلم موسى شخصياً وسلمه لوحين من الحجر منقوش عليها التعاليم أو الوصايا العشر. ثم فصل موسى هذه الوصايا فيما بعد مع الكهنة إلى

مجموعة من القوانين والقواعـد، والنصائـح والمحرمـات نعرفهـا في خمسة كتب تدعى التوراة. وقد أصبحت هذه التوراة فيما بعد ليس كتاباً لليهود فقط إنما أيضاً للمسيحية.

وتختلف اليهودية عن غيرها من الـديانـات بأنهـا ديانـة مجموعـة من الناس يعتبرون أنفسهم قبيلة واحدة انحـدروا من إبراهيم واسحق ويعقـوب وأنهم شعب الله المختار. كذلك فقد حافظت اليهودية على تعاليمها أكثر من ثلاث آلاف سنـة على الرغم من أن اتباعها ذاقوا أنواع العذاب والتشرد بعد أن طـردهم الأمبراطـور هـادريان من فلسطين عام ١٣٥ م. وقـد كانت اليهـودية الـديانـة الأولى لتكـون مفهـوماً واضحـاً حول إلـه واحد خـالق وحاكم للكـون. وتؤمن اليهـوديـة بمجيء العصر الذي يظهر فيه المسيح القائد ويكون هذا عصر سلام.

خلال العصور الـوسطى والحـديثة لم يكن لليهـود أية حقـوق وقد اختـاروا السكنى مع بعضهم في أحياء خاصة بالمدن دعيت بأسماء كثيرة (الجيتو، القاع، الحارة) وغيرها. ورغم المحاولات التي قـامت لتحريـر اليهود إلا أنهم بقـوا دون حقوق حتى الثورة الاجتماعية التي حصلت عـام ١٨٤٨ عندمـا حصل اليهـود في أوروبا على حقوق المواطنية والمساواة مع باقي الناس في الدول الأوروبية. لكن ردة فعلهم على هذا وكما يبـدو كانت عنيفـة إذ وصل الكثيـرين منهم إلى مستوى عـال من النجاح في معـظم الحقول من العلم إلى المهن الحـرة وأخذوا بـإحيـاء حضارتهم والتي بنيت على ما يدعي العنصرية اليهودية فثارت ضـدهم العنصريـة الأوروبيـة والتي عاداتهم في كثيـر من مـوافقهم ولـذلـك فقـد دعـوا هـذا العـداء للسامية، والتي وصلت بهم إلى أفـران الغاز في الحـرب العالميـة الثانيـة. وعلى الـرغم من أعـابتهم العـالم الأوروبي في ذلـك إلا أننـا نعتقـد أنهم لم يستعملوا الحقـوق التي منحت لهم بطريقـة سليمة وأنهم هـم الـذين أثاروا حقـد الشعـوب حولهم.

بعد تحرير اليهود في القرن التاسع عشر انقسم اليهود في أوروبا إلى ثلاث

فرق: اليهود الأرثوذكس أو التقليديون الذين يرفضون أي تغيير بالتراث والطقوس، اليهود الاصلاحيون الذين يرفضون التقليد اليهودي ويعتقدون أنهم يجب أن يعتبروا اليهودية ديانة متطورة ومتغيرة، ثم اليهود المحافظون الذين يرفضون التقليد ويرفضون أيضاً قطع الصلة مع التقليد اليهودي ويبحثون عن طريقة وسط.

في نهاية القرن التاسع عشر أوجد اليهود الصهيونية كحركة قومية تبحث عن حل للمشاكل اليهودية وذلك في مؤتمر كبير في بال (١٨٩٧). وقد تطورت هذه الحركة وشجعت الهجرة إلى فلسطين ثم حصلت على جميع أنواع الدعم من الدول الأوروبية وأسست دولة إسرائيل في أرض فلسطين التي نعتبرها نحن العرب أرضاً عربية سامية. ونتيجة لذلك فقد تشرد حوالي مليونين من الفلسطينيين الآن في مختلف البلاد العربية والأوروبية. هكذا عملت الصهيونية على إعادة تأسيس الدولة اليهودية بعد أن انقرضت قبل أكثر من ألفي عام. ونعتبر نحن العرب أن دولة إسرائيل دولة دخيلة صنعها الاستعمار في فلسطين وشرد الشعب الفلسطيني من دياره. (ليس هذا المكان للخوض في مشكلة دولة إسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي).

٤ ـ الديانة المسيحية: تطورت المسيحية من اليهودية وبما أنها أكثر ما انتشرت في الغرب بعد أوروبا فقد اقترن اسم المسيحية بالغرب وما زال القسم الكبير من كتاب المسيحية المقدس هو كتاب اليهودية والذي يشار إليه باسم العهد القديم. كانت بعض الكتب اليهودية قد أشارت إلى مجيء المسيح كما ذكرنا ويعتقد المسيحيون أن المسيح قد جاء وأنهم أتباعه. ما أريد أن أقدمه هنا هو أن هذا الاسم «مسيحية» إشارة فقط لأن أتباعها يكوّنون جماعات تختلف في جوهر معتقداتها. فالكاثوليك غير البروتستنت وغير الروم الأرثوذكس وجميعها غير الروم الكاثوليك. ولكن هذه الإشارة درجت في الدراسات.

مؤسس هذه الديانة حسب ما تعتقد جميع الطوائف المسيحية هو يسوع الناصري الذي ولد في بيت لحم في بداية الحقبة التي تتواجد فيها واعتبر مولده

بداية جديدة للتاريخ وقد أصبح اسمه فيما بعد يسوع المسيح. بعد أن بدأ تبشيره في سن الثلاثين تبعه نفر من الناس واختار من بينهم اثني عشر سماها تلاميذاً وأعطاهم أن ينشروا رسالته من بعده.

لا نعرف الكثير عن حياة المسيح هذا إنما معرفتنا حول تعاليمه أكبر لأنها مدونة في أربعة كتب تشكل جزءاً كبيراً مما يدعوه المسيحون «العهد الجديد». لم يكتب المسيح هذه الكتب وقد جاءت بأسماء كاتبيها الذين وصفوه ووصفوا تعاليمه لنا. والجزء الثاني من هذا الكتاب هي رسائل هؤلاء التلاميذ إلى اتباعهم في أماكن كثيرة، روميا وأفسس وغيرها. ويبدو أن الأناجيل الأربعة كتبت ما بين ٦٥ ـ ١٠٠ م. وربما أن كتّاب هذه الكتب قد اعتمدوا على الذاكرة لما قاله أو قام به من أفعال. ولكن إلى أي درجة من الدقة وصل إليه هؤلاء من التسجيل يبقى غامضاً ولم يستطع المؤرخون أن يقولوا لنا شيئاً مؤكداً عن ذلك.

وإذا ما تبعنا ما قاله لوقا في إنجيله يكون المسيح هذا قد بدأ تعاليمه حين كان عمره ثلاثين سنة، فقد اعتمد في نهر الأردن قرب أريحا على يد يوحنا المعمدان وهنالك نزل عليه الروح بشكل حمامة. بعدها ذهب إلى الصحراء حيث تأمل صائماً مدة أربعين يوماً وتعرض إلى تجارب كبيرة عرضها عليه الشيطان. بعدها عاد إلى غرب الأردن في الجليل وبدأ تعاليمه والعمل بين الناس.

لم يشك المسيح في حقيقة الله أو بعلاقته به. لكنه كما تقول التقاليد المسيحية كان يعرف أنه لم يرسل ليخلص اليهود من نير عبودية روما كما كان يأمل الكثيرون من سامعيه ويعيد مملكة داوود. تقول التعاليم الكنسية أنه كان يعرف أنه قد جاء ليعلم الناس جميع الناس طريق الخلاص. ومثل اليهود الذين عاصروه اعتقد بالعصر الذي يأتي فيه المسيح ولكن حسب ما تقول تعاليم الكنائس كان المسيح يخالف اليهود بالاعتقاد حول نوع المملكة التي سوف تتأسس: فهي ليست مملكة أرضية ولكن مملكة سماوية خاصة بالذين يؤمنون به والذين يتوبون عن خطيئتهم ويخضعون لإرادة الله قبل أن ينتهيْ الوقت.

تقول تعاليم المسيحية أن المسيح قد علم الإيمان بالله وعمل مشيئته والإيمان بالمسيح ابناً له. الله جيد، قوى عادل ومستقيم ولكنه أيضاً غفور ورحوم. لذلك على الناس أن يلجأوا إليه ويطلبون مساعدته من خلال الصلوات. وعلم المسيح كذلك أن الناس يجب أن يحبوا بعضهم بعضاً صديقاً أو عدواً وكانت هذه التعاليم من أصعب التعاليم الدينية لتطبيقها في الحياة اليومية. كما علم المسيح ـ حسب الأناجيل ـ الإنسان أن يحفظ الوصايا العشرة التي أعطاها الله لموسى على جبل سينا.

قاد نجاح المسيح في جذب اتباع له انتباه قادة اليهود في ذلك الوقت وخاصة الصدوقيين والفريسيين. وعلى الرغم من اختلاف هاتين الفئتين إلا أن أتباعهما أصبحوا أعداء للمسيح، لأن تعاليمه لم تتفق مع التقليد اليهودي. وتذهب التعاليم في العهد القديم إلى أنهم وشوا به إلى الحاكم الروماني الذي أمر بصلبه.

تدور التعاليم المسيحية حول ثلاثة أحداث بنّت المسيحية عليها تفسيراتها:

١ ـ العشاء السري الأخير في الليلة السابقة لصلبه.

٢ ـ صلب السيد المسيح وموته.

٣ ـ قيامه من بين الأموات.

أكثر التعاليم المسيحية تعقيداً هو المعتقد أن المسيح من خلال صلبه خلص الإنسان من الخطيئة الأصلية وفتح له الطريق أن يدخل الجنة ثانية بعد طرد آدم منها. ويعتقد المسيحيون أن العشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه رمز للصلة الوثيقة بينه وبينهم وإن التناول الذي يحدث في الكنيسة له نفس الفعل. فالخبز الذي يأكلوه والخمر الذي يشربوه يصبح من خلال القداس لحم ودم المسيح حسب التعاليم الكاثوليكية. ولذلك فالمؤمن يعتقد أن هذا يقويه في محاولته للوصول إلى الخلاص من خلال القوة المخلصة في المسيح والتي حصل عليها المسيح من خلال قيامته.

المسيحية الأولى - كانت المسيحية الأولى مضطهدة وكان المسيحيون لا يعرفون بعضهم والعلاقات فيما بينهم قليلة. وفي نهاية القرن الأول الميلادي ظهرت حركة التنظيم في روما وظهر المطارنة الذين لم يملكوا حق تعيين الكهنة فقط بل أيضاً حق مناقشة الخلافات وحلها. وما أن حل القرن الثالث الميلادي حتى كان مطران روما رئيساً للمطارنة وفي نهاية القرن الثالث اتخذ اسم البابا واعترفت به الكنائس المسيحية في الأمبراطورية الرومانية وبخاصة بعد عام ٣٢٥ ميلادية حيث أصبحت المسيحية دين الدولة في الأمبراطور الرومانية المسيحية في العصور الوسطى - قبل سقوط الدولة الرومانية في الغرب عام ٤٧٦، كانت الكنيسة الكاثوليكية قد قويت لتحافظ على النظام والمدنية وتفادي التدهور الكلي الذي كان قد سوف ينتج عن هجمات القبائل الجرمانية. فقد سيطرت الكنيسة طيلة العصور الوسطى على الحياة الفكرية والدينية والسياسية. في نفس الوقت بقيت الدولة الرومانية الشرقية قائمة وعاصمتها استنبول وأصبحت الكنيسة الشرقية التي عرفت فيما بعد بالكنيسة الأرثوذكسية مستقلة عن كنيسة روما. وكان آخر انفصال بين الكنيستين الرومانية والشرقية عام ١٠٥٤ وبقي إلى هذا الوقت.

بقيت كنيسة روما تسيطر على غرب أوروبا حتى القرن الخامس عشر عندما شعر معظم الناس أن الكنيسة تمر في انحطاط أخلاقي. ولا شك أن النهضة التي عملت على احياء في الأدب وأعمال القدماء قد ساهمت أيضاً في كثير من الفوضى والاضطرابات. كان إحد أسباب هذه الثورة صكوك الغفران وبيعها للناس التي غيرت الطقوس إلى نوع من جمع الثروة. وكان نتيجة ذلك الإصلاح (ثورة البروتستنت التي بدأت عام ١٥١٧ عندما عرض مارتن لوثر نقاط احتجاجه الخمس والتسعين على باب كنيسة فيتنبرغ في المانيا. قادة أخرون لهذه الثورة كان أولرخ زوينجاي وجون كالفن في فرنسا وجون كنوكس في سكتلندا.

لقد أدت الثورة البروتستنتية إلى فترة طويلة من الويلات والحروب الدينية والسياسية بما في ذلك اضطهاد الجماعات الصغيرة المنشقة والمختلفة. وعلى

الرغم أن هذه الثورة لم تقود إلى استميال جميع الكاثوليك إلى البروتستنتية إلا أنها أوقعت الكثير في الكنيسة الكاثوليكية. لم تستطع الفئات البروتستنتية التي انشقت على روما أن تتحد لتكوين كنيسة واحدة، وبدلاً من ذلك كونّت فئات كثيرة من الكنائس، لعبت بعضها في تثبيت دعائم المستعمرات البريطانية في أمريكا مثل البيورتانيين والكويكرر (الأنقياء المحافظين والزراعيين). نقلت الهجرات الأوروبية إلى الأمريكتين واستراليا وجنوب أفريقيا المسيحية معها إلى تلك البلاد. وقد كان معظم المهاجرين في أمريكا وكندا عدا كويبك من البروتستنت بينما بقيت الكاثوليكية في أوروبا الجنوبية وأمريكا الجنوبية. وفي القرن التاسع عشر نشط المبشرون في بلدان الشرق إلا أنهم لم يكونوا قادرين على استحالة أكثر من أجزاء صغيرة لا تذكر إلى جانبهم ولديانتهم.

٥ ـ الإسلام ـ الإسلام هو الدين الأخير في سلسلة الديانات الوحدوية والرسول محمد ﷺ لم يضفي على نفسه نوعاً من القداسة مثله في ذلك مثل موسى. فلم يدع لنفسه أي نوع من القداسة. عرف الرسول أن الله اختاره ليكون نبيه وأنه يسلمه الوحي وكان يعلم ما يوصي إليه لاتباعه. وبعد وفاته جمع هذا الوحي معاً ليكون الكتاب الذي نعرفه اليوم باسم القرآن. والحقيقة هي أن هذا الإسلام قد أعطي كما أوحي في الوحي ذاته «قرآناً عربياً».

ولد الرسول محمد عام ٥٧٠ م في مكة في العام المدعو عام الفيل في الجزء الغربي من الجزيرة العربية. تقول الروايات التاريخية أنه تيتم عندما كان عمره ست سنوات فعاش في كنف جده وبعد وفاة جده عاش في بيت عمه وكان كلاهما من أعيان قريش. عندما كبر الرسول عمل في التجارة ولما أصبح عمره خمساً وعشرين أصبح يعمل لسيدة غنية جداً «خديجة بنت خويلد» كانت تكبره بخمسة عشر عاماً، تزوجها فيما بعد. كانت في الجزيرة العربية الديانتان اليهودية والمسيحية إلى جانب الوثنية وكانت قريش وثنية.

إلى جانب كونه الرسول وأسس الدين الإسلامي فقد كان أيضاً هو القائد

لأتباعه. واعتقد الرسول جازماً أنه يكمل الرسالات التي جاء بها موسى والمسيح والأنبياء. ويتمحور القرآن حول مجموعة من المعتقدات مثل القيامة والموت والحياة الآخرة والجنة والنار. الله في الإسلام كما في الديانات السالفة هو الخالق الأزلي إلا أنه يختلف عن الديانات المتواجدة في عصره بأنه إله كل الناس (عالمية الإسلام) وواحد أحد مطلق. يعني الإسلام التسليم لله والمسلم هو من أسلم نفسه لله. وعلى المسلم أن يقوم بواجباته تجاه الله كما نزلت في القرآن وهذه الواجبات تدعى أركان الإسلام: الشهادتان (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، الصلاة، والزكاة، وصوم رمضان والحج إلى بيت الله.

لم يسلم الإسلام من الصراعات مثله مثل الديانات السابقة عليه وكانت بعضها مريرة. وكانت هذه بداية انقسام الأمة المسلمة إلى سنة وشيعة. لكن هذه القسمة لم تبق الوحيدة. على الرغم من ذلك ازدهر الإسلام واجتاحت الجيوش الإسلامية الممالك التي حولها مبشرة بالإسلام وفي بضعة عقود وصلت الحدود الإسلامية إلى أقاصي المعمورة وأصبحت الخلافة الإسلامية من أكبر امبراطوريات الأرض. في القرن الحادي عشر الميلادي وأوائل الثاني عشر جاءت الحروب الصليبية وأخذ الازدهار الإسلامي بالتراجع، ثم انتقلت القيادة الإسلامية من الأيدي العربية إلى غير العربية حتى بداية القرن العشرين. عندها تعرض الإسلام للغزو الغربي الأوروبي بتكنولوجيته المتطورة حيث أخذت عناصر الحضرية الغربية تدخل إلى بلاد الإسلام وبخاصة الاتجاهات الفكرية المتطورة. خلال فترة الاستعمار الأوروبي تجزأت البلاد الإسلامية إلى أجزاء شكل كل منها دولة منفردة وتنتمي هذه الدول إلى ما يدعي الآن بدول العالم الثالث.

يرتكز الإسلام على مجموعتين من التعاليم نجدها في كل من القرآن والسنة. والسنة هي مجموعة أحاديث الرسول ﷺ، لكن المسلمون يعتقدون أن لا أسبقية للحديث على آيات القرآن. كما يعتقد المسلمون أن الإسلام يختلف عن الأديان الأخرى بميزات ثلاث:

١ ـ أن التعاليم الإسلامية لم تصل إليها يد البغض والتغيير.

٢ ـ إن الإسلام كل متكامل يعتني بكل من الحياة الدنيا والحياة الأخرى.

٣ ـ إن الإسلام دين تسامح على عكس الديانات التي توجد إلى جانبه في العالم.

والحقيقة هي أن جميع المحاولات الغربية في التأثير على الإسلام والمسلمين لم تنل منه. بل أن الإسلام اليوم ينتشر في البلاد التي تعتنق أو كانت تعتنق المسيحية بطريقة جديدة، دون عنف ودون فتوح حربية بل بطريقة سلمية.

٣ ـ دور الدين في المجتمع:

لا مجال للشك بأن الدين قد لعب دوراً كبيراً في تماسك المجتمعات وبخاصة في المجتمعات البدائية والحضارات القديمة على شكل معتقدات وممارسات دينية قادت الفرد في أن يعرف ما عليه أن يقوم به والجماعة أن تعرف كيف تتفادى الإرادة الشريرة للآلهة. لقد عرف الناس في تلك المجتمعات أن هنالك أشياء مقدسة وأن عليهم أن يحترموها ولا يعبثوا بها إذا ما أرادوا تفادي المجاعة والحظوظ السيئة. لقد ارتبطت المعتقدات الدينية بقواعد سلوكية كانت تدعم عادة التقاليد في المجتمع. كان لكل أمة في القديم آلهتها وفي بعض الأديان كان الملك هو الإله كما عند الفراعنة في مصر. (حتى في الأزمنة الحديثة وحتى عام ١٩٤٥ كانت ديانة الشنتو تعلم الناس أن الأمبراطور ابن إله الشمس). وكانت النتيجة أن الناس كانت أكثر تماسكاً من خلال المعتقدات المشتركة ومن خلال اشتراكهم في ممارسة الطقوس والمدائح والصلوات والذبائح.

كان هذا جانب من فعل الدين في المجتمع. أما الجانب الآخر فهو أن الاختلافات حول العقائد كانت مصدراً للصراعات الاجتماعية وبخاصة عندما كانت جماعات تنتمي إلى معتقدات مختلفة تعيش ضمن حدود وطنية واحدة. إذ

ما أردنا التعرف على ذلك علينا أن ننظر حولنا في العالم إلى حالات مثل ايرلندا حيث الكاثوليك والبروتستنت في صراع مستمر وإلى جنوب أفريقيا ثم إلى منطقة الشرق الأوسط أيضاً.

أ ـ الدين كمصدر للقيم الاجتماعية: قد يكون للدين قوة اجتماعية مفرقة ولكن من الواضح أنه مع الزمن يلعب دوراً هاماً في استقرار واستدماج المجتمع والأمم والحضارات. فالقيم العربية مثلاً كانت قد تشكلت بناء على تعاليم الديانة الإسلامية إلى جانب ما ورثناه من الفترة السابقة على الإسلام، كذلك هي الإنساق القيمية والأخلاقية الأوروبية قد تشكلت بمساعدة المعتقدات المسيحية حيث كانت المسيحية ديانة الشعوب الأوروبية لفترة استمرت بعد ٣٢٥ م حتى الوقت الحاضر على الرغم من الجرائم والحروب التي قامت باسم المسيحية في الماضي بما في ذلك حرق الذين اتهموا بالهرطقة في العصور الوسطى. لم تؤثر المسيحية على معتنقيها فقط بل أيضاً على أولئك الذين لم يقبلوا طبيعتها الميتافيزيقية (أو فلسفة ما وراء الطبيعة). ونتيجة لذلك ازدهرت الاتجاهات الإنسانية منذ زمن الأمبراطورية الرومانية.

القوة الدامجة في ظاهرة الدين نابعة من حقيقة أن النظام الديني يضفي على القيم والقواعد صبغة القداسة. فإذا لم يعتنق الناس هذه المبادىء يصعب الوصول إلى والحفاظ على مجتمع منظم تسوده الحريات الشخصية والانتخابات الحرة، ولانتاج سلع كافية لاشباع الرغبات الإنسانية والقضاء على الفقر، وأخيراً للحفاظ على مستوى المدنية الذي توصل إليه الإنسان.

من خلال تأثيره على الأفراد يمارس الدين أيضاً تأثيره على الأنظمة الاقتصادية والسياسية. وقد قدم لنا ماكس فيبر هذه الأطروحة في كتابه المعروف «الأخلاق البروتستنتية والروح الرأسمالية». فقد ذهب هذا العالم إلى أن الفئات البروتستنتية التي نتجت عن الإصلاح وخاصة تلك التي تأثرت بتعاليم جون كالفين قد أسهمت في الرفاه الاقتصادي البريطاني وغرب أوروبا وتطور الرأسمالية

الصناعية الحديثة. لقد كانت هذه الفئات قادرة على ذلك لأنها كانت تعتقد بالمبادىء البروتستنتية التي تعلم أن المسيحي الجيد هو الذي يعمل وينتج ويوفر ويستثمر، ويبرز مبادرة تجارية. وقد لعبت هذه الأخلاق البروتستنتية في تطور المثاليات الأمريكية مثل الفردية المطلقة والشركات الخاصة والنجاح المالي.

على أن إضفاء قيمة عالية على العمل ونوع السلوك الضروري للنجاح المادي ليس امتيازاً للبروتستنتيين بل هي خاصية لكل جماعة تصمم على تحسين أحوالها المعيشية والمادية. ونجد اليوم هذه الخاصية في اليابان وألمانيا الغربية علماً بأن الدولة الأولى لا تعرف إلا القليلين من اتباع المسيحية بينما أكثر سكان ألمانيا المدنيين من الكاثوليك.

إذا ما عدنا في التاريخ إلى الوراء نجد أن حضارتنا العربية قد عرفت هذه الروح التجارية والعلمية في الخلافة الأموية والعباسية حيث وصل المجتمع الإسلامي إلى قمة الرفاه مقارنة بالأمبراطوريات القديمة.

ب ـ أثر الدين على التعليم: للدين على التعليم والفن والموسيقى والأدب تأثير واضح. ففي العصور الإسلامية كان التعليم والفن يبرز التأثير الديني بكل وضوح. كان التعليم تعليماً دينياً في أول الأمر وجميع الفن العمراني كان متأثراً بالدين الإسلامي. كذلك في أوروبا فقد كان للدين تأثير واضح على الموسيقى (الموسيقى الغويغورية) والفن المعماري للأديرة والكنائس وفن النحت والرسم وفي الأدب أيضاً. وفي بلادنا العربية قاد الدين العلم في جميع مراحل تطوره بما في ذلك الجامعات القديمة والحديثة مثلما قادت المسيحية التعليم في أوروبا خلال العصور على الرغم من الفصل بين السلطتين السياسية والدينية.

٤ ـ الدين في تاريخ منطقة الشرق الأوسط:

لقد صاحبت الظاهرة الدينية تاريخ منطقة الشرق الأوسط منذ القدم وترادفت فيها القوى المختلفة التي اعتنقت ديانات متتابعة بدأت ما بين النهرين ومصر وجنوب الجزيرة العربية وشمالها. إلى جانب هذه الحضارات كانت منطقة

الشرق الأوسط تعرف ديانات أخرى مثل ديانة بعل والديانات التي تمحورت حول عشتروت والوثنية. في العراق تكون مجتمع ما بين الرافدين أيضاً تحت الفكر الديني سواء السامي منه أو الفارسي وتشكل المجتمع بناء على هذا الفكر مثلما تشكل المجتمع المصري حول عبادة الشمس والفراعنة إلى أن جاءت بوادر الديانات الوحدوية متمثلة في ديانة موسى التي تبعها الإسرائيليون القدامى وطوروا حولها مجموعة من القواعد والنظم الأخلاقية والقوانين استعاروا مادتها الأولى ليس من موسى فقط إنما أيضاً من حضارة الشعوب التي كانت تسكن المنطقة. إلى جانب اليهودية بقيت الديانات المحلية في فلسطين والهلال الخصيب واستمرت ديانات بابل في منطقة بين الرافدين إلى أن جاءت المسيحية. عندما جاءت المسيحية قدّمت للمنطقة فكراً دينياً جديداً متمثلاً في الروحية البحتة. وعلى الرغم من الديانات الإغريقية والرومانية التي غزت المنطقة إلا أن هذه وكما يبدو بقيت ديانات الشعوب الغازية. جميع هذه الديانات أثّرت على المنطقة وقيمها وعاداتها تأثيراً قوياً وبقيت الحالة كذلك حتى جاء الإسلام يجمع ما بين مادية الديانات السابقة عليه والمعاصرة للديانتين الوحدويتين السالفتين والروحية في ديانة تشريعية جديدة شاملة ومكملة. جاء الإسلام كما يقول القرآن للدين وللدنيا، ومنذ ذلك الوقت أخذ تأثيره على المنطقة في جميع جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية وما زال إلى وقتنا هذا.

لقد عرف الإسلام كيف يتعايش مع الديانات الأخرى مثل المسيحية واليهودية واللتان شاركتا في تشكيل القيم والمعايير والأنظمة الأخلاقية في المنطقة ولو على نطاق ضيق.

وعلى الرغم من الثورات والحروب والدمار التي اجتاحت المنطقة إلى فترة زمنية طويلة إلا أن العلمانية لم تستطع شق طريقها إلى هذه المجتمعات كما فعلت في أوروبا.

٥ ـ العلمانية في أوروبا وتراجع المعتقد الديني :

بقي الدين والدولة السياسية في أوروبا متلازمين طوال العصور الوسطى وكان نصيب من يرفض المشاركة في العمليات والطقوس الدينية العقوبة القاسية حتى الموت والحرق. أما بعد الثورة الصناعية فقد أخذت الروابط بين الدين والدولة تتفكك حتى انفصلت كلياً خلال القرن التاسع عشر. فعلى الرغم من بعض التسامح الذي تبديه الحكومات الشيوعية للحياة الدينية في مناطقها إلا أنها تشجع على التدين. كذلك فإن كثيراً من المؤسسات في غرب أوروبا أخذت تبتعد عن تأثير الدين والكنيسة رويداً رويداً وقد وصلت هذه العملية في الولايات المتحدة أبعد حدودها. ففي كل من أوروبا وأمريكا نجد أن جميع الشروط الموضوعة في اختيار الموظفين والمهن قد أبعدت كل ما يشير إلى أسس دينية. كذلك فإن الحياة الاجتماعية وحتى أبسط ما فيها مثل قوانين الزواج والطلاق أصبحت خارج قبضة الكنيسة والدين وخضعت للقوانين المدنية. وبينما تسمح الحكومات الغربية للكنائس أن تدير مدارسها الخاصة فإنها لا تقدم لها أي نوع من الدعم، وكثيراً ما تقود التكاليف المرتفعة للتعليم وإدارة المؤسسات الأخرى إلى تقليص البرامج التي تضعها المؤسسات الدينية.

أما في أغلبية دول الشرق الأوسط، فعلى الرغم من أن أكثر المرافق التعليمية أصبحت تحت إشراف القطاع العام فهناك بعضها ما زال تحت رعاية وإدارة القطاع الديني، ولكن هذه تستفيد من الدعم الحكومي. ما ساعد على احتفاظ المؤسسات الدينية على مقدرتها في الاستمرار بالقيام بوظائفها هو طبيعة المؤسسة السياسية التي أبقت على تلازمها مع الدين حيث نجد معظم دساتير البلاد العربية تحتوي على مادة تدعى «دين الدولة».

٦ ـ تأثير العلم والفلسفات المادية :

يذهب العلم الحديث إلى أننا نعيش في كون منظم تنظمه قوانين محدودة أو تكررات من السبب والأثر يمكن أن نتنبأ بها ونسيطر عليها إذا ما تعلمنا أن

نفهمها جيداً. وتعابير مجازية على الرغم من إصالتها في الأديان والمعتقدات التي سادت قرون طويلة. وعلى أية حال فلا داع لأن يكون الدين والعلم دائماً في حالة تضاد وتناقض، فالكثيرون من العلماء الطليعين بالعلم رجال متدينون وعميقوا الايمان بالله.

العلم والدين متناقضان أو يتناقضان فقط عندما تتدخل المبادىء الدينية وتقوم بأحكام حول العالم الطبيعي وتتناقض مع المعرفة العلمية. مثال على ذلك هي تعاليم الكنيسة التي كانت تعلم أن الأرض مسطحة وعارضت بذلك الاكتشاف العلمي بأن الأرض كروية. والحقيقة هي أن فكرة تناقض الدين والعلم فكرة غربية محضة وقد انتقلت إلى بلاد الشرق مع التبشير ودعمها بعض المتعصبين الدينيين في الشرق الإسلامي.

يعتقد بعض العلماء المتدينين أن الدين يزودنا بتعاليم معنوية على الإنسان أن لا يأخذها بمعناها الحرفي وأن المكتشفات العلمية تكشف عن التعقيد والترتيب الكبيرين اللذين يتحلى بهما العالم الذي خلقه الله والطريقة العجيبة التي ينفذ الله من خلالها إرادته في العالم الطبيعي.

وعلى الرغم من أن الدين والعلم ليسا بالضرورة نقيضين إلا أن الفلسفات المادية قد قادت في كثير من الفترات إلى إضعاف تأثير الدين. فالفلسفة المادية تنكر أي حقيقة فوقية تتسامى فوق المادة. فهي لا تعترف إلا بالمادة والطاقة الناتجة عنها والحركة والإقترانات التي تجد المادة فيها ثم اقتران المادة والطاقة. ففي معظم بلدان العالم نجد مجموعة قليلة من الناس أصبحت ذات نظرة مادية بينما الكثرة من الناس ما زالوا يؤمنون بوجود الخالق كقوة خفية مبهمة لا بد في يوماً ما إن تسيطر وتحكم العالم. مثل هذه النتائج نجدها في الغرب فماذا عن مجتمعنا العربي؟

نحن لا نستطيع قول شيء عن هذا لأنه لا توجد لدينا دراسات جادة حول الموضوع وعلينا أن نكتفي بالملاحظة. فما زالت الفكرة الدينية وحتى التديّن

يلعب دوراً هاماً في حياتنا الاجتماعية حتى وفي أبسط الأمور. ففي أغلب المجتمعات العربية والاسلامية نجد أن الدستور ينص على أن الإسلام دين الدولة. ومن الناحية التطبيقية نجد أن كثيراً من الأمور قد تركت للقوانين الدينية حتى تنظمها مثل الزواج والطلاق والارث وغيرها. والحقيقة التي لا مفر منها هي أن أغلبية المجتمعات العربية قد أعطت نوعاً من الحكم الذاتي للكنائس المختلفة لتطبيق قوانين الكنيسة سواء الكاثوليكية أو الأرثوذكسية أو البروتستنتية. فبينما نجد أن الطلاق مثلاً وتعدد الزوجات هو الأصل في الشريعة الإسلامية المطبقة فما زالت الفئات المسيحية من مجتمعنا العربي ترزح تحت تطبيق القانون الكنسي الكاثوليكي أو البروتستنتي أو الأرثوذكسي بعد أن شكر الناس في الغرب تطبيقها وعفى عليها الزمن وبذلك نوجد أيضاً نوعاً من عدم المساواة في الحقوق الشخصية بين أفراد المجتمع الواحد.

٧ ـ مستقبل الديانة:

تأسست معظم الأديان الكبرى المعروفة في وقتنا الحاضر في زمن كانت معرفة الإنسان فيه حول الظواهر الطبيعية محدودة، فلم يكن يعرف القراءة أو الكتابة إلا عدد قليل من الناس. كذلك فقد تأسست هذه الأديان قبل العصر الذي عرفت فيه الطباعة. وقبل عصر العلم والتكنولوجيا الحديثة بتحقيقاتها العجيبة. باختصار، ظهر الدين في وقت كان يسهل فيه على الإنسان الاعتقاد بالقوى الخارقة للطبيعة أكثر ما هو الآن.

لكن كما قلنا، حتى ولو وجد العالم الغيبي فمن الصعب على العلم الحديث البحث فيه وعلينا أن نقبل ذلك من خلال الإيمان. ونجد في وقتنا الحاضر أن الكثيرين يعتقدون بوجود الله بناء على الفكرة بأن ظواهر العالم الطبيعي يجب أن تكون قد خلقتها قوة فوقية. وربما أن الكثيرين يعتقدون بوجود الإله لأنهم يؤمنون أنه أوحى إرادته إلى وسطاء مبشرين مثل الأنبياء موسى ومحمد أو من خلال اعتقادهم بنزول ممثل قدسي للإله كالمسيح. ومهما كانت قاعدة

الإيمان، هناك الحقيقة بأن الأديان الكبرى قد وجدت لقرون طويلة وقد وصل اتباع هذه الديانات في الوقت الحاضر إلى مئات بل ألوف الملايين من المؤمنين المكرّسين. وبناء على هذه المعرفة التاريخية ومعرفتنا بطبيعة الإنسان فلا نقدر أن نجد ما يشير إلى أن هذه الأديان سوف تنقرض. فالمؤمن الحق يجد أن الفروض الأولية للمعتقد تمثل حقيقة خالدة غير متغيرة.

من الواضح أيضاً أن الحياة الدينية في الوقت الحاضر لا تسيطر على معظم الناس كما كانت تفعل في القرون السابقة (بين القرن الثالث والسادس عشر الميلادي فقط) أو كما هي الحال في بعض الشعوب البدائية والحضارات القديمة. إضافة إلى ذلك فيبدو أن هناك كثيراً من طلاب العلماء والباحثين والعلماء لم يعودوا يقبلون ما يدعى بالوحي في حرفيته أو الأحداث التي قامت على أساسها المعتقدات الدينية. السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هو: هل يمكن للأكثرية من الناس الحفاظ على الإيمان إذا كان عدد المتشككين بالتعاليم الدينية في ازدياد مضطرد؟ وهل يمكن للمؤسسات الدينية أن تستمر في ممارسة دورها كقوة دامجة وضابطة وأن تصبح ـ كما نأمل أو يأمل البعض ـ قوة محسنة ومجددة في المجتمع؟

هناك نوعان متناقضان من الأجوبة على هذه الأسئلة: تذهب الإجابة الأولى إلى أن المؤسسات الدينية قد أصبحت من الجمود بحيث أنها لم تصبح قادرة على اشباع احتياجات الإنسان في عالم متغير. وإذا ما أرادت المؤسسات الدينية أن تفعل ذلك فعليها أن تعيد النظر في تعاليمها وتحييها بشكل جديد وأن تؤكد على احتياجات الإنسان الفرد في هذا العالم أكثر مما فعلته إلى هذا الوقت. وتذهب الإجابة من النوع الثاني إلى أن المعتقدات الدينية كما جاءت في الكتب أهم من ذلك وأن على أهل الديانة أن يحافظوا عليها.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل التاسع :

١ ـ لماذا كان للدين تأثير كبير على الإنسان منذ العصور القديمة؟
٢ ـ ماذا كان موقف المفكرين اليونان من الآلهة الإغريقية؟
٣ ـ تبدو الديانة الهندية للمسلمين ديانة غريبة، لماذا؟
٤ ـ من أوجد البوذية وكيف؟
٥ ـ لماذا يقال أن البوذية القديمة كانت فلسفة أكثر منها ديناً؟
٦ ـ ما هي الصفات المميزة لليهودية؟
٧ ـ سمّي الاتجاهات الدينية المعاصرة الثلاث في اليهودية؟
٨ ـ سمّي بعض أوجه الشبه بين المسيحية واليهودية والإسلام؟
٩ ـ لماذا ندعو معرفتنا بتعاليم المسيح غير مباشرة؟
١٠ ـ ماذا كان يعني الإصلاح للمسيحية؟
١١ ـ هل كان الدين قوة دامجة أم مفرقة في المجتمع؟
١٢ ـ هل يتضارب العلم مع الدين بالضرورة؟

بعض المفاهيم المستعملة

دين	Religion
نرفانا	Nirvana
الأرواحية	Animism
تعدد الآلهة	Polytheism
الفيدا	Veda
الكرما	Karma
المسيح	Messiah
التلاميذ	Apostles
التوحيد	Monotheism
القرآن	Qur'an
الحديث	Modern
العلمانية	Secularism
الإصلاح	Reformation

References

- Barret, Edwards. **Faith in Focus; A Compact Indroduction to christian Theology.** (Lanham, MD; University Press of America, 1982).
- Durkheim, Emile. **The Elementary Forms of Religious Life.** (New York: Free Press, 1965).
- Godwin, Joscelyn. Mystery Religions in the Ancient World. (New York: Harper & Row, 1981).
- Ross, Floyd H., & Tynette Hills. **Great Religions by Which Men Live.** (New York: Fawcett World Library, 1969).
- Roston, Led, ed. **The Religion of America.** (New York: Touchstone Booksm, 1975).
- Schoeps, Hans - Joachim. **The Religions of Mankind,** (Anchor, Paperback. New York: Double days, 1969).
- Weber, Max. **The Sociology of Religion.** (Boston, MA: Beacon Press, 1964).

الفصل العاشر

المدخل إلى علم السياسة

د. مهنا حداد

د. أمين مهنا

المدخل إلى علم السياسة

١ ـ مادة الفصل:

يختلف الناس في آرائهم حول الدور الذي تلعبه الحكومة في المجتمع وتقود هذه الاختلافات إلى كثير من الصراعات بل هي أسباب الصراع السياسي داخل الأمة الواحدة والتناقضات بين اتباع العقائد السياسية المختلفة مثل الديموقراطية والشيوعية والفاشية وغيرها من العقائد الأخرى.

ينتج الصراع بين الناس حول أدوار الحكومة في المجتمع لأنهم يختلفون على تعريف المفاهيم المستعملة في النقاش فكل منهم يعرفها تعريفاً يختلف عن تعريف الآخر. فإذا ما أرادوا للنقاش أن ينجح يكون عليهم أن يتفقوا على تعاريف معينة.

٢ ـ العلاقة بين المجتمع والحكومة:

المجتمع: مجموعة من الناس تنظم نفسها ويرتبط أعضائها مع بعضهم بعضاً بناء على علاقات قائمة. وتتضمن كلمة مجتمع جميع العلاقات الإنسانية الموجودة في جماعة منظمة في أي مكان في العالم. فالناس في الأردن وشبكة العلاقة الاجتماعية كاملة فيما بينهم تكون مجتمعنا الوطني. كذلك يكون الناس في المدينة وعلاقاتهم الاجتماعية مجتمع المدينة. لكل مجتمع حكومة ولكن

كلمة المجتمع تدل على الناس وحكومتهم. والحكومة ليست إلا المؤسسة الاجتماعية الأولى. والمؤسسة الحكومية المشتركة مثلها مثل المؤسسات الاجتماعية الأخرى كالأسرة والمؤسسة الاقتصادية أو الدينية تساعد على تماسك وترابط الأفراد في الجماعة أو المجتمع.

الدولة: هي مجموعة من الناس يعيشون في بقعة من الأرض تحت إدارة حكومة وتعترف بها الدول الأخرى كدولة ذي سيادة. ولكي تكون صاحبة سيادة يجب على الوحدة السياسية أن يكون لها حكومة ذات سلطة لتحكم الناس بفعالية ولتفي بالتزاماتها كدولة. يجب أن تملك سلطة مطلقة على مواطنيها وأن لا تخضع لأي حكومة أخرى. فالأردن دولة ولها السلطة العليا على مواطنيها. وفي العالم اليوم حوالي ١٦٠ دولة ذات سيادة مستقلة وجميعها متساوية اسمياً في حقوقها المشروعة ومركزها الدولي.

تعمل كثير من الدول كدولة ولكنها في حد ذاتها عالة على الدول الكبرى من أجل حمايتها. أمثلة على ذلك نجدها في دول التحالف الاشتراكي وكثير من الدول النامية. الدولة في التطبيق العملي ما يصنع المجتمع منها، وهي تختلف كثيراً في خصائصها تحت انساق اجتماعية حكومية مختلفة وبالتأكيد فإن دولة الاتحاد السوفياتي تختلف عن الولايات المتحدة. على أية حال فإن جميع الدول تملك على خاصية مشتركة نجدها فيها جميعاً: أفراد الدولة منظمون تنظيماً عالياً لأهداف سياسية. ففي كل دولة نجد شبكات معقدة من العلاقات السياسية. ولكن هذه الشبكات من العلاقات السياسية مختلفة وبناء على ذلك، أي هذه الاختلافات، تختلف الدول. يرى دعاة الديموقراطية مثلاً أن الدولة يجب أن تقوم بواجباتها وتعمل حسب ما يمليه المجتمع أي أنها وكالة يديرها المجتمع. هذا المفهوم للدولة (الذي يعادل مفهوم الحكومة الديموقراطية) يجعل المجتمع أعلى من الدولة والحكومة التي تعمل لها. أما الحاكم المتسلط فإنه يساوي المجتمع بالدولة، والدولة بالحكومة، والحكومة بنفسه، ثم يأخذ بالتحدث عن المجتمع كإنه السلطة العليا في جميع الجوانب الدينية والسياسية

والاقتصادية والاجتماعية. وهذه هي الدولة الكلية التي لا تمنح أفرادها ومؤسساتها أي نوع من الحرية إذا ما أراد هؤلاء الأفراد أو هذه المؤسسات التدخل في كيفية الحكم.

الحكومة: هي اللسان المعبر عن الدولة. لا يعني هذا أن الدولة شرط في وجود الحكومة، فقد كانت في العالم حكومات دون أن تكون هناك دولاً (حكومات القبائل الإفريقية قبل الاستعمار وحكومات الهنود الحمر في أمريكا الشمالية). قد توجد الحكومات دون دولة ولكن الدولة لا توجد دون حكومة. والحكومة التي لا تدير دولة تختلف عن حكومة الدولة، مثل هذه الحكومة هي مؤسسة للرقابة الاجتماعية أو الضبط الاجتماعي وتوجد مستقلة عن أي شكل من أشكال البناء السياسي المؤسسي. توجد هذه الحكومات في المجتمعات التي لا تعرف الكتابة أو الجماعات البدائية. في هذه المجتمعات نجد أن النظام الاجتماعي متأصل في علاقات القرابى والزواج والتبادل الاقتصادي والطقوس حيث لا يوجد نسق سياسي وتشريعي يطبق على الجميع لأن كل جماعة تعترف بنسقها الخاص. هذا الضبط الاجتماعي لسلوك الفرد من خلال المؤسسات الاجتماعية تمارسه العادة والعرف والرأي العام، وهذه المؤسسات هي الحكومة في مثل هذا المجتمع.

استعملنا مفهوم الحكومة في الفقرة السابقة بشكل عام. لكننا نستعمل مفهوم الحكومة عادة بمعنى الحكومة الشعبية، وهي تشير إلى السلطة السياسية التي يمارسها الشعب بكامله من خلال قنوات خاصة مثل رؤساء العشائر، والملك والبرلمان. وحتى في هذا الاستعمال الضيق فقد يكون لمفهوم الحكومة معان مختلفة. فقد نستعمل هذا المفهوم أحياناً لنشير إلى الإطار المؤسسي الذي تمارس فيه الضبط الاجتماعي، وأحياناً لتشير جماعياً إلى كل من له وظيفة رسمية مثل الموظفين والمشرعين، والقضاة والشرطة والمدراء وغيرهم. هذا المفهوم الأخير مناسب جداً لأن هؤلاء هم الذين يقومون بممارسة السلطة الحكومية ويؤدون الوظائف الحكومية الأولية التي سوف نشرحها في فترة لاحقة. وعلى كل

حال فقد يشير المفهوم إلى المشرعين وموظفي الحكومة الذين يمثلون الحزب الحاكم. وهكذا نتكلم عن حكومة المحافظين البريطانية، أو الحكومة الديموقراطية أوالجمهورية في الولايات المتحدة. ما يحدد معنى المفهوم حكومة هو المجال الذي تستعمل فيه هذا المفهوم.

٣ ـ آراء متناقضة حول طبيعة الحكومة:

حكومة الدولة هي أقوى المؤسسات الاجتماعية على الإطلاق. فقد احتكرت الإكراه الفيزيائي المتطرف وأخذت تقوم بالعديد من الوظائف التي كانت تقوم بها الأسرة والمؤسسات الدينية والتجارية فيما مضى، وتشمل هذه على التعليم والتأهيل الخلقي وخدمات اجتماعية متعددة أخرى. وعلى الرغم من أن الحكومة أخذت على عاتقها تنظيم المؤسسات الاجتماعية الأخرى إلا أنها هي أيضاً خاضعة لرقابة هذه المؤسسات. فالمعتقدات السائدة في شعب ما والمؤسسات العاملة فيه إضافة إلى مواقف هذا الشعب تحدد إلى درجة كبيرة نوع الحكومة التي سوف يطورها هذا الشعب. وكثيراً ما توسع الحكومة وظائفها نتيجة لفشل هذه المؤسسات في تلبية حاجات ورغبات اجتماعية.

بسبب هذه الأهمية الكبيرة التي أخذتها الحكومة فقد ظهر حقل واسع للدراسة دعي «النظرية السياسية» ليدرس كيف تعمل الحكومة، ويهتم بالآراء المتناقضة في السياسة وبطبيعة الحكومة. لا نريد هنا التعرض للنظرية السياسية بقدر ما نريد أن نركز على الطرق التي تستعملها الحكومة في التأثير على سلوك الإنسان. وعلى كل حال يمكننا أن نفهم ثلاث طرق لوصف طبيعة الحكومة:

أ ـ إنها شر لا بد منه.

ب ـ إنها خير إيجابي.

ج ـ إنها شر غير ضروري.

أ ـ الحكومة شر ضروري: لا يوجد ما هو أكثر تأكيداً من الموت والضرائب، والحكومة تفرض ضرائب. وإذا ما اعتبرنا أن كل القوانين بما فيها

قوانين الزواج والطلاق تابعة للحكومة فلا يوجد منـا من قد يـولد بشـرعية دون أن يكون والده قد دفع ضريبة ما وتزوج تحت إشـراف شخص سمحت له الحكـومة بهذا الإشراف. فالحكومة تتابع الفرد في فتـرات حياتـه وتعلمه دائمـاً ماذا يقـدر وماذا لا يقدر أن يفعل. وفي الحقيقة أن الإنسان منا لا يقـدر أن يفعل شيئـاً دون تـدخل الحكـومة من قيـادة السيارة حتى وراثـة الوالـدين ومن تحديـد المهنة إلى ممارستها لا يسلم أحد منا من الحكومة. وقد قاد هذا التدخل الكثيرين إلى الرأي أن الحكومة شر لا بد منه.

جـوهر وجـود الحكومـة هو المنـع والضغط والتنـظيم والـرقـابـة والاكـراه. فللحكومة حق تشريع القوانين وتطبيقها. فالكـاهن والشيخ والـوالدان قـد يتملقوا ويمـانعوا ولكن الحكـومة وحـدها قـادرة على سجن الفرد شـرعياً، ولهـا كـذلـك السلطة في استعمال جميع الانتاج لتحقيق أهدافها سواء كان هذا الانتـاج زراعي أم صنـاعي. وهي تنظيم جميـع المؤسسات بنـاء على مفهومهـا للأمن والأخـلاق والرفاهية. والحكومـة أقوى مؤسسـات الضبط الاجتماعي في المجتمـع وهي من القوة بحيث لا يستطيع أحد تجاهلها.

ب ـ الحكومة خير إيجابي: هناك أناس يقولون أن الحكـومة ظـاهرة خيرة وأن الحكومة ضرورية لترغمنا على القيام بما هو حسن عندما يقودنا ضعفنا الأخلاقي لأن نسيء إلى بعضنا بعضاً. فهي ليست نتـاجاً لـطبيعـة الإنسـان الشـريرة لكي تعمل على سعادتنا وتسهم سلبياً في الضغط على أهـوائنا. الحكـومة عنـد هؤلاء أكثر من معاقب ومراقب فهي التي تدعم وتنشر الصالـح العام والخيـر العام. هي الأداة الاجتمـاعية الـلائقة والمنـاسبة للفعـل الإيجـابي كي تقـدم أوليـات الحيـاة الجيـدة للإنسـان. والحكومـة خير إيجـابي لأنها تعمـل لصالـح مجموعـة الناس وبكلمات ابرهام لنكولن، مهما أراد الناس أن يفعلوا فلن يكونوا قادرين على فعل ذلـك لأنفسهم من خلال مقـدراتهم الفرديـة. فالحكـومـة هي التي تخلق المنـاخ السياسي والاجتماعي والاقتصـادي الضروري للتحصيـل الفردي والجمعي. فهي لا تحد فقط من الشر في الإنسـان، بل تنـظم أيضاً إرادتـه الخيرة ونيتـه الحسنة،

وهي لا تقلل من الصراع فقط بل تزيد من التعاون.

ج ـ الحكومة شر غير روري: هذا هو رأي أتباع النظرية الماركسية الذين يرون في حكومات الدول غير الشيوعية أداة اضطهاد واستغلال الطبقة المالكة لطبقة العمال، وهذه الحكومات في نظرهم تعمل لصالح الغني ضد الفقير. ففي هذه الدول تستغل الأقلية الأكثرية وكما يقول لينين وستالين يكون واجب الشيوعيين هو الإطاحة بدولة الأقليات وإقامة دولة البلوريتاريا الاستبدادية حتى ينتهي أعداء الشيوعية وعندها ينتهي عمل الدولة. ومن هنا جاء رأى هؤلاء بأن سلطة الحكومة القاهرة شر غير ضروري إلى حين يمكن للحكومة أن تختفي. غير أن هذا الرأي يوجد عند كل من اليسار واليمين في بلدان العالم. (جاء مفهوماً اليسار واليمين من البرلمان الفرنسي حيث كان نواب حزب المحافظين يجلسون على كرامي الجهة اليمنى للبرلمان. بينما أعضاء حزب العمال أو الاشتراكي على الجهة اليسرى). فمثلاً كان الأمريكان الأول يخافون الحكومة لأن الحكومة الأمريكية القديمة كانت تحاول تخليد العبودية وتدعم مصالح الأقلية الغنية المختارة. والحقيقة هي أن عدم الثقة بالحكومات نتيجة لتجارب سابقة وما قد تجره الحكومات على الشعوب من ويلات. والناس يخافون الحكومات مثلما يخافون القوى الطبيعية، لأنها ألحقت بهم الأذى.

فالحكومات التي وقعت في أيدي قادة متسلطين كانت قد حطمت الحريات وأجبرت الجماهير أن تذل للقائد القوى أو للأرستوقراطية الوراثية كما في روسيا القيصرية قبل الثورة البلشفية أو للصفوة التي انتخبت ذاتها أو للمتسلط من الحكام تحت شعار مصلحة الوطن الأم. هناك حكومات استغلالية فاسدة تسودها الرشوة وقد فشلت في القيام بالوظائف المناطة إليها وبذّرت الضرائب التي دفعها الناس. وبقيت الحالة كذلك حتى ظهرت الحكومات الديموقراطية التي أخذت تحاول استعادة ثقة الناس بها. ففي عهد الديموقراطية أصبح الناس لا يخافون الحكومة لأن الحكومة خادمة الشعب. على العكس فقد ازدادت الوظائف المناطة إليها. وعلى

كل الأحوال فسوف نرى لماذا تحمّل الناس الحكومة حتى في أسوء أحوالها وبقوا يعتقدون أن الحكومة هي الوسيلة الرئيسية لتحقيق الرفاه الاجتماعي.

نجد عناصراً للحقيقة في جميع هذه الآراء حول الحكومة. هذه الاختلافات في الآراء نتيجة لاختلافات الحكومات واختلاف الوظائف المناطة إلى الحكومة. فقد كانت الحكومات قاهرة واستغلت الجماهير وقد اهتمت الحكومات فترة زمنية طويلة بضغط العناصر غير القابلة للحكم في المجتمع. كذلك استعملت المجتمعات الحكومات لتطوير الخير العام. وإذا ما أردنا تقييم الحكومة تقييماً عقلانياً علينا أن نعتبر أشياء كثيرة وأهمها هي البحث في الوظائف التي أنيطت إلى الحكومات.

٤ ـ وظائف الحكومة الأولية:

يطور كل مجتمع مهما كان حجمه شكلاً معيناً من الحكومة المنظمة لأنه يحتاج إلى وكالة قادرة على ممارسة الضبط الاجتماعي في مجالاته المختلفة. فالحكومة تفرض الضرائب. تمنع وتنظم وتحمي وتزود المواطنين بالخدمات لصالح كل من الفرد والجماعات والمجتمع ككل. وسواء فكر الفرد بالحكومة أم لم يفكر إلا أنه يتأثر بها كل يوم سواء بما تفرضه عليه أو ما تقدمه له من الخدمات. عندما يخرج الفرد من بيته في الصباح ويركب سيارته فإنه يستعمل الطريق التي أقامتها الحكومة. ويتمتع بالمتنزهات التي أقامتها، ويرسل أولاده إلى المدرسة التي بنتها وحولتها دون أن يدفع مقابل هذا التعليم. ويستطيع أن يسافر للخارج بفضل وثيقة السفر الذي تمنحه إياها ويستطيع هذا الشخص إذا ما اقتضى الأمر أن يطلب العون من وكيل هذه الدولة الدبلوماسي في البلد المعني. هذه الخدمات وخدمات أخرى وظائف تقوم بها الحكومة من أجل رفاهية المجتمع.

أ ـ الحفاظ على النظام في الداخل والأمن الخارجي. أحد أهم مهام الدولة المتنوعة بل أهمها هي حماية المواطن من الأعداء سواء من داخل الدولة أم من خارجها. أعلى وأرفع قيمة للمجتمع السياسي هو الحفاظ على كيانه والحكومة هي الوكالة الوحيدة المؤهلة لحماية الأمة من الإضطرابات الداخلية والهجوم من الخارج. فهي الوحيدة التي تملك القوة لأرغام الناس على طاعة القوانين الحياتية التي أسسها المجتمع وهي الوحيدة التي تملك القوة العسكرية كي تتصدى لأي عدوان خارجي.

للحفاظ على الأمن الداخلي تستعمل الحكومة الشرطة والسجن والإدارة والمحاكم وخاصة في محاولتها لحماية الأفراد والملكية والحقوق وجميع ما تعتبره الحكومة يستحق المحافظة عليه. ولا تقدر أية مؤسسة من مؤسساتنا أن تعيش وتعمل بهدوء وأمان وسلام دون هذه الحماية. وحيث تسقط سيادة القانون فإن الحكومة لا تستطيع القيام بوظائفها الأخرى، عندها يخاف الناس وتأخذ جوانب المجتمع بالتحلل. وبعد فترة من غياب النظام نجد الناس يهللون للقائد الذي يعيد النظام سواء كان هذا ظالماً أم عادلاً ويرون عودة النظام نغمة عليهم المحافظة عليها. لقد قاد تمييز هذه الحقيقة توماس هوبز الفيلسوف البريطاني في القرن السابع عشر للاستنتاج بأن الحكومة تنتج عن عقد بين رجال أحرار يرغبون في الحفاظ على الحياة وزيادة محتوياتها. يعني هذا أنهم يرغبون بالخروج من حالة الحرب الناتجة عن غياب الحكومة الفعالة. وقد توصلت معظم الحكومات إلى تقليص الاضطرابات الداخلية والعنف إلى أدنى مستوى بحيث أصبحت جميع الصراعات التي تظهر بين الناس تحل عن طريق منظم ومسالم.

الحماية ضد العدو الخارجي من أكثر وظائف الدولة تكلفة. تصور أن

ميزانية الدفاع للحكومة الأمريكية عام ١٩٨٢ كانت ٢٢٥ بليون (ألف مليون) دولار أو ٦,٨ ٪ من الميزانية الاجمالية وقد تصل هذه في بعض البلدان مثل بلدان الشرق الأوسط إلى ٧٠ و ٨٠ ٪ كما في العراق وإسرائيل وإيران مثلاً.

ب ـ تحقيق العدالة: يبدو أن الاعتقاد بالعدالة ظاهرة عالمية وأن كل حكومة حديثة تعترف بوجوب تكريس الجهود في سبيل هذه العدالة. العدالة مفهوم يشمل علاقات الأفراد والجماعات بالمجتمع وببعضهم بعضاً. وتحاول جميع الحكومات التي يدعمها الشعب اقناع أفرادها بأنها تعاملهم بعدالة. وفي الحقيقة أننا نجد الشرطة والمحاكم والقضاة في جميع دول العالم ووظيفتهم هو خدمة العدالة وتطبيقها. تعني العدالة أشياء مختلفة لجماعات مختلفة ولم يقدر الإنسان أن يصل إلى تعريف يلبي رغبات كل الناس فيما يتعلق بمضمون العدالة ولكن جميع المجتمعات تؤمن بأن العدالة إجمالاً هي «كل إنسان وما له». ويثق الناس في جميع المجتمعات أن حكوماتهم تطبق هذا المفهوم بناء على المفاهيم الحضارية السائدة في المجتمع المعني. وإذا أخفقت الحكومة في القيام بوظيفتها فإن الإضطراب سوف يعم وقد تحدث الثورة.

ج ـ الحفاظ على الحريات الفردية: لا يقدر المجتمع أن يصل إلى حالة من الاستقرار دون وجود حكومة، ودون الاستقرار لا يستطيع الفرد أن يمارس حرياته أو أن يكون له أية حرية. وحتى الحكومات المتسلطة تمنح بعض الحريات للأفراد من خلال الحفاظ على الأمن والنظام وتطبيق القانون. وعلى كل حال فقد أجمعت أنظمة الحكم الديموقراطية على أن حماية الحريات الفردية من أولى وظائفها. ففي الأردن مثلاً ينص الدستور على احترام حريات الأفراد وحمايتها. أما في القديم وقبل تطبيق الديموقراطية فقد كان الناس يعتبرون الحكومة عدوة للفرد وحرياته حتى في أوروبا التي تنادي الآن بالديموقراطية. في

زمن الحكومة العثمانية كان الفرد يحبذ مقابلة الوحوش على مقابلة الجندرما. وقد بدأت الديموقراطية عندنا في البلاد العربية في بعض الدول مثل المملكة الأردنية الهاشمية منذ تأسيس إمارة شرق الأردن واكتمل بعد الاستقلال عام ١٩٤٦. والحكومة قابلة أن تحافظ على حريات الأفراد بقدر ما يكرس هؤلاء جهودهم في الحفاظ على هذه الحريات لأن الحكومة في بعض الأحيان وتحت ضغوط مصالح معينة تحاول أن تحد من هذه الحريات.

د ـ وظيفة الحكومة التنظيمية: في عملية نمو المجتمعات الحديثة تطورت مؤسسات وجماعات لتقوم بوظائف متنوعة. بعض هذه المؤسسات والجماعات تقدم خدمات اجتماعية جليلة ولكنها في كثير من الحالات تملك مصالح ذاتية تتضارب مع المصلحة العامة. حيث توجد مثل هذه الجماعات تنشط الحكومة في تنظيم نشاطاتها. فمثلاً نشطت الحكومة الأردنية لتوفير العمل للأردنيين بعد أن كانت مؤسسات كثيرة قد استوظفت الأيدي العاملة الأجنبية الرخيصة وأعطت الحكومة أولوية التوظيف للأردني العاطل عن العمل ووضعت قوانين ومكاتب لمراقبة ذلك.

هـ ـ رفع مستوى الرفاهية العامة: لا تستطيع الحكومة أن تتهرب من رفع مستوى الحياة المعاشية والرفاهية العامة بطرق أخرى لم تذكر من قبل. وتشمل هذه النشاطات الصحة العامة والتعليم والضمان الاجتماعي وغيرها مما يستفيد منه الفرد. وتقوم الحكومة بذلك لاشباع الرغبات في المجتمع ولتزيد من قوتها. تقوم جميع الحكومات بمثل هذه المهام حتى الحكومات المتسلطة أو الدكتاتورية تقوم بذلك مثل إعطاء إجازة سنوية للعمال وتعيين وقت للإحالة على المعاش. لقد ذهب علماء السياسة منذ القدم بأن حصول الأفراد على حق الانتخاب سيشجع على مطالبتهم بإعادة توزيع الثروة. وقد حصلت إعادة التوزيع هذه في المجتمعات بطرق مختلفة وإلى درجات متفاوتة. كذلك فقد توزعت الكفاءات وفتحت المجالات للحراكات الاجتماعية بحيث أن كل فرد قد أصبح، وخاصة

في المجتمعـات المنفتحـة أو الـديمـوقـراطيـة قـادراً على تسلق سلم التـدرج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

٥ ـ أشكال الحكومات:

نتحدث في الفقرات التـالية عن أهم شكلين من أشكـال الحكومـة. يمكن تقسيم الحكومات من حيث الشكـل على عدة أوجـه لكن التقسيم إلى حكومـات ديموقراطية وأخرى استبدادية أهم هذه التقسيمات. الحكومات الديموقـراطية هي الحكومات التي جاءت إلى السلطة عن طريق الاقتراع أو الانتخابات العامـة التي تقـرر من يستلم السلطة. والحكومـة الاستبداديـة أو المطلقـة هي الحكومـة التي يستـولي على السلطة فيها فـرد أو مجمـوعـة من الأفـراد دون الـرجـوع إلى إرادة الشعب.

هذا النسق التصنيفي ليس محكماً، فالانتخابات في الديموقراطية قد تكون دون معنى. تحصل انتخابات في الدول الاشتـراكية مثـلاً كل سنـة ولكن الحزب الحـاكم يحصل دائمـاً على ١٠٠ ٪ من الأصوات وتـدعي هذه الحكـومات بـأنها حكومات ديموقراطية على الرغم من أن الملاحظين والمـراقبين يعرفـون جيداً أن هذه الادعاءات ليست أكثر من دعاية. البلدان الاشتراكية ليست الوحيـدة من هذا النمط، فـالانتخابـات في المكسيـك تثبت فقط الاختبـار الـذي قـام بـه القـادة. الـديموقـراطيات ليست دائمـاً ديموقـراطية كمـا أن الاستبداديـة ليست دائماً ذات حكم مطلق. وعلى الرغم من أننا نتكلم بصيغة الإطلاق إلا أن الحكمة أن نتذكر بأن الاختلافات مسألـة نسبية ومسـألة درجـات. فمعظم حكـومات العـالم ليست بـالديمـوقراطيـات الكاملة ولا بـالإستبداديـات المـطلقـة ولكنهـا تقـع بين هـذين القطبين.

أ ـ تصورات مختلفة للديموقراطية: تعني الديموقراطية أشياء مختلفة لأفراد مختلفين وشعـوب مختلفـة. فقـد كـانت تعني عنـد أفـلاطـون حكم الـرعـاع أو اللانظامية، وتعني لبعض الناس الآن الرأسمالية، وتعني لآخرين اشتـراكية وتعني

لآخرين أيضاً الشيوعية الروسية الحمراء. لم يك قبل القرن التاسع عشر في العالم من كان يرغم بالديموقراطية، والآن تدعي أية دولة ذات قيمة أنها دولة ديموقراطية. ففي التسمية الروسية نجد أنهم يقولون أن الشيوعية هي الشكل الحقيقي الوحيد للديموقراطية، ويدعو الصينيون الذين يتناقضون مع روسيا دولتهم جمهورية الصين الشعبية. وكذلك تقول الولايات المتحدة والدول في غرب أوروبا أنها دول ديموقراطية.

عندما يقول الأمريكي أن دولته ديموقراطية فهو يعني أنها حكومته جمهورية ديموقراطية ينتخب فيها الشعب قادته من خلال انتخابات حرة. بالنسبة للشيوعي تكون جميع الحكومات الرأسمالية حكومات أوليغاركية أي دولاً تحكمها أقليات غنية أرستوقراطية. من ناحية أخرى نجد أن الناس في الدول الرأسمالية قد وصلوا إلى قناعات بأن الدول الشيوعية تخضع لحكومات استبدادية. كما أن لديهم القناعة أن هناك حدوداً لتدخل الدولة في الاقتصاد وأن هذا التدخل على المدى الطويل يخلق ثنائية لا يقدر الناس على تحملها. فأما أن يكون عندهم النظام الاقتصادي الحر أو المقيد وليس الإثنان ويذهب آخرون في الدول الرأسمالية إلى أن المساواة الاقتصادية والاجتماعية لا تتحقق إلا من خلال تدخل الحكومة في تنظيم هذه الأنظمة وهي الطريقة الوحيدة لتحقيق أهداف الديموقراطية.

نستخلص من هذا كله أن كلمة ديموقراطية ما زالت مبهمة وتحمل معان مختلفة وأنها قد مرت في عملية تجميل لمحتواها. ويبدو أن اتباع الديموقراطية قد وصلوا إلى قناعة بأنها أفضل نظام للحكم وأن أعدائها جهلة. من الواضح أننا لا نقدر على تعريف الديموقراطية بكل دقة وعلينا أن نكتفي بالمفاهيم والآراء التي تشملها هذه الكلمة. نقدر مثلاً أن نميز بين الديموقراطية كشكل للحكومة والديموقراطية كنظرية للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية. وبعد أن نصف ميزاتها كما هي في الغرب نستطيع أن نميز ما بين النظرية والتطبيق وما بين المثاليات الديموقراطية والواقع الموضوعي للديموقراطية.

ب ـ أساسيات الديموقراطية السياسية :

١ ـ السيادة الشعبية: تشير الديموقراطية في معناها الدقيق كشكل للحكومة إلى حكومة الأكثرية كضد لحكومة الواحد أو بعض الأفراد. ولكي نتأكد من حقيقة الحكومة الديموقراطية علينا أن نعرف إذا ما كانت السيادة الشعبية سيادة في الحقيقة أو في الشكل فقط. فعل الرغم من أن ٩٩٪ من مجموع البالغين يذهبون إلى الانتخابات في روسيا ليقولوا نعم إلا أن روسيا ليست ديموقراطية لأن الذي ينجح في هذه الانتخابات هو الذي يرشحه الحزب. يدعى النظام السياسي ديموقراطي فقط حين يقدر الناس الاختيار بكل حرية بين مرشحين.

المتطلب الأول للديموقراطية السياسية هو أن الشعب أو الناس (وليس القائد أو الصفوة أو الطبقة) هو صاحب السيادة. الشعب ليس مصدراً للقوة السياسية فحسب بل هو سيد أي حكومة يؤسسها لتخدم مصالحه. ليست استشارة المحكوم وسيلة اذعان سلبية بل تعني سلطة الرقابة. وحتى يقدر الشعب مراقبة الحكومة يجب أن يكون هناك:

أ ـ حرية الكلام.

ب ـ أجهزة تشريعية فعالة لتمثل الشعب.

ج ـ انتخابات حرة يستطيع الناس من خلالها تغيير الحكومة بطرق مشروعة وسلمية.

يعتبر الديموقراطيون الحديثون الحرية عنصراً أساسياً للديموقراطية ولكن سلطة الشعب تعني في الحقيقة حكم الأغلبية وهناك دائماً بعض التوتر أو الصراع بين حكم الأغلبية وحرية الفرد. غير أن الأغلبية قادرة بتسامحها على حل المشكلة وعدم تحديد حريات الفرد إلا إذا تعدت هذه على حريات الآخرين.

٢ ـ الحرية، الحكومة الدستورية والديموقراطية. سبقت الليبرالية تاريخياً الديموقراطية الحديثة وظهرت قبلها. والليبرالية هي العقيدة السياسية التي تنادي

بالحريات الشخصية. لقد بدأت هذه التحررية في بريطانيا مع الانتفاضة الدستورية الكبرى في القرون السابع والثامن والتاسع عشر، أما في أمريكا فقد نادى دستور ١٧٨٩ بحكومة ليبيرالية. لكن الليبرالية انتشرت على نطاق واسع مع الثورة الصناعية وظهور الارستوقراطية والطبقة الوسطى. تعني الحكومة الليبرالية حكومة دستورية، ويتحدد الحكام بقانون أساسي لملكية الأرض. وتؤمن الحكومة التحررية أو تكفل الحريات الشخصية وحقوق الأفراد مثل الأمر بالمثول أي احضار الفرد للمحكمة، والمحاكمة العادلة، وحريات الكلام والديانة والتجمع وتكوين المعارضة. كانت الحكومات في أوروبا حتى بداية القرن التاسع عشر ليبرالية وليست ديموقراطية بمعنى المفهوم الحديث، فقد كان عنصر المراقبة يتكون من مجموعة صغيرة من الأقليات المتميزة الغنية. أما الآن فإن الرقابة الشعبية تتكون من قاعدة عريضة من الممثلين في البرلمان ومجلس الأعيان. ولا شك في أن هذه الليبرالية في الاقتصاد والسياسة قد لعبت دوراً فعالاً في تطور الديموقراطية الحديثة وبقي التراث الليبرالي (مفهوم الحكومة الدستورية والحريات الفردية) أساساً جوهرياً في الديموقراطية الغربية.

٣ ـ خصائص أخرى للديموقراطية الحرة: ربما يكمن أكبر تمييز بين الديموقراطية الحرة والاستبدادية في تأكيد الديموقراطية على الفرد والملكية الفردية لكل الناس. الديموقراطية الحديثة حكومة محدودة. فالناس سواء أفراد أو مجتمعين في أحزاب سياسة ودينية وغيرها يملكون حريات لا تؤخذ منهم. ومن بين هذه الحريات تلك الخصائص الأولية للديموقراطية السياسية:

أ ـ حق الناس في الانتخاب كل فترة زمنية لتختار أو ترفض الحكومة.

ب ـ الحق في تحريك الرأي العام ضد الحكومة.

ج ـ الحق في مطالبة الحكومة أن تعمل ضمن القانون وليس خارجاً عنه أو أن تكون فوقه.

كذلك فإن حقوق الفرد في الديموقراطية السياسية محاطة بضمانات يكفلها

القانون تكفل أن الفرد لن يستغل أو يجرد من ملكيته وحريته من خلال طرق إرادية مزاجية وغير قانونية. مثلاً لا يستطيع رجل الشرطة تفتيش بيت إلا من خلال إذن خاص من المحكمة. كذلك تقوم الحكومة الديموقراطية بجهود من خلال مؤسسات غير حكومية لتحديد سلطة الحكومة وتجعلها مسؤولة أمام الناس.

ـ تعرض الآراء المتناقضة على الناخبين من خلال النقاش والجدل الحر وتعمل حرية التعبير على إعطاء الإمكانية للآراء الجيدة أن تبحث عن ناخبها.

ـ وبناء على تقديم الحجج تتحدد السياسة العامة من خلال عملية اقتراع سلمية ومنظمة.

ـ عندما تحدد الأغلبية السياسة العامة تسلم الأقلية المعارضة بالأمر. وإذا ما قامت الأغلبية بتنازلات كافية للأقلية فعلى هذه ألا تعيد طرح الموضوع من جديد. وليس من الغريب أن تبدأ الأقلية حملة سلمية لتغيير الأمر لصالحها وأن تصبح فيما بعد هي صاحبة الأغلبية. بهذه الطريقة كانت الأقلية قادرة على تغيير القانون، وأعيد النظر في البنود الدستورية وأيضاً في قرارات المحاكم العليا.

هناك مفاهيم معينة تشير إلى جوانب المنهج الديموقراطي مثل النقاش الحر، التنازل، الاعتدال، والتسامح والتفاهم. فإذا ما توفرت هذه الخصائص يمكن القول أن تعريف الديموقراطية بحكم الأكثرية تعريف مناسب، لأن غياب هذه الخصائص قد يجعل حكم الأكثرية أكثر قساوة من الحكم الاستبدادي. وتفكر الديموقراطية أن الغاية تبرر الوسيلة وتؤكد على أن الهدف مهما كان مهماً ومرغوباً به لا يستحق ثمن التضحية بالمنهج الديموقراطي.

٦ ـ الفرد ومفهوم الديموقراطية:

يتكون كل نسق فلسفي اجتماعي وسياسي على مجموعة من الافتراضات حول طبيعة الإنسان، ولا يمكن أن نفهم نسقاً سياسياً دون معرفة بمفاهيمها حول

الإنسان وعلاقته بالمجتمع والدولة. تختلف افتراضات الديموقراطية حول طبيعة الإنسان كثيراً عن افتراضات الاستبدادية، ولا نقدر على إبرازها علمياً ولكنها جزء من العقيدة الديموقراطية ومثاليتها. ويذهب معتنقوا الديموقراطية إلى أنها سوف تكون صعبة التطبيق إذا ما غابت عنها هذه المفاهيم، فلا يوجد نظام يضع ثقة في الإنسان ويعتمد عليه أكثر من النظام الديموقراطي. الديموقراطية تتطلب أن تكون السلطة السيادية لعامة الناس على أنفسهم ليحافظوا على الحرية ويستعملوا الأحكام الضرورية لتأمين نعم الحكومة الجيدة.

أ ـ العقلانية وطريقة الحياة الديموقراطية: تفترض النظرية الديموقراطية أن الإنسان قادر على تطوير حضارة يتعلم الأفراد فيها الاستماع إلى النقاش والحجج ويكتشفون فيها الحقيقة عن طريقة الاتزان العقلي والبرهان. وتفترض مجتمعاً يمكن فيه للإنسان العادي أن يصل إلى قناعة أنه يستطيع الحصول على ما يريد من الحكومة. ولذلك فمن صالحه أن يقوم بتنازلات. وعلى كل جماعة في المجتمع الديموقراطي الحقيقي أن تقوم بالتنازلات الضرورية لصالح الآخرين. وكما يقول كارل بيكر فالديموقراطية تعتقد بالإنسان وقدرته على تحقيق الحياة الجيدة من خلال الوسائل الإنسانية والعقلانية.

ب ـ المساواة: تذهب النظرية الديموقراطية إلى أن جميع الناس متساوون ليس بالقدرات أو التحصيل بل أمام القانون وفي حقهم للبحث عن الحياة السعيدة. فهي لا تؤمن بمساواة الناس بالمظهر أو الدماغ أو الجمال إنما بمساواتهم أمام القانون. وأهم ما في ذلك هو الاعتقاد بأن معظم الناس لم يكونوا جميعاً قادرين على الوصول إلى قرارات سياسية حكيمة، ومن هنا كان الاعتقاد بأن يحصل جميع الناس على إمكانات متساوية للإشتراك في العملية السياسية: الانتخاب، الوظيفة (المكانة الاجتماعية)، أن يكوّنوا آراءاً وأن يطمحوا إلى نشر آرائهم ونجاحها. ولا تفترض الديموقراطية أن جماعة ما يجب أو قادرة أن تحتكر الحكمة السياسية. فالمساواة تعني تطبيق القوانين على جميع الناس بالتساوي وأن يحكم على الناس بحيادية.

لقد ساد النقاش مدة طويلة حول السؤال: هل تعني المساواة الديموقراطية مساوة سياسية وقانونية فقط أم تحتوي أيضاً على مساواة اجتماعية واقتصادية؟ ولكن الرأي في النهاية استقر على المساواة في تقديم الامكانيات المتساوية للإنسان لأنه وكما يبدو هناك تضارب بين مفهوم الحريات الفردية والمساواة الكاملة. فأي محاولة للوصول إلى المساواة الكاملة سوف تكون سطواً على حرية الفرد من ناحية أخرى نما الوعي بالمحددات التي سوف تضغط على حريات الأفراد من خلال غياب المساواة في المركز الاجتماعي والاقتصادي. وكانت النتيجة متمثلة في الاتجاه نحو تحقيق أكبر ما يمكن من المساواة من خلال التعليم العام، المشاركة في العمل والقرارات الاقتصادية والقضاء على التمييز العرقي والديني وغيرها. وأصبح هدف الديموقراطية هو تقليص الحدود الاجتماعية إلى أدنى ما يمكن ليستطيع الفرد الإحساس بأنه حر في تحقيق إمكاناته بغض النظر عن الأحوال التي ولد فيها. وعلينا أن لا ننسى بأن الحرية دائماً نسبية غير مطلقة وغير كاملة، وأن الإطاحة بالحواجز الاجتماعية ومحدداتها للسلوك الإنساني ليست أسهل من القضاء على التحديدات الطبيعية. غير أن الديموقراطية ما زالت تتطور ولم تحقق أهدافها بعد. وسوف يقودنا التحرك نحو مساواة أكبر في تقديم الإمكانات للناس إلى الإقتراب من تحقيق مثالية الرقابة الشعبية على الحكومة ويحسّن من نوعية القرارات السياسية الشعبية. مع توسع الطبقة المتوسطة أو الوسطى في الدول الصناعية تزداد الحظوظ في تأسيس الحكومة الديموقراطية الفعالة.

ج ـ أولوية الفرد: تؤكد الفلسفة والحكومة الديموقراطية على كرامة وقيمة الفرد في أول الأمر، وتعتبران المجتمع والحكومة يوجدان من أجل الفرد. التنظيم الحكومي الجيد والحكومة الجيدة هي الحكومة التي ترفع من كرامة أفرادها ومواطنيها وتزودهم بإمكانية تطور شخصياتهم إلى أبعد ما يكون. وتعتبر الديموقراطية الفرد الوحدة الأولية في المجتمع وعلى جميع المؤسسات أن تخدم مصلحته. والفرد ليس الوسيلة إنما الغاية التي يوجد من أجلها كل شيء.

القيمة الأولى في الديموقراطية الليبرالية هي حرية الفرد واحترام شخصيته وهي هذه القيم التي تزودنا بالأساس لحل التناقضات التي تظهر بين القيم الديموقراطية الأخرى. فهي مثلاً تسمح بالمساواة والحرية الشخصية وتحث عليها ما دامت تساعد على خلق أحسن مناخ لتطور شخصية الفرد. وهي تمنع الحرية التي تساعد على عدم النظام لأن الاستقرار والنظام ضرورة لتطور شخصيات الأفراد وممارسة حرياتهم. فمن مخاطر الديموقراطية هو أنها بالغت في دعم الفردية وفشلت في تنمية الروح التعاونية للصالح العام. غير أن عالم اليوم لا يبدو مهدداً من جراء المبالغة في دعم الفردية. ففي عالم حيث تحول الكثير من الأمم تمجيد الدولة وتعمل على خضوعية الفرد. يقول الديموقراطيون، يأتي التوكيد الديموقراطي على قيمة الفرد وحريته وكرامته لتخدم التقدم الاجتماعي الذي أوجده الإنسان الغربي خلال القرون الطويلة من الكفاح والعناء.

د ـ أشكال الديموقراطية: علينا أن لا نخلط بين المقومات الأساسية للديموقراطية وأية منظمة حكومية مهما كان نوعها. يجمع علماء السياسة أن الديموقراطية السياسية توجد في أشكال متعددة. فقد تكون ممثلة كما هي الحال في المجتمعات الديموقراطية الكبيرة. وقد تتمثل في رئاسة الجمهورية كما في الولايات المتحدة، أو برلمانية كما هي الحال في بريطانيا ودول أوروبا الغربية، أو اتحادية كما في بريطانيا وفرنسا. أو فيديرالية كما في كندا والولايات المتحدة. وقد تكون في بلدان سواء عرفت هذه الدستور المكتوب أو غير المكتوب ولكن يجب أن يكون هناك ما يدعى دستور أو قانون أساسي تحترمه الحكومة. وقد توجد الديموقراطية في النظام الجمهوري كما في الولايات المتحدة، أو في ملكية دستورية كما في السويد وبريطانيا.

٧ ـ الديموقراطية في الرأسمالية والاشتراكية:

هناك اختلاف عام حول السؤال: هل يمكن للديموقراطية أن تكون في كل من النظامين الرأسمالي والاشتراكي؟ يذهب الاشتراكيون في الدول الرأسمالية إلى

أن الديموقراطية يجب أن تكون أكثر من نسق أو نظام سياسي كي تكون ناجحة. وعليها أن تصل إلى تقليص الامتيازات الخاصة وعدم المساواة في الثروة والدخل إن لم يك عليها القضاء على هذه الظاهرة. ويذهبون إلى أنه من الممكن الوصول إلى هذه الأهداف عن طريق تأميم جزء كبيرة من وسائل الانتاج. لقد نجحت السويد في هذا المضمار وحاول أيضاً رئيس جمهورية فرنسا أن يحرك الأمور في هذا الاتجاه عام ١٩٨٠. ويمكن أن ندعو هاتين الدولتين دولاً اشتراكية ديموقراطية. فكلاهما يعتمد الانتخابات الحرة ومؤسسات سياسية ديموقراطية في أول الأمر. ففي السويد تتدخل الحكومة في إدارة الصناعات والمؤسسات الصناعية على الرغم من أن ملكية هذه المؤسسات فردية ولكنها تتدخل في أمور مثل النقل والاتصال وتسهيلات الطاقة كذلك تملك الحكومة كثيراً من المرافق الصناعية مثل المناجم والفنادق والبنوك. كذلك الحكومة الفرنسية تمتلك جزءاً أساسياً من المؤسسات الاقتصادية والصناعية.

وهكذا يمكن لبلد ما أنتكون فيهاشتراكية وديموقراطية في نفس الوقت. ولكن أن تكون الدولة شيوعية وديموقراطية فهو أمر صعب وكثيراً ما يحتوي ذلك على تناقض لفظي ومعنوي. فبينما تشير الاشتراكية إلى ملكية وسائل الإنتاج ودور الحكومة في إعادة توزيع الدخل والثروة، تشير الشيوعية إلى نظام اقتصادي سياسي يلعب فيه الحزب الشيوعي الدور الأكبر بغض النظر عن العملية الديموقراطية. من هنا يعتقد بعضهم أن الشيوعية والديموقراطية لا يتفقان.

بينما يذهب دعاة الاشتراكية الديموقراطية إلى أن الرفاه الاقتصادي قد يتحقق عن طريق تدخل الحكومة والتخطيط، يذهب دعاة الرأسمالية إلى أن أحسن وسيلة لتحقيق الرفاه العام هي السوق الحرة. وهم يعتقدون بأن هذا النظام الحر أكثر انتاجية من الاقتصاد الحكومي. وتحت هذا النظام الحر يرتفع مستوى المعيشة ويتكون هامش اقتصادي أوسع لمجابهة مشاكل الفقر وتحسين التعليم وخدمات أساسية أخرى. ويعتقدون كذلك أن الاشتراكية ليست ديموقراطية لأنها تحد من حرية الفرد كثيراً في المجال الاقتصادي. ويخاف

الاشتـراكية في نفس النـظام. فمن ناحيـة لا تستطيـع الحكومـة القيام بمسؤوليـة الصناعات والنشاطات التجارية بحيث أنها سوف تجد أن عليها أن تحل كثيراً من المشاكل على حساب العمليات الديموقراطية. ومع الزمن سوف يظهر أحد القادة الذي يستأثر بالسلطة سوءاً لمآربه الشخصية أو ليعيد صياغـة النظام. وينبع هذا التنـاقض بين الاشتراكيين والرأسماليين من نقاط التركيز المختلفة حيث يركز الديموقراطيون على الحريات الفرديةبينما يركز الاشتراكيون على المساواة الاقتصادية.

٨ ـ أنواع الاستبداد:

رأينا في الفقرات السابقة مدى تعقيد مفهـوم الديمـوقراطيـة. والحقيقة هي أن مفهـوم الاستبداد ليس أقـل تعقيـداً، وهـذا صحيـح أيضـاً بـالنسبـة للمفهـوم «استبداد». النظام الاستبدادي هي حكومة يستلم زمامها حاكم واحد ويأخذ سلطات لا محدودة يتمتع بها. ومثلها مثل الديموقراطية فإن الحكومات الاستبـدادية تـأخذ أشكالاً متعددة. كما نجد في القديم هذا الحاكم المتسلط في العشيرة والحمـولة ودولة المدينة والأمبراطـورية. وأسمـاء القادة الـرومان الاستبـداديين معروفـة مثل يوليوس قيصر وأوغسطين وأورليوس. كذلـك فبعد عمـر قصير للديمـوقراطيـة في مـدن اليـونـان حلت محلهـا الحكـومـات الاستبـداديـة تحت قيـادة رجـال مثـل بيستراتوس السفـاح الأثيني. بعد تفكـك الإقطاع قـامت الملكيات المـطلقة وهي من هذه الحكومات الكلية التي سبقت فـاشية ونـازية وشيـوعية القـرن العشرين. وكمـا في الحكومـات الاستبـداديـة في القـرن العشـرين، كـان الحكم في هـذه الملكيـات الأوروبيـة مـزاجيـاً وكثيـراً مـا أبـدى الحكـام عـدم اكتـراثهم وعـدم المسؤوليـة. وعلى الرغم من ذلـك فقد أيّـد بعض حكام هـذه الدول حكـومـات شعبيـة وذات إرادة جيدة. وعلى عكس حكـومـات القـرن العشـرين كـانت هـذه الملكيـات ذات استقرار سيـاسي بسبب الوراثـة حيث أن ابن الحاكم كـان يصبح حاكماً دون أن يقدم شيئاً لتغيير الأحوال.

ظهـرت في القرن العشـرين حكومـات استبداديـة واختلفت هذه بـاختلاف

الأحوال والبلدان التي تطورت فيها وهي نوعان معاً استبدادية وكلية مطلقة والحكومة الاستبدادية المطلقة هي الحكومة التي تحكم المجتمع من خلال شخص متسلط أو مجموعة صغيرة تمنع جميع النشاطات التي تهدد مصالحها. وعلى الرغم من استعمال العنف في المحافظة على السلطة فإن مثل هذا الحاكم لا يعبث بالنشاطات التي لا تهدد سلطته. الأمبراطور نيرو في القديم والملك فرانسيسكو فرانكوا في الستينات والسبعينات من هذا القرن أمثلة على هذا الحكم، والحكومات العسكرية في دول أمريكا الجنوبية أمثلة من الحاضر.

الحكومة الكلية (Totatitarian government) المستبدة تريد السيطرة على جميع جوانب حياة الفرد وهذه غير الحاكم المستبد الذي لا يهمه من يدرس في المدرسة ما دام لا يتدخل في الأمور السياسية ولا يأخذ موقفاً سياسياً ويهدد سلطته. باختصار «الحكومة المستبدة تبحث عن طاعة والحكومة الكلية تبحث عن عبادة». لم يبتكر مفهوم الحكومة الكلية حتى القرن العشرين والسبب في ذلك هو أن الحكومات المتسلطة القديمة لم تك قادرة على ذلك ومقدرة الحكومات الحديثة على ذلك تأتّت من خلال التطور التكنولوجي الذي نجح في توزيع الممارسات الحكومية وسيطرتها.

معظم الحكومات المستبدة (الأوتوقراطية) ترتكز على عقيدة معينة يبرر الحكام من خلالها أفعالهم بمفهوم العمل من أجل عالم أفضل. أمثلة على الحكومات الأوتوقراطية الكلية نجدها في النازية والشيوعية. استعملت المصطلحات نازية وشيوعية في بعض الأحيان كمترادفات لمفهوم الحكومة الأوتوقراطية الكلية. هذا الاستعمال خاطىء إلى درجة ما لأن الحكومة النازية والحكومة الشيوعية لا يختلفان في الشكل بل يختلفان كنسقين من النظرية الاقتصادية الاجتماعية والسياسية انتجتا حكومتين لهما خصائص متشابهة. والاختلافات في غالب الأمر مسألة تفاصيل وعقيدة وأصبح لطابع العقيدة أهمية كبرى تمثلت في أن النازية ظهرت أصلاً لمحاربة الشيوعية. ونستطيع القول

أنهما نتاجاً لمصدر واحد وتستعمل الحكومتان أساليب متشابهة في توطيد الحكم والقهر. ففي النازية نجد الصوة في الحكم يدعمها رأس المال بينما في الشيوعية يظهر قادة الحزب الحاكم الذين يؤممون كل شيء ويضعون كل شيء تحت تصرّف الدولة.

٩ ـ خصائص الأوتوقراطية أو الحكومة المستبدة:

أ ـ الأوتوقراطية وعدم المسؤولية: توجد الحكومات الأوتوقراطية مستقلة عن إرادة الشعب، رغم إرادة الشعب وهي فوق إرادة الشعب. في هذه الحكومة تكون القوة مصدراً للحكم والقوة غاية في حد ذاتها. والحاكم المستبد لا يريد إلا السلطة المطلقة ولا مبرر لوجوده غيرها. والسلطة ودرجة قوتها هي الوسيلة إلى غاية عقائدية أعلى، ويعتقد حكامها أنهم يملكون أحسن العقول أو أنهم من أحسن الأعراق، وأن لهم النظر الصحيح في الأمور وأنهم أقدر الناس على الحكم. ويفترض مثل هؤلاء الحكام أن الناسَ لا يعرفون ما هو صالح لهم ولذلك فهو الذي يحدد ما هو صالح لهم ويقول ذلك آملاً أن يصدّقوا، وإذا لم يفعلوا ذلك فإنه سوف يفعل ما هو صالح لهم على أية حال.

ب ـ الحكومة الكلية: جميع الحكومات الكلية التي ظهرت في القرن العشرين بعد الحرب العالمية الأولى اتبعت سياسة السيطرة على جميع جوانب حياة الفرد والجماعات الخاصة وجميعها تملك خصائص الحكومة الأوتوقراطية. وهذه جميعاً جوانب للحكومة الكلية التي تطمح إلى وصول الدولة إلى السيطرة على جميع النشاطات الاجتماعية. فهي التي تدير رأس المال والعمل، والدين والعائلة والمؤسسات الاجتماعية والأخويات، والعمل واللعب والفرد والمجتمع وذلك تحت شعار الرفاه الاجتماعي وبذلك تزيد من قوة الحكومة والدولة. مثل هذه السمات الحكومية كانت موجودة في المانيا النازية. واليابان قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، وإيطاليا الفاشية وما زالت موجودة في الدول الشيوعية وغيرها.

ج ـ الولاء للحزب والدولة: تتطلب الحكومات الكلية الولاء المطلق للدولة

والحزب وطاعتهما. والنظرية الفاشية كانت قد قدست الدولة وكذلك قدست الشيوعية ما دعته بالثورة الاجتماعية وتطلبت من الأفراد التكريس الكامل لأهداف الحزب. وفي جميع أنواع الحكومات الكلية لا فرق بين الدولة والحزب. فالدولة الشيوعية أكثر من الحزب في أنها الأداة لتنفيذ سياسة الحزب. وتتطلب هذه الحكومات من الفرد أن يخضع للدولة والحزب حتى حيث ينشأ بينهما صراع. والحقيقة هي أن الشيوعية قد وسعت بوتقة الحكومة أكثر من النازية والفاشية ذلك أنها جردت الفرد من جزء من ملكيته الفردية وأعطت الدولة ومؤسساتها السلطة الكلية ومسؤولية انتاج جميع المواد الاقتصادية.

د ـ الحكم الاعتباطي أو الاستبدادي: كان الحكام والملوك القدماء يقيدون حكمهم بقانون أساسي يرتبط بالأرض أما في الوقت الحاضر فإن الحكومات الكلية الموجودة لا ترتبط بقانون أساسي مهما كان على الرغم من أنها تزين نفسها بما يدعى «دستور». وكل حكم لا يسمح للشعب بنوع من الرقابة يكون حكماً اعتباطياً ويسير حسب إرادة أصحاب المناصب فيه. وحتى قواعد اللعبة في هذا الحكم تتغير اعتباطاً لتفي بالوصول إلى الأهداف المؤقتة. الحرية والملكية والحياة تحت مثل هذا الحكم غير آمنة لأن الحكم قد يتهم الفرد تهمة ويوجده مذنباً دون أن يكون له ذنب ولا يستطيع الدفاع عن نفسه. هذا الحكم الاعتباطي مصدر للارهاب ويمنع أي نوع من العصيان.

ه ـ جهاز الدعاية والهيمنة الفكري: تحرص الحكومات الكلية أن توجد لها جهاز إعلام ودعاية ليوفر الدعم الجماهيري من خلال تحريك العواطف والهيمنة الفكرية. المعارضة في مثل هذا الحكم معدومة وممنوعة والذين يخرجون عن الإطار الفكري العام للدولة مجرمون وتعمل الحكومة جاهدة على اسكاتهم عن طريق أجهزة أمنية صارمة مثل المخابرات والشرطة السرية وربما الجيش أيضاً. ومن الممنوعات في مثل هذه الحكومة حرية الدين والكلام والنشر والاعلام والاجتماعات والمعارضة السياسية. كذلك يحاط الفرد بهالة من القوة ويمنع من

الاستماع إلى والإطلاع على الجانب الآخر لأي موضوع. مثل هذا الحكم يبرمج جميع المرافق التعليمية والتربوية ويزيد من وجودها لصالح الدولة وتصبح جزءاً من جهاز الدعاية. والتنشئة الاجتماعية للفرد من ولادته حتى مماته ضمن إطار واحد من المعلومات المتكاملة التي تهدف خدمة الغرض ذاته. السياسة هنا هي سياسة الحزب ونجدها متجسدة في جميع الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والعلمية.

و ـ امتياز الحزب الواحد: تتميز الحكومات الكلية بسيطرة الحزب الواحد ولا تسمح بأي نوع من أنواع الأحزاب المعارضة. الحزب الواحد هو الذي يضع الخطوط السياسية العريضة التي يجب على الدولة اتباعها. والحزب في مثل هذه الحكومات مرادف للدولة وتصبح برامجه وموظفوه وسياساته أدوات للدولة.

١٠ ـ الأحوال التي تقود إلى نشوء حكومة الاستبداد:

لا نعرف إلى أي مدى تقود بعض الأحوال إلى نشوء الحكومات المستبدة. الأكيد هو أن مثل هذه الحكومات لا تظهر بظهور الحكام المستبدين فقط، بل يجب أن توجد أحوال اقتصادية وسياسية واجتماعية يمكن أن تقود إلى ظهور مثل هذه الحكومات وربما كانت الأحوال المناسبة ووجود الشخصيات القيادية في وقت واحد هي التي تقود إلى ذلك. على كل حال يجب على الطالب الذي يريد أن يعرف ذلك التعرف على التربة الاجتماعية التي تنبع منها هذه الحكومات الأوتوقراطية. وبما أن مثل هذه الأحوال تحتاج إلى متسع كبير فإننا نكتفي هنا بذكر بعض هذه الأحوال.

أ ـ تراث الأوتوقراطية: من الطبيعي أن تقبل نظام الحكم الأوتوقراطي تلك الجماعات التي لم تعرف أيّ نوع من أنواع الحرية. فنظام الحكم الأوتوقراطي قد يستمر في المجتمعات التي رزحت لقرون تحت مثل هذا الحكم وحيث نجد أيضاً سيادة العرف والدين والقهر الاجتماعي. وربما تساعد هذه النظرة لتفسير استمرار الحكم الكلي الأوتوقراطي في الدول الشيوعية وأنظمة الحكم المستبدة

في أمـريكا الـلاتينية وجنـوب شرق آسيـا. وكثيراً مـا يساعـد الجهـل والفقـر بين الجماهير على قبول هذا الحكم.

ب ـ الفشل في نجاح الديموقراطية: بغض النظر عن اعتقادنا بجودة النظام الديموقراطي للحكم علينا أن نعترف بأن نظام الحكم الديموقراطي لم ينجـح في كل مكان بما فيه الكفاية. والديموقراطية مثـل الأوتوقـراطية نتيجـة تطور تـاريخي غيـر أن الديمـوقراطيـة تطور حـديث إذا مـا قيست بـالأوتـوقـراطيـة. ولن تنجـح الـديمـوقــراطيـة إلا ذا وضعت أسسهـا الضـروريـة بشكـل سليم. وقـد تنشأ الـديموقـراطية عن طـريق الثورة غيـر أنها إذا مـا كان عليهـا أن تنجح يجب على شعب البلاد التي نشأت فيهـا أن يكونـوا قد طـوروا حساً وطنياً صالحـاً ومسؤولاً وإيمـاناً راسخـاً بالأسس الـديموقـراطية. وحيث يفشـل الشعب في ذلـك تفشـل الـديمـوقـراطيـة أيضـاً. فعلى الـرغم من أن أمـريكـا كـانت تـرغب في تـأسيس الديموقراطية في فيتنـام إلا أن النتيجة كـانت عكس ذلك فقـد نشأت أوتـوقراطيـة تدعمها الولايات المتحدة إلى جانب نـظام الحكم الكلي الذي تـأسس هنالـك. كذلك هي الحال في دول أمريكا اللاتينية.

ج ـ الأزمات الاجتماعية والاقتصادية: نشأت الأوتوقراطيـات في العالم في القرن العشرين نتيجة لتردي الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصاديـة. وتشكل هـذه الأحوال من عـدم النظام والتفكـك أرضاً خصبـة للثورات التي قـد تقود إلى نظام الحكم الاستبدادي أو الـديموقـراطي. ويتضح لنـا ذلك من مـراجعة تـاريخ الدول التي ظهرت فيها الحكومات الكلية الاستبدادية مثـل روسيا القيصـرية حتى ١٩١٧، كذلك المانيا وإيطاليا اللتـان خرجتـا من الحرب العـالمية الأولى مغلوبـاً على أمرهما وتردي الأحوال الاقتصادية في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن. كـذلـك جـابهت هـذه البلدان مشـاكـلاً كثيـرة عـانت منهـا مثـل تفشي البـطالـة والاضرابات وضعف الأجهزة الحكومية وتراجع القانون ثم تهديـد المد الشيـوعي إلى مناطقها.

في مثل هذه الأحوال يحظى المخلص بكثير من المستمعين ويستولي على السلطة في لحظة معينة (لينين في روسيا ١٩١٧) أو من خلال الانقلابات. ولكن مثل هذا القائد قد يصل عن طريق الانتخاب أو التعيين، مثل هذه الحالة التي جاء فيها موسوليني وهتلر للسلطة. أما بعد السلطة فيجهد الحاكم أو أعوانه لهدم المعارضة والقضاء عليها.

١١ ـ الدولة الإسلامية:

الدولة الإسلامية نابعة من دستورها الديني وهو القرآن الكريم. والشرع الإسلامي هو عماد الدولة وهو صاحب السيادة. فالسيادة في الدولة الإسلامية ليست للحاكم وليست للمحكوم. قال تعالى: ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً** ﴾ (النساء: ١٠٥). وقوله تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾ . (المائدة: ٤٨). وعليه فقد أجمع بعض الفقهاء على أن دور الخليفة أو الحاكم المسلم لا يزيد عن كونه مراقباً لتنفيذ أوامر الله. وإذا كان الأمر كذلك فقد وجب على المسلمين طاعة الله والرسول وأولي الأمر أي من يتولى شؤون المسلمين. وقد نص الدستور الإسلامي أيضاً على ضرورة إحالة المشاحنات أو المنازعات أو الاختلافات في الرأي إلى الشرع. قال تعالى: ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ (النساء: ٥٩) أي فارجعوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية.

وإذا كان الشرع الإسلامي هو صاحب السيادة في سياسة الدولة الداخلية فهو أيضاً صاحب الكلمة الأولى والأخيرة بالنسبة للسياسة الخارجية. فالحرب والسلم والمعاهدات خاضعة للشرع أيضاً. فهي ليست للحاكم كما أنها ليست للمحكوم.

وهدف الدولة الإسلامية إقامة العدل وتأمين الأمن والاستقرار لسكانها

بغض النظر عن أشكالهم وألوانهم وعرقهم وعقيدتهم. ولا يوجد مكان للتفرقة العنصرية بين سكان الدولة الإسلامية طالما أنهم جميعاً يخضعون للقوانين الجارية، قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ (المائدة: ٨، ٩).

وعليه فلا تخضع الدولة الإسلامية لأي قوة أجنبية بل تقوم للإعلاء من شأن قوانين الله وتنفيذها، ولا تحكم بحزب من الأحزاب غير حزب الله، ولا بد للدولة الإسلامية من أن تكون دولة مستقلة لتحقق هذه الأهداف. وينبع هذا من المبادىء الأساسية للإسلام حيث تنص على أن المسلمين يشكلون كلاً واحداً، طاعتهم وولائهم لله وحده، يساعدون أولئك القائمين على تنفيذ ومراقبة قوانين الله وهم أولياء الأمور، ويحذر على المسلمين الخضوع إلى دولة أخرى غير إسلامية ولن ينصر الله من يفعل ذلك، قال تعالى: ﴿ **الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً. وقد نزل عليكم في الكتاب إن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معه حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً. الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينهم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً** ﴾ (النساء ١٣٩ ـ ١٤١).

وليس للحاكم في الدولة الإسلامية سيادة على الشعب. فهو لا يزيد عن كونه موظفاً يختاره الشعب ويستمد سلطته من طاعته للقوانين الشرعية الإسلامية التي تربط الحاكم والمحكوم معاً في طاعة الله وقوانينه. فالعقد السياسي الاجتماعي في الإسلام لا يوجد بين الحاكم والمحكوم بل بين الحاكم والمحكوم

من جهة وبين الله من جهة أخرى والعقد قائم طالما أن المسلمين ملتزمين بتطبيق القوانين الدينية الإسلامية. وعلى الناس تقديم العون والمساعدة إلى جانب الولاء والطاعة للحاكم المسلم الذي يشرف على تنفيذ الشرع الإسلامي، وإذا تصرف الحاكم خلاف ذلك فالناس في حل من ولائهم له. قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾ (النساء: د(. وقد يكون في خطبة أبي بكر الصديق الأولي تعبير واضح عن القضية حيث قال «أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم«.

يختار الشعب الحاكم من بين صفوفه على أساس من الفضيلة والورع والتقوى وغيرها من الصفات وليست على أساس الحسب والنسب أو الأصل أو الثروة والغنى. ويختار الحاكم عن طريق الانتخاب العام للحاكم أو انتخاب أهل العقد والحل الذين يمثلون المجموع العام للشعب. وعليه يمكن أن تضم الدولة الإسلامية عدداً من المجالس التمثيلية أو الحكومات المحلية طالما أن جميعها تسعى لهدف واحد وهي طاعة القوانين الشرعية وتنفيذها من أجل تحقيق العدل والمساواة في الدولة الإسلامية ولا تنتهي مهمة الناس أو مهمة أصحاب الحل والعقد في اختيار الحاكم فقط بل عليهم مراقبة ما يجري من أمور تتعلق بتطبيق القوانين الشرعية. فإذا ارتكب الحاكم معصية أو ارتد عن تطبيق الشرع الإسلامي على الشعب تصحيح الأمر. وعلى ذلك يمكن القول أن الحكم الإسلامي لا يشير إلى وراثة الحكم من قريب أو بعيد. وعلى الرغم من أن المسلمين يختارون الحاكم المسلم إلا أنه مسؤول عن تنفيذ أوامر الله في الدرجة الأولى ومسؤول عن تحقيق العدل بين رعيته في الدرجة الثانية. فهو بذلك يجمع بين القوتين الدينية والدنيوية. ولا تقتصر مهمته على توقيع الوثائق والتصديق عليها بل

أن مهمته مراقبة تنفيذ القرارات حيث أنه المسؤول الأول والأخير عن ذلك وعلى ذلك فإن النظام السياسي في الإسلام يختلف عن غيره من الأنظمة السياسية. فلا يحكم الحاكم المسلم بناء على رغبات الناس بل بناء على القواعد الشرعية التي نص عليها القرآن. والحاكم المسلم يحكم شعبه عن طريق تحقيق العدالة بينهم وتطبيق القوانين الشرعية.

على الرغم من أن القرآن الكريم هو دستور الدولة الإسلامية إلا أن هناك مجلس تشريعي يرأسه الحاكم. ولهذا المجلس فروعه في جميع أنحاء الدولة الإسلامية. وتتألف هذه المجالس من ثقات المسلمين العارفين بالشؤون الدينية. لا يعني هذا أن عامة الناس لا دخل لها في هذه المجالس، بل حث الإسلام على مشاركة الناس في إبداء آرائهم. ويشير التاريخ الإسلامي إلى أن فترة الخلافة الراشدية قد شهدت كثيراً من الناس ذكوراً وإناثاً كانوا يشيرون على الخلفاء ويبينون مواطن ضعفهم عند اتخاذ قراراتهم وذلك اعتماداً على الآية الكريمة ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله أن الله يحب المتوكلين** ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

أما على صعيد العلاقات الخارجية فيقرر الإسلام وحدة الجنس البشري قال تعالى، ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ (النساء: ١). ويحث الإسلام على احترام حقوق الآخرين كحقهم في الحياة والملكية طالما أن حقوقهم لا تضر بحقوق المسلمين.

ويقرر الإسلام الدخول في دار الحرب إذا اعتدى أحد على الدولة الإسلامية أو تعرض لأمنها واستقرارها. وعند الدخول في حرب مع الآخرين فإن هناك قواعد وقوانين تلتزم الدولة الإسلامية بها. فالإسلام لا يبرر الحرب العدوانية ولا يعمد لقتل الأبرياء أو هدم المنازل أو حرق الزروع والأشجار. ولا

يقاتل النساء والأطفال وكبار السن الذين لا يقاتلون، ولا يسمح بتعذيب سجناء الحرب أو يسيء معاملتهم ولا يجبر المغلوب على أن يغير دينه. قال تعالى: ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أشد من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾ (البقرة: ٢١٦ ـ ٢١٨).

هذه القواعد النظرية الأساسية التي تقوم عليها الدولة الإسلامية. ولكن الفكر النظري يبقى فكراً إلا إذا دخل حيز التطبيق العملي. وبالفعل فقد دخلت هذه القواعد في الفترة الأولى من قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة والتي بقيت كذلك حتى دخل النزاع صفوف المسلمين على أثر مقتل الخليفة عمر بن الخطاب. والحقيقة هي أن أهم قضية صادفها الفكر الإسلامي منذ ظهوره وحتى الوقت الحاضر هي قضية الخلافة. فمنذ أن حصر الخليفة أبو بكر الصديق في أن تكون الخلافة في قريش اعتماداً على حديث نبوي، وعندما حصر الخليفة عمر بن الخطاب أمر الخلافة في ستة من الصحابة: علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وضعت الأسس العريضة للفتن اللاحقة في الدولة الإسلامية.

ولا مناص من أن نضيف هنا بأن قضية الخلافة وما أصابها من نعرة جاهلية ما زالت قائمة في العالم الإسلامي (أو من يقولون أنهم يشكلون دولاً إسلامية) حتى الوقت الحاضر. فالطريقة التي اختير بها أول خليفتين في الدولة الإسلامية أدت إلى الفتنة الكبرى في عهد عثمان، وأدت أيضاً إلى سلسلة الإضطرابات في عهد علي.

وجاء معاوية والدولة الأموية لتكون دولة إسلامية ملكية وراثية لتستمر سيادة العنصر العربي على حساب العناصر الأخرى. وتبع ذلك حكم الدولة العباسية التي ساد فيها العنصر الفارسي أولاً والتركي ثانياً على حساب العنصر العربي. وانحط مركز الخلافة عندما سيطر البويهون والسلاجقة، فاندثرت الخلافة على أثر سقوط بغداد سنة ١٢٥٨ وتقطعت أوصال الدولة الإسلامية إلى دويلات وإمارات صغيرة، وساد حكم المماليك وبقي الحال حتى جاءت الدولة العثمانية التي وضعت حداً لفكرة وجوب الخلافة القرشية. انحلت الدولة العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وتقاسمت الدول الغربية السيطرة على أراضيها وأنتج الوضع الجديد ظهور الدول العربية بفلسفة قومية ودينية مختلفة سيأتي ذكرها فيما بعد.

القضية الجديرة بالمناقشة هي قضية الخلافة وما دار حولها من جدل ونظرة الفلاسفة والمؤرخين لها على أثر الشرخ الكبير الذي أدى إلى انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة نتيجة للنزاع السياسي حول الخلافة. يعتقد أهل السنة بانتقال سلطة الرسول إلى من بعده من الخلفاء الذين خلفوه مؤكدين على أن السيادة هي لله وحده بمعنى أن الله مصدر السلطة والممارس الحقيقي لها. وعليه يكون الحاكم السني، كسائر الناس من المسلمين خاضعاً لسلطان الله. فالشرع هو التعبير الحقيقي للإرادة الإلهية والتشريع خارج عن نطاق الحاكم. أما الشيعة فيرون أن سلطة الرسول قد انتقلت إلى علي (ابن عم الرسول) ثم إلى الأئمة الاثني عشر حيث اختفى آخرهم ليعود يوماً ما. وعلى ذلك فالإمام الشيعي لا يملك السلطة السياسية فحسب بل هو معصوم عن الخطأ في تسييره للأمور الدنيوية وتفسير القرآن.

اجمع أهل السنة على الرأي بأن اختيار الخليفة يتم بعد أن يعقد أعيان الجماعة له البيعة. ولكن البيعة تحولت، لنقل بعد عمر، إلى مظهر شكلي غابت فيه عملية الاختيار وتحولت المناسبة إلى ضرورة حضور الناس لا للمبايعة أو الاختيار، بل للاعتراف به واعطاءه الولاء والطاعة. وبذلك يكون الشعار الذي

نادى به أبو بكر الصديق «أطيعوني ما أطعت الله فيكم» إلى شعار جديد ينص على «أطيعوني ما دمت خليفة». وقد ارتضى الفقهاء بالواقع الجديد ونادوا بضرورة تقديم الطاعة والولاء للخليفة طالما أنه لا يأمر بما يخالف الشرع. ولكن تغير الظروف والأحوال في الدولة الإسلامية المتأخرة غير وجهة النظر إلى وجوب طاعة الحاكم بالإطلاق حتى وإن كان الحاكم ظالماً. ولم يبق من النظريات القديمة والمنظرين الذين دعوا إلى التغيير والثورة ضد الظلم إلا القليل. وحتى فقد آثر بعضهم الانسحاب من المجتمع بدلاً من الإشتراك في عملية التغيير. ففي شرحه عن واجب الطاعة للحاكم الظالم يقول أبو حامد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) أن على المسلم التقي أن يبتعد عن بلاط الحاكم الظالم ويتجنب عشرته.

علينا أن نتذكر قضايا هامة في تاريخ الفكر الإسلامي كانت قد أثرت بشكل مباشر على تطور الحياة السياسية الإسلامية ومفارقتها فيما بعد، وأهم هذه القضايا هي تبديل المجتمع العربي الذي كان يدين بالأوثان إلى الإيمان بإله واحد (فكرة التوحيد). فالله واحد والرسول واحد والحاكم واحد. هذه القضية وعلى الرغم من مفاهيم الشورى والعدالة وحرية الاختيار الذي أتى بها الفكر الجديد إلا أنها غالباً ما كانت وغيرها تحت وصاية الحاكم يطلقها حيناً ويقيدها أحياناً. أما القضية الثانية فهي تداخل العادات والتقاليد التي سادت الفترة التي سبقت الإسلام بالأحكام الشرعية الجديدة مما جعل التفريق بينها، أحياناً، على درجة عالية من الصعوبة. فالسلطة التي كانت عند العرب قبل الإسلام في يد شيخ القبيلة، تولاها الحاكم المسلم (منذ الدولة الأموية) ولم يستطع إدراك أن هذه السلطة في الدولة الإسلامية هي سلطة الشرع الذي يهدف إلى إقامة العدل بين المسلمين.

شهدت الفترة الأولى من ظهور الدولة الأموية سلسلة من الانتفاضات على يد الخوارج، وكان الفكر الأساسي الذي قامت عليه هذه الثورات يدور حول حرية

الإنسان واختياره وأصول العدل، وأبـرز الفرق الاسـلامية بلورة لهـذه الأفكار هي مدرسة المعتزلة بقيادة واصل بن عطاء (٦٩٩ ! ٧٤٩) التي قالت بحرية الإنسـان في أعمـاله وليس لله فيهـا دخل على الإطـلاق، وهم يصنفون، بنـاء على ذلك، بأنهم أعداء للسلطة السياسية القائمة. وقد نظر بنو أمية إلى القائلين بحرية الإرادة نظرة شك وريبة على الصعيدين الديني والسياسي. ولكنهم شجعوا الجبريـة لأنها تخدم سياستهم. فيرى الجبريون أن كل شيء مناط بإرادة الله ولا دخـل للإنسـان في أعماله. وعليه، يرى الجبـريون، أن الله الـذي يسير الأمـور هو الـذي فرض عليهم بني أمية، وإذا كان الأمـر كذلـك فلا بـد من طاعتهم. أمـا المعتزلـة (أي القدرية) فتؤكد على أن العقل الانساني هو المحرك لإرادة الإنسان، وحيث هناك عقـل فلا بـد من أن هناك إرادة إنسـانية وقـدرة على اختيار الأفعـال، وعليه فـإن الإنسـان نفسه هـو الأمر النـاهي وله القـدرة على تمييز الصـالح من الـطالح دون الرجوع إلى الشرع. وقد وجدت الدولة الأمويـة خطراً على نـظامها السيـاسي من هذه الأفكار فحاربت المعتزلة بكل ما أوتيت من قوة.

تشكل الإمامـة في الفكر الإسـلامي قضية مهمـة اختلف المسلمون عليهـا وانقسمـوا إلى فـرق وشيـع واختلف معهم التـطبيق العملي للمبـادىء النـظريـة الإسلامية. والامامة واجبة لدى المسلمين. ويؤكد المعتزلة بأن الناس بحاجة إلى خليفة كما يرى ذلك الأغلبية العظمى من الفرق الإسلامية، استثناء النجـدات من الخوارج الذين رأوا تعاطي الناس بالأمانة لا يلزمهم فرض إمـام عليهم. والخليفة عند الفرق التي تقول بوجوب الإمام يجمع بين الزعامة الدينية والقيـادة السياسيـة والعسكرية. ويرى المعتزلة ضرورة اختيار الخليفة. وشروط المعتزلة في الإمام أو الخليفة أن يكون عاقلاً مسلماً ذا رأي ومعرفة بالأمور متصفاً بالعدالة.

لم يأت الصراع بين الفرق الإسلامية حول قضيـة الخلافـة والقيادة بشكـل عام من فراغ، فقد نبغ من الأصول العامة للفكر الإسلامي وتطبيقاته المختلفة في العصور الإسلامية وأهمها العصـر الذهبي الإسـلامي كما تمثـل في دولة المـدينة

والخلفاء الراشدين، ثم الدولة الأموية وما صاحبها من تغيرات في شكل الحكم وطبيعته وأخيراً فترة الدولة العباسية الأولى التي تمتعت بالقوة والثراء والثقافة. وكل فترة من هذه الفترات كانت مصاحبة لصراعات عديدة تنظر في الفئات المتصارعة إلى الأجود والأحسن والأمثل في تطبيق الشرع الإسلامي كما حدث في دولة المدينة. فما أن حل العصر الثاني لحكم الدولة العباسية حتى أفاق المفكرون على فتح دفاتر حساباتهم القديمة. فالفتن التي ظهرت على أثر موت الرسول كالردة وقتل عمر وعثمان وحرب الجمل وصفين وصراع علي ومعاوية على الخلافة وظهور الشيعة والخوارج ومصرع الحسن والحسين وصراع الأمويين والعباسيين كانت أحداثاً مؤلمة في جسم الدولة الإسلامية، وفي الوقت ذاته فإن الفتوحات الإسلامية والتقدم الحضاري وخلق الهوية الإسلامية والفكر الذي صاحب هذه الفترات كانت نقيضاً للمآسي التي واكبها التاريخ الإسلامي، الأمر الذي خلق ثنائية فكرية بين مؤيد ومعارض للحكم في المجتمع الإسلامي.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل العاشر:

١ ـ ما هي العلاقة بين المجتمع والحكومة والدولة؟
٢ ـ اذكر خمس وظائف للحكومة وهل تترابط جميعاً مع بعضها؟ اشرح.
٣ ـ اذكر أسماء أشكال الحكومة الرئيسية (شكلان)؟
٤ ـ لماذا يصعب تعريف الديموقراطية؟
٥ ـ اذكر أهم صفات النظام السياسي الديموقراطي؟
٧ ـ اذكر أنواع الديموقراطية السياسية؟
٨ ـ هل الفاشية والشيوعية نظامان متناقضان؟ لماذا نعم أو لا.
٩ ـ ما هي الشروط والأحوال التي قد تقود إلى الديموقراطية أو الحكم الاستبدادي؟
١٠ ـ ما هي شرعية الدولة الإسلامية؟
١١ ـ ما هو مركز الحاكم في الدولة الإسلامية؟
١٢ ـ ما هو الإختلاف في نظام الخلافة بين عهد الخلفاء الراشدين وعهد الأمويين؟

بعض المفاهيم المستعملة :

حكومة	Government
دولة	State
سيادة	Sovereignity
لا نظامي	Anarchist
نظرية سياسية	Political Theory
ديموقراطية	Democracy
أتوقراطية	Autocracy
حكم الأقلية	Oligarchy
التحررية	Liberalism
الحكومة الدستوية	Constitutional Government
الإشتراكية الديموقراطية	Democratic Socialism
الحكومة الكلية	Totalitatiem Autocracy
الاستبدادية	Dictatorship
الفاشية	Facism

References

- Becker, Susan, The Origion of the Equal Rights Amendment, Westport Ct: Green Wood, 1981.
- Chirop, Daniel, Social Change in the Rwentieth Century, New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1977.
- Djilas, Milovan. The New Class: An Analysis of the communist System. New York: Praeger, 1957.
- Lenski, Gerhard, Power and privilege; A Theory of Social Stratification. New York: Mc Graw - Hill, 1960.
- Mills, C. Wrigh, Power Elite, New York: Oxford University Press, 1959.
- Rainwater, lee, Behind Ghetto Walls: Black Family Life in Federal slum, (Chigago, lu., Aldine, 1970).
- Ravitch, Diane, The Great School Wars. New York: Basic Books, 1975.
- Skinner, B F. Deyond Freedom and Dignity, (New York: Knopf, 1971).

الفصل الحادي عشر

المدخل الى علم الاقتصاد

المدخل إلى علم الاقتصاد

نئن جميعاً في قبضة ما لا قلب له

١ ـ علم الاقتصاد:

تشكل الحاجات والنشاطات الاقتصادية محور حياة الشعوب والجماعات الإنسانية. هذه حقيقة مرّة لأن الجماعة إذا ما أرادت أن تبقى على قيد الحياة فيجب أن يحصل أفرادها على الغذاء والملبس والمسكن التي لا يمكن الحصول عليها من خلال الأمل ولكن من خلال نشاط اقتصادي ندعوه عمل.

الاقتصاد كما قلنا في الفصل الأول هو علم اجتماعي يهتم بالطرق التي تستعملها جماعة ما في كسب عيشها. أو بكلمات أصح هو دراسة التنظيم الاجتماعي الذي يتبعه شعب ما لاشباع حاجاته من السلع المحدودة بما في ذلك الخدمات. وهو لا يركز على نشاطات الأفراد بقدر ما يهتم بعلاقاتهم مع بعضهم بعضاً ومع المؤسسات الاجتماعية التي أوجدوها ليتمكنوا من انتاج وتوزيع واستهلاك البضائع.

٢ ـ مكونات الاقتصاد:

أ ـ الرغبات والسلع الاقتصادية: الرغبات الاقتصادية هي حاجة الإنسان للحصول على أشياء يمكن الحصول عليها عن طريق العمل أو التبادل والتي

يعطيها الإنسان في المجتمع الحديث قيمة نقدية. ليست جميع الرغبات اقتصادية، فالإنسان بحاجة إلى محبة وحنان واحترام وصحة وسعادة وأشياء أخرى كثيرة لا يمكن قياسها بقيمة نقدية. وقد تتأثر هذه الاحتياجات بأحوال الفرد الاقتصادية ولكنها ليست اقتصادية في أول الأمر. فكمية من النقود والأشياء التي يمكن شرائها بالنقود ضرورية ولكن العلاقات التي تتخللها غير واضحة. ندعو الأشياء التي يمكن شرائها بالنقد والتي تكون موضوع حاجاتنا الاقتصادية سلعاً اقتصادية. وإذا ما حصلنا على هذه السلع نقدر أن نبيعها مقابل النقد أو نبادلها بحاجات أخرى ذات قيمة نقدية. وإذا ما أردنا الحصول عليها، فما علينا إلا أن ندفع النقود شريطة أن نملك ما فيه الكفاية لأن ندفع الثمن المطلوب. ونقدر أيضاً أن ننتجها إذا ما كنا نرغب في القيام بالعمل الضروري لذلك.

للسلع الاقتصادية قيمة نقدية لأن الإنسان يرغب في الحصول عليها ولأنها سلع نادرة. هذه السلع ملك لمجموعة من الناس يحتكرونها. فإذا ما أردنا المزيد على ما نملك منها علينا أن ننتجها بأنفسنا أو أن نقدم مقابلها شيئاً ثميناً لكي نغري محتكريها بالخروج عنها.

ولا داعي لأن تكون السلع الاقتصادية أشياء مادية، فقد تكون خدمات مثل عمل خادمة البيت أو خدمة الطبيب، فكل ما يعطي مكسباً نبادله بكمية من النقد سلعة اقتصادية، وقد نحصل على السلع الاقتصادية على شكل خدمات من أشياء أو من أشخاص بشرية. فإذا ما أراد شخص أن يتمتع بسكن بيت، يختار عادة بين استئجار أحد البيوت مقابل مردود شهري ندعوه أجرة أو أنه يشتري البيت ويتمتع به مدة زمنية إلى أن ينتهي أجله. غير أننا لا نملك مثل هذا الاختيار إذا احتجنا إلى خدمات الطبيب أو خادمة البيت.

ندعو السلع الاقتصادية المادية مثل الأشياء التي نراها ونحسس بها أو نراكمها ثروة، وتأخذ جميع السلع أحد الشكلين: أما الثروة أو الخدمات.

ب ـ الجوانب الاقتصادية للحضارة:

تعرضنا لبعض الجوانب الاقتصادية للحضارة في حديثنا عن المحيط الطبيعي والحضارة حيث بينا أن أكثر مشاكل الإنسان في تكيفه مع البيئة مشاكل اقتصادية يحتاج الإنسان لكي يحلها أن ينتج البضائع التي يتطلبها المحيط الطبيعي. ففي المناطق الباردة على الإنسان أن ينتج أشياء خاصة مثل اللباس الدافىء والوقود والبيوت المحكمة، كذلك فإن التقدم التكنولوجي رهن بمحاولة الإنسان المستمرة في تحسين وضعه الاقتصادي لأنه يتكون مبدأ من شيئين:

١ ـ ايجاد واكتشاف طرق أحسن لانتاج السلع الاقتصادية.

٢ ـ إيجاد أنواع جديدة من هذه السلع.

تلعب العوامل الاقتصادية أيضاً دوراً هاماً في تشكيل الأخلاق والمؤسسات في كل مجتمع لأن الكثير من معتقدات الإنسان حول ما هو جيد وما هو رديء يعتمد إلى درجة بعيدة على الملكية وحقوق الملكية كما يظهر ذلك تركيزنا على تحريم السرقة والكذب والخداع والمراوغة. حتى تلك المؤسسات التي لا نعتبرها اقتصادية في أول الأمر تملك جوانباً اقتصادية ذات أهمية رئيسية، والعائلة مثال ممتاز على ذلك لأنه عندما يقرر الرجل والمرأة أن يعيشا معاً ويكونا أسرة فإنهما يرتبطان أيضاً بارتباطات اقتصادية بحيث يلتزمان تجاه بعضهما وتجاه الأطفال اقتصادياً. وعلى الرغم من أن بعض المؤسسات الاجتماعية لها جوانب اقتصادية إلا أن جميع المؤسسات الاجتماعية قد وجدت لخدمة أهداف اقتصادية بما في ذلك الجمعيات التعاونية والاتحادات النقابية وشركات التأمين وشركات التصنيع والبنوك وغيرها.

ج ـ طبيعة الاقتصاد: العلاقات الاقتصادية في المجتمع المتطور معقدة. فقلما نجد أن المجتمع ينتج سلعة ما لتصل إلى المستهلك النهائي دون مساعدة أنواع عديدة من المؤسسات الاقتصادية ودون التعاون سواء الواعي أو غير الواعي لمجموعة كبيرة من العمال. وهذا صحيح لجميع السلع من القلم حتى الكمبيوتر

والسيارة. وتعتمد مقدرتنا في اشباع حاجاتنا اليومية على وجود تنظيمات اجتماعية عالية المستوى. ولولا هذه التنظيمات لكانت جهودنا عبثاً وسوف يموت الكثيرون منا وخاصة في المدن جوعاً.

هـذه التنظيمـات الاجتماعيـة المعقدة التي نشبـع من خلالهـا احتيـاجـاتنـا الاقتصادية تكون نسقاً اقتصادياً أو اقتصاداً. ويمكن تعريف الاقتصاد كالتالي:

«هـو التنظيم الاجتمـاعي الذي يستـطيع من خـلاله أفـراد مجتمع مـا انتاج وتوزيع السلع الاقتصادية».

وعلى الاقتصاد أن يقوم بأربعة وظائف على الأقل وأن يقوم بهذه الـوظائف ليدر الحد الأقصى من الفوائد على المجتمع. فعليه أن يحدد:

١ ـ أنواع السلع التي يجب انتاجها.
٢ ـ كمية كل سلعة التي يجب انتاجها.
٣ ـ الموارد التي يجب أن تستخدم في الإنتاج.
٤ ـ التوزيع الأمثل للسلع المنتجة بين المستهلكين.

إضافة إلى ذلك يكون من المستحسن أن يزود الاقتصاد المجتمع بالظروف الملائمة للتحسن الاقتصادي.

د ـ المشكلة الاقتصـادية الكبـرى: يحتاج انتـاج السلع الاقتصاديـة لاشباع الحاجات الإنسانية إلى موارد.

ندعو هذه الموارد أحياناً عوامل الإنتاج وهي ثلاثة أنواع رئيسية:

١ ـ العمل أو جهد الكائنات الإنسانية.
٢ ـ الموارد الطبيعية وهي أساس الانتاج المادي الذي ينتجه الإنسان.

٣ ـ رأس المـال ويتكون من جميـع المتطلبـات التي يحتاجهـا الإنسان في عملية الإنتاج الفعـالة. السلع على شكـل رأسمال لا تشبـع الحاجـات الإنسانيـة

مباشرة ولكنها مهمة جداً في مساعدة الإنسان لينتج سلعاً استهلاكية في كميات أكبر وأكثر تنوعاً مما هو ممكن، وغالباً ما تكون سلعاً من نوع أجود ومرغوب بها.

على أية حال فإن الموارد المنتجة (رأس المال والعمل والموارد الطبيعية) محدودة الكمية بينما الحاجات الإنسانية في المجتمع الحديث تبدو غير محدودة. هناك مجتمعات يحصل فيها الإنسان على كل ما يريد وأخرى لا يحصل فيها الإنسان على أدنى المتطلبات مما يرغب فيه ليسد حاجاته. والمشكلة الاقتصادية الكبرى هي أن يكون المجتمع قادراً على تصنيع الموارد المحدودة لتشبع رغبات دائمة الاتساع ولا يستطيع المجتمع الاستمرار في اشباع جميع الحاجات لأفراده وللسكان المتزايدين في النمو دون مجابهة نقص في الموارد الطبيعية والتعدي على البيئة الطبيعية، ومع الزمن يجب على الإنسان أن يستثمر الموارد الطبيعية على أحسن وجه وبعقلانية. ندعو مثل هذه العملية «الاقتصاد». وتحديد أجود الميكانيكيات لتوزيع الموارد هو المسألة الرئيسية في السياسة الاقتصادية. في عام ١٧٧٦ وجد آدم سميث إحدى الطرق الاقتصادية للقيام بهذا الواجب، ففي كتابه «ثروة الأمم» نادي بالمنافسة الحرة بين الأفراد لأنها سوف توصل أكبر عدد ممكن منهم إلى أكبر درجة من الثروة، وقال بأن المنافسة كاليد الخفية تقود المصالح الفردية لصالح الخير العام، فالخباز سوف يخبز أكثر ما يكون من الخبز ليبيعه ويربح ولكن سوف يجد منافسة الآخرين له في الأسعار وسوف يخفض سعره إلى ما يقرب من سعر الانتاج نتيجة ذلك.

النظرية التي تدعو إلى المنافسة الحرة ندعوها «Laissez faire» (دعه يفعل) وهذا النسق الاقتصادي يختلف عن سلفه «نظام الاقتصاد التجاري» حيث تتدخل الحكومة لتلعب الدور المهم في تحديد من ينتج هذه السلعة ومن ينتج تلك.

٣ - الأنساق الاقتصادية الحديثة:

على الرغم من أن الأنظمة الاقتصادية الحديثة أكثر تنظيماً وبذلك أكثر تعقيداً من قرينتها في زمن آدم سميث إلا أن هذا لا يعني بالضرورة إن إداراتها

يجب أن تكون في يد سلطة مركزية فاليد الخفية في السوق ما زالت هناك. هنالك نظامان اقتصاديان أحدهما ذات تخطيط مركزي وآخر غير مخطط له.

تنظم بعض المجتمعات اقتصادها عن طريق سلطة مركزية تدير الاقتصاد وتسيطر عليه إلى درجة بعيدة، أما بعضها الآخر فإنه يعتمد على السوق لينسق بين النشاطات الاقتصادية الفردية ولا توجد فيها فكرة التخطيط الاقتصادي المركزي. حيث لا يوجد تخطيط مركزي يملك الأفراد حرية ملكية الشركات والمصانع والبنوك وغيرها من المؤسسات المتخصصة. أما حيث يوجد التخطيط المركزي فإن الحكومة هي التي تدير كل شيء وجميع الانتاج. ندعو النظام الأول الاقتصاد السوقي أو النظام الاقتصادي الرأسمالي الحر وندعو النظام الثاني الاشتراكية أو الاقتصاد الاشتراكي.

على الرغم من تسمية الاقتصاد الحر اقتصاد غير محطط له فهناك دائماً نوع من التخطيط الاقتصادي، والتسمية بحد ذاتها مضلّلة إلى درجة بعيدة. فالشركات نفسها تخطط لهذا الاقتصاد من جهة، والحكومة تخطط أيضاً بخلق الأحوال الملائمة التي تساعد على الاستثمار مثل حماية الملكية وكفالة الحريات وبالتالي تجعل هذا النسق يعمل بفعالية. لكن الاقتصاد الحر لا يعرف التخطيط المركزي ولا سيطرة مركزية مباشرة على تنظيم النشاط الاقتصادي والانتاج والتوزيع.

أ ـ الاقتصاد الحر: الاقتصاد الحر او الرأسمالية هو نظام اقتصادي يعتمد على الأفراد من المواطنين في تنظيم انتاج السلع الاقتصادية. في مثل هذا النظام يملك الذي ينظمون الانتاج ويسيطرون عليه دافعاً لذلك. وغالباً ما يكون هذا الدافع هو الربح. بناء على قانون الملكية فإن لكل فرد يختار للعمل الحر أن يؤسس أية تجارة يرغب فيها. وهو الذي يختار المنتجات الذي يريد انتاجها وهو الذي يقرر الطريقة التي يريد استعمالها في عملية الانتاج. ويقدر هذا الشخص أن يشتري المواد الخام والخدمات أينما أراد وأن يبيع الانتاج لمن يريده وأن يطلب السعر الذي يقرره هو. والمشكلة التي تواجه مثل هذا الشخص هي تدبير

رأس المال الذي يحتاجه في عملية الانتاج. فإذا أراد أن يؤسس شركة صغيرة فإنه قد يكتفي برأس المال الذي يملكه أو قد يستدين فوقه. أما إذا كانت هذه المؤسسة كبيرة فقد يلجأ إلى اجتذاب شركاء أو إلى مساهمة المستثمرين.

لا يوجد شيء يدعى اقتصاد حر بمعنى الإطلاق لأن مفهوم الحرية نفسه مفهوم نسبي. عندما نقول أن اقتصادنا في الأردن اقتصاد حر فإننا لا نعني بذلك أن أي شخص قد يؤسس الشركة التي يريدها دون مواجهة مشاكل ومصاعب. نحن نريد فقط القول أن هذا النظام يسمح لصاحب رأس المال أن يؤسس مؤسسة اقتصادية ما عندما يملك رأس المال الكافي وقوة العمل الكفوءة وأن يتخذ القرارات التي يجدها مناسبة. ولكن في بعض مجالات الصناعة يجد مثل هذا الشخص معوقات يصعب التغلب عليها. ففي مجال صناعة السيارات مثلاً على الراغب في تأسيس شركة سيارات أن يملك رأسمال كبيراً جداً ولكن المجازفة كبيرة جداً أيضاً لأن احتمالية الفشل ليست متدنية. وكثيراً ما يحمي القانون بعض هذه الشركات عن طريق الامتياز ولذلك يكون عنصر المنافسة قوياً والمجال للنجاح ضعيفاً.

وعلى الحكومة أن توفر المناخ المناسب للاستثمار وكذلك الإطار التشريعي والقواعد العامة التي يجب أن تسير عليها المشاريع الحرة. وعلى الرغم من أن تدخّل الحكومة في هذه المؤسسات الاقتصادية قليل جداً إلا أن جميع الحكومات تلعب دوراً كبيراً بحيث أن نظام «دعه يفعل» أو «اتركه وشأنه» لم يوجد قط.

ب ـ دور الأسواق والأسعار: تلعب الأسواق والأسعار دوراً رئيسياً في تنظيم ومراقبة النشاطات الاقتصادية في نظام الاقتصاد الحر. فالصناعة لن تنتج تلك السلع التي لا مجال لبيعها في الأسواق بينما سوف يوجد دائماً من ينتج سلعة قد تباع في الأسواق سواء آجلاً أم عاجلاً.

عندما تكون الأسعار غير منظمة وتكون المنافسة في السوق كبيرة، تحافظ التغيرات في الأسعار على تكيّف الانتاج مع الاستهلاك وبالعكس. لتبسيط الأمر

دعنـا نقول أننـا نعني بسوق المنـافسة هـو السوق حيث يـوجـد عـدد من البـاعـة المستقلين لسلعـة ما وعـدد من الشـارين المستقلين. إذا أراد النـاس تحت هـذه الظروف من زيادة مشترياتهم من هذه السلعة، فإن الزيادة في الطلب سـوف تقود إلى ارتفاع في سعر هذه السلعة ويكبر الحافـز لزيـادة مستوى انتـاج هذه السلعـة أيضـاً. وسوف يقـود الارتفاع في سعـر هذه السلعـة إلى الحد من زيـادة الـطلب عليها. من ناحية أخرى إذا قرر الناس خفض مستوى شراء هذه السلعة فإن السعر سـوف ينخفض وسوف يحـد هـذا من رفـع مستـوى إنتـاج هـذه السلعـة، ولكن انخفاض السعر سـوف يحد من تـدهور البيـع والاستهلاك. فـإذا ما بقي مستـوى الانتـاج مـرتفعـاً بحيث أن العـرض أكثـر من الـطلب فـإن السعـر سـوف يستمـر بـالإنخافض. وفي سـوق المنافسـة تتذبـذب الأسعار بين الهبـوط والارتفاع حتى تتساوى كمية السلعة المنتجة والمعروضة مع الكمية المطلوبة للاستهلاك في سعر السوق.

ولكي نرى كيف يعمل السـوق نسوق هنـا بعض الأحداث مثـل أزمة النفط وثورة الكمبيوتر. نقص عرض النفط مرتين عام ١٩٧٠ وكان رد السوق على ذلك في الحالتين ارتفاع الأسعار وعلى الرغم من أن ارتفـاع الأسعار قـد ألحق الضرر بـالمستهلكين إلا أنـه جعلهم يغيـرون الـطرق التي يستعملونهـا في تعـاملهم مـع السـوق. فقد كـان رد فعلهم على ذلك تغييـر موديـل السيارة إلى سيـارة صغيـرة وتطوير طرق خاصة لتوفير الطاقة. وكانت النتيجة هبوطاً في كمية النفط المـطلوبة في السوق. يد السـوق الخفية قـد تؤذي بعض الأحيان ولكنهـا تعمل أيضـاً على تصحيح الوضع.

كانت ثورة الكمبيـوتر تمثـل حالـة تفائـل أكثر حـول السوق في السبعينـات والثمانينات، فقد أدى الانتاج إلى فائض في السوق ونتيجة لذلك هبطت الأسعـار إلى أدنى حد فأخذ الأفراد والمدارس والشركات تطور طرقاً لاستخـدام الكمبيـوتر في أعمـالها وبـذلك رفعت من مستـوى الطلب على هـذه السلعة. فـزيادة انتـاج

السلعة وعرضها على السوق يثير أيضاً نوعاً من التحدي عند الأفراد لاستيعابها في الحياة اليومية واستهلاكها.

وعلى الرغم من أن الحكومة الرأسمالية لا تنتج إلا بعض السلع إلا أنها تساهم في تنظيم الاقتصاد الخاص بطرق عدة، ومع تعقيد الاقتصاد واتساع نطاق المؤسسات الاقتصادية الخاصة يتسع أيضاً مجال تدخل الحكومة في التنظيم.

لا داعي أن يكون توسع النشاطات الاقتصادية الحكومية بالضرورة جيداً أو رديئاً. فبعض هذا التوسع جيد ومرغوب به مثل تدخل الحكومات الغربية في الثلاثينات من هذا القرن حيث حصل التراجع الاقتصادي بشكل شنيع وبقيت مسؤولية الانتاج في أيدي المؤسسات الخاصة بينما ارتفعت نسبة البطالة إلى ٢٥ ٪ وقد كانت ردود فعل عامة الشعب أن قبل الناس الاقتراح بأن للحكومة دوراً تلعبه في المحافظة على بقاء نسبة العاملين عالية من خلال إدارة الحكومة الضريبية (Fiscal Policy) ومن خلال تزويد رأس المال (السياسة النقدية). كان هذا المعتقد الاقتصادي والتحليل الاقتصادي الذي يدور حوله قد تطور على يد عالم الاقتصاد ماينارد كينيس وقد دعي في كثير من الأحوال الاقتصاد الكينيسي وهو يركز على اقتصاد القطاعات الكبرى مقابل الاقتصاد الذي يركز على القرارات الاقتصادية التي تجابه الفرد. وسوف نرى كيف أن التضخم المالي في الآونة الأخيرة قد أبعد الفكر الاقتصادي عن الفكر الكينيسي ووضعت أسئلة جادة حول الدور الحقيقي للحكومة في الاقتصاد.

ج ـ الاشتراكية: يدعى النظام الاقتصادي الذي يعطي المجتمع ككل مسؤولية انتاج السلع الاقتصادية بالنظام الاشتراكي. يعني هذا أن الاشتراكية تعادل سيطرة الشعب المباشرة على الانتاج. غير أن المفهوم الاشتراكي أكثر تحديداً. فالوكالة المسؤولة مباشرة عن الإنتاج في المجتمع الاشتراكي هي الحكومة وهي المنظمة الوحيدة القادرة على تمثل المجتمع ككل في المجتمع الصناعي. وفي المجتمع الاشتراكي الصناعي لا نجد مؤسسات اقتصادية حرة

لأن الحكومة تملك جميع وسائل الانتاج وتديرها من خلال موظفيها. وقد يملك الفرد في المجتمع الاشتراكي بعض الأشياء مثل البيت الذي يسكنه، وقد يستطيع أن يغير عمله من مجال إلى آخر ومن صناعة إلى أخرى إذن خاص ولكن هذا كله يعتمد على نوع الحكومة الاشتراكية القائمة. كذلك فلا داعي لأن يكون الدخل لفئة ما من العمال متكافئة لأن معظم الحكومات الاشتراكية تدعّي أنها تدفع لعمالها معاشات تعكس أهمية خدماتهم إلى درجة ما وكذلك تدفع تكاليف التأهيل والمهارات والقدرات والتجارب من خلال التعليم.

د ـ الشيوعية: فالشيوعية كما يفهم النظام الاشتراكي معتنقوا الاشتراكية في أوروبا الغربية تختلف عن الاشتراكية. ولكن الشيوعية شكل من الاشتراكية إذا ما استعملنا مفهوم الاشتراكية في معناه الاقتصادي الضيق لطنبّقه على أي نسق اجتماعي حيث تسيطر الجماعة في هذا النسق على وسائل الانتاج وتملكها. ففي اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية نجد الاقتصاد الجمعي ولكننا ما زلنا نجد المبادرة الفردية والوازع الفردي ولو على نطاق ضيّق. وعلى الرغم من أن ملكية الشركات والمصانع ملكية جماعية للدولة فما زال بعض الأفراد يملكون قطعة من الأرض يبيعون منتجاتها في السوق.

وكما أن للاقتصاد الحر مثالية تتجسد في حرية تجارة الأفراد دون تدخل من الحكومة، كذلك هناك مثاليات للشيوعية. فالمجتمع الذي ينظم نفسه بناء على الأسس الشيوعية يعمل على أن تكون وسائل الانتاج جميعاً ملكاً للجماعة (المجتمع). ما لا نعرفه هو إذا ما كانت جميع الشركات المنتجة يجب أن تكون ملكاً للدولة. فالعقيدة الشيوعية تفترض أن الدولة سوف تتلاشى في فترة ما. وربما يعني ذلك أن الانتاج بعد تلاشي الدولة سوف يخضع للتعاونيات المكونة من العمال المتفاهمين دون حاجة إلى أي نوع من الإكراه.

سوف يتحرر المواطن في المجتمع المثالي الذي ارتآه المنظرون الشيوعيون من إكراه الدولة وسوف يكون سعيداً بمكانته الاجتماعية بحيث أنه

سوف يقبل جميع مسؤولياته الاجتماعية عن طيبة خاطر. هذا يعني أن الطبقية الاجتماعية سوف تتلاشى، وكل فرد سوف يعمل، وجميع الانتاج سوف يوزع على العمال بالتساوي بناء على الحقوق المتساوية التي سوف يتمتعون بها. والتساوي في هذه الحالة لا يعني التساوي الكمي بقدر ما هو التساوي من حيث إشباع الحاجة أي أن كل إنسان سوف يحصل على ما يكفي ويشبع حاجته. وعلى أية حال فإن الأفراد يحصلون على بعض الحاجات الأساسية والضرورية مجاناً.

لقد حققت الدول الشيوعية إلى درجة ما أهدافها. فالضروريات الأولية للحياة في الاتحاد السوفياتي والصين رخيصة جداً ولكن الكماليات باهظة الثمن. فمثلاً كان معدل أجرة الشقة عام ١٩٨٠ في دول الاتحاد السوفياتي والمكونة من غرفتين ما يعادل ٢٤ دولار في الشهر، وكان جميع العمال يحصلون على شهر استراحة في السنة. كذلك فإن التعليم والمعالجات الصحية مجانية. وعلى الرغم من هذه الامتيازات إلا أن النظام السوفيتي يظهر قصوراً واضحاً، كما يقول ايلجن هانت (Elgin Hunt) ، لأن على الشخص الذي يريد الحصول على بيت خاص أن ينتظر مدة من الزمن تنوف على عشر سنوات وكثير من السلع الاستهلاكية ليست موجودة إلا في السوق السوداء. ففي بولندا مثلاً أصبح التوزيع على الدور لكل من السلع الأولية مثل الرز والسكر واللحمة والأغذية الأخرى. إضافة إلى ذلك فإن المواطن البولندي يخضع لمجموعة من الاكراهات التي تفرضها الدولة. وفي حالة ظهور نقابة العمال وحركة المعارضة فرضت الأحكام العرفية عام ١٩٨١ ولم تخف وطأتها إلا بعد أن حلت النقابات نفسها وخسرت الدولة.

٤ ـ الحركة والانتقال بين البلدان الحرة والاشتراكية:

قُسمِّت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية إلى بلدان اشتراكية وحرة ووصل هذا التقسيم إلى حد الانغلاق. ورويداً أخذت بعض الدول الرأسمالية تتحول نحو الاشتراكية من خلال الدور الذي لعبته الأحزاب الشيوعية في بلدان عدة.

ففي فرنسا مثلاً نجح فرانسوا ميتران في الانتخابات الوطنية الفرنسية وهو زعيم الحزب الاشتراكي وعمل جهده في تأميم الشركات الصناعية الكبيرة ودعم تدخل الحكومة ودورها في إدارة الاقتصاد الفرنسي. كذلك أممت المكسيك بنوكها عام ١٩٨٢.

إلا أن بعض البلدان مثل انجلترا وجهت بناءاتها الاقتصادية في اتجاه معاكس.

اتجه حزب العمال البريطاني مثلاً إلى تأميم الاقتصاد جزئياً في الأربعينات من هذا القرن، عندما استولت الحكومة على صناعات أساسية في البلد مثل سكة الحديد، ومناجم الفحم والفولاذ وصناعات الطاقة. ولكن عندما استولى حزب المحافظين على السلطة أوقف هذا التوجه وعكس الحال في كثير من الأحيان ولو لدرجة محدودة. فقد عادت صناعة الصلب إلى القطاع الخاص وعاد تبادل بعض البضائع لتأسيس التجارة الحرة فيها من جديد بناء على تنافس الأسعار. كذلك عكست حكومة المحافظين الكثير مما حققته حكومة حزب العمل ويمكن القول أن الاقتصاد البريطاني مزيج من الاقتصاد الحر والاقتصاد الإشتراكي. وحتى بعد الثمانينات تحت قيادة مارجريت تاتشر فلم يتغير الكثير في بريطانيا ويمكن وصف الدولة البريطانية بأنها دولة الرفاه (Welfare State).

ربما كان أكبر تحول في الاقتصاد في دول أوروبا الغربية هو تحول الاقتصاد السويدي (في السويد) وهي الدولة الرائدة في تحقيق الرفاه للمواطنين. فالأفراد في هذه الدولة يحصلون على ما يريدون مقابل مستوى عال من الضرائب. فمستوى الضرائب في السويد إلى درجة أن أكثر من ربع السكان لا يريد أن يعمل أكثر من جزء منه أوقات العمل. ويبدو أن مسؤولية تزويد الأفراد بحافز العمل وتحقيق العدالة في المجتمع مسؤلية صعبة جداً.

٥ ـ الاقتصاد في الدول النامية:

تأثرت الأنظمة الاقتصادية العربية بالاستعمار الأوروبي أولاً وبحركات

التحرر العربية المختلفة ثانياً. فبعد الحرب العالمية الأولى استولت دول الحلفاء على منطقة الشرق الأوسط وقسمت هذه المنطقة إلى مجموعة من الدول نهجت كل منها نهج المستعمر في كثير من الأحيان. الدول العربية التي ثارت على هذه التأثيرات قليلة ولكنها لم تنتج نظاماً اقتصادياً خاصاً بها بل اتجهت نحو شكل الاقتصاد الاشتراكي على الرغم من القصور في اقتباس هذا النظام. مقابل هذا الاقتصاد الاشتراكي والذي ندعوه هنا الاقتصاد المغلق (سوريا، العراق، الجزائر وليبيا) كان هناك نظام الاقتصاد المفتوح كما في الأردن وفي مصر (بعد عبد الناصر)، وعلى العموم يمكننا تقسيم الأنظمة الاقتصادية في البلاد العربية أيضاً من حيث الانتاجية والتصنيع. فهناك دول منتجة للبترول وهي دول صناعية إلى حد ما، أما باقي الدول العربية فهي مجتمعات مستهلكة. وحتى الدول المنتجة فإن الإنتاج يعتمد على قوى خارجية في عملية الانتاج أما شعوب هذه البلاد فهي شعوب مستهلكة من الطراز الأول. كذلك فلا نقدر أن ندعو نظام الاقتصاد المفتوح في البلاد العربية نظاماً رأسمالياً لأنه يفتقد الأسس الأولية للمبادىء الرأسمالية من ناحية وكذلك الأنظمة السياسية التي تنظم الاقتصاد الحر من ناحية أخرى. أما أنظمة الاقتصاد المغلق في البلاد العربية فهو ليس بالاقتصاد الاشتراكي لأن النظام الاشتراكي لا يعطي الدولة ملكية وسائل الانتاج فقط إنما أيضاً المسؤولية لتوفير الحاجات الأولية للسكان مثل التعليم والعلاج والسكن والعمل وغيرها. ثم أن هذا النظام الاقتصادي يحمل طابعاً تربوياً ليؤهل أفراد المجتمع أن يتحملوا مسؤولية العمل الاشتراكي في شكل تعاونيات عن طريق اختيار ذاتي، كما ويحمل هذا النظام الاشتراكي مثالية تتجسد في الطموح نحو تلاشي الدولة في لحظة ما وتحول ملكية الانتاج ووسائله من الدولة إلى الجماعات التعاونية في المجتمع.

والحقيقة الماثلة بأن معظم أنظمة الاقتصاد العربية تعتمد على المعونات الأجنبية والعربية بما في ذلك أنظمة الدول المنتجة للبترول فهناك السؤال المعقد الذي يدور حول مستقبل الاقتصاد العربي. وبهذا يبقى الحديث عن أنظمة

الاقتصاد في الدول العربية قاصراً على الشكليات.

٦ ـ ميزان النفقات والدخل في الاقتصاد:

موازنة الحكومة هي حكم حول توقعات الدخل والنفقات في فترة زمنية معينة. والهدف من الموازنة هو المساعدة في تنظيم السياسة المالية والسيطرة عليها. ففي بداية كل سنة مالية تقوم الحكومة (أي حكومة) بوضع موازنة السنة القادمة. وعادة ما تعرض هذه الموازنة على ممثلي الشعب للموافقة عليها سواء في الدول الرأسمالية أو الدول الاشتراكية. في هذه الميزانية توزع الموارد المتوقعة على الخدمات المختلفة التي تقدمها الدولة للمجتمع.

للمجتمع حاجات كثيرة تحاول الحكومة إشباعها. ومعظم الناس يوافقون على إشباع هذه الحاجات ولكنهم يريدون أن يدفعهم آخرون غيرهم. ولذلك فهم يوافقون الحكومة على برامجها لكنهم يحاربون الحكومة في حالة فرض الضرائب أو رفع مستواها. ففي أي ميزانية قد نجد عجزاً وإذا ما أردنا الميزانية الجديدة أن تكون أحسن من سابقتها فعلى الحكومة أن تملأ هذا العجز أو تقليصه. تقليص العجز في الميزانية ليس بالشيء السهل. وغالباً ما تفكر الحكومة بالضرائب عندما تفكر بتسديد أو تقليص العجز في الميزانية. ولكن سياسة الضرائب أيضاً ليست بالمسألة السهلة لأن الحكومة تصطدم بقوى اجتماعية كثيرة في حالة رفع الضرائب أو تحديد ضرائب جديدة.

٧ ـ الأنظمة الاقتصادية في المستقبل:

الحقيقة هي أن كلا من النظام الاقتصادي الحر والاشتراكي يواجه مشاكلاً خاصة به. وبينما تواجه البلدان مشاكلها الاقتصادية يبدو أن تغيرات كثيرة سوف تطرأ على كل من النظامين وتنظيماتهما الاقتصادية. فبينما تواجه الدول الرأسمالية مشاكل في توجهها كي تصبح دول رفاه اجتماعي وعلى الحكومة أن تتدخل في تنظيم الاقتصاد نجد أن الدول الاشتراكية تتحرك باتجاه مجتمع السوق لتواجه

المشاكل التي تقف في طريقها. مثال هذه الدول هي يوغسلافيا، والمجر والصين.

اختصاراً نقول، لا يوجد نظام اقتصادي كامل وتنظيم الشؤون الاقتصادية لملايين من البشر ليس بالمسألة السهلة وسوف تبقى تواجه الكثير من المشاكل. وبما أن المجتمع يتطور والمشاكل تتجدد فقد يصل الإنسان إلى نظام اقتصادي لم يوجد بعد. والأنظمة الاقتصادية مثلها مثل الأنظمة الحضارية والانسان نفسه يتكيف مع الظروف والتغيرات وينتج طرقاً جديدة لتنسيق السلوك الاقتصادي.

٨ ـ العمالة والتضخم والنمو:

يعرف أي اقتصاد في النظام الرأسمالي تذبذب كبير ما بين البطالة والعمالة حسب حالة الاقتصاد. حين يحصل تراجع اقتصادي ويكثر الذين لا عمل لهم نقول أن هناك بطالة. عندما تصل هذه البطالة إلى حد أعلى مثل ٢٥ ٪ من مجموع القادرين عن العمل نقول أن هناك كساد اقتصادي. على عكس ذلك عندما يزيد الاستثمار وتصل البطالة إلى حد أدنى (٣ ـ ٥٪) نقول أن هناك بحبوحة اقتصادية.

لقد مرت أوروبا وأمريكا في العشرينات من هذا القرن إلى حد شنيع من الكساد الاقتصادي حيث انخفض مستوى الانتاج في بداية الثلاثينات إلى أكثر من النصف ووصلت البطالة في بعض البلدان الأوروبية إلى أكثر من ٣٠٪، في هذه الفترة وما بعدها نشط المفكرون في تفسير ومحاولة فهم هذا الكساد واكتشاف العوامل التي أوصلت إليه.

من بين الذين حاولوا شرح هذه الحالة كان جون مينارد كينيس، أشهر عالم اقتصاد في القرن العشرين، في كتابه «النظرية العامة في العمالة والفائدة والنقد» حيث شرح لنا عوامل الاقتصاد الصناعي كالتالي:

في الاقتصاد الصناعي ينتج الناس سلعاً للبيع وليس للاستهلاك الخاص.

وطالما بيعت هذه السلع فإنها تنتج دخلاً للمنتجين. وطالما بقي الناس يشترون هذه السلع يكون من الممكن بيعها، وطالما بقي انتاج وبيع هذه السلع ممكناً بفائدة معينة وبكميات كافية، يقدر المنتج أو المستخدم (بكسر الدال) استخدام جميع الأيدي العاملة الموجودة. ولنفترض أن الأسعار ثابتة، عندها وحين نصل إلى مستوى عال من الدخل والانتاج والعمالة، يكون السر في الحفاظ على البحبوحة في اكتشاف طرق تمنع تقلص المصروفات الكلية. وطالما حافظنا على مستوى عال من المصروفات الكلية يكون لدينا عمالة كاملة.

قسم كينيس المصروفات إلى نوعين: مصروفات استهلاكية نصرفها على الأكل والشرب والملبس وغيرها، ومصروفات استثمارية نصرفها على شراء الآلات والأيدي العاملة والخبرات وغيرها من أجل الاستثمار. وذهب هذا العالم إلى أن النقص في أي من هذه المصروفات سوف يؤدي إلى نقص في المبيع والإنتاج والعمالة ويؤدي إلى كساد، واعتقد أن المصروفات الاستثمارية أكثر تذبذباً من غيرها وأن تراجعها هو الذي يؤدي إلى الكساد الاقتصادي. وهذا حسب رأيه ما حدث في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن حيث أن مصروفات الاستثمار وصلت إلى أدنى حد، أي أن الاستثمار توقف تقريباً فزادت البطالة إلى هذا المستوى. فإذا ما أردنا الوصول إلى توازن اقتصادي أو إلى تقدم اقتصادي، علينا أن نجد طرقاً نحافظ من خلالها على توازن المصروفات الاستثمارية أو نرفع مستواها.

وذهب كينيس إلى أن محاولة الناس لحماية أنفسهم في فترات التراجع الاقتصادي من خلال التوفير وتجميد هذا التوفير توصل الأمور إلى الأسوأ لأن عليهم أن يخفضّوا من كمية مشترياتهم وبذلك يخفضون من كمية المصروفات الاستثمارية وبذلك أيضاً الانتاج والعمالة والدخل. والطريقة الوحيدة لتخطي التراجع الاقتصادي هو زيادة مصاريف الاستثمار. إلا أن الزيادة في التوفير لا داعي أن يؤدي بالضرورة إلى انخفاض في المصروفات. لأن التوفير في

مصروفات الاستهلاك قد يزيد أيضاً من مصروفات الاستثمار إذا ما استثمر الإنسان هذه التوفيرات في الاستثمار.

٩ ـ بعض أسباب التذبذب في المصاريف الكلية:

يذهب بعض الاقتصاديين إلى تقسم المصاريف إلى ثلاث فئات: مصاريف الاستهلاك الشخصية، مصاريف الاستثمار الخاصة ومصاريف الحكومة. وأوسع هذه المصاريف هو النوع الأول وهي أثبتها أيضاً لأن الناس يعتادون على مستوى معيشي معين ويريدون الابقاء عليه. ويرجع ارتفاع هذه المصاريف إلى زيادة السكان والعمالة والانتاج ومصاريف الاستثمار ومصاريف الحكومة وفي بعض الأحيان أيضاً بسبب زيادة صك العملة. أما مصاريف الحكومة فعادة ما تكون ثابتة وبخاصة في حالة السلم. علماً بأن هذه المصاريف تزيد مع الزمن فوق مستوى الزيادة السكانية أو الدخل الوطني. كذلك هي الزيادة في حالة الحرب.

التذبذب صفة للمصروفات الاستثمارية نتيجة لعدم الاستقرار في الاستثمار. وينتج عدم الاستقرار هذا عن الحقيقة بأن معظم مصاريف هذا القطاع ليست قائمة على اشباع حاجة بقدر ما تقوم على الأمل في الحصول على ربح أكبر. السلع المنتجة من الاستثمار ثابتة ويمكن الحفاظ عليها مدة طويلة من الزمن ولكن التخطيط لانتاجها وانتاجها يستغرقان مدة طويلة من الزمن وهذا هو السبب في ارتفاع مصاريف الاستثمار. وعندما يكون الأمل في ربح الاستثمار كبيراً يستثمر الأفراد ويزيد عدد العاملين بسبب الوظائف الشاغرة التي تنتج عن الاستثمار. ولكن عندما تكون الرؤية المستقبلية متشائمة فإن مستوى الاستثمار ينخفض وتتقلص الشركات المنتجة وينتج عن ذلك أن الآلاف المؤلفة من الناس يصبحون عاطلين عن العمل كما حدث في العشرينات من هذا القرن. في هذه الحالة يقل الطلب على السلع الصلبة (التي يمكن الحفاظ عليها مدة طويلة) بسرعة. وعلى عكس الطلب على هذه السلع الصلبة فإن الطلب على السلع

المستهلكة ثابت تقريباً لأن الإنسان يحتاج إلى كمية شبه ثابتة من الطعام والشراب واللباس وغيرها، وهو غير قادر على الحفاظ على هذه السلع مدة طويلة.

أ ـ السياسة المالية (Fiscal Policy)

هي السياسة التي تتبعها الحكومة في استعمال فائض ميزانيتها أو نقصها لتحافظ على مستوى المدفوعات أو المصروفات في الاقتصاد. تتكون الميزانية من مدخلات على شكل دخل من الضرائب ومن مدفوعات على شكل مصروفات من جميع الجوانب فإذا زادت المدخلات على المدفوعات نقول أن هناك فائض، وإذا زادت المدفوعات على الدخل يكون عجز في الميزانية. كيف تعمل هذه السياسة إذن في السيطرة على المصروفات؟ افرض أن المدفوعات في ميزانية الحكومة كانت تساوي الدخل فنقول أن هناك توازناً. فجأة تجد الحكومة أن الاستثمار في القطاع الخاص قد تقلص وتتخوف من أن يؤدي هذا الانخفاض إلى تراجع اقتصادي، أو نقص في الدخل. عندها تقدر الحكومة أن تغطي على ذلك من خلال خفض نسبة الضرائب أو أن تزيد من مدفوعاتها على القطاع العام (الأشغال العامة مثلاً) بحيث أنها تزيد من دخل الأفراد، وفي هذه الحالة نقول أن الحكومة استعملت السياسة المالية.

ب ـ السياسة النقدية (Monetory Policy)

هي السياسة التي يتبعها البنك المركزي في تنويع مستوى العملة والديون في الاقتصاد ليؤثر على مستوى الدخل. ففي حالة زيادة كمية النقد نقول أن هناك توسعاً نقدياً وفي حالة تخفيض ذلك نقول أن هناك انكماشاً اقتصادياً. والبنك المركزي في كثير من الدول مؤسسة محايدة على الرغم من أن الذين يديرونها أفراد تعيّنهم الحكومة. الذي يعطي النقد قيمته هو أن البنك المركزي يصك كمية محدودة من النقد متى كان ذلك ضرورياً. ما يدعم النقد هو مخزون الدولة من الذهب. والحقيقة هي أن صك العملة ليس إلا جزءاً من زيادة كمية النقد في

الاقتصاد. يقدر البنك المركزي مثلاً أن يفتح حساباً بمليون دينار في أحد البنوك ويدفع بدل ذلك للبنك سند استدانة. بهذه الطريقة يكون البنك قد رمى مليون دينار في السوق وتزيد كمية النقد بمبلغ مليون ديناراً. ولكن أفرض أن البنك يأخذ ١٠ ٪ فائدة فإنه يحتفظ بماية ألف ويدين ٩٠٠ ألف لزبنون البنك الذين يدفع لهم من خلال شيكات، وهو يدين هؤلاء أيضاً مقابل فائدة أو أن الزبون يأخذها ويدفعها لآخر، فيأتي الآخر ويضعها في البنك ويعود البنك ويقرضها أو يقرض جزءاً منها لآخرين. ثم تستمر هذه العملية وتزيد هذه النقود من أصل مليون دينار إلى خمسة ملايين ديناراً وتدعى هذه العملية (Money Multiplier) أو محرك النقود. والحقيقة هي أن هذه العملية تلعب دوراً هاماً في تحديد نسبة الفوائد ونسبة التضخم أيضاً، وتؤثر بطريقة غير مباشرة على مستوى الدخل.

ج ـ التضخم المالي (Inflation)

يعني التضخم الارتفاع في المستوى العام للأسعار لمدة من الزمن. وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار جانبين لهذا التعريف. الأول هو أن ارتفاعاً ما في الأسعار ثم توقفها لا يعني تضخماً مالياً. والثاني هو أن التضخم يشير إلى مستوى الأسعار العام ولا يشير إلى سعر محدد. ففي التضخم هناك بعض الأسعار التي ترتفع وهناك بعض الأسعار التي تنخفض. وما يهمنا في التضخم المالي هو معدل ارتفاع الأسعار. الذي يعمل على التضخم هو خلق المجال لمضاعفة النقد مثل أن تقوم البنوك بزيادة قروضها للمواطنين من أجل الاستثمار. ونحن نعرف كيف نوقف التضخم ولكن ايقاف التضخم يعني توقف النمو الاقتصادي أي الزيادة في العمالة تتوقف وتزيد البطالة. ومن هنا فقد كان على الاقتصاديين البحث عن طريقة يصلون من خلالها إلى توازن في الاقتصاد.

١٠ ـ مشكلة عدم التساوي في الدخل:

يرجع عدم التساوي في الدخل إلى ثلاث مصادر:

أ ـ اختلافات في المكاسب: المكاسب الرئيسية للفرد في المجتمع الصناعي من خلال الوظيفة، وتعتمد الاختلافات في المكسب على نوع الوظيفة وعلى المزايا الشخصية للفرد التي يشغلها. والعوامل الأساسية التي تحدد تنوعات الدخل بين المجموعات المهنية هي العرض والطلب. ونجد عموماً أن المكانات الصعبة المنال والتي تتطلب تخصصاً وتأهيلاً عاليين تدّر مرتبات عالية جداً لأن العرض فيها أقل من الطلب عليها. أما الوظائف التي يمكن لكل واحد أن يحصل عليها فإن مكسبها متدن لأنها لا تتطلب مستوى عال من التأهيل ولأن الطلب عليها كثير جداً. وحتى في كل من هذه المجموعات نجد اختلافات أو تنوعات في الدخل وبخاصة في الوظائف الإدارية والمهن العليا.

ب ـ تنوعات دعم الحكومة للمكانات والمهن.

ج ـ اختلافات في كمية الملكية.

وعادة ما نقيس المستوى الاجتماعي بالمستوى الاقتصادي. والمشكلة الأهم في هذه القياسات هي قياس الفقر. في هذه الحالة علينا أن نجد أسساً نقيس بناءاً عليها مدى الفقر المتواجد، أياً من العائلات نقدر أن نصفها بالفقر وأيها خارج حدود الفقر. نجد في الدول المتقدمة أن مؤسسات الضمان الاجتماعي تعتمد ما تدعوه «عتبة الفقر» وهي أدنى مقدار من النقد الذي تحتاجه أسرة ما لكي تحصل على أدنى المتطلبات لاشباع حاجاتها. وعادة ما تكون هذه العتبة للفرد أدنى منها للأسرة وسوف تختلف هذه العتبة باختلاف عدد أفراد الأسرة. وسوف يتغير مقدار هذه العتبة مع تغير تذبذب مستوى المعيشة وتكاليفها.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل الحادي عشر:

١ ـ أعط بعض الأمثلة عن حاجات اقتصادية وحاجات غير اقتصادية؟

٢ ـ سمي بعض أهم الطرق التي أثرت من خلالها العوامل الاقتصادية على تطور الحضارة؟

٣ ـ ما هي الوظائف الأربعة المهمة التي يجب على كل نظام اقتصادي أن يؤديها؟

٤ ـ ما هي المشكلة الاقتصادية الكبرى، وهل يمكن أن نحلها في وقت ما؟ اشرح.

٥ ـ ميز ما بين الاقتصاد المخطط وغير المخطط؟ وكيف يؤخذ القرار الاقتصادي في كل منهما؟

٦ ـ لماذا نعتبر أن الاقتصاد المطلق الحرية غير موجود؟

٧ ـ اشرح كيف يتساوى الانتاج مع الاستهلاك في الاقتصاد الحر؟

٨ ـ اشرح دور الحكومة في الاقتصاد الحر؟

٩ ـ اشرح العلاقة بين الاشتراكية والشيوعية؟

١٠ ـ حاول أن تقارن بين المجتمع الاشتراكي المثالي ومجتمع روسيا الواقعي؟

١١ ـ لماذا تظن أنه من الصعب تقليص مصروفات الحكومة؟

بعض المفاهيم المستعملة :

الرغبات الاقتصادية	Economic Wants
السلع الاقتصادية	Economic Goods
الثروة	Wealth
الاقتصاد	Economy
عوامل الانتاج	Factors of Production
العمل	Labor
رأس المال	Capital
الفعل الاقتصادي	Economizing
«دعه يفعل»	Laisser faire
اقتصاد غير مخطط	Unplanned Economy
اقتصاد مخطط	Planned Economy
التجارة الحرة	free Enterprise
الرأسمالية	Capitalism
طلب السوق	Market Demand
عرض السوق	Market Supply
الاشتراكية	Socialism
الشيوعية	Communism
الميزانية	Budget

المراجع :

- أبو اسماعيل، أحمد، **أصول الاقتصاد**. (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٩).
- إسماعيل محمد هاشم. **مقدمة في علم الاقتصاد**. - (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩)، ط ٢.
- جالبريت، جون كينيت. **أضواء جديدة على الفكر الاقتصادي**. ترجمة خليل حسن خليل. - (القاهرة: دار المعرفة ١٩٦٢).
- حشيش، عادل أحمد. **تاريخ الفكر الاقتصادي**. - (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٤).
- روبنسون، جوان جون ابتويل. **مقدمة في علم الاقتصاد الحديث** - تعريب فاضل عباس. . مهدي. - (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠).
- عمرو محي الدين، عبد الرحمن يسري. **مبادىء علم الاقتصاد** -(القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٤).
- السوداني، عبد العزيز علي. **النظرية الاقتصادية**: (التحليل الكلي. - (د. م: د. ن)، ١٩٨٨).

الفصل الثاني عشر

المدخل إلى علم التاريخ

المدخل إلى علم التاريخ

يبحث علم التاريخ في عملية استمرارية
لتراكم أعمال وتجارب وانتاج الإنسان

١ ـ دراسة التاريخ وأهميتها:

ليس التاريخ بالقصة الممتعة لنتسلى بها فقط، ولا بالتعقيد الممل، ورغم قسوة الحقائق التاريخية أحياناً فمعرفتها وإدارتها هي الطريق لنقد الذات.

لا نقدر أن نفهم حضارة ما دون أن نفهم تاريخ تلك الحضارة، ولا نستطيع أن نفهم أيا من العلوم المختلفة دون دراسة تاريخية، أو أن نفهم أنفسنا أو ما نفعل قبل أن يدرك كل منا تاريخه الخاص. فكيف ندرك حاضرنا إن لم نعرف ماضينا وكيف نخطط لمستقبلنا إن لم ندرك حاضرنا؟ من هنا كانت دراسة التاريخ إحدى الدراسات المحورية في فهم المجتمع الذي نعيش فيه.

هل نستطيع أن نقوم بتحليل ظاهرة ما سواء في علم الاجتماع أو الإنسان أو السياسة أو الحضارة إن لم نطلّع على تاريخ هذه الظاهرة؟ كيف نشأت وتطورت؟ وكيف تأثرت بالظواهر الأخرى وأثرت عليها في الماضي وما هي العوامل التي أدت إلى تغيرها؟ إذن فكيف نفهم أحد العلوم التي تهتم بالإنسان والمجتمع دون دراسة التاريخ؟ الماضي هو تاريخ الحاضر والحاضر هو تاريخ المستقبل. والتاريخ دراسة محورية في فهم هذا الكل المعقد.

الإنسان فضولي في طبعه على الرغم من تفاوت هذه الفضولية بين شخص يقدر وآخر تقوده فضوليته إلى طرح أسئلة لا يقدر الإجابة عليها بناء على الحالة الموجودة ومعرفتها. وعلينا أن نبحث في الماضي لايجاد مثل هذه الأجوبة. والبحث في الماضي وأحداثه ومتغيراته وتغيراته واستمراريته هو دراسة التاريخ.

٢ ـ مختصو علم التاريخ:

تعودنا جميعاً أن نسمي الإنسان الذي يعمل في مجال بحث ما باسم العلم الذي يبحث فيه. وربما قاد هذا التعود إلى صورة جامدة حول هذه التسميات في ذهن الإنسان مثل أن نسمي الباحث مؤرخاً أو جغرافياً أو عالم سكان أو اجتماع أو رياضيات أو غير ذلك. وعلى الرغم من أن التاريخ لا يعرف الكثير من الاختصاصات إلا أننا نضفي على المختص في إحدى تخصصات التاريخ الإسم العام «مؤرخ» ونذهب إلى أن المؤرخين هم الذين صنعوا علم التاريخ.

لكن، ما هو الشيء المميّز لعلم التاريخ أو لأي علم من العلوم الأخرى التي تهتم بالإنسان؟ في رأيي المتواضع هو أن كل حقل من حقول المعرفة يتميّز بثلاثة أمور تقنية وهي:

١ ـ المنهج
٢ ـ طريقة البحث
٣ ـ وسائل البحث.

ويبدو لي أن التاريخ لا يختلف عن باقي حقول المعرفة فله منهجه الخاص وطرق بحثه ووسائلها وهي غير تلك التي تستعمل في باقي المعارف الإنسانية. ولذلك فهناك عمليتان في المعرفة التاريخية:

عملية العلم وعملية التدوين:

فعملية التدوين هي ليست أكثر من كتابة ما يجري من أحداث ووصفها وقد

دعوها في اللغة الإنجليزية (Historiography). أما عملية العلم في التاريخ فتتكون من أكثر من ذلك حيث يأتي المنهج الذي يملي أنواع طرق البحث المستعملة والوسائل المستخدمة لجمع المعلومات، ثم طريقة التصنيف والتبويب، وهاتان عمليتان مستقلتان على الرغم من الترابط الظاهر والمتبادل بينهما.

وعلى الرغم من أن المؤرخ قد يتبع هذا المنهج أو يكتشف مناهج أخرى إلا أن مؤرخي اليوم غير مؤرخي الأمس فقد كان التاريخ في الماضي يدخل في مجالات العلوم الأخرى كما كان يحتوي على علوم أخرى. فالمؤرخ في الماضي لم يقتصر في معرفته على سرد الأحداث بل كان أيضاً يسرد الأدب وغير ذلك. وصانع علم التاريخ لم يك المؤرخ الوحيد بل شارك آخرون بوضع الدراسات التاريخية من هؤلاء علماء الجيولوجيا الذين أوجدوا العصور الجيولوجية التاريخية، وعلماء الآثار والأنثروبولوجيا الفيزيقية الذين أبرزوا مراحل تطور النوع الإنساني والأجناس البشرية، وكذلك الباحثون في الحضارة البدائية من خلال دراسة هذه الحضارات وتدوينها.

لا يعني هذا أننا نقلص أو نقلل من الدور الذي قام به باحثو علم التاريخ فإليهم يرجع الفضل في صياغة المنهج التاريخي وتدوين كثيراً من التواريخ. ما يهمنا في هذا المجال هو أن علم التاريخ يركز على سلوك الإنسان في المجتمع. وهذا ما يضفي على التاريخ صفة خاصة وهو أن التاريخ يدرس هذا السلوك كما كان في الماضي. نقول هذا مع الحذر الشديد بأن لا نقلص أحد العلوم الاجتماعية إلى علم فرعي ينتمي إلى علم آخر أو يكون جزءاً منه علماً بأننا لو أخذنا علم الإنسان كما يقول عنه ممارسوه لوجدنا أن الكثيرين من الأنثروبولوجيين يعتبرون أن علم الإنسان يتناسب مع العلوم الأخرى نسبة الكل إلى الجزء أو الفرع. وعلى أية حال فإن كاتب هذا الفصل يختلف في الرأي مع هؤلاء لأنه لا يوجد بين الأنثروبولوجيين من قام بعمل باحث التاريخ سوى أقلية تكاد تنحصر في قدامى الأنثروبولوجيين مثل جيمس فريزر وفرانس بوعص، وتحددت كتابات هؤلاء في جوانب محدودة من الحضارة أهمها ما يمكن أن

ندعوه «التاريخ الحضاري» (الديانة والمعتقدات وتطورها، وتطور المؤسسات الاجتماعية مثل انساق القربى وغيرها وتاريخ تطور الأجناس وبعض جوانب الحضارة الأخرى. لم يتعرض الأنثروبولوجيون مثلاً إلى قيام الحضارة العربية الإسلامية ولا إلى قيام الحضارات الهندية أو الفارسية واقتصرت مبادراتهم على تطور الحضارات البدائية وتغيرها.

٣ ـ تعريف التاريخ:

يمتد مفهوم التاريخ إلى ثلاث مجالات دلالية:

أ ـ المجال الزمني: بمعنى تدوين حدوث الأحداث ذاتها كما يقول السخاوي «التاريخ فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها وموضوعه الإنسان والزمان» (السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ).

غير أن عبارة الإنسان هنا مبهمة فيما يخص دلالتها. أهذه دلالة إلى الزمن الذي عاش فيه الإنسان أم الدلالة إلى سلوك الإنسان؟ أمّا لسان العرب فيذهب إلى أن التاريخ هو التعريف بالوقت أي تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها (لسان العرب، مادة أرخ). وعلى الرغم من بعض التخصيص الذي قدمه السخاوي «الإنسان والزمان ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان». إلا أنه بقي في عموميات التعريف. وعلى كل حال فقد بقي التأريخ بهذه الدلالة الزمانية مدة طويلة بما في ذلك سرد أحداث التاريخ وبقي معظم كتاب التاريخ في تناقضات مستمرة حول الأصول الفيلولوجية لهذه الكلمة، منهم يقول عربية وغيرهم يقولون فارسية وآخرون أثيوبية ولم يجمعوا على أري واحد. والغريب أن أحداً لم ينتبه إلى ما تقدم به روزنتهال في موسوعة العلوم الاجتماعية حول مفهوم التاريخ في الشرق الإسلامي بأن الرسول ﷺ رأى نفسه كنبي في سلسلة تاريخية من النبوات على أنه آخر الأنبياء. ومن هنا يقول الكاتب روزنتهال: في الوصف التاريخي الإسلامي: إن الرسول ﷺ قد قدم الخطة على

شاشة تاريخية وتركها ليملأها أو يكتبها المؤرخون من بعده ويفسروها (موسوعة العلوم الاجتماعية، جـ ٥ و ٦. ص ٤٠٧). وهنا نجد أن بعض كتاب التأريخ من العرب قد التفتوا إلى ظاهرة التفسير التاريخي في علم التاريخ في العربية في وقت لاحق عند الطبري وغيره.

ب ـ مجال الدلالة المعرفية: تشير الدلالة المعرفية إلى أن مفهوم التأريخ يشير إلى الماضي وأحداثه جميعاً ومعرفتها من خلال التدوين.

ج ـ مجال العلم والحرفة: وهنا يبرز السؤال حول إذا ما كان التاريخ علم أو يجب إعطائه تسمية غير ذلك. وعلى الرغم من النقاش الذي دار بين الكثيرين من العلماء حول هذا الموضوع إلا أن التاريخ له منهجية خاصة به ومداخله المتميزة في تمحيص الأحداث قبل تدوينها، وهي هذه المنهجية التي تضفي عليه مدلول العلم إضافة إلى ما تقدمه هذه المنهجية من استعمال النظريات الكلية في تفسير مادة التاريخ.

التاريخ هو أحد المعارف التي تهتم بالإنسان وماضيه وتطوره وهو بذلك جزء لا يتجزأ من العلوم الاجتماعية ولا يستغني أحد هذه المعارف أو العلوم عنه. أما الجدل الفلسفي حول الماهية العلمية للتاريخ فينطبق على باقي العلوم الاجتماعية. كذلك أيضاً مشكلة الذاتية والموضوعية في هذا العلم فالإنسان إنسان وله ذاتيته الخاصة التي تتدخل حتى باختيار مواضيع البحث وتفضيل أحدها على غيره وكذلك باختيار المنهج الذي يتبعه في البحث. وإلا فلماذا يختار أحد العلماء البحث في مشكلة تاريخية ما مستعملاً المدخل الإشتراكي ويختار غيره نفس المشكلة مستعملاً مدخلاً آخراً. أظن أن كلاهما يعتقد أنه وصل إلى القناعة بأن منهجه هو الصحيح.

وقد قاد الجدل في الآونة الأخيرة إلى النتيجة بأن العلوم الاجتماعية علوم غير تجريبية وأنها لا تقوم على مبدأ العلة والمعلول بمعنى السبب والأثر بقدر ما تقوم على محاولة جادة لايجاد الدوافع والحوافز التي أدت أو تؤدي أو كانت قد

أدت إلى نشوء حالة ما. ففي كل بحث نجد قدراً من الموضوعية وقدراً من الذاتية، علماً بأن ما يراه بعض الباحثين موضوعياً في بحثه سوف يراه آخرون ذاتياً. فالموضوعية في العلوم الاجتماعية هي ما يدعى بالإنجليزية (Interdisci - plinary Approach) أو «ما عبر الذاتيات».

٤ ـ على ماذا يعتمد المؤرخ في كتابه التاريخ؟

قسم علماء التاريخ الفترة الزمنية التي عاشها الإنسان على الأرض إلى مرحلتين:

أ ـ مرحلة ما قبل اختراع الكتابة (الحروف الهجائية) وهي مرحلة لم يروا منها شيئاً يذكر إلا ما جاء في الرسومات وبعض الصور أو الرموز الصورية.

ب ـ مرحلة ما بعد اختراع الكتابة حيث أخذ الإنسان رويداً رويداً بتدوين المعلومات بطرق شتى وكان بالإمكان حفظ هذه المعلومات.

كان المؤرخ وما زال من أبرز من اهتم بماضي الإنسان ولكنه ليس الباحث الوحيد الذي اهتم بالإنسان فقد أخذ معظم الباحثين في الحياة الإنسانية في مختلف العلوم الاجتماعية يسهمون في البحث عن حياة الإنسان في الماضي، كيف كان يتعامل مع أخيه الإنسان داخل المجتمع الواحد وكيف كان هذا المجتمع يتعامل مع المجتمعات الأخرى، كيف كان المجتمع ينظم الحياة الاقتصادية، وكيف كان يعيش، وينظم حياته الصحية إلى غير ذلك من الأسئلة اللامتناهية.

بينما كان المؤرخ في الماضي عارفاً للأدب والشعر والنثر والدين والسياسة والفتوحات والتنظيمات الادارية والعسكرية والاجتماعية، انقسمت هذه الاتجاهات بعد تطور المناهج العلمية إلى علوم مختلفة مترابطة مع بعضها بعضاً. غير أن تراكم المعلومات وسرعة هذا التراكم جعلت الإلمام بهذه المعلومات أمراً عسيراً. ولذلك تطورت التخصصات المختلفة ليس فقط بين المعارف المختلفة ولكن أيضاً داخل المعرفة الواحدة، فلم يعد باستطاعة دارس

التاريخ أن يلم بجميع الحقول التي يطرقها التاريخ ولذلك نشأت هذه الاتجاهات المختلفة وأصبح هنالك مختص بالتاريخ السياسي، والتاريخ الاقتصادي، والحضاري والاجتماعي والعسكري والطبيعي. . . الخ.

غير أن المؤرخ لم يعد مستقلاً عن العلوم الأخرى لأن عليه أن ينهل مادته من مصادر مختلفة وأولى هذه المصادر مثلاً كان علم الآثار، وعلم طبقات الأرض، والأدب، والجغرافيا والاجتماع وعلم الحضارة، حتى والأحياء وغيرها. وبما أن المؤرخ كان يستعين بالمعلومات التي يستمدها من هذه العلوم وتساعده في جمع مادته فقد سماها «العلوم المساعدة»، مثلما أصبح علم التاريخ علماً مساعداً في العلوم الأخرى.

كان من بين هذه العلوم المساعدة تلك العلوم التي واكب نموها وتطورها تطور علم التاريخ نفسه مثل الجغرافيا. والجغرافيا علم قائم بذاته يهتم بالمحيط أو الحيز المكاني الذي تحدث فيه الحوادث التاريخية وما يحتويه هذا الحيز المكاني من أسماء مدن وقرى وأماكن وأنهار وجبال. . . الخ. يرتبط الحيز المكاني بالتغيرات الجوية التي تطرأ عليه وما يحدث عن ذلك من أحوال مثل الجفاف والقحط والفيضانات. . . الخ. والتعرف عليها أصبح الآن ضرورة في الدراسات التاريخية.

الأدب من الدراسات التي لازمت تطور علم التاريخ منذ القدم حتى وقبل التدوين فقد كان الأدب يروى شفوياً وهو كما اسماه بعضهم «مرآة العصر» الذي يوجد فيه وكان دائماً مادة أساسية يستقي منها المؤرخ معلوماته. كما يرى بعضهم أن ذلك الجزء من الأدب، النثر، كان الأصل في التدوين وعنه نتجت الكتابات التاريخية. فمن خلال تحليل الشعر مثلاً (الجزء الثاني من الأدب) تعلمنا الكثير عن حياة الشعوب القديمة ومعاملاتهم والأدوات التي كانوا يستعملونها والشعوب التي كانوا يتعاملون معها.

كذلك هي اللغة من أولى العلوم المساعدة للمؤرخ وعلم التاريخ. ولعلم

اللغة علوم فرعية مثل علم فقه اللغة (الفيلولوجيا) أو تطور استعمال الكلمات في العصور المتتابعة، والخطوط أو دراسة خط الكتابات القديمة بما في ذلك الأدوات التي استعملت في هذه الخطوط.

فكما أن لكل أمة لغة كذلك فلكل أمة خط أو أكثر من نوع واحد من الخطوط، قديمة وحديثة أو كما في اللغة العربية الخط الكوفي وغيره، ومن بين هذه الخطوط مجموعة خاصة تدعى النقوش. كذلك أصبح على دارس التاريخ أن يتعلم بعض اللغات الضرورية.

والتاريخ بحاجة إلى جميع العلوم الأخرى بقدر ما تحتاجه هذه العلوم من أنثروبولوجيا، والاجتماع، وعلم الأنساب، والسياسة، وعلم النفس والفلسفة إلى غير ذلك من علم النقود والمسكوكات وبخاصة علم الوثائق الذي يكوّن أحد حجارة الأساس للمعلومات التاريخية.

إلى جانب هذه العلوم فإن علم التاريخ يعتمد على مصادر مختلفة أهمها الرواية وهي ثلاثة أنواع:

أ ـ الرواية الشفوية.
ب ـ الرواية المكتوبة.
جـ ـ الرواية المصورة بما في ذلك الرسوم والخرائط.

والحقيقة هي أن ثمة فرقاً شاسعاً بين التاريخ التقليدي، والتاريخ الحديث وحتى بين صناعتي التاريخ القديمة والحديثة. فصناعة التاريخ الحديثة أفضل بكثير بسبب التطور في الفكر الإنساني أولاً وبسبب تطور العلوم ووسائل البحث ثانياً. كذلك فقد أدى التقدم في وسائل الاتصال والمواصلات إلى مزيد من المعرفة ومقدرة الإنسان على تقصي الحقائق أكثر مما كان يقدر عليه المؤرخ في الماضي. وأصبح التدوين لا يقتصر على مؤسسات مختصة فهناك العديد من المؤسسات التي تعني بتدوين وحفظ المعلومات. وقد قاد هذا كله إلى تعقيد الأمور أيضاً بحيث أصبح على المختص أن يوسع آفاق معرفته إلى درجة كبيرة

حتى يتسنى له الإطلاع على الجوانب العديدة للموضوع الذي يهتم به.

٥ ـ التاريخ والنشاط الإنساني:

قام التاريخ التقليدي حول الحياة السياسية أي حول القادة وأفعالهم وأصبح التاريخ سرد وقائع القادة والطبقة العليا في المجتمع وقد قاد ذلك الكثيرين من باحثي علم التاريخ إلى الاعتراض الشديد. وحقيقة قيام التاريخ حول القادة أصبحت من المعطيات بحيث أصبح النقاش فيها غير مجد. ولذلك فقد اتجه كثير من المؤرخين إلى نوع من إعادة كتابة التاريخ وحجتهم في ذلك أن التاريخ المكتوب لا يتعرض إلى حياة الناس الذين كانوا يكونون الأغلبية الساحقة من المجتمعات التي يعيشون فيها أو بالأحرى يكوّنوها.

والمسألة في مثل هذا التاريخ القديم أنه يتحدد بعامل القيادة أو السياسة بحيث أن أحد المؤرخين أراد أن يدعوه الأدب السياسي بدلاً من التاريخ السياسي. كذلك نجد أن بعض كتاب التاريخ قد شغلوا أنفسهم بالتطور الاقتصادي. وقد ذهب بعضهم إلى أن الاقتصاد نشاط إنساني يعم الفئة الكبرى من المجتمع. لكن سرعان ما تحول اتجاههم من التركيز على الإنسان إلى التركيز على نشاط فئة معينة من الناس احتكرت هذا النشاط وبخاصة على مستوى الانتاج فاتسع هذا المفهوم للتاريخ حتى كاد يلغي العوامل ذات الصبغة الاجتماعية والسياسية ولم يدركوا ذلك إلا بعد الحرب العالمية الثانية عندما أثيرت مشكلة الفقر ووجدوا أن الاقتصاد موجود داخل المجتمع ولا نستطيع تفسيره بمعزل عن المفاهيم الاجتماعية.

في هذه المرحلة (ما بعد الحرب العالمية الثانية) توصل الكثيرون إلى فكرة وجوب إعادة النظر في علم التاريخ وتوجيهه لكي ينفتح على كل مقاييس النشاط البشري. وهذا ما دعاه بعض علماء التاريخيين «التاريخ الكلي» ليساعد على فهم أفضل للإنسان والمجتمع. وقد شرح لنا بعضهم ذلك بطريقة لطيفة مؤداها هو أن الإنسان كل متكامل له جوانب مختلفة لا نستطيع فصلها عن بعضها بعضاً إلا من

أجل التحليل (أي تجريداً)، وأن هذه الجوانب تندمج وتتشابك مع بعضها بعضاً، بحيث أن التركيز على أحدها مع بعض المعلومات من الجوانب الأخرى لا يؤدي إلى فهم الإنسان والمجتمع. كذلك فإننا لا نقدر أن نعرف الإنسان بعيد عن سلوكاته السياسية وأنشطته الاقتصادية أو الثقافية والاجتماعية.

نجد في كل فرع من المعرفة تنوعات من الأفراد وكل منهم له ميوله وأهوائه الخاصة. كان القرن التاسع عشر حقاً عصر استعمار ونشأ السؤال: لماذا كان الرجل الأبيض قادراً على التفوق والسيطرة؟ كان الجواب على هذا السؤال نتيجة محتمة للنظريات التطورية التي بدأت في القرن نفسه. بعد نظريات هربرت سبنسر في المجتمع ظهرت نظرية داروين التي أكدت على الكفاح من أجل البقاء وبقاء الأفضل. وتلقف التاريخيون وجماعات العلوم الاجتماعية هذه النظرية وطبقوها من جميع النواحي في تطور المجتمعات والحضارات. بناء على ذلك فسر هؤلاء تفوق الرجل الأبيض بتفوق عنصره العرفي وبذلك أيضاً تفوق حضارته ومجتمعه وظهر في أوروبا مركب التفوق الذي قاد العالم إلى حربين من أشرس حروب التاريخ وقعتا في النصف الأول من القرن العشرين وكان هدفهما سيطرة هذا العرق المتفوق على العالم، فقد فسر التاريخيون مثلاً أن تاريخ تطور المجتمعات الأوروبية قد كان كذلك بسبب هذا التفوق. وعلى الرغم من ظهور مفكرين كثرة عارضوا هذه النظريات إلا أنها سادت الفكر الأوروبي مرحلة طويلة من الزمن، واستمرت حتى بعد الحرب العالمية الثانية عندما سادت القناعة بأنه لا يمكن تفسير التاريخ من خلال عامل محدد واحد. لكن ذلك لم يحد من انتشار العنصرية والفكر العنصري، فما زال الأطفال في أوروبا وأمريكا يتعلمونها في المدارس.

كان ابن خلدون أول من قال أن التاريخ يسير في دورات وبخاصة تاريخ الدول وأن هذه الدورة تمتد حوالي ١٢٠ سنة. وفي مثل هذه الدورة نجد مراحل النمو والبلوغ والهرم. وبقيت هذه النظرية في حالة سكون حتى جاء سبنجلر الألماني وتوينبي الإنجليزي وتبنياها ليكوّنا ما دعي في وقت لاحق مدرسة

التشكيل التاريخي يبحثون من خلالها عن القوانين العامة التي تتحكم بالدورات التاريخية والتي تؤهلنا لفهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل على الأقل للدورة التاريخية الواحدة. غير أن هذه الدورات عند علماء التشكيل لا تمتد زمناً قصيراً بل طويلاً جداً يصل إلى آلاف السنين. وقد نادى سبنجلر إلى استعمال التأمل والمقارنة والتأكد الداخلي المباشر والتقدير الحقيقي للعواطف، وذلك كله بالاعتماد على الحدس بدلاً من الاعتماد على مناهج العلوم البحتة. وعلى الرغم من أن توينبي اتبع منهجاً مختلفاً إلا أن موضوع البحث عند أصحاب مدرسة التشكيل هذه كانت الثقافة أو الحضارة، ميز توينبي منها واحد وعشرين حضارة قضي على ثلاث منها وبقيت خمس حضارات معلقة، وفي جميع هذه الحضارات تكمن ملاحظة تكرار مراحل مسارها.

غير أن هذه المفاهيم قد تغيرت الآن وأصبح البحث جاداً عن تاريخ جديد يركز على اتجاهات جديدة في تفسير الماضي والحاضر ويركز في أول الأمر على صانع التاريخ.

٦ ـ من هو صانع التاريخ؟

قلنا أن التاريخ القديم وحتى الكثير مما ورد في التاريخ الحديث في القرن التاسع عشر كان يركز على الحكام والقادة وكأنهم هم الذين يصنعون التاريخ. وقلنا أيضاً أن هذه النظرة قد بدأت تتغير. فصانع التاريخ كما اتفق الكثيرون من العلماء هو الإنسان، ولكن أي إنسان؟ سوف يعترض الكثيرون من المؤرخين إذا قلنا بأن على التاريخ أن يهتم بكل فرد وسوف يقولون لنا أن صانع التاريخ ليس فرداً بمفرده بل الناس جميعاً بمعنى أن ندرس الفرد من خلال الجماعة التي ينتمي إليها ثم من خلال المجتمع الذي تكونت فيه هذه الجماعات. فالمجتمع هو مسرح الدراسات التاريخية وليس من جانب واحد أو بضعة جوانب إنما من جميع جوانبه. فقد سبق لابن خلدون مثلاً بأنه ذهب إلى تعريف التاريخ كأخبار عن التنظيم الاجتماعي للإنسان أي: أخبار عن الحضارة العالمية، بما في

ذلك الأخبار التي تؤذي الحضارة نفسها مثل التوحش والشعور الجماعي، وأن هذا التاريخ يشمل، في كل جماعة إنسانية، الأشكال التي توصل إلى قدر من التفوق... الخ. إلى أن يتناول كل المجالات الأخرى التي تتضمنها الحضارة بحكم الطبيعة. يعني هذا أن صانع التاريخ هو الإنسان في نطاق مجتمعه وحضارته وأن على المختص في علم التاريخ أن يركز على هذا الإنسان المتعدد الجوانب.

علينا أن لا ننسى أن الكثيرين من كتاب التاريخ قد انتقلوا بعد ظهور الحركات العمالية من التركيز على الملوك والوزراء والقادة السياسيين في الدول والحكومات إلى التركيز على قادة الحركات العمالية وجمعياتها مفتخرين بأنهم أخذوا بكتابة ما يدعى بالتاريخ الاجتماعي للمجتمعات وبخاصة الغربية منها. غير أن هؤلاء أيضاً قد وقعوا في نفس المطب كسابقيهم، فقد قادهم هذا التحول إلى التركيز على بعض الأفراد الذين لم يأتوا في حقيقة الأمر من الطبقة العمالية أو ما دعي كذلك بل من الطبقات الغنية في المجتمع وبذلك أصبح تاريخ الطبقة العاملة متمثلاً في تاريخ قادتها. بذلك أصبح التركيز على الإنسان ليس أكثر من صفعة في الهواء وبقي عدد كبير من المؤرخين ينظرون إلى ظهور الفئات الكثيرة من الفقراء لم يكن لأفرادها إلا دور المتفرج على هذه التغيرات في المجتمع. كان هؤلاء ينظرون إلى الأحداث دونما أي إحساس بالمشاركة في تحركات المجتمع وبقي المؤرخون غارقون في المشكلة الرئيسية وهي الثنائية بين الفرد والجماعة مع الفرق الدائم بينهما، أن الجماعة تنظر إلى التغيرات الظاهرة في المجتمع بينما ينظر الفرد إلى الأحداث الواقعية والفردية.

وقد توصل بعض المؤرخين مثل روبرت لافون جرامون إلى أن الإنسان الذي يجب أن يركز عليه المؤرخ هو الإنسان الذي يعايش مجتمعه، ويتمثل في الأشخاص الذين يعيشون مجتمعين بما فيهم العمال ورجال الدولة والأبطال والعباقرة والصعاليك والفلاحين والفقراء كما هم أفراد وأعضاء في جماعات سياسية واقتصادية. وإذا كان هذا هو الإنسان فإن على التاريخ أن يلمس أكبر

نسبة منهم ويبين حياتهم، يصفها ويعرف محدداتها في تحليلاته ليستطيع أن يقول شيئاً فيما يخص اتجاه تطورها.

٧ ـ أهداف الدراسات التاريخية:

تتحدد أهداف الدراسات التاريخية بنقطة الانطلاق التي يخرج منها الإنسان: سواء الفرد القارىء، أو هو الباحث العالم، أو هو القائد أو الكاهن أو رجل الدين أو الإنسان العادي الذي يريد أن يقضي وقته. وقد يكون من اللائق كما يذهب د. لطفي عبد الوهاب أن نضع أهداف الدراسات التاريخية في مستويات. أحد هذه المستويات هو المستوى الفردي حيث تتنوع الأهداف من تضييع الوقت إلى التعرف على كثير من الأمور التي حصلت في الماضي. أو أن هذا الفرد يطالع ما كتب في الماضي ليفهم بوضوح أكبر وأعمق التجربة الحياتية التي يمر بها. وقد يقرأ أحدهم التاريخ أيضاً ليتعرف على الفن المعماري الذي ساد في حقبة أو حقبات مختلفة من الزمن وهكذا نقدر أن نسمى مئات الأمثال على أهداف متعددة يقرأ الإنسان التاريخ من أجلها.

مستوى آخر هو المستوى الإنساني في هدف الدراسة التاريخية. يريد الإنسان أن يحقق ذاته في البيئة التي يعيش وسطها عن طريق الوسائل المتاحة إليه. ولهذه البيئة أبعادمنها البعد المكاني والبعد الاجتماعي والبعد الزمني. يتعرف الإنسان على البعد الأول من خلال علم الجغرافيا والبيئة وعلى البعد الاجتماعي بواسطة علم الاجتماع وعلم الإنسان (الحضارة) ويتعرف على البعد الزماني من خلال علم التاريخ. الاهتمام بالبعد الزماني متأصل في فطرة الإنسان (في رأي عبد الوهاب) لأنه مواكبة الأسلوب العلمي الذي فرضته الحركة التقنية العلمية أو الحركة التكنولوجية على حياة الأفراد والجماعات في جوانب نشاطهم المختلفة خلال محاولتهم لتحقيق ذواتهم. هذا التاريخ هو ذاكرة المجتمع. أمثلة على ذلك يعطينا علم الأنساب وانشغال الإنسان به منذ القديم في تتبع خط إنحداره السلالي إلى أبعد نقطة ممكنة في التاريخ وما يصحب ذلك من محاولة

لحفظ الأخبار وتقصّي الحقائق الشخصية والجماعية للأسلاف وغيرها. ومن هنا فإنه يدعو هذا الإنسان إنساناً تاريخياً.

والهدف الثالث للدراسات التاريخية يتمثل على المستوى القومي والدولي. إذا كانت الدراسات التاريخية لأزمة لتحقيق ذات الإنسان من حيث هو إنسان أو كائن بشري في مجتمع محدود فهي ضرورية ولازمة له كعضو في المجتمع الدولي حيث أن الكيان القومي للمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان ليس إلا جزءاً من المجتمع الدولي وبخاصة في الوقت الحاضر حيث أصبحت الحياة مستحيلة خارج الاعتماد المتبادل للمجتمعات على بعضها بعضاً. وتعزي هذه الأهمية إلى أمور ثلاثة: الثورة التكنولوجية التي أدت إلى سهولة وسرعة المواصلات والاتصال في جميع المجالات، وقسمت المجتمعات بين منتج ومستهلك، وعملت على الاعتماد المتبادل بينها وبخاصة إذا ما نظرنا إلى الانفجار السكاني ونمو السكان في مجتمعات العالم ثم ظهور الأيديولوجيات القومية والعالمية (الشيوعية والرأسمالية) تريد كل منها الهيمنة على أكبر عدد ممكن من المجتمعات العالمية بحيث أصبح العالم ساحة تنافس بين دولتين عظميين من جهة وقسمت هذا العالم إلى دولة مهيمنة ودولة تابعة من ناحية أخرى. غير أن هذا التحول في الدراسات التاريخية من الخاص إلى العام ومن الضيق إلى الواسع يزيد من ضرورتها في التعرف على التيارات التي مرت في منطقتنا العربية واتجاهاتها حيث أن هذه الدراسات سوف تدخل في الاعتبار عوامل واتجاهات لم تكن في الحسبان في الدراسات السابقة.

٨ ـ الحقيقة التاريخية والتفسير التاريخي:

إذا كانت الأهداف السابقة هي أهداف الدراسات التاريخية فلا بد وأن يكون لها انعكاساتها على ما يدعوه مختصو علم التاريخ بالحقيقة التاريخية، سواء كانت هذه أحداثاً أو أوضاعاً أو ظروفاً أو مواقف من حيث الجهة التي تتعلق بها. والسؤال هو إذا ما كان لكل حقيقة في المجتمع صفة أو قيمة تاريخية؟

- الحقيقة التاريخية هي أحداث أو اتجاهات أو مواقف أو غير ذلك تشكل علامة يبدأ بها تطور معين أو مجرى تاريخي ما. الرسول محمد مثلاً كان بداية تطور جديد وكذلك الحملة الصليبية الأولى، والمحرك البخاري، وغيرها. حتى تلك الحقائق التي نعتبرها تاريخية علينا أن نتحقق من صحتها والتعرف على مغزاها لتحديد موقعها على مجرى التطور المعني أو تفسير التاريخ. ويبدو أن هنالك عدة اتجاهات في تفسير التاريخ نسوق منها ما لخصه لنا الدكتور لطفي عبد الوهاب.

- التفسير الديني كما في الحضارات السابقة على الديانات التوحيدية ثم التفسير الديني الذي ارتبط بالديانات الوحدوية (اليهودية المسيحية والإسلام). هذه التفاسير للتاريخ تلقي الضوء على تلك التطورات التي ارتبطت بهذه الحقب واتجاه المسيرة التاريخية في تلك المجتمعات البشرية. وقد جاءت هذه التسمية من طابع التاريخ المدون والمرتبط بالتاريخ، والمسيرة التاريخية هنا مرتبطة بفكرة الإله الذي يسيطر عليها.

- التفسير الطبيعي للتاريخ. مفهوم التفسير الطبيعي هنا يشير إلى آراء المؤرخين الذين ينهجون هذا النهج حول أسباب المسيرة التاريخية. فبينما يرد أصحاب التفسير الديني هذه المسيرة إلى الإله يردها هؤلاء إلى الظروف الطبيعية التي توجد فيها المجتمعات التي يؤرخ لها سواء كانت هذه هي البيئة الطبيعية أو الاقتصادية أو غير ذلك، ويرون فيها أسباب التطور التاريخي للمجتمعات. فقد بدأ هذه التفسيرات بعض المؤرخين اليونان، ثم ظهر هذا التفسير في القرن الرابع عشر على يد عبد الرحمن بن خلدون (التفسير الاجتماعي)، ثم في القرن التاسع عشر بعد أن ظهرت جميع العوامل التي شجعت على ذلك (الاكتشافات، الثورة الصناعية وظهور الحكومات الليبرالية ثم ظهور الفكر الشيوعي الذي أدى إلى التفسير المادي للتاريخ مرتكزاً على عملية الديالكتيك أو الفعل والفعل المضاد)، وأن التطور هو نتاج للصراع حول وسائل الانتاج وهذا الصراع هو الدافع حتى في تطور وسائل الانتاج لأن الطبقة

الحاكمة هي التي تريد أن تحمي ذاتها من خلال طرق عدة. هذا التطور في رأي هؤلاء سوف يقود الإنسان إلى المساواة والملكية المشتركة وغياب الطبقية.

- التفسير المثالي: يفترض التفسير المثالي أن هناك عقلاً كلياً أعلى فوق الزمان والمكان. وأن هذا العقل أو القانون الأعلى هو الذي يسير أحداث التاريخ. يتمثل هذا العقل الأعلى في القانون والنظام. التاريخ أو التطور هو تجسيد لهذا العقل أو القانون المطلق الذي يريد تحقيق ذاته في الواقع ويأخذ هذا التجسيد صوراً تتكون من سلسلة متعاقبة من التطور نحو التطابق الأكمل بين هذا العقل والواقع عن طريق حركية جدلية. تتكون هذه الحركية من نشوء فكرة ما وهذه الفكرة تعمل أو تحمل في ذاتها ميكانيكية ظهور فكرة متناقضة لها تتصارع معها حتى يصلن إلى توافق ما بينهما في فكرة جديدة (صيرورة). هذه الفكرة الجديدة تحمل نفس الميكانيكية وتنتج فكرة نقيضة تتصارع معها إلى أن تصلا إلى فكرة توافقية (صيرورة) من جديد وهلم جرا، حتى يتم التطابق بين القانون الأكمل أو العقل الأعلى (المثال) والواقع. كذلك هي الحالة في المجتمع بجوانبه المتعددة. فالمجتمع يريد أن يطور المرحلة التي يوجد فيها إلى حالة من الكمال وخلال هذا التطوير تظهر التناقضات الكامنة في هذه المرحلة أو الحالة فيظهر تيار معارض في المجتمع... الخ. هذه العملية المتتابعة من التناقضات والتآلفات وتناقضاتها والتآلفات الناتجة عنها تؤدي إلى كشف القناع عن تناقضات جديدة والتغلب عليها وتزول هذه التناقضات تدريجياً حتى يتقارب الواقع من المثال. وهكذا يأتي نظام حكم مثلاً ويظهر نظام معارض له بناء على القصور الموجود في النظام الأول ويتصارع النظامان حتى يصلا إلى نوع من التآلف.

(فكرة ـــــ فكرة نقيضة ـــــ صراع ـــــ تآلف ـــــ)
(فكرة جديدة ـــــ ... الخ.)

ـ التفسير الحضاري للتاريخ والذي جاء بـه المؤرخ البريـطاني المشهور تـوينبي.
تبنى توينبي نقض الفكر الذي ساد في القرن التاسع عشر بأن التطور الحضاري رهن بتـطور عـامـل العـرق عنـد الإنسـان والـذي كـان قـد أدى إلى مـا دعي بالداروينية الحضارية نتيجة لنظريات التطور التي ظهرت على يد شارلز داروين، ومن ثم أخذها علماء المجتمع والحضارة وطبقاها على تطور المجتمع. وكانت حصيلة ذلك أن هؤلاء التطورين فسروا لنا التقدم الحضاري الأوروبي من خلال تـطور العرق الأبيض وتميّزه أو تفـوقـه على الأعـراق الأخـرى ومن هنـا كـانت حضارة الإنسان الأبيض قد تطورت أكثر من حضارات الشعوب الأخرى فسادت نظرية فوقية الحضارة الأوروبية.

ذهب توينبي إلى أن هنالك شعوبـاً كثيرة بنت حضـارات متطورة جـداً ولم تكن تنتمي إلى العنصـر الأبيض وفي بيئات طبيعيـة تختلف عن البيئة الـطبيعية أو البيئات الطبيعيـة لشعوب غـرب أوروبا ولكن هـذه الشعوب وحضـاراتهم تخلّفت بعد ذلك. كذلك لا داعي للحضارات أن تنشأ في بيئـات متشابهـة. ولذلـك فقد وجد أن الحضارة نتاج إنساني وأن الإنسان ينتج الحضـارة بناء على أسس أخـرى غير العنصر والبيئة الجغرافية.

يوجد الإنسان في بيئة معينـة حسب فكر تـوينبي وعليه أن يتعـامل مـع هذه البيئة في كفاحه من أجل البقـاء. فالبيئـة تتحدى الإنسـان وقد يستجيب الإنسـان لهذا التحدي بطرق عدة. فبالقدر الذي يستطيع الإنسان أن يذلل صعوبات البيئـة الطبيعية يكون قادراً على إنشاء حضارة. وتحدي البيئة الطبيعية ليس إلا نـوعاً من أنواع التحديات للإنسـان، وتطور الحضـارة ليس إلا استجابـة مستمرة لتحـديات متتـابعة ومحـاولة الإنسـان من خلال هـذه الاستجابـة إلى التغلب على المشاكـل وخلق تحديات جديدة والاستجابة لها.

أمـا سقوط الحضـارة فيفسره تـوينبي بالتـوقف عن الاستجـابـة للتحـديـات الجـديدة وهنـالك أسبـاب رئيسية لذلـك أولهـا ضعف الأقلية الحـاكمة وتنـاقص مقـدرتها على الاستمـرار في الاستجابـة للتحديـات التي تجابـه المجتمع الـذي

تحكمه. ولتدعيم مركزها أمام عدم اقتناع الأكثرية بمركزها المتميز، تعمد هذه الأقليات إلى خلق طرق تعسفية تؤدي بالأكثرية إلى التخلي عنها فيصيبها الوهن وتصبح ضحية الهجوم من الخارج وتنهار.

٩ ـ التاريخ العربي بين الفخر والنقد:

كثيرون هم الذين كتبوا في التاريخ العربي في جوانبه المتعددة، من العرب والأجانب. وبغض النظر عن نقاط انطلاق الغربيين في كتابة التاريخ العربي وأهدافهم وغاياتهم التي تحتاج إلى دراسة خاصة نحاول هنا وضع بعض النقاط التي تتعلق بكتابات العرب عن تاريخهم الخاص سواء القدماء منهم أم المحدثين. وقد ينصف الإنسان وقد لا ينصف في إصدار حكم معين حول مجموعة معينة. لا نقصد هنا أن نقوم بحكم على كتابات التاريخ العربي بل نريد أن نبرز بعض النقاط التي قد تسلط الضوء على هذه الكتابات للقارىء الناشىء.

هناك اتجاهان رئيسيان في التاريخ العربي الحديث، ينطلق الاتجاه الأول من نظرة شاملة دينية سياسية واضعة بعين الاعتبار أن التاريخ العربي مرتبط بالتاريخ الإسلامي ارتباطاً وثيقاً. ويتشعب هذا الاتجاه إلى اتجاهين آخرين يختلفان في نقطة التركيز المحورية: الاتجاه الأول ديني بحت يبحث في التاريخ الإسلامي الذي يبرز الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي كأنهما امتداد طبيعي لما سبقهما. وتدور آراء أصحاب هذا الاتجاه حول العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية اللتين أوجدتا شرعية الدولة الإسلامية بغض النظر عن مكونات المجتمع أو المجتمعات الإسلامية من حيث العرق ما دام الحكم هو حكم الإسلام في دار الإسلام. ودار الإسلام غير دار الحرب حيث أن فيها الشرع الإسلامي هو الذي يحقق العدالة للناس ويسوي ما بين الحاكم والمحكوم في علاقاتهم. والعنصر العربي في الدولة الإسلامية ليس إلا أحد العناصر الذي شارك في تكوين هذه المجتمعات. كذلك فهو الإسلام، شرع الله، هو الحافز الذي أدى إلى تمازج الشعوب في الدولة الإسلامية وإلى الإبداع والتقدم بسبب تسامحه وشموليته. ويعتبر هذا الاتجاه المركز المتميز للعنصر العربي في قيادة

الخلافات الإسلامية أمراً طبيعياً أيضاً من خلال لغة الإسلام وأصوله أي اللغة العربية ومن حيث الرسول (ﷺ) كان عربياً وكذلك الفاتحين الأول الذين نشروا الإسلام في بقاع الأرض، ويذهبون إلى أن ديمومة هذا العنصر العربي رهن بالإيمان برسالة الإسلام والدفاع عنه، وهذا التاريخ تاريخ إسلامي.

ويذهب الاتجاه الثاني إلى أن مكانة القيادة العربية المميزة في الإسلام هي التي حافظت على نقاء الإسلام وأن هذا التاريخ الطويل كان تاريخاً عربياً إلى جانب كونه تاريخاً إسلامياً. ويتضمن هذا الاتجاه أيضاً أن ازدياد المكانات القيادية التي شغلها غير العرب هي التي أدت إلى ضعف الدولة العربية الإسلامية. هذه السمة العربية في الدولة الإسلامية - حسب آراء هؤلاء - هي ما يمكن أن نسميه امتداداً طبيعياً للتاريخ العربي. هاذ الاتجاه هو الاتجاه الأكثر رواجاً في الكتابات التاريخية وهو امتداد لكتابات القدماء الذين رأوا عروبة وإسلامية هذا التاريخ أمراً طبيعياً وربما لم يخضعوه إلى السؤال: هل التاريخ الذي نكتبه هو تاريخ إسلامي، أم تاريخ عربي أم كلاهما. فالقادة في الجيوش كانوا عرباً والحكام كانوا عرباً والولاة وكانوا عرباً والدولة دولة إسلامية.

الاتجاه الرئيسي الآخر هو الاتجاه القومي والذي يرى أن القومية العربية نوع من الامتداد الطبيعي للإنتماء الذي وجد في الدولة الإسلامية ويؤكد على العامل العربي في هذا التاريخ من حيث اللغة والقيادة والمنطقة الجغرافية. في هذه البقعة الجغرافية حملت الفتوحات الإسلامية في الهلال الخصيب وشمال أفريقيا عمليتين متلازمتين: دخول شعوب هذه المنطقة في الإسلام من ناحية واتخاذ اللغة العربية لغة قومية من ناحية أخرى وهكذا اجتمعت اللغة والدين في بوتقة واحدة. ضمن هذا الاتجاه القومي نجد أيضاً اتجاهين: يذهب الأول من نقطة انطلاق كلية وهي أن التاريخ العربي هو تاريخ واحد متكامل وأن الأقليمية فكرة دخيلة على هذا التاريخ. فهناك أمة عربية واحدة ذات تاريخ ومصير مشتركين بين جميع الشعوب العربية، وبقيت الوحدة العربية هي المثال الذي يسخرون من أجل تحقيقه كتابة التاريخ. بينما قبل آخرون بالوضع الراهن ووجود

دول عربية مختلفة كل منها ذو سيادة وأصبح لها منذ تأسيسها تاريخ خاص. وفي حين يعترف هؤلاء ويؤكدون على إشتراك هذه الدول بالمصير الواحد كما تشترك بالتاريخ الواحد فإنهم يؤكدون أيضاً على الاختلافات الكثيرة والتباين في جوانب كثيرة، ويريدون تمحيص هذه الاختلافات لأهداف مختلفة تختلف باختلاف الولاءات والعقائد، وقلّ ما نجد فيهم من يخضع هذه التواريخ للبحث عن طريق ما يدعى الحيادية والموضوعية.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل الثاني عشر :

١ ـ ما الذي يميز علم التاريخ عن غيره من العلوم؟
٢ ـ ما هو الفرق بين التاريخ في الماضي والتاريخ في الحاضر؟
٣ ـ ما هي المجالات التي يمتد إليها مفهوم التاريخ؟
٤ ـ ما هي المراحل التي ميزها علماء التاريخ في حياة الإنسان على الأرض؟
٥ ـ هل تظن أن المؤرخ بحاجة إلى العلوم الأخرى؟ لماذا؟
٦ ـ لماذا ذهب المؤرخون بعد الحرب العالمية الثانية إلى ضرورة إعادة النظر في علم التاريخ؟
٧ ـ ما هو الحدث التاريخي الهام عند المؤرخ وكيف تميزه عن أحداث أخرى؟
٨ ـ لماذا يقرأ الإنسان التاريخ؟
٩ ـ يحاول علم التاريخ أن يصل إلى تفسيرات للماضي؟ ما هي أنواع هذه التفسيرات؟
١٠ ـ بماذا يختلف التفسير الديني للتاريخ عن التفسير المثالي؟ اشرح التفسيرين.
١١ ـ بماذا يختلف التفسير الطبيعي للتاريخ عن التفسير المادي؟
١٢ ـ هل تظن أنه يجب إعادة النظر في التاريخ العربي؟

المفاهيم المستعملة في الفصل الثاني عشر:

تاريخ	History
حضارة	Culture
تحليل	Analysis
المنهج	Approach
طريقة البحث	Method
وسيلة البحث	Research techniqes
تدوين	Historiography
المعرفة	Knowledge
اختراع	Invention
رواية	Narration
تفسير	Explanation
الفكرة	Thesis
الفكرة النقيض	Antithesis
صيرورة	Synthesis

المراجع :

- حسن، محمد عبد الغني ، **علم التاريخ عند العرب**، (القاهرة: دار المعارف ١٩٦١).
- اتكن، هـ. ج. ، **دراسة التاريخ وعلاقاتها بالعلوم الاجتماعية**، ترجمة محمود زايد، (بيروت، ١٩٦٣).
- عثمان، حسن، **منهج البحث التاريخي**، (القاهرة: دار المعارف، ط ٤، ١٩٨٦).
- عبد الوهاب، لطفي، **التاريخ ومناهجه**: (دراسة نظرية، دوسية غير منشورة).

الفصل الثالث عشر

المدخل إلى علم الفلسفة
الفلسفة ومباحثها

د. رجا بهلول ـ قسم الاجتماع ـ



١ ـ ما هي الفلسفة؟

لما كان السؤال «ما هي الفلسفة؟» سؤالاً فلسفياً بحد ذاته، فمن الصعب أن نجد له جواباً يقنع به جميع من يهتمون بالفلسفة، سواء كانوا فلاسفة أو دارسين. فالأسئلة الفلسفية بطبيعتها لا يجاب عليها مرة واحدة وإلى الأبد، بل تبقى مثار جدل وحوار متصل ليس فقط بين مفكري العصر الواحد، ولكن أيضاً عبر الحقب التاريخية المتعاقبة.

يورد زكريا إبراهيم في كتابة «مشكلة الفلسفة» (انظر ٤١٦، ص ص ١٩ ـ ٥٨) عدة تعريفات، ومفاهيم اقترنت بكلمة الفلسفة عبر العصور المختلفة، عند فلاسفة مختلفين، فرقت بينهم الأزمان والمذاهب. وحيث أنه لن يكون من المفيد أن استعرض هذه التعريفات والمفاهيم المختلفة هنا (فالمؤلف المذكور يوفيها حقها من التفسير والتعليق)، فإنني سوف أكتفي بالدفاع عن مفهوم معين أرى أنه الأقرب إلى وصف موضوعي للفكر الفلسفي كما نجده عند الكثيرين من الفلاسفة.

تعرف «الفلسفة» بموجب هذا المفهوم بأنها «موضوع يحاول الباحث من خلاله أن يتعدى الصور الجزئية للعالم، تلك الصور التي ترسمها لنا العلوم المختلفة، كل علم في مجاله الخاص، ويسعى الباحث في مجال لفلسفته إلى

التوصل إلى مفهوم شامل، أو صوره كليه للوجود بشكل عام، بحيث يأخذ كل ملم وكل بحث أو نشاط فكري انساني مكانه الطبيعي في هذه الصورة الكلية الشاملة».

لا شك أن هذا التعريف يحتاج إلى بعض الشرح. فلنبدأ أولاً بالحديث عن «الصور الجزئية للعالم»، تلك الصور التي ترسمها لنا العلوم المختلفة كل في مجاله. تسعى الفيزياء لعرض طبيعة تكوين العالم المادي المحسوس سواء على مستوى الذرة وما هو أقل منها، مروراً بما هو متوسط الحجم من الأشياء، وانتهاء بما عظم حجمه من النجوم والمجرات والكون الفيزيقي بوجه عام. ولكن الفيزياء، على الرغم من اتساع مجالها، لا تحاول أن تبين لنا طبيعة تكوين الخلية الحية، أو طبيعة التأثير الذي تمارسه مركبات كيماوية معينة (السم مثلاً) على وظائف الخلية الحية. فمثل هذه المسائل لا تندرج ضمن الفيزياء، ولكن ضمن علوم أخرى هي العلوم البيولوجية المختلفة.

فالفيزياء، إذن، تدرس العالم على مستوى معين، في حين توجد هناك مسائل كثيرة جداً تخرج من نطاقها. ومثل هذا ينطبق على العلوم البيولوجية المختلفة، التي بدورها لا تعير أي اهتمام لما يدور داخل الذرة، ولا بولادة النجوم وموتها، ولا بأنواع المجرات الموجودة في الكون، ومثل هذا ينطبق أيضاً على العلوم الاجتماعية امختلفة. فهي أن تناولناها بمجملها، نجد أنها تدرس جزءاً محدوداً من الوجود، ذلك الجزء الذي يتمحور حول الإنسان ونشاطاته المختلفة، سواء أكانت نشاطات اجتماعية، أو نفسية أو اقتصادية أو سياسية، أو تاريخية أو ما شابه ذلك.

لا ينكر أحد أن العلوم المختلفة مترابطة، أي أنها لا تشكل جزراً منفردة منعزلة في محيط هائل الحجم اسمه «محيط المعرفة». فالكيمياء مثلاً تتصل بالفيزياء، ويوجد للعلوم البيولوجية المختلفة قاعدة كيمائية (من هنا يأت الحديث عن الكيمياء العضوية، Organic Chemistry ، وعلم الأحياء الجزيىء Subbiology). وعلم النفس يتصل بالعلوم البيولوجية من خلال البحث عن

العلاقات القائمة بين الظواهر النفسية المختلفة وبين وظائف الدماغ والجهاز العصبي بشكل عام. ويبلغ الاتصال بين العلوم المختلفة أحياناً درجة كبيرة، دعت ولا تزال تدعو بعض المفكرين إلى الظن بأن بعض هذه العلوم يمكن رده إلى، أو اختزاله من بعضها الآخر. (لتبيان معنى الرد، أو الاختزال Reduction) وتوضيحه بالإشارة إلى بعض الأمثلة الواقعية، انظر ٦٦، ص ص ١٤٧ ـ ١٦٠.

ولكن على الرغم من هذا كله، فإنه يبقى هناك الكثير من الحقيقة في القول بأن هذه العلوم المختلفة تقسم بصبغة «التخصص»، وإن كلاً منها يقتصر، ينتزع لنفسه جزءاً محدوداً من الوجود، بهدف شرح تكوينه، والانتظامات القانونية الطبيعية التي تسوده والتي يمكن من خلالها فهمه ثم التحكم فيه.

والآن نسأل: أيبقى بعد أن ينتهي العلماء من أبحاثهم الجزئية المختلفة (هذا إذا كانوا سوف ينتهون من ذلك يوماً ما، وهو أمر مشكوك به كثيراً)، أيبقى بعد ذلك ما يستحق عناء البحث والتفكير والمعرفة؟ أم أن العلم يقدم لنا كل الحقائق عن كل شيء؟ هل نعرف من خلال العلوم المختلفة كل ما تجدر بنا معرفته؟

يجيب معظم الفلاسفة عن هذه الأسئلة بالنفي، باستثناء من يؤمنون بمذهب الوضعية المنطقية (Logical Positivism) الذي اشتهر وانتشر كثيراً في النصف الأول من هذا القرن. (انظر (٢) من أجل معرفة المبادىء الأساسية التي قام عليها هذا المذهب) ولكن حيث أن هذا المذهب لم يعد واسع الانتشار كما كان في السابق، فإنه بوسعنا أن نقول أن غالبية الفلاسفة يعتقدون أن العلم لا يقول محل ما يجب أن يقال. بل أن هناك الكثير من الأسئلة الصعبة والمحيرة التي لا يتطرق إليها العلماء. ولكنها أسئلة يجب أن تطرح. لهذه الأسئلة طابع فلسفي، ويحاول الباحث من خلال الإجابة عليها أن يتجاوز الصور الجزئية التي يرسمها لنا العلم عن الوجود. أي، بعبارة أخرى، يهدف الباحث إلى التوصل إلى تصور عام وشامل للوجود، بحيث تأخذ كل الأشياء، بما فيها الإنسان ونشاطاته المختلفة، مكانها الطبيعي في هذه الصورة الكلية الشاملة.

فيما يلي نقدم عرضاً مختصـراً لبعض هذه الأسئلة ذات الـطابع الفلسفي.
نقول بادىء ذي بدء أن الفلسفة تطرح أربعة أنواع رئيسية من الأسئلة يتمحـور كل منها حول مبحث من المباحث الأساسية الكبرى:

- مبحث الوجود
- مبحث المعرفة
- مبحث المنهج
- مبحث القيم.

وسوف نرى في الحـال أن الطابـع الغالب على الأسئلة الفلسفيـة هو رغبـة السائل في أن يتجاوز جزئية العلوم من أجل التوصل إلى مفاهيم أكثر شمولية.

٢ ـ مبحث الوجود:

الوجود، باختصار، هو كل ما هو مـوجود. وهـو، كما قلنـا آنفاً، مـا تجتزأ العلوم المختلفة أقساماً منه للبحث. فتهتم الفيزياء ـ مثلاً ـ بالمـوجودات المـادية على وجه العموم، بينما تهتم البيولوجيا بالموجودات المادية التي تتصف بالحياة، وعلم النفس بالموجودات المادية الحية التي تحتوي على بعد نفسي، أو لها حياة نفسية (الإنسان مثلاً).

لكن من المـلاحظ أن لا واحداً من العلوم المختلفـة ـ وهنا تكمن جـزئيّـة ومحدودية هذه العلوم ـ يطرح هذين السؤالين الهامين. مـاذا يوجـد في الوجـود؟ وما هي العلاقات القائمة بين الموجودات؟

لا نريد أن يقال لنا جـواباً على السؤال الأول أن المـوجودات تشتمـل على أشيـاء كثيرة مثـل الأشجار والجبـال والناس والكـواكب والنجوم والـذرات و. . . الـخ. فإن تعـداد الموجـودات على هذا النحـو لن ينتهي. وليس هـذا النـوع من الإجابة ما هو مقصود على أية حال. ما نريد أن نصل إليه هو الأصناف الأسـاسية أو الكبرى للموجودات، ومن قمة العلاقات التي تربط فيما بينها، أي ما إذا كـان

واحداً منها سبباً في وجود الآخر، أو ما إذا كان واحداً منها مجرد مظر للآخـر، أو مركباً منه، أو تابعاً له بشكل ما.

يدعى ذلك الفرع من الفلسفة الذي يهتم بدراسة الوجود والعلاقات القائمة بين الموجودات بـاسم «الميتافيـزيقا» (Metaphisics)، وهي كلمـة يونـانية الأصـل تعني «ما وراء الطبيعة». وكما سوف يتضح في الحال، فإن هذه التسمية مناسبة، من حيث أن غالبية أصناف الموجودات التي أثارت جدلاً مستديمـاً بين الفلاسفـة هي أصناف تبدو في ظاهر الأمر كما لو كانت «فوق» الطبيعة أو «بعدها».

ما هي الأصناف الكبـرى للموجـودات؟ وما هي العـلاقات التي تـربط فيما بينهـا؟ انقسم الفـلاسفـة منـذ القـديم إلى شيـع ومـذاهب مختلفـة بشـأن هـذين السؤالين. فمنهم من اعتـرف بصنف معين، وأنكر صنفـاً آخر، ومنهم من أعـطى مكانة أولية لصنف معين، واعتبر صنفاً آخر تابعاً له، وهكذا. لا نستطيع بـالطبـع أن نتكلم عن جميع الأشياء التي أثارت خلافاً بين الفلاسفة، ولا نستطيع أن نقدم شرحاً مفصلاً عن المذاهب الفلسفية المتنازلـة. فمثل هـذه الأمور تتـطلب الوقت الطويل، والكثيـر من المقدمـات، مما ليس لـه مجال هنـا. نكتفي بعرض شديد الاختصار بعض الأصناف الهامة للموجودات التي اختلف الفلاسفة بشـأنها، مـع ذكر أسماء بعض الفلاسفة وأسماء بعض مدارسهم.

أ ـ الموجودات المادية:

هناك اجماع بين الفـلاسفة، وبين النـاس العاديين أن الكـون يحتوي على أشياء مادية. والمقصود بـ «شيء مـادي» شيء يحتل حيـزاً في الزمـان والمكان، ويكـون عادة محسـوماً عن طـريق واحدة أو أكثـر مـن الحواس الخمسـة. سواء بطريقة مباشرة كما هو الحال بالنسبة للأشجـار والجبال والنجـوم، أو بطريقـة غير مباشرة، كما هي الحال بالنسبة للمكونات الصغـرى للمادة (الـذرات والجزئيـات مثلاً).

لكن الفلاسفة اختلفوا كثيراً فيما بينهم حول طبيعة الأشياء المادية، ومـا إذا

كانت صاحبة المرتبة الأولى في الوجود. فالفلاسفة الماديون، أنصار الفلسفة المادية (Materialism) ، مثل ديموقريطي (٧٠ م ق. م) وماركس (١٨٨٣) يرون عموماً أن المادة والأشياء المادية هي الموجودات الأساسية، وإن ما عداها (مثل الذهن، والأحاسيس والأفكار) إنما هو نتاج وانعكاس لها، يعتمد عليها ولا قوام له سواها. أما أنصار المدرسة المثالية (Idealism) مثل أفلاطون (٣٤٧ ق. م.) وباركلي (١٧٥٣)، فيرون بأن الأشياء المادية تمثل مرتبة ثانوية من الموجودات، بصفتها مجرد محاكاة أو تقليد لما هي غير مادية («المثل» عند أفلاطون» أو بصفتها مجرد أنساق مؤلفة من عناصر غير مادية (أحاسيس النفس، عند باركلي).

ب ـ النفس، وما يرتبط بها:

كلنا يعتقد أن الإنسان يختلف عن الجماد والنبات في أن له «نفساً» بوسعها الإحساس والتفكير والرغبة، إلى غير ذلك من الوظائف التي تميز الإنسان عن غيره من الموجودات. ولكن ما طبيعة النفس هذه، وكيف توجد، وما علاقتها بالجسد؟ هل ترتبط بالجسد، وتوجد فيه مثلما يوجد القبطان في السفينة، مستقلاً عنها وله حياة بدونها؟ هذا ما يقوله ديكارت (١٦٥٠) ومن يؤمنون بالثنائية (Dual-ism) . أم أن النفس ترتبط بالجسد وتوجد فيه مثلما توجد القدرة على تحديد الوقت في الساعة، أي بشكل غير مستقل؟ هذا ما يراه أرسطو (٣٢٢ ق. م.) ومن يؤمنون بالوظائفية (Functionalist) .

ج ـ الزمان والمكان:

لا يكاد يوجد شيئان أكثر ألفة وأكثر إثارة للحيرة في نفس الوقت أكثر من الزمان والمكان. فنحن وغيرنا من الأشياء المادية (كالكواكب مثلاً) دائماً موجودون في حيز ما أو جزء ما من المكان (الحيز Space)، وكل ما يحدث لنا يحدث في لحظة معينة من الزمان. لا نجد صعوبة البتة في الحديث أو السؤال عن أين ومتى حصل هذا أو ذاك، ولكن السؤال عن طبيعة الزمان والمكان، وعلاقتها بالأشياء مراعاة للكثير من الحيرة، وذلك كما لاحظ القديس أغسطين

قديماً (انظر (٢)، ص ص ٢٥٣ ـ ٢٨١). فمن جهة، لا يظهر إلا الزمان والمكان هي أشياء مادية بالمعنى المألوف للكلمة؛ فهي لا تلمس ولا ترى، وليس لها طعم ولا وزن ولا رائحة، وإن كنا بشكل يصعب وصفه ندركها ونعي وجودها. هل هي إذن أشياء ذهنية ذاتية بحتة، لا وجود لها في العالم الحقيقي؟ هذا ما آمن به الفيلسوف الألماني كانت (١٨٠٤). أم أن لها وجوداً موضوعياً في العالم الخارجي؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل وجودها مستقل عن وجود الأشياء المادية (التي تحتل حيزاً في المكان) والحوادث (التي تحدث في لحظات معينة في الزمان)؟ كان العالم الشهير اسحق نيوتن (١٧٢٧) صاحب فكرة الزمان المطلق والمكان المطلق يعتقد أن للزمان والمكان وجود مستقل تمام الاستقلال عن الأشياء، بحيث يمكن تشبيه المكان ـ مثلاً ـ بالبحر والأشياء المادية بالأسماك. فالبحر ـ مثل المكان ـ يبقى هو هو سواء أزالت الأسماك من الوجود أو بقيت. أما لايبنتس (١٧١٦) الذي ناقش هذه المسألة نقاشاً مستفيضاً مع كلارك الذي كان يمثل رأي نيوتن، فلم يكن ليعتقد أن للزمان والمكان وجوداً مستقلاً، بل ارتأى أن الزمان والمكان ليس سوى علاقات لا تقوم لها قائمة دون الأشياء والحوادث. (انظر مراسلات لايبنتس وكلارك في (١)).

د ـ الله والعالم الإلهي:

هذه هي المسألة الوجودية الأخيرة التي سوف نذكرها في هذا العرض السريع. وهي وإن كانت الأخيرة في مجال الذكر، فهي ليست الأخيرة من ناحية الأهمية. إلا أن هذا لم يمنع الفلاسفة من الاختلاف بشأنها، كما جرت عليه عاداتهم في المواضع الأخرى. فانقسموا ما بين معتقد بوجود إله، أو خالق أو مدبر لهذا الكون (Theist) ومنكر لكل هذا (Atheistأو شاك في كل من هذين الموقفين (Sceptics . بالوسع القول أن الفلسفة المثالية غالباً ما تعترف بوجود الإله، بالرغم من أن ما نقوله عن الإله لا يتلائم دائماً مع ما يؤمن به أصحاب الديانات السماوية. (انظر (٤)، ص ص ٨٩ ـ ١١٠ حيث ينتقد الغزالي (١١١١) مطولاً المفاهيم الألية التي نادى به الفلاسفة المسلمون المتآثرون

بفلسفة أفلاطون (٣٤٧ ق. م.) وأفلاطون (٢٧٠) المثالية). أما الفلسفة المادية، التي ترى أن المادة هي الموجود الأساسي، والأول، فمن الطبيعي أن تكون فلسفة الحادية. ونجد في القرن ولأول مرة، من ينادون بأن الموقف السليم من الأمور الإلهية ليس هو الالحاد ولا الايمان، ولا التشكك، وإنما الرفض المطلق للموضوع من أساسه، من حيث أنه يحتوي على أفكار غير قابلة للامتحان التجريبي. هؤلاء هم أنصار الوضعية المنطقية (Logical Positivis) الذين يعتقدون أن الحديث عن الأمور الإلهية هو حديث دون معنى البتة.

هناك بالإضافة إلى (أ) - (د) أشياء كثيرة اختلف الفلاسفة بشأن وجودها، وطبيعة ذلك الوجود، مما لا مجال لذكرها هنا. ولكن ما أوردناه يكفي لتبينان غاية الفلسفة في مبحث الوجود: التوصل إلى تصور عام للمكونات الأساسية للوجود، وشرح العلاقات القائمة بين هذه المكونات. وفي هذا تظهر بجلاء الرغبة في تجاوز الصور الجزئية المحدودة التي تقدمها لنا العلوم المختلفة عن الوجود.

٣ - مبحث المعرفة:

كلمة «عرف، يعرف» ومشتقاتها، ومنها «المعرفة«، مألوفة وكثيرة الاستعمال. فنحن دوماً نقول أننا نعرف أنه كذا وكذا، أو أنه من غير المعروف أنه كذا وكذا، ونقول أن معرفتنا الحديثة دائمة التوسع، وإن ممارسات مثل قراة الكف، والتنبؤ بالمستقبل بمساعدة الأبراج ومعالجة الأمراض بواسطة السحر واستعمال الحجب لا تشكل علماً وليست معرفة بأي حال من الأحوال.

تسعى الفلسفة، وذلك من خلال ذلك الفرع الذي اسمه «الابستمولوجيا» (Epistimology) (وهذه كلمة يونانية الأصل يمكن ترجمتها بعبارة «علم (أو نظرية) المعرفة») تسعى الفلسفة إلى فهم تلك الشروط التي بتحققها تحصل المعرفة بأي أمر من الأمور، كائناً ما كان. لاحظ أننا نتحدث هنا عن المعرفة بشكل عام. نحن لا نتكلم عن المعرفة الاختصاصية التي تقدمها لنا الفيزياء أو الرياضيات،

أو الطب، أو غيرها من العلوم الجزئية المختلفة. ونحن لا نتكلم حتى عن المعرفة المتنوعة، البسيطة، والتافهة أحياناً، التي تقدمها لنا الملاحظة العادية (فأنا مثلاً أعرف أن لي يدين ورجلين، وإنني الآن أكتب شيئاً ما. . . الخ) بل نحن نتكلم عن المعرفة بشكل عام، بغض النظر عن موضوعها، أو أسلوب الحصول عليها.

متى يجوز لنا أن نقول أن فلاناً يعرف أنه كذا وكذا؟ من أجل أن تكون أفكارنا جلية، لنستعمل مثلاً محدداً: متى يجوز لنا أن نقول أن زيداً يعرف أنه توجد حياة على سطح كوكب المريخ؟

لا يكفي أن يكون عند زيد افتقاد (تصديق، أو ايمان) بأنه توجد حياة تحت سطح المريخ. فكثير من الناس يعتقدون (يصدقون، أو يؤمنون) بأمور كثيرة في حين ليس عندهم بها أدنى معرفة. بعض الناس مثل أفراد الشعوب البدائية يعتقدون بأن الأرض محمولة على ظهر فيل كبير. هم يعتقدون ذلك. ولكن هل يعرفون ذلك حقاً؟ لا. والسبب يعود إلى كون ما يعتقدونه غير صحيح. فما هو غير حاصل لا يعرف، وما هو معروف فهو حاصل.

متى يجوز لنا أن نقول أن زيداً يعرف أنه توجد حياة على سطح المريخ؟ هل يكفي أن يكون عند زيد اعتقاد صادق (صحيح) بوجود حياة على سطح المريخ؟ أيضاً لا. فالاعتقاد الصادق بحد ذاته لا يشكل معرفة، إذا لم يكن بإمكان صاحبه إقامة الدليل عليه. فقد يعتقد أحد الناس شيئاً ما، ويصدق أن يكون هذا الشيء صحيحاً، ولكن دون أن يكون عند هذا الشخص أي دليل على صحة ما يعتقده. فلا يكون عنده معرفة إذن. تخيل إنساناً يغمره فجأة احساس جارف بأن الطائرة التي تحمل ولده الوحيد قد تحطمت ومات كل من فيها. تخيل أيضاً أن تلك الطائرة تتحطم فعلاً، ولكننا لا نعرف هذا إلا بعد مضي فترة معينة. الآن، في تلك اللحظة التي يعتقد فيها صاحبنا بأن ولده قد مات، يكون ولده قد مات. وعليه يكون اعتقاده بموت ولده اعتقاداً صادقاً. ولكن هل يعرف هو، أو هل

نعرف نحن، أن ولده قد مات؟ لا فبغياب الدليل على تحطم الطائرة وموت من فيها، ليس عندنا سوى اعتقاد صدف أن كان صادقاً.

المعرفة، إذن، هي الاعتقاد الصادق المدعوم بالدليل. هذه هي العناصر الثلاثة التي تشكل باجتماعها المعرفة. ولكن الفلاسفة وأن اتفقوا على كونها جميعاً شروطاً ضرورية للمعرفة، إلا أنهم اختلفوا في طريقة فهمهم لهذه العناصر الثلاثة.

فما الاعتقاد؟ ما معنى أن يعتقد زيد أن المطر سوف يهطل؟ هل الاعتقاد مجرد نمط معين من السلوك الكلامي وغير الكلامي؟ نلاحظ أن زيداً يحمل «شمسية» ويلبس معطفاً، وينظر بين الحين والآخر إلى السماء. وإن سألناه عن حالة الطقس يقول: أن المطر سوف يهطل. أهذا هو ما يعنيه الاعتقاد، على نحو ما ينادي به دايل (- ١٩٠٠) وغيره من أنصار المدرة السلوكية (Behaviorism) (انظر (٤)) أم أن الاعتقاد عبارة عن علاقة بسيطة غير قابلة للتحليل تقوم بين الذهن (أو النفس) من جهة، والشيء المعتقد به من جهة أخرى، على نحو ما يقوله ديكارت (١٦٥٠)؟

وما الصدق (أو الصحة)؟ هل يمكن في التطابق بين الأقوال والوقائع، على نحو ما ينادي به أرسطو (٣٢٢ ق. م.) وأصحاب نظرية المماثلة بالواقع (   )؟ أم أن صدق قول من الأقوال، أو حتى صدق نظرية من النظريات يكمن في النجاح العملي، على نحو ما ينادي به أنصار النظرية البرجماتية (Pragmatism)؟ (انظر ٥).

وأخيراً، متى يقوم الدليل على صحة معتقد ما؟ يدعى أنصار الفلسفة التجريبية (Experimental)، مثل لوك (١٧٠٤) وهيوم (١٧٧٦) أن التجربة (Ex-periment) هي المصدر الأساسي للمعرفة، وإن الدليل لا يقوم على صحة قول ما، أو معتقد به إلا عندما تتوفر لدينا شواهد حسية أو تجريبية على صحة ذلك القول أو المعتقد. (انظر (٢)، حيث أن الوضعية المنطقية التي ينادي بها وايخنباخ في

هذا الكتاب كانت الوريث الشرعي، أو أحد الورثة الشرعيين لتجريبية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) أما دعاة الفلسفة العقلية (Rationalism) مثل ديكارت (١٦٥٠) وسبينوزا (١٦٧٧) ولايبنتس (٧١٦) فيرون أن المعرفة الحقة ذات مصدر عقلي، وليس ذات مصدر حسي أو تجريبي. ولذا نراهم يقرنون صفة المعرفة بالعلوم الرياضية والمنطقية، وبالمبادىء الميتافيزيقية الأساسية، حيث أن كل هذه (حسب ما يرون) تتسم بالوضوح واليقين ولا تعتمد على التجربة الحسية.

٤ ـ مبحث المنطق

نأتي الآن إلى المبحث الرئيسي الثالث الذي تطرح فيه الفلسفة أسئلة ذات طبيعة شاملة نحاول من خلالها أن نتجاوز النظرة الجزئية التي تتميز بها العلوم المختصة.

يبحث علم المنطق (Logic) في عملية فكرية ذات أهمية بالغة، كثيرة الشيوع في النشاط العلمي والفكري بشكل عام، وفي الحياة العملية أيضاً، وهي عملية بدونها يصعب تمييز الإنسان عن الحيوانات الدنيا. تلك العملية هي عملية الاستنتاج (Inference).

ماذا نعني بالإستنتاج؟ الاستنتاج هو استخلاص نتيجة (Conclusion) معينة من مقدمات (premise) معينة. بوسعنا أن نسمي هذه الأخيرة «معطيات» (Facts) وقد تكون عبارة عن معلومات أو حقائق حصل عليها الإنسان بطريقة ما (الملاحظة أو غيرها) أو قد تكون عبارة عن فرضيات (أقوال نفترض صحتها في حينه). كل هذا لا يهمنا كثيراً. ما يهمنا فقط هو أن نعرف متى يجوز لنا أن نستنتج نتيجة معينة من معطيات معينة ومتى لا يجوز لنا أن نفعل ذلك. (نلاحظ مرة أخرى الروح الشمولية الكامنة في كل هذا. فالاهتمام لا ينصب على عملية الاستنتاج من معطيات أو حقائق فيزيائية، أو رياضية أو اقتصادية، أو دينية، وإنما من «معطيات» بوجه عام، كانت تلك المعطيات ما كانت).

لنفترض أن انساناً ما حصل بطريق التجربة بالمعطيات التالية:

أ ـ نـزول المطر يؤدي إلى نمـو الزرع (أي: إذا نـزل المطر، فـإن الـزرع ينمو).

ب ـ لقد نمى الزرع.
هل يحق لهذا الإنسان أن يستنتج من كل هذا.

ج ـ لقد نزل المطر؟

لا، فهناك أسباب أخرى تؤدي إلى نمو الزرع، وما نـزول المطر إلا واحـد منهـا ربما ينمـو الزرع لأنـه زود بالمـاء بطريقـة أخرى، غيـر نزول المـطر. هذه المعطيات، إذن، لا تسمح باستخلاص تلك النتيجة.

قد يظن بعض الناس إن خطئاً منطقيـاً من هذا النـوع لا يستحق الكثير من الاهتمام، وإن علم المنطق نفسه لا يستحق الكثير من الاهتمـام إن كان كله على هذه الشاكلة، ولكن هذا الرأي بجانب الصواب مـرتين: فليس كل علم المنـطق على هذه الشاكلة، ولا يوجد هناك تجاوزات منطقية لا ينبغي الالتفات إليها.

لنتناول الأمر الثاني أولا، وفي ذهننـا المثل المذكور أعلاه عن نـزول المطر ونمـو الزرع. كيف يتم امتحـان فرضيـة علمية معينـة من أجل معـرفة مـا إذا كان يتوجب علينا قبولها أو رفضها؟ أول ما يفعله العلماء (على ما يبـدو) هو أن يقـرنوا بفرضيتهم تبعات تجريبية (Experimental results) تتحقق في حـالة كـون الفرضيـة صحيحة، ولا تتحقق في حالة كون الفرضية خاطئة. ثم بعد ذلك يسعون بواسطة التجربة لمعرفة ما إذا كانت التبعات التجريبية المتوقعة متحققة أم لا. فـإن كانت كذلك، اعتبرت الفرضيـة صحيحة. (للمـزيد من التفـاصيل، انـظر (٦) ص ص ١٣ ـ ٣٥).

يمكننا عرض الخطوات التي تنطوي عليها طريقة التفكير هذه كما يلي:

١ ـ إذا كانت الفرضية صحيحة، فإننا سوف نشاهد كذا وكذا.

٢ ـ إننا نشاهد كذا وكذا.

٣ ـ الفرضية صحيحة.

من الجلي أن استنتاج (٣) من (١) و (٢) يشبه إلى حد بعيد استنتاج (جـ) من (أ) و (ب). فالشكل المنطقي (Logical form)، أو الصورة، للاستنتاج في كلا الحالتين واحدة، وبوسعنا أن نمثلها هكذا:

( ) س ← ص (س تؤدي إلى ص).

( ) ص

( ) س.

وهذا النمط العام من التفكير غير سليم، حيث أنه يقترف مغالطة شائعة اسمها «مغالطة إثبات اللاحق».

فالذي يستنتج (جـ) من (أ) و (ب) يقترف نفس الخطأ الذي يقترفه من يستنتج (٣) من (١) و (٢). وعليه فإن ما في حالة (أ) - (ب) - (جـ) خطأ بسيطاً لا يستحق الكثير من الاهتمام ويبدو الآن في ثياب (١) - (٢) - (٣) خطأ فادحاً يهدد شروعية أحد المراحل الهامة في ما يسمى «بالطريقة العلمية»، ألا وهي مرحلة اختبار الفرضية.

لا توجد هناك تجاوزات منطقية لا تستحق الاهتمام، فتصحيح هذا التجاوز «البسيط» المتمثل في استنتاج (٣) من (١) و (٢) يتطلب منا أمراً يصعب تصديقه لأول وهله. إلا وهو إعلان بطلان الفكرة الشائعة التي مفادها أن العلماء يقومون «باثبات» نظرياتهم العلمية. فلا شيء أبعد عن الحقيقة من هذا القول. والسبب يرجع إلى كون جميع الاختبارات التي تجتازها النظرية العلمية تأخذ شكل ( ) - ( ) - ( )، وهو شكل غير مشروع يقترف مغالطة منطقية معروفة. لكن هذا بالطبع لا يعني أن الاختبارات التي توآزرها نظرية ما لا قيمة لها. فهي تدعم، ولكن لا تثبت، تماماً كما أن معرفتنا بأن الزرع لم يسق بطريقة اصطناعية يزيد من قناعتنا بأن المطر قد نزل، وإن لم يكن كافياً لاثبات ذلك بصورة قطعية.

هناك نوعان من الاستنتاج، أو طريقتان لاستخلاص النتائج من المعطيات. فهناك أولاً ما يدعي بالاستنباط (Deduction) ، حيث تتحدد مشروعية الاستنتاج في كون النتيجة لا تضيف أي جديد، أي أن مضمونها لا يخرج البتة عن مضمون المعطيات. (انظر (٣) من أجل دراسة هذا النوع من الاستنتاج). وهذا النوع من المشروعية هو ما كان بذهننا عندما افتقدنا الاستنتاجات التي تتم وفق قاعدة ( ) - ( ) - ( ). فالنتيجة هنا تأتي بشيء ليس متضمن في المقدمات، حيث أنه ليس من المستحيل أن تكون المقدمات كلها صحيحة وتكون النتيجة خاطئة بالرغم من ذلك. (قارن هذا مع من يستنتج نمو الزرع من نزول المطر وكون نزول المطر يؤدي إلى نمو الزرع. فهنا تستحيل أن تكون المقدمات جميعها صحيحة دون أن تكون النتيجة كذلك أيضاً).

ولكن دراسة علم المنطق لا تقتصر على الاستنباط، ولا على الحالات التي يبحث فيها الإنسان عن المشروعية الاستنباطية ( ). فهناك نوع آخر من الاستنتاج أكثر فائدة، وأكثر شيوعاً، وإن كان مفهوماً بدرجة أقل. ذلك هو الاستقراء ((Induction) حيث يتعمد الإنسان تجاوز المعطيات من أجل الخروج بنتيجة تضيف شيئاً جديداً إلى ما نعرفه. مثل الباحث الذي يجرب المرة تلو المرة عقاراً معيناً ويجد في كل مرة أن هذا العقار مفيد في محاربة ذلك النوع المعين من البكتيريا. وهذه النتيجة التي تتحدث عن ذلك النوع من البكتيريا في كل زمان ومكان، قد تم استخلاصها من عدد محدود من التجارب. فالتعميم بهذا الشكل السافر يعني تجاوز المعطيات، وهو شيء لم يكن ليسمح به، لو كان الاستنباط هو كل شيء. ولكن للاستقرار دون في العلم والحياة، كما للاستنباط دوره.

من الأهمية بمكان أن يدرك الإنسان ما يفعله عند الانتقال من المعطيات إلى النتائج. فهنا يكمن الفرق بين أن يكون الإنسان منطقياً في تفكيره أو غير منطقي، بين أن يكون الإنسان عقلانياً أو غير عقلاني. أما دور علم المنطق فهو دراسة وصياغة القوانين التي يترتب عليها أن تحكم عملية الانتقال هذه. ومن هنا

فإن له فائدة كبرى في شحذ القدرات العقلية، وفي جعل الإنسان أكثر استعداداً للتفكير النقدي.

٥ ـ مبحث القيم:

من أجل إدراك ما يدور البحث حوله في هذا المجال، ينبغي لنا أولاً أن نميز بين القيم (Values) والحقائق (Facts). وللوصول إلى هذه الغاية يتوجب علينا أن نفرق بين الأحكام الوصفية (Descriptive) التي يرتبط أمرها بالحقائق ارتباطاً وثيقاً، والأحكام القيمية (Value judgement) التي ترتبط بدورها بالقيم ارتباطاً وثيقاً.

لننظر إلى لوحة فنية معلقة على جدار. نقول أنها تصور الشروق (شروق الشمس)، وأن الناظر يرى فيها، بالإضافة إلى الشمس، أشجاراً وجبالاً وغيوماً. ونقول أن الفنان استعمل اللون الأصفر، والأخضر، والبني... الخ. ويمكننا أن نتحدث عن حجم اللوحة (طولها وعرضها) ونوع الورق المستعمل. وقد نرى في اللوحة المدرسة التي ينتمي إليها الفنان، فنقول أن هذه لوحة انطباعية Impress-ionistic) أو تكعيبية (Cubic)، أو غير ذلك.

كل ما تقدم من الأقوال (الأحكام) هو شيء، وأن نقول أن اللوحة جميلة، أو أنها ذات قيمة فنية عالية شيء آخر. فالأحكام التي أوردناها سابقاً هي أحكام وصفية، تصف الشيء، ولا تتعدى ذكر الحقائق المتعلقة به، تلك الحقائق التي (من الناحية النظرية، على الأقل) بوسع أي إنسان مطلع، وذو حواس سليمة، أن يدركها. أما أن نقول أن اللوحة جميلة، أو أنها رائعة فنية، فهذا تقييم (إعطاء قيمة للشيء) وليس وصفاً.

بالطبع، ليس الفن هو المجال الوحيد الذي تطرح فيه أحكام قيمية. فأفعال البشر التي يقومون بها بمحض حريتهم وإرادتهم هي في الكثير من الأحيان عرضة للتقييم الأخلاقي. يقوم زيد مثلاً بإزالة حجر من الطريق، فنقول أن هذا عملاً خيراً، ونكون بهذا قد قيمنا الفعل، أي نسبنا إليه قيمة أخلاقية

معينة، هي قيمة الخير. ولكن إذا اقتصر حديثنا عن الفعل على القول بأنه كان عبارة عن إزالة حجر من الطريق، أو أنه حدث في المكان الفلاني، والزمان الفلاني، أو أنه كان فعلاً متعباً (أو غير متعب)، فكل هذا يدخل في إطار الوصف القائم على ذكر الحقائق، وليس التقييم.

بالإضافة إلى قيمة الخير، هناك قيم أخلاقية أخرى تنسب إلى الأفعال، كان نقول أن فعلاً ما يتسم بالعدل، أو أنه واجباً. وبالإضافة إلى قيمة الجمال، يوجد هناك قيم فنية أخرى على نحو نطّلع عليه عندما نقرأ نصوصاً في النقد الأدبي، أو التذوق الموسيقي، أو «علم الجمال» (Aestetica) .

ما الذي تبغي الفلسفة الوصول إليه في مبحث القيم؟ أشياء كثيرة، لربما كان أهمها وأعمها هو تبيان العلاقة أو العلاقات القائمة بين الأحكام الوصفية والأحكام القيمية، بين ما يمكن تسميته بعالم الحقائق وما يمكن تسميته بعالم القيم. فلا أحد يصدق أن هذين العالمين منفصلين تماماً عن بعضهما بعضاً. فما إذا كان فعل ما فعل خيراً أو شريراً قد يعتمد جزئياً، على الأقل، على النتائج أو الآثار المباشرة أو غير المباشرة المترتبة على الفعل، بالإضافة إلى الدوافع التي دفعت الفاعل إلى الفعل (إنما الأعمال بالنيات). وهذه أمور تقع ضمن عالم الحقائق، وإن كان ليس دوماً من السهل اكتشافها أو معرفتها، مثل النوايا التي يضمرها الإنسان، أو الآثار المستقبلية التي لا يمكن التنبؤ بها. وما إذا كانت لوحة فنية تقسم بالجمال، أو عكسه، يعتمد إلى درجة معينة على الحقائق المتعلقة بألوانها وخطوطها وما يتشكل من هذه وتلك. وهذا (مرة أخرى) يدخل ضمن عالم الحقائق، ذلك العالم الواقعي الموضوعي، القابل للدراسة العلمية، والمفتوح لكل من له حواس سليمة يبصر بها ويسمع.

ولكن مع اقتناعنا بوجود علاقات بين عالم الحقائق وعالم القيم، إلا أنه ليس من السهل تحديد طبيعة هذه العلاقات. فلقد اختلف الفلاسفة منذ القدم على نوع الحقائق المعنية، وطبيعة العلاقة بينهما وبين القيم. وبالتالي فقد اختلفت مفاهيمهم ومذاهبهم، كما بوسعنا أن نرى من خلال الحديث عن بعض

المفاهيم والمذاهب التي تدرس في ذلك الفرع من الفلسفة، والمدعو بـ علم الأخلاق (Ethics) . (انظر ٣، حيث يجد القارىء نقاشاً موسعاً للمذاهب المذكورة هنا وغيرها) .

هناك أولاً المذهب النفعي (Utilitarianism) الذي نادى به بنثام (١٨٣٢) ومن بعده جون ستيوارت مل (١٨٧٣). يربط هذا المذهب بين كون فعل ما فعلا خيراً وبين كونه يحقق قدراً من المنفعة. ويوجد بالطبع للاعتقاد بوجود رابطة بين الخيز والمنفعة ما يدره. فنجن كثيراً ما نحكم على فعل ما بأنه فعل خير على ضوء المنفعة أو المنافع التي نعتقد بأنها تترتب على ذلك الفعل ـ كالذي يزيل حجراً من طريق الناس، أو كالذي يتصدق بماله على الفقراء والمحتاجين، إلى غير ذلك من الأمثلة التي يسهل ذكرها.

على أنه يتوجب على كل من يؤمن بهذا المذهب أن يبين أموراً عديدة. منها على سبيل المثال، طبيعة المنفعة التي نتحدث عنها، وما إذا كانت كل المنافع متساوية من ناحية القيمة ـ سواء أكانت منافع حسية جسدية، كالمنفعة المترتبة على تناول وجبة طعام، أو روحية نفسية، كالمنفعة المترتبة على قراءة ديوان شعر. كما يتوجب على من ينادون بالمذهب النفعي أن يبينوا كيف يتم قياس المنفعة، والمفاصلة بين فعلين يترتب على كل واحد منها منافع وأضرار، كفتح طريق عام في هذا المكان أو ذاك، حيث يترتب على كلا الخيارين منافع لبعض الناس وأضرار تلحق بالبعض الآخر.

يقف مذهب الفيلسوف الألماني كانت (١٨٠٤) (انظر ٥) على طرف النقيض من المذهب النفعي، ومن كل المذاهب التي تقرن القيمة الأخلاقية للأفعال بالنتائج المترتبة عليها. فالكذب، حسب ما يرى كانت، عمل غير أخلاقي، حتى ولو ترتب عليه الكثير من «المنفعة» كما يحدث في بعض الأحيان (قد يكذب الطبيب على مريضه، بقصد رفع معنويات هذا الأخير، مما يؤدي في النهاية إلى مساعدته في الشفاء). وبالمقابل، فإنه يتوجب على الإنسان قول

الصدق حتى ولو أدى ذلك إلى هلاكه وهلاك كثير من الناس الأبرياء. بم ترتبط أخلاقية الفعل إذن؟ فقط بكونه يتم بموجب قاعدة تصلح أن تكون قانوناً عاماً لجميع الناس؟ فنحن إن كذبنا حين ينفعنا الكذب، فإننا لا نستطيع بشكل منطقي أن «نعمم» هذه القاعدة ونقول «ليكذب كل من يحقق له كذبه نفعاً». فهذا من شأنه أن يحدد الكثير من المعاملات الاجتماعية الأساسية كإعطاء العهود والوعود، وغير ذلك.

وأخيراً، فقد شهد القرن الحالي تعدداً كبيراً في المذاهب الأخلاقية. فذكر منها المذهب الذي اقترن بالوضعية المنطقية، واستحوذ على الكثير من الاهتمام. يقول أنصار هذا المذهب (أنظر ٢، ص ص ٢٤١ - ٢٦٤) أن الألفاظ القيمية مثل «خيّر» «عادل»، أو «شرير» لا تشير إلى أي معنى معرفي (Cognitive meanings)(أي أنها لا تفيد الوصف، ولا تذكر حقائق)، وإنما القصد منها التعبير عن إحساس المتكلم، والتأثير على المخاطب بشكل يجعله يشاطر أحاسيس المتكلم. فيكون معناها إذن تعبيرياً (Expression) وأدائياً (Performative). ولهذا السبب يدعى هذا المذهب الأخلاقي باسم (Expressionist) والتي يمكن ترجمتها إلى «التعبيرية». مثلاً إذا قال قائل «من ساعد المحتاجين فقد فعل خيراً» فإن هذا لا يعدو قوله «حبذا مساعدة المحتاجين وليتك (أيها المستمع) تشاركني هذا الإحساس».

هذه ثلاثة من المذاهب الأخلاقية المشهورة. ويوجد غيرها الكثير، لا مجال لذكره هنا.

٦ ـ أهمية الفلسفة:

ها نحن قد استعرضنا مجموعة من الأسئلة التي تطرحها الفلسفة في عدة مجالات. وقد رأينا أن الصبغة العامة لهذه الأسئلة هي الصفة الشمولية. فنحن نريد أن نعرف الأصناف الأساسية للموجودات بشكل عام، والعلاقات بينها، ونريد أن نعرف قيم تكمن الحقيقة (أو الصدق) بغض النظر عن المجال الذي

تتحقق فيه. ونريد أن نعرف متى يسلك الفكر نهجاً سليماً، كائناً ما كان ذلك المجال الذي يعمل فيه الفكر، إلى غير ذلك.

ولكن السؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن الآن هو: وما أهمية كل هذا؟ هل هناك من فائدة ترتجي منه، أم أنه مضيعة للوقت؟ للإجابة على هذه الأسئلة، قارنها بأسئلة مثل: لم يستعمل الإنسان بصره وعقله؟ يستعمل الإنسان بصره لكي يرى الطريق مثلاً، فلا يقع في واد سحيق. ويستعمل عقله لكي يفهم الأشياء، ومن ثم يجعلها تخدم مصلحته، كالعالم الذي يكتشف علاجاً لمرض معين، أو طريقة لتحسين محصول زراعي. ولكن الأمر لا يقتصر على هذا فقط. فاستخدام البصر متعة بحد ذاتها، حتى ولو لم يتعلق الأمر برؤية الطريق، كالإنسان الذي يستمتع بالنظر إلى منظر طبيعي خلاب، أو إلى السماء الممتلئة بالنجوم. وكل طالب نجح في حل مسألة رياضية أو هندسية أو منطقية بعد كثير من الجهد، وشعر بسعادة من جراء ذلك، يعرف أن في استعمال الإنسان لعقله متعة، حتى لو لم يقد ذلك إلى منافع مادية محسوسة.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالفلسفة. فهي ثمرة من ثمار استعمال الإنسان لعقله. وليس هناك حضارة من حضارات البشر، وصل فيها الذهن مرحلة متقدمة من النضوج، ولم تقدم إسهاماً في الفلسفة. فالفلسفة ليست إلا محاولة عقلية لفهم العالم، وفهم الإنسان، وطالما يوجد هناك عقل فإن المحاولة ستبذل. وهذا الأمر حتمي تماماً مثل حتمية وجود الشعر والموسيقى في حياة الأمم والشعوب. لم يبين أبداً جسر أو مستشفى بواسطة الشعر، ولم تملأ الموسيقى معدة خاوية بالطعام. ولكن هذا لم يمنع البشر من كتابة الشعر وتأليف الموسيقى. فهذان الأمران هما جزءان من إنسانية الإنسان. وكذلك الفلسفة. فالإنسان، كما قال أرسطو قديماً، بطبعه يحب المعرفة، وما الفلسفة إلا محاولة للذهاب بالمعرفة إلى أبعد حدودها، متجاوزين بذلك المعرفة الجزئية التي تتميز بها العلوم.

ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن «فائدة الفلسفة». فللفلسفة دور أكثر

اتصالاً بالحياة. ويظهر هذا الدور من خلال الأنظمة السياسية والفلسفات الاقتصادية والحركات الاجتماعية التي نعيش في خضمها، أو تلك التي نستشعر أثرها على الرغم من وجودها في أنحاء من العالم بعيدة عنا. فالأنظمة السياسية الليبرالية الغربية، بفلسفتها الاقتصادية الرأسمالية، والأنظمة الشيوعية، بفلسفتها الماركسية، والدساتير، والأحزاب بعقائدها المختلفة، كل هذه، لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى الخلفيات الفلسفية التي ترتكز عليها. فالفلسفة إذن تؤثر علينا في حياتنا اليومية شئنا أم أبينا. هذا على الرغم من أن أثرها قد يكون غير مباشر.

«قصر النظر» الفكري (وهذه علة تساعدنا الفلسفة على التخلص منها) فقط قد يجعلنا نظن أن العلوم التطبيقية كالطب والهندسة والفيزياء هي وحدها العلوم «المفيدة» والجديرة بالاهتمام. فالمعارف كلها، على اختلاف أنواعها، ترتبط ببعضها بعضاً، ولكل الأفكار دور في الحياة، على الرغم من أن دور بعضها قد يكون مباشراً أكثر من دور بعضها الآخر. فكم من فكرة نظرية بحتة، دون تطبيق عملي ظاهر، وصل إليها الإنسان مدفوعاً بفضوله، وحبه للمعرفة من أجل المعرفة فقط، ثم تبين فيما بعد وجود تطبيقات وفوائد كثيرة لها.

أسئلة لمراجعة ومناقشة الفصل الثالث عشر :

١ ـ كيف تعرّف مفهوم الفلسفة؟
٢ ـ لماذا نقول أن لكل من العلوم فلسفته الخاصة؟
٣ ـ ماذا نعني بمفهوم الوجود؟
٤ ـ ما هي مكونات هذا الوجود؟
٥ ـ ما الفرق بين المعرفة والعقيدة؟
٦ ـ ماذا نعني بمفهوم التجريب في المعرفة؟
٧ ـ بماذا يبحث علم المنطق؟
٨ ـ ما الفرق بين المقدمة والنتيجة؟
٩ ـ ما الفرق بين المقدمات والمعطيات؟
١٠ ـ لماذا الفلسفة مهمة؟

المراجع العربية

١ ـ إبراهيم (زكريا). **مشكلة الفلسفة**. (مكتبة مصر. دون تاريخ).

٢ ـ رايخنباخ (هانز). **نشأة الفلسفة العلمية**. ترجمة فؤاد زكريا. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩).

٣ ـ السريانوس (محمد أحمد مصطفى). **التعريف بالمنطق الرياضي**. (الاسكندرية : دار ١٩٧٨).

٤ ـ الغزالي (أبو حامد). **تهافت الفلاسفة**. (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٢).

٥ ـ كانط (عمانوئيل). **المبادىء الأساسية لميتافيزياء الأخلاق**: ترجمة حكمت حمصي. (حلب: دار الشرق، ١٩٦١).

٦ ـ همبل (كارل). **فلسفة العلوم الطبيعية**. ترجمة سامر عبد الجبار المطلبي. (وزارة الثقافة والاعلام العراقية. دون تاريخ).

المراجع الأجنبية

1 - Alexander, H.G. The Leibniz - **Clarke, Correspondence.** (Manchester: Manchester University Press, 1956).

2 - Augustine. **Confessione.** **(Penguim Boots, 1961).**

3 - Feldman, F. Introductory Ethics. (Englewood Cliffs: Prentice Hall, Inc. 1978).

4 - **Ryle, G. The Concept of Mind** (Penguin Book, 1963).

5 - Thayes, H.-S. **Pragmatism: The Classic Writings.** (New York: Mentor Boots, 1970).

المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

التربية

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر